

سيرة الرسول ﷺ

صور مقتبسة من القرآن الكريم

تأليف الأستاذ
محمد عزة دروزة

الجزء الثاني

عني بهذه الطبعة ونظم صورها
خادم العام
عبد الله بن إبراهيم الانصاري

منشورات المكتبة العصرية
طيدا - بيروت

عهد السيرة النبوية المديني

محتويات هذا القسم

- ١ — تمهيد
- ٢ — فصل في أدوار وسير انتشار الدعوة في العهد المديني وصور متنوعة للمسلمين فيه .
- ٣ — فصل في اليهود .
- ٤ — فصل في النصارى .
- ٥ — فصل في المنافقين .
- ٦ — فصل في الجهاد .
- ٧ — فصل في التشريع .

تمهيد

عهد الإسلام في المدينة سابق للهجرة - ظروف نشأته - مواكب المهاجرين
تسبق النبي - بدء العهد المدني من السيرة النبوية - ماذا يعني القرآن المدني - حيزه
بالنسبة لمجموع القرآن وميزاته البارزة - أسلوبه ومغزاه - القرآن المكي يحتوي
مبادئ الإسلام والقرآن المدني يثبتها ويوسعها - استعراض أحداث العهد المدني
حسب مواضعه بسبب تداخل المواضيع القرآنية - ثبت في أسماء وترتيب تزول
السور المدنية - تنبيه في صدد ترتيب السور المدنية - فصول العهد المدني .

الصورة الأولى

إن عهد الإسلام في المدينة قد بدأ في الحقيقة قبل الهجرة النبوية ؛ إذ ثبت من
الروايات التي لا يكاد يكون خلاف في جوهرها^(١) أن النبي صلى الله عليه وسلم اتصل
قبل سنتين من هجرته بجماعة من الخرج فدعاهم إلى الإسلام كما كان يفعل مع وفود
العرب في موسم الحج ، وكانوا يسمعون من اليهود في المدينة بشارات عن النبي العربي
الذي أظلم وقت بعثته ، وزهواً بأنه سيكون معهم على غيرهم ؛ فقال بعضهم لبعض :
تعلمون والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه ! فأجابوه إلى مادعاهم ، وقبلوا
الإسلام . وقالوا له إننا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ،
وعسى الله أن يجمعهم بك ؛ وإلى هذا انطوت الإشارة في بعض آيات سورتي آل عمران
والأنفال هذه :

١ — وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا . . .

آل عمران ١٠٣

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ٣١ وبعدها وابن سعد ج ١ ص ٢٠٠ وبعدها وتاريخ الطبري ج ٢
ص ٨٢ وبعدها . والمصادر الثلاثة متطابقة إجمالاً فيما أوردته في صدد اتصالات النبي صلى الله عليه وسلم بأهل
المدينة وهجرته وهجرة أصحابه إليها .

٢ — وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَنْصَرِهِ
وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَاللَّفَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ
بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . . .

الأنفال ٦٢ - ٦٣

ثم انصرفوا إلى بلدهم ، وعرضوا الأمر على قومهم فارتاحوا ووافقوا ؛ فلما كان
العام التالي وافى الموسم جماعة من الأوس والخزرج معاً ، فاجتمعوا إلى النبي صلى الله
عليه وسلم في مكان يعرف بالعقبة ، وبايعوه على الإسلام ومبادئه ؛ وقد أرسل معهم
قارئاً يعلمهم القرآن وأركان الصلاة ويؤمهم فيها ، فأخذ الإسلام يفسو في المدينة ؛ وفي
الموسم التالي جاء وفد كبير من الأوس والخزرج فاجتمع النبي به وطلب منه البيعة على أن
يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم إذا هو خرج إليهم ، فبايعوه ، وتسعى هذه البيعة
بيعة العقبة الثانية الكبرى ، وطلب بعضهم منه عهداً بالألا يدعهم إذا أظهره الله فيرجع إلى
قومه بعد أن يكونوا قد قطعوا حبائهم مع حلفائهم ؛ فهتف بهم قائلاً : بل الدم الدم
والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسلم من سلمتم . ثم اختار
منهم اثني عشر زعيماً فسماهم بالنقباء على بطون قبائلهم ، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة
من الأوس ، وقد أخذت مواكب المهاجرين من مكة تتحرك إلى المدينة بعد ذلك
تاركين وطنهم وأموالهم في سبيل الله - على ما ذكرناه في مبحث محنة الأذى والفتنة
في الجزء الأول - فاستقبلهم أهل المدينة بالترحاب العظيم . ولقد احتوت إحدى آيات
سورة الحشر إشارة إلى ما كان من تقدم عهد الإسلام في المدينة على الهجرة ، وما كان
من ترحاب أهلها بالمهاجرين السابقين كما ترى فيها :

« وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا
يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . . . »

إذ احتوت صراحة خبر إيمان أهل المدينة وعدم بلدهم دار هجرة للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين قبل أن يأتوا من مكة ، مع احتوائها الثناء العظيم على ما كان من إقبالهم على الإسلام بالرضا والطمأنينة ، ومن جعلهم مدينتهم التي نورها الله بالهجرة النبوية وجعلها مشرق شمس الدعوة الإسلامية - دار هجرة للنبي والمسلمين ، ومن ترحيبهم بالمهاجرين هذا الترحيب المادي والمعنوي الرائع .

وقد سماهم الله في القرآن بالاسم المحبب الكريم وهو « الأنصار » كما جاء في الآية التالية :

« وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ . »
التوبة ١٠٠

ويُلفت النظر إلى جملة « والسابقون الأولون » إذ احتوت تنويعاً بالرعيل الأول منهم الذين أقبلوا على الإسلام واندمجوا فيه ، وبايعوا النبي على نصرته والدفاع عنه في ظرف كان النبي والمسلمون فيه في حالة ضعف وضيق ، وكان أعداؤهم أقوياء ألداء ، دون أن يبالوا ما يجره عليهم عملهم من مشاكل وإحن ؛ وهو عمل يستحق كل إكبار وإجلال .

أما عهد السيرة النبوية المدني فقد بدأ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد سنتين من اتصاله بأهلها ، وفشو الإسلام فيهم ، وهجرة من تمكن من الهجرة من أصحابه إليها ، بالظروف والكيفية التي شرحناها في مبحث محنة الفتنة والأذى مما لا حاجة إلى إعادته .

الصَّوْرَةُ الثَّانِيَّةُ

وكما يمثل القرآن المكي العهد المكي ؛ فإن القرآن المدني يمثل العهد المدني بطبيعة الحال . وننبه في هذا الصدد إلى أن هذه الصفة تشمل كل ما جرى من أحداث نبوية بعد الهجرة ولو لم تقع في نفس المدينة ، كما تشمل كل ما نزل من قرآن بعدها ؛

إذ نزلت آيات في طريق الهجرة ، وفصول وآيات في أثناء الغزوات خارج المدينة ، وفصول وآيات في مكة أو في جوارها حين خرج النبي إليها معتمراً مرة وفاتحاً مرة وحاجاً مرة .

والقرآن المدني هو نحو ثلث القرآن عدد آيات ، وأكثر من ثلثه حيناً وعدد أجزاء ، ونحو رבעه أو أكثر قليلاً عدد سور ، على اختلاف في مكينة ومدنية بعض هذه السور .

وله هو أيضاً مميزات بارزة تختلف اختلافاً غير يسير عن القرآن المكي :
١ - فآيات القرآن المدني في الجملة أطول من آيات القرآن المكي ، كما أن السجع فيها يقل بل يندر .

٢ - وليس فيه ذلك الإسهاب في القصص ، ووصف الجفة والنار ، ومشاهد القيامة ، إذ اقتصر الأمر في هذا وذاك على الإشارة إليها والتذكير والوعد والوعيد بها .

٣ - وقد احتوى حملات شديدة على اليهود المعاصرين ، وأخلاقهم ومواقفهم الماكرة الجاحدة وحجاجهم ، كما احتوى شيئاً من الحملة على النصارى وانحرافاتهم .

٤ - وكذلك احتوى حملات شديدة على المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأضمرُوا الكفر ، ووقفوا من النبي والحركة الإسلامية مواقف ماكرة مزعجة .
٥ - وفيه فصول عدة في الدعوة إلى الجهاد ووقائعه .

٦ - وقد احتوى فصولاً تشريعية وتقنينية وتعليمية وتأديبية في مختلف النواحي . وتبدل أسلوب الحث والتشجيع في الشؤون الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الذي هو الغالب في القرآن المكي ، إلى أسلوب الأمر والفرص في الإجمال .

٧ - ومما احتواه القرآن المدني فصول عدة عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية ، مما لم يرد شيء عنه تقريباً في القرآن المكي .

٨ - ومع أنه لم يخل من فصول جدلية ، أو حملات على الكفار فإن أسلوب هذه الفصول والحملات ، وكذلك أسلوب الفصول والحملات على اليهود والمناقين ومرضى القلوب ، يصطبغ في الإجمال بأسلوب القوي العزيز ، الذي أمكنته الفرصة من نفسها ليظهر البيئة من الأدران والانحرافات والمكر والدسائس ، وضمانة الحرية الدينية ، وإعلاء كلمة الله ، وتقرير ما ينبغي أن يكون عليه الكيان الإسلامي سياسيا واجتماعيا مما هو متسق مع تطور الدعوة وانتشارها ورسوخها ، وتطور مركز النبي والمسلمين بالتبعية من الضعف إلى القوة ، ومن القلة إلى الكثرة ، ومن القلق إلى الاستقرار ، ومن الخوف إلى الأمن ، مصداقا لوعد الله في هذه الآية :

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ... »

النور ٥٥

وإلى هذا التطور يرجع كذلك ما ذكرناه من تبدل الأسلوب في البند السادس كما هو المتبادر .

وننبه إلى أمر مهم : وهو أن ما كان من تطور تشريعي وتعليمي وتاديب في مختلف النواحي ، وما كان من تطور في موقف النبي والمسلمين ، وما كان لهذا التطور من نتائج ، ثم ما كان من تطور أسلوب في القرآن - لم يكن ليخرج في جوهره ومداه وخطوطه الأساسية عن مبادئ وأهداف الدعوة المتنوعة التي رسمت في القرآن المبكي ، مما سوف نعود إليه بشيء من الإسهاب في فصل التشريع .

الصورة الثالثة

والفصول القرآنية المدنية في المواضيع المتنوعة متداخلة بحيث يوجد شيء من كل موضوع في مختلف أدوار التنزيل المدني ، شأنها في ذلك شأن الفصول المسكية

ومواضيعها ؛ ولذلك جرينا في استعراض صور العهد المدني وأحداثه على الطريقة التي جرينا عليها في عرض صور وأحداث العهد المكي ، أي على حسب المواضيع مع ملاحظة ظروف وأدوار صور المواضيع الزمنية بقدر ما يمكن أن تلهم الآيات ويستأنس به من الروايات أولاً ، ومن ترتيب نزول السور ثانياً ؛ كما فعلنا في صور ومشاهد العهد المكي .

وقد رأينا أن نضع هنا أيضاً ثبثاً بأسماء السور المدنية على حسب ترتيب نزولها في مختلف الروايات والتراتب كما فعلنا في السور المكية ، ليستعين به القارئ على ملاحظة أدوار الصور والمشاهد ، وهذا هو الثبت :

ترتيب النزول

أسماء السور	جابر بن زيد	ابن عباس	الحسين وعكرمة	السيوطي	جمع البيان	المازني	مصحف ثؤاد	المصحف	أسماء السور	جابر بن زيد	ابن عباس	الحسين وعكرمة	السيوطي	جمع البيان	المازني	مصحف ثؤاد	المصحف
البقرة	١	١	٢	١	١	١	١	٢	الحشر	٩	١٥	١٧	١٥	١٥	١٥	١٥	٥٩
الأنفال	٣	٢	٤	٢	٢	٢	٢	٨	النور	٨	١٧	١٩	١٧	١٧	١٩	١٩	٢٤
آل عمران	٢	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	الحج	٩	١٨	٢٠	١٨	١٨	٢٠	٢٠	٢١
الأحزاب	٤	٤	٥	٤	٤	٤	٤	٣٣	المنافقون	١٠	١٩	٢١	١٩	١٩	٢١	٢١	٦٣
المتحنة	٦	٥	٧	٥	٥	٥	٥	٦٠	المجادلة	١١	٢٠	٢٢	٢٠	٢٠	٢٢	٢٢	٥٨
النساء	٥	٦	٨	٦	٦	٦	٦	٤	الحجرات	١٢	٢١	٢٣	٢١	٢١	٢٣	٢٣	٤٩
الزلزلة	٧	٧	٩	٧	٧	٧	٧	٩٩	التحریم	١٣	٢٢	٢٤	٢٢	٢٢	٢٤	٢٤	٦٦
الحديد	٨	٨	١٠	٨	٨	٨	٨	٥٧	التغابن	١٥	٢٤	٢٧	٢٤	٢٤	٢٧	٢٧	٦٤
محمد	٩	٩	١١	٩	١٠	٩	٩	٤٧	الصف	١٦	٢٥	٢٥	٢٥	٢٥	٢٥	٢٥	٦١
الرعد	١٠	١٠	١٢	١٠	١٠	١٠	١٠	١٣	الجمعة	١٤	٢٣	٢٦	٢٣	٢٣	٢٦	٢٦	٦٢
الرحمن	١١	١١	١٣	١١	١٢	١١	١١	٥٥	الفتح	١٥	٢٦	٢٨	٢٢	٢٢	٢٨	٢٨	٤٨
الإنسان	١٢	١٢	١٤	١٢	١٢	١٢	١٢	٧٦	المائدة	٥	٢٧	٢٧	٢٧	٢٥	٢٧	٢٧	٥٢
الطلاق	١٣	١٣	١٥	١٣	١٣	١٣	١٣	٦٥	التوبة	٦	٢٨	٢٩	٢٨	٢٧	٢٩	٢٩	٩
البينة	١٤	١٤	١٦	١٤	١٤	١٤	١٤	٩٨	النصر	٧	١٦	١٨	١٦	١٦	١٨	١٨	١١٠

١ - الإشارة «؟» تعني عدم ورود اسم السورة في الترتيب .

٢ - سورة الإنسان في مجمع البيان مكية ورقمها ٦٤ .

٣ - سورة المطففين في عكرمة والحسين مدنية ورقمها ١ .

٤ - البينة والزلزلة والإنسان والتغابن والصف والرحمن والحج والرعد والحديد مما

ورد زوايات بمكيتهما ، والصف والحديد لا تتحملان هذا البتة ، والزلزلة والإنسان والرحمن والحج تتحمله مع الرجحان ، والبينة والتغابن يمكن أن تتحملاه ولكن مدنيتهما تبدو هي الراجحة .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

وننبه إلى نقطة مهمة ، وهي أن التجوز في ترتيب نزول السور المدنية أكثر منه في ترتيب نزول السور المكية ؛ والراجع أن روايات الترتيب مستمدة من روايات نزول الفصل الأول أو الفصول الأولى من السور ؛ وخاصة بالنسبة للطويلة منها . فوحدة الموضوع في السور المكية ، وتناسب فصولها ، واتساق الأثر في النظم - يسوغ القول أن السور التي يحتمل ألا تكون قد نزلت مرة واحدة قد تلاحت فصولها بحيث يصح الترجيح بأنه لم ينزل فصول من سورة أخرى قبل أن تكون فصول السورة السابقة قد تلاحت وكملت ، في حين أن هذا لا يطرد بالنسبة لكثير من السور المدنية ، فالسور الطويلة منها قد تعددت فيها المواضيع وتنوعت ، وفي بعضها دلالات على أن بعض فصول وآيات سورة متقدمة في ترتيب النزول قد نزلت بعد فصول وآيات سورة متأخرة ، وبالعكس ؛ ومع أن هذا يبرز في السور الطويلة أكثر فإنه يلاحظ في بعض السور المتوسطة ، بل القصيرة أيضاً .

ومع ذلك فإنه ليس من العسير تمييز ذلك ، كما أن هذا لا يعطل إمكان الانتفاع من ترتيب نزول السور المدنية بالمرّة ، ولا يجرحها بالمرّة من حيث الإجمال .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

أما فصول العهد المدني فهي هذه :

١ - سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية .

٢ - اليهود في العهد المدني .

٣ - النصارى في العهد المدني .

٤ - المنافقون في العهد المدني .

٥ - الجهاد وسيره ونتائجه .

٦ - التشريع القرآني المدني ومداه .

وواضح من هذا أن هذه الفصول هي أبرز موضوعية من فصول العهد المكي ؛ مما هو متسق مع طبيعة هذا العهد التي أشرنا إليها قبل ، والتي سنزيدها إيضاحاً في سياق كل فصل .

فصل

في أدوار وسير انتشار الدعوة الإسلامية
في العهد المدني

تمهيد

قد لا يكون في القرآن المدني - باستثناء سورة النصر التي نزلت بعد الفتح ونصت بصراحة على دخول الناس في دين الله أفواجا - ما فيه صراحة تساعد على تجلية سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية في العهد المدني ، غير أن من الممكن تبين ذلك إلى درجة غير يسيرة من الآيات والفصول القرآنية التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل المدني ، في صدد أحداث ذلك العهد ووقائعه التي سوف نستعرضها في فصولها الخاصة . أما حالة المسلمين الخاصة والعامة في هذا العهد ، ففي القرآن المدني من الآيات ما يمكن اقتباس جملة صالحة من الصور لها .

وستكون مباحث هذا الفصل مقصورة من ناحية على سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية بين العرب دون الكتابيين ، ومن ناحية على صور المسلمين دون المنافقين أولاً ، وعلى الصور التي لا تتصل بحركة الجهاد وسير التشريع ثانياً ؛ لأن كل هذا سيأتي في فصوله الخاصة . وهكذا تكون مباحث الفصل كما يلي :

١ — سير وأدوار انتشار الدعوة في منطقة مكة وما وراءها .

٢ — » » » » » منطقة المدينة

٣ — » » » » » المناطق الأخرى .

٤ — صور متنوعة للمسلمين في العهد المدني .

المبحث الأول

سير انتشار الدعوة في منطقة مكة وما وراءها

استمرار موقف الجحود في منطقة مكة بوجه عام إلى صلح الحديبية - احتمال انضمام بعض قبائل هذه المنطقة للإسلام نتيجة لهذا الصلح - حوادث التحالف وإسلام فردية قبل هذا الصلح - انضمام الأشعرين إلى الإسلام بعد هذا الصلح ومغزاه - فتح مكة وتدين أهلها بالإسلام وتناجيه الحاسمة في انتشار الدعوة في منطقتها وما وراءها .

الصورة الأولى

يمكن أن يقال استدلالاً من أحداث العهد المدني وما كان من عدااء ونضال مستمرين بين النبي والمسلمين من جهة وأهل مكة من جهة أخرى مما احتوى القرآن المدني إشارات عدة إليه ، إن أهل مكة ومن ظل متأثراً بموقفهم الجحودي والعدائي - وخاصة من كان في منطقتهم من قرى وقبائل - قد ظلت أكثريتهم الساحقة جاحدة منقبضة عن الاستجابة إلى الدعوة إلى أن فتحت مكة ودانت للإسلام ، أي إلى السنة الثامنة بعد الهجرة .

يدل على هذا ما كان من تجمع قريش وحلفائها من القبائل العربية ، وزحفهم على المدينة في السنة الهجرية الخامسة ، وهو الزحف العظيم الذي عرف بوقعة الخندق أو الأحزاب ، والذي كان امتداداً لحالة الحرب القائمة بين أهل مكة والنبي صلى الله عليه وسلم ، والتي وقع بسببها اشتباكات يسيرة وكبيرة أهمها وقعتا بدر وأحد . ولقد كان المكيون في وقعة أحد في موقف المنتصر ، فرأوا على ما يبدو أن يدعوا إلى حركة زحف كبرى يشترك فيها معهم كل من والاهم وتأمر معهم من حلفاء وأحزاب ليضربوا الضربة القاضية ؛ ودخل في المؤامرة يهود المدينة أيضاً ؛ وقد كان عدد الجيوش الزاحفة نحو عشرة آلاف في حين كان عدد المدافعين عن المدينة نحو ثلاثة آلاف ، فيهم عدد غير قليل من المنافقين الذين اشتركوا في الدفاع والتهبؤ له بسائق العصبية والمصلحة الوطنية والقبلية المشتركة .

ولم يتبدل الموقف إجمالاً بعد ارتداد الأحزاب عن المدينة بغيظهم دون أن ينالوا خيراً كما ذكرت ذلك إحدى آيات الأحزاب ؛ لأن حالة الحرب والعداء ظلت قائمة إلى ما بعد سنتين تقريباً ، أي إلى أن انعقد صلح الحديبية في أواخر السنة السادسة ؛ وهو الصلح الذي نزلت فيه سورة الفتح .

ومما يجدر التنبيه إليه أنه لم يرد في الروايات ما يفيد أن جماعة من الناس ممن كان وراء مكة من أهل المناطق الساحلية والجنوبية والشرقية في الجزيرة قد التحقت بالإسلام وبادار الهجرة قبل هذا الصلح ، غير أن الروايات ذكرت أن هذا الصلح انتهى - فوق وقف حالة الحرب - إلى تخيير بعض القبائل الساكنة في منطقة مكة في الانضمام إلى الفريق الذي يرغبون ، وقد انضمت خزاعة إلى النبي ودخلت في عهده وصلحه ، في حين انضم بنو بكر إلى أهل مكة لما كان بين القبيلتين من عداوة . وليس من المستبعد إن لم نقل إنه من المرجح أن تكون قبيلة خزاعة قد انضمت إلى النبي عهداً وإسلاماً .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

إذا كان هذا هو حال الغالبية إلى وقت ذلك الصلح ، والذي استمر على الأرجح إلى فتح مكة ، فإن هناك آيات تدل على أنه كان يلتحق ببعض الأفراد بالمدينة ؛ وينضم إلى الإسلام ، ففي سورة الأنفال مثلاً الآية التالية :

« وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولَٰئُوا
الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ... »

٧٥

إذ تضمنت صراحة أن بعض العرب - والفقرة الأخيرة تلهم أنهم مكيون يمتنون بالقربي إلى المهاجرين السابقين - قد التحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم مهاجرين مؤمنين ، وأخذوا يشتركون في الجهاد تحت لوائه . وسورة الأنفال قد نزلت عقب غزوة بدر التي وقعت في

أواخر النصف الأول من السنة الهجرية الثانية ، مما يسوغ القول إن هذه الحركة الفردية قد بدأت مبكرة من العهد المدني .

وفي سورة الحشر التي نزلت عقب جلاء بني النضير الذي كان في أواخر السنة الثالثة وبعد قليل من وقعة أحد ، الآية التالية :

« وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . . . »

١٠

وهذه الآية جاءت بعد آيتين ذكر في أولهما مهاجرو قريش السابقون ، وفي ثانيتهما مسلمو المدينة السابقون أيضاً ؛ وهي وإن كانت مطلقة فإنها تحتمل أن يكون المقصود فيها أناسا من أهل المدينة وأناسا من أهل مكة أيضاً .

الصورة الثالثة

ولقد أعقب صلح الحديبية زحف النبي على خيبر ، وهو الزحف الذي أشير إليه إشارة غامضة في سورة الفتح ، أجمع المفسرون على أنه هو المقصود بها في هذه الآيات :

١ — سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لَتَأْخُذُواهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ . . .

١٥

٢ — وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَائِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا .
وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا . . .

٢٠ - ٢١

وقد ذكرت روايات معتبرة^(١) أن وفداً من الأشعرين اليمانيين جاء إلى المدينة بطريق

البحر وأسلم في ظروف هذا الزحف ؛ وهذا يدل على أن صلح الحديبية قد يسر لهذه الجماعة من أبناء الأنحاء القاصية طريق السير والالتحاق بالإسلام ، وليس من المستبعد إذا لم نقل إنه من المرجح أن تكون جماعات أخرى من منطقة مكة وما وراءها قد اغتنمت الفرصة وحذت هذا الحذو . وفي الروايات^(١) أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما قد التحقا بالمدينة وأسلما عقب هذا الصلح . والروايات تذكر كذلك أن وفداً من بني عبيد بن عدي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم قبل فتح مكة فقالوا له (نحن أهل الحرم وساكنه . وأعز من به . ولا نريد قتالك . ونحبك . ونريد أن نقاتل معك غير قريش . ولكننا لا نقاتل قريشاً . فقبل منهم شرطهم فأسلموا)^(٢) والراجح أن وفادة هذا الوفد كانت بعد صلح الحديبية . وبعد سنتين من هذا الصلح غزا النبي صلى الله عليه وسلم مكة وفتحها . ودان أهلها بالإسلام مما سوف نشرح خبره في سلسلة الوقائع الجهادية فكان هذا خاتمة سعيدة لموقف الجحود والعداء الشديد المديد الذي وقفه أهل مكة . وانهدم بها السور الكثيف الذي كان يتمثل بذلك الموقف ويحول دون انضمام العرب من منطقة مكة وما وراءها إلى الراية الإسلامية . فلم يلبث أهل هذه المنطقة من قرى وقبائل أن تابعوهم ودانوا بالإسلام . منهم من فعل ذلك يسر . ومنهم من فعله بعد تلكؤ بل وبعد مصاولات حربية مثل ثقيف وهوازن على ما سوف نشرح خبره في فصل آخر . ولم يلبث الجنوب العربي من وراء مكة أن تحرك استجابة لداعي الإسلام فأخذت وفوده تفد على النبي صلى الله عليه وسلم وتبايعه على الإسلام في العامين التاسع والعاشر . ويمثل هذه الحركة قرآناً مافي سورة النصر من شمول كما ترى فيها .

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا . »

(٢) ابن سعد ج ٢ ص ٧٠ .

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٣١٩ .

المبحث الثاني

انتشار الدعوة في منطقة المدينة

مدى انتشار الإسلام في المدينة قبل الهجرة النبوية - المنافقون منضمون إلى الإسلام من الوجهة النظرية والمظهرية - موقف قبائل منطقة المدينة الجحودي والعدائي إلى ما بعد وقعة الخندق - انضمام بعض القبائل بعدها إلى الإسلام - تكاثر المنضمين من القبائل قبل الفتح المكي - تزايد الانضمام بعد الفتح وشمول الإسلام

الصورة الأولى

لقد ذكرت الروايات المعتبرة^(١) أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يهاجر إلى المدينة إلا والإسلام قد فشا فيها حتى ما يكاد يخلو بيت منه ، نتيجة لمبايعة فريق كبير من زعماء الأوس والخزرج معاً للنبي ، وإرسال النبي معلماً وقارئاً وداعياً قبله ، وهجرة أكثر المسلمين قبل ذلك .

ولعل آية سورة الحشر (٩) التي أوردناها في التمهيد تدعم تلك الروايات بوجه الإجمال .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن نطاق انتشار الإسلام بين عرب المدينة الذين كانت كثرتهم العظمى من الأوس والخزرج قد اتسع بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم حتى شملتهم في زمن يسير . وهو ما عرف يقيناً من وقائع السيرة ورواياتها . وإذا كان حقاً أنه كان في المدينة فئة من المنافقين وأنه كان مندمجاً فيها فريق غير قليل من الخزرج والأوس بل وفيها بعض الزعماء الأقوياء أيضاً منهم . وأن حركة النفاق فيها كانت قوية مزعجة في مبادئ العهد المدني وظلت كذلك إلى أوائل النصف الثاني منه . وأن القرآن كثيراً ما وصفهم بالكفر وحكى مواقفهم الكيدية والساخرة والكافرة مما سوف نشرحه في فصلهم الخاص ؛ فإن هذه الفئة من الوجهة النظرية والمظهرية تعتبر

(١) ابن هشام ج ٢ ج ٣١ وبعدها .

منضوية إلى الإسلام أيضاً . لأنها كانت تغلن الإسلام . وتؤكد إيمانها بالله والرسول وتنكر كفرها وتصلي وتصوم وتؤدي الزكاة وتشترك في الحركات الجهادية على ما حكاها القرآن عنها ولو في معرض التنديد والتكذيب .

ولقد كان في المدينة جماعات كبيرة من اليهود على اليقين . ونفر من النصارى على الاحتمال . وموقف هؤلاء من الدعوة الإسلامية سيكون موضوع فصل خاص .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

أما من حول المدينة من القبائل فإن عدم ذكر الروايات خبر اشتراك أحد منهم في الوقائع الحربية التي وقعت في السنوات الخمس الأولى من الهجرة النبوية إلى جانب المسلمين ، يدل على أنه لم يكن قد انضوى إلى الإسلام منهم أحد إلى السنة المذكورة . وإذا لا حظنا أن وقعة الخندق خاصة كانت زحفا عظيما متحالفاً ، وأن خبره قد وصل قبل قدومه بمدة ما تمكن المسلمون فيها من حفر الخندق حول المدينة ، لم يعد ثمة محل لورود أي احتمال آخر ، لأنه لو كان هناك مسلمون بمقياس واسع في القبائل المجاورة لكان النبي صلى الله عليه وسلم استنفرهم إلى شد أزر المدينة في دفع الكارثة التي كادت تعصف بها وبالإسلام ، والتي وصفها ووصفت أثرها الشديد بعض آيات الأحزاب وصفاً قوياً كما ترى فيما يلي :

« إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . »

١١ - ١٠

هذا إلى ما احتوته روايات السيرة المعتمدة من أخبار عدد غير يسير من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه ضد قبائل العرب النازلة حول المدينة أو في منطقة حدودها ، مما يدل على وقوف هذه القبائل موقف البغي والعداء من المسلمين والحركة الإسلامية .

وكلامنا منصب على الالتحاق الجمعي بالإسلام ، ولا ننفي الالتحاق الفردي به من القبائل والقرى المجاورة للمدينة ، بل نحن نرجح أن مثل هذا الالتحاق قد أخذ يقع منذ الهجرة النبوية ، أما بعد وقعة الخندق فالقرآن يلهمنا أن الحال قد تبدل ؛ ففي سورة الفتح التي نزلت كما قلنا عقب صلح الحديبية واحتوت بعض وقائع الرحلة والصلح ، وردت الآيات التالية :

١ — سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ تَبْلُغُوا آلَ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا

١١ - ١٢

٢ — سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْخُذُهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَابِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . . .

١٥ - ١٦

فهذه الآيات تدل بصراحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا أعراباً لمرافقته في زيارة الكعبة التي اعتزمها والتي انتهت بعقد صلح الحديبية ، وأنهم تخوفوا أن تكون مشاكل واشتباكات بينه وبين أهل مكة ، وأن تدور الدائرة على المسلمين ، فتهربوا وتحلفوا ثم جاؤوا يعتذرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد عودته موفقاً وقد اعترف به أهل مكة وتفادوا الاشتباك معه .

وقد قال بعض كتاب السيرة الحديثين^(١) إن هؤلاء الأعراب المتخلفين لم يكونوا مسلمين ، وإنما كانوا مسلمين أو مواليين ، دعاهم النبي ليشهد على براءة قصده في الزيارة ، وعدم تبنيته أي نية للقتال ، وقدمه في زيارة دينية موسمية عامة يشترك فيها عادة جميع العرب على اختلاف أديانهم ومنازلهم .. ولكن الكاتب لم ينتبه على ما يبدو إلى القرائن الحاسمة في الآيات ؛ إذ تضمنت الآية (١١) طلب الأعراب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، مما لا يمكن أن يكون إلا من مسلمين ، وإذ تضمنت الآية (١٦) أن الله يريد أن يختبرهم في موقف آخر يقاتلون فيه أعداء أقوىاء حتى يدينوا بالإسلام ، ولا يمكن أن يدعى إلى مثل ذلك الموقف إلا مسلمون^(٢) .

وقد قلنا إن رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى زيارة الكعبة قد كانت في أواخر السنة السادسة للهجرة . ومعنى هذا أن هؤلاء الأعراب الذين ذكرتهم آيات سورة الفتح قد دانوا بالإسلام قبل صلح الحديبية .

الصورة الثالثة

وليس في القرآن ما يمكن استلهامه عن الحالة في المدة بين صلح الحديبية والفتح المكي

(١) الدكتور هيكل في كتابه « حياة محمد » .

(٢) في روايات السيرة المعتبرة بيانات مؤيدة لذلك نوجزها فيما يلي :

- ١ - في السنة الخامسة الهجرية قدم إلى المدينة وفد كبير من مزينة فبايعوا النبي ﷺ على الإسلام . وأمرهم بالعودة إلى منازلهم إلى أن يدعواهم .
ابن سعد ج ٢ ص ٧٠
- ٢ - وفد رهط من بني عيس في وقت مبكر بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة فأسلموا . وأرسلهم النبي ﷺ يعترضون عبراً لقريش أقبلت من بلاد الشام .
نفس المصدر ص ٥٧
- ٣ - وفد ضام بن ثعلبة بن سعد بن بكر على النبي ﷺ في السنة الخامسة فسأله مسائل كثيرة ثم أسلم وعاد إلى قومه فدعاهم فأسلموا وبنوا المساجد .
نفس المصدر ص ٦٤
- ٤ - وفد وفد كبير من أشجع على النبي صلى الله عليه وسلم عام الخندق رأس السنة الخامسة - فقالوا له لانعلم أحداً من قوماً أقرب داراً منك منا ولا أقل عدداً . وقد ضفنا بحريك وحرب قومك فجئنا نوادعك فوادعهم ثم لم يلبثوا أن أسلموا .
نفس المصدر ص ٧١
- ٥ - غزا النبي صلى الله عليه وسلم بني المصطلق في الربيع في السنة الخامسة وانتصر عليهم وأسر وغنم منهم . ثم تزوج بنت زعيمهم جويرة بنت الحارث رضي الله عنها فأدى ذلك إلى إسلامهم .
ابن سعد ج ٣ ص ١٠٤ - ١٠٧ وابن هشام ج ٣ ص ٣٣٩

الذي كان في أواخر السنة الثامنة للهجرة . غير أن فيه آيات ذات مغزى كبير . وهي الآيات التي جاءت في سورة التوبة في صدد وقعة حنين على سبيل التذكير وهي هذه :

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ... »

٢٥ - ٢٦

وواضح من النص أن عدد المسلمين كان كبيراً في ذلك اليوم حتى اغتروا بكثرتهم . ويوم حنين كان عقب الفتح المكي بين المسلمين من ناحية وهوازن من ناحية ثانية والروايات المعتبرة^(١) تذكر أن جيش الفتح الذي زحف النبي ﷺ على رأسه نحو مكة وشهد بعد فتحها يوم حنين قد بلغ نحو عشرة آلاف . والمتبادر أن هذه الكثرة إنما كانت نتيجة انضمام كثير من القبائل العربية في منطقة المدينة إلى الإسلام في المدة الواقعة التي مرت بين صلح الحديبية والفتح المكي ويوم حنين^(٢) بحيث يمكن أن يقال إن كثيراً من القبائل

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٣ وبعدها وابن سعد ج ٣ ص ١٨١ وبعدها .

(٢) في روايات السيرة بيانات مؤيدة نوجزها فيما يلي :

١ - قدم عميرة بن أفضى في عصابة من أسلم فقالوا قد آمنّا بالله والرسول واتبعنا منهجك فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتها فإنّا أخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة والرخاء فقال رسول الله ﷺ (أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وكتب لأسلم ومن أسلم من قبائل العرب ممن يسكن السيف أي ساحل الوادي والسهل كتابا : فيه ذكر الصدقة والفرائض في المواشي .

ابن سعد ج ٢ ص ١١٦ - ١١ .

وابن سعد ذكر أن كتائب من أسلم وغفار اشتركت في جيش الفتح المكي (ج ٣) حيث يفيد هذا أن لإسلامهم كان سابقاً للفتح .

٢ - قدم وفد من جهينة على النبي ﷺ قبل الفتح وأسلموا وأقاموا في ضواحي المدينة وأرسلوا إلى قومهم فتابعوهم على الإسلام .

والمؤلف . روى أن جهينة اشتركت كذلك في جيش الفتح .

٣ - وفد من بني سليم على النبي ﷺ وافدوا اسمه قيس قبل الفتح فأسلم ثم عاد إلى قومه فأخبرهم بأن النبي في نفسه وصدقه وحضهم على الإسلام فلما كان عام الفتح خرجوا إلى رسول الله فأدركوه في قديد في طريقه إلى مكة فأسلموا وشهدوا فتح مكة ويوم حنين .

ابن سعد =

التي كانت في منطقة المدينة قد دانت بالإسلام قبل الفتح المكي . وقد احتطنا في التعميم لأن هناك آيات تلهم أنه كان بين النبي ﷺ وبعض القبائل موثيق صلح مما لا يكون إلا مع غير المسلمين ، وأنه كان منهم أناس حياديون ، إلى آخرين كانوا أعداء محاربين ولأننا لم نستطع أن نجزم بوقت معين لهذا الموقف الذي ذكرته الآيات ؛ وهذه هي :

« إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا . سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَّا رَدُّوهُ إِلَىٰ الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ... »

النساء ٩٠ - ٩١

وقد قال الرواة إن المعنيين في الآية الأولى هم بنو أسلم وفريق من بني مدلج ، وفي الآية الثانية هم أسد وغطفان أو فريق منهم ؛ كذلك ذكرت الروايات أن غطفان كانوا غير مسلمين ، وأنهم حاولوا أن ينصروا أهل خيبر حلفاءهم حينما زحف النبي صلى الله عليه وآله وسلم على خيبر .

وفي سورة التوبة آيات قد تلهم ما تلهم آيات النساء هذه مع إيضاح للوقت أكثر ، وهذه هي :

٤ - كان ممن أعطاهم النبي ﷺ من غنائم هوازن يوم حنين تألفاً لقلوبهم: نوفل بن عبد مناة من زعماء بني بكر بن عبد مناة من كنانة . وعلقمة بن علاثة . ولييد بن رفاعة من زعماء بني عامر بن صعصعة . وخالد بن هوذة وحرملة بن هوذة من زعماء بني عامر بن ربيعة . وعيينة بن حصن بن حذيفة زعيم بني فزارة والأقرع بن زعيم بني تميم (انظر ابن هشام ج ٤ ص ١٣٨ وبعدها) والمتبادر أن هؤلاء الزعماء كانوا على رأس جماعات من قبائلهم وأنهم مع جماعاتهم كانوا قد دانوا بالإسلام قبل الزحف على مكة . وفي سياق ابن هشام ما يؤيد ذلك .

« بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ . فَمَن يَخُوضْ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ . وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ... »

٤ - ١

إذ تلهم بصراحة أنه كان هناك مشركون معاهدون إلى ما بعد الفتح المكي ، منهم من ظل وفيا لعهد ، ومنهم من بدا منه الغدر فاستحق إعلان البراءة منه مع إعطائه مهلة أربعة أشهر هي الأشهر الحرم ؛ لأن البراءة قد أعلنت من قبل أمير الحج أو رسول النبي الخاص - على اختلاف الروايات - يوم الحج الأكبر ، وهو ما تلهمه الآيات نفسها ، والاستثناء تابع للكلام السابق كما هو ظاهر ، وكل ما في الأمر أنه ليس من الممكن بالإلهام القرآني تعيين هوية هؤلاء المعاهدين الغادرين والموفين ، وإن كنا نرجح أنهم من قبائل منطقة المدينة ، لأن القبيلة المشركة التي دخلت في عهد أهل مكة في صلح الحديبية وهي بنو بكر قد نقضت العهد مع بني خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم مما كان سبباً مباشراً لغزو مكة وفتحها ؛ فلا يحتمل أن تدخل في شمول الآيات ، كما أنه لم يرو في عرف أنه كان بين النبي ومشركي مكة ومنطقتها وقبائلها عهد غير عهد الحديبية .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

وفي سورة التوبة آيات مما نزل في ظروف غزوة تبوك - التي كانت بعد الفتح المكي بنحو سنة - تذكر الأعراب المسلمين الذين هم في منطقة المدينة في صيغة التعميم كما ترى فيها :

١ — وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ...

٩٠

٢ — وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ
دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِذْ خِلْهُمْ اللَّهُ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ...

٩٨ - ٩٩

٣ — وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى
النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ...

١٠١

٤ — مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ
اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ...

١٢٠

وأسلوب الآيات يلهم أن الإسلام قبيل هذه الفزوة كان قد عم جميع الأعراب في
منطقة المدينة ، بغض النظر عن نفاق بعضهم في إسلامه .

المبحث الثالث

مدى انتشار الدعوة الإسلامية في المناطق الأخرى

إن سورة النصر هذه :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا . »

التي نزلت في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم تتضمن من دون ريب دلالة على ما كان من إقبال الناس على اعتناق الإسلام بمقياس واسع مما يمكن أن يدخل فيه سكان المناطق الأخرى بطبيعة الحال .

ولقد سجلت روايات السيرة وقائع كثيرة مؤيدة لهذا الشمول . منها ما كان قبل الفتح المكي . ومنها ما كان بعده . نوجرها كما يلي :

١ - أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وأسماء البلاد العربية والمجاورة لجزيرة العرب في السنة السادسة للهجرة كتباً ورسلاً . ومن جملة من أرسل إليهم من العرب غير الكتائبين جيفر وعبد ابنا الجلندي ملكا عُمان . والمنذر بن ساوي ملك البحرين . وثمامة بن أثال ملك اليمامة . وقد أسلم الثلاثة الأولون حالا . وأسلم الرابع بعد مدة . وتابعهم معظم أهل بلادهم^(١) .

٢ - أرسل النبي ﷺ عمرو بن العاص في السنة الثامنة إلى ذات السلاسل الواقعة على بعد عشر ليال من المدينة نحو الشام سرية لما بلغه من تجمع جماعة من قضاة الهجوم على المدينة وقال له استعن بمن تمر به من مُلَيٍّ وعذرة وبلقين^(٢) والمتبادر أنه لا بد من أن تكون هذه القبائل قد دانت بالإسلام قبل ذلك حتى يصح أن يأمره بالاستعانة بها .

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٢٧ - ٢٨ وابن هشام ج ٤ ص ٣١٥ .

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ١٧٦ - ١٧٧ .

٣ - ولقد تدفقت وفود القبائل العربية من مختلف أنحاء الجزيرة على النبي ﷺ تباعه على الإسلام وتتلقى نصحه وأمره في العام التاسع الذي تلا عام الفتح وبعده . ومن ذكرت أسماءهم وفود بني تميم وفزارة ومرة وثعلبة ومحارب وكلاب وعقيل وجعدة وقشير والبكاء وكنانة وباهلة وعامر وثقيف وربيعة وبكر بن وائل وتغلب وحنيفة وشيبان وطيب وجمب وخولان وجعفي وصداء ومراد وزيد وكندة والصدق وخشين وسعد هذيم وبلي وبهراء وعذرة وسلامات وكلب وجرم والأزد وعنان وبنو الحارث وهمدان وسعد العشرة وعنس والداريين والمذحجين وغامد والنخع وجبيلة وخثعم وحضرموت وأزد عمان وغافق وبارق ودوس وثمالة والحدان ومهرة وحير وجيشان والسباع^(١) .

٤ - وفي كتاب ابن سعد نصوص كتب كثيرة كتبها النبي ﷺ إلى عدد كبير من الزعماء اليمنيين وغير اليمنيين دون ذكر تاريخ إرسالها . منها ما يفيد يقيناً أنه كتب بعد الفتح ومنها ما لا يفيد شيئاً غير أننا نرجح من أسلوبها . أنها هي الأخرى كتبت بعد الفتح . وبعضها يدل على أنه مرسل إلى أناس كانوا أسلموا قبل ذلك حيث يعطيهم النبي ﷺ ذمته وجواره ويقرهم على ما في أيديهم وعلى ما لهم من رسوم وعوائد وأمارات ومراكز وأرض (ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) ويعلمهم براءة ذمته ممن يرجع عن دينه . وذكر ابن سعد الذي يروي النصوص في سياق رواياته خبر إسلام بعض من أرسلت إليه الكتب مع قومهم أو جماعة من قومهم وخبر إرسال النبي ﷺ إليهم من يعلمهم القرآن ويحجي منهم الزكاة . وفي بعضها تعليمات وأوامر نبوية في شؤون متنوعة بحيث يسوغ القول إن النبي ﷺ اعتبرهم داخلين في حكمه وسلطانه وعاملهم على هذا الاعتبار^(٢) .

ومن ذكر ابن سعد أسماءهم : الحارث بن عبد كلال وشريح بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال . ونعمان قيل ذي يزن . وقيل همدان . وقيل معافر . وزرعة ذورعين .

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٥٩ - ١٢١ وابن هشام ج ٤ ص ٢٢١ - ٢٧١ .

(٢) ج ٢ ص ٣٠ - ٥٦ .

وبنو معاوية من كندة . وبنو عمرو من حمير . وذو الكلاع التبعي . ومعدى كرب .
ابن أبرهة . وربيعة بن ذي مرحب الحضرمي وإخوته وأعمامه . ومن أسلم من حدس ومن
لخم . وخالد بن ضمار الأزدي . وبنو قرّة بن عبد الله التيهانيون . وبنو الضباب من بني الحارث .
ويزيد بن الطفيل الحارثي . وبنو قنان بن ثعلبة . وبنو زياد الحارثيون . ويزيد بن المحجل .
وقيس بن الحصين ذو القصة . وبنو قنان بن يزيد الحارثيون . وعاصم بن الحارث . وبنو
معاوية بن جرول الطائيون . وعامر بن الأسود الطائي وقومه . وبنو جوين الطائيون .
وبنو معن الطائيون . وبنو أسد . وجفاده الأزدي وقومه . وقبيلة سعد هذيم من قضاعة .
وجذام . وبنو زرعة . وبنو الربرة من جهينة . وبنو جعيل من بلي . وخزاعة . وعوسجة
بن حرملة الجهني . وبنو شنج من جهينة . وبنو الجرهمز بن ربيعة من جهينة . وبنو الحرقه
من جهينة . وبلال بن الحارث المازني . وبديل وبسر وسروات بني عمرو . والعداء بن
خالد بن هوذة . وسلمة بن مالك السلمي وحرام بن عبد عوف من بني سليم والعباس بن
مرداس السلمي . ونعيم بن مسعود الأشجعي . وجميل بن رزام العدوي . وحسين بن فضلة
الأسدي . وبنو غفار . وبنو صخرة . وأهل هجر . وقبيلة جماح في تهامة . وبنو زهير بن
أقيش من عكل . وأبو ظبيان الأزدي وقومه . والحبيب بن عمرو وقومه . وبنو بختر من
طي . وسمعان بن عمرو العربي . والسعير بن عداء . والحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال
من حمير وبنو عبد القيس في عمان . وأقيال حضرموت وعظماؤهم زرعة وفهد والبسي
والبحيري وعبد كلال وربيعة . والمطرف بن الكاهن الباهلي . ونهشل بن مالك الوائلي
وبنو جناب من كلب . ومهري بن الأبيض وقومه . وقبيلة خثعم . وبطن بارق من الأزد .
ووائل بن حجر قيل حضرموت ^(١) .

وهكذا يمكن أن يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت إلا وقد وصل الإسلام
إلى كل ناحية من أنحاء جزيرة العرب ووجد فيها جماعات دانت به . وهذا غير الذين

دانوا به من أهل الكتاب في الجزيرة وخارجها مما سوف يكون موضوع فصل خاص .
بل وإنه ليكن أن يستدل من آية سورة التوبة هذه :

« وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ... »
ثم من هذه الآية في السورة نفسها :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... »
٢٨

على أن الإسلام صار هو الدين العام في جزيرة العرب بوجه عام . وأن الشرك أصبح محصور النطاق مشدود الخناق . وأن المشركين أصبحوا منبوذين تعلن نجاستهم ويحظر عليهم دخول المسجد الحرام بعد العام التاسع للهجرة بإعلان يعلن على ملائ الناس يوم الحج الأكبر .

ولقد كان حج هذا العام بإشراف وأمرة مندوب رسمي من قبل النبي صلى الله عليه وسلم وهو أبو بكر رضي الله عنه على ماروته الروايات بدون خلاف . وهذا مظهر سلطاني يعني أن السلطان كان قد استتب للنبي ﷺ . وهذا المعنى منطوق بقوة أكثر في إعلان البراءة من المشركين على ملائ الناس وحظر دخول المسجد الحرام عليهم ^(١) . وهذا وذاك

(١) اختلفت الروايات في أمر الممثل النبوي الذي أعلن البراءة . حيث ذكر بعضها أن الآيات نزلت بعد سفر أبي بكر منتدبا من قبل النبي صلى الله عليه وسلم لأمرة الحج فقبل له لو بعث بها لأبي بكر فقال لا يبلغ عني إلا واحد من أهل بيتي ثم بعث عليا بن أبي طالب رضي الله عنه لإعلانها على أن يكون في غير ذلك مأمورا لأبي بكر . وحيث ذكر بعضها أن أبا بكر هو الذي أمر بإعلان ذلك يوم الحج الأكبر (انظر ابن سعد ج ٣ ص ٢٢١ - ٢٢٢ وابن هشام ج ٤ ص ٢٠١ وبعدها) والرواية الأولى شديدة العجب والشبهة . فليس في الإعلان ما يخص النبي صلى الله عليه وسلم شخصياً أو أسروياً . وحاشاه أن يحاشاه أن يكون اعتبر النبوة وتبليغات الله تعالى للناس بطريقها مسألة أسروية . ولقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم رسلا وكتباً كثيرة إلى الملوك والأمراء والزعماء والقبائل ليلفوا عنه رسالة ربه ولم يرو شيئا من ذلك قط في مناسباته .

في بيثة كبيثة الجزيرة لا يمكن أن يكون إلا بالاستناد على القوة والعصية المؤيدة بالغالبية العظمى .

وفي سورة التوبة آية فيها دلالة قوية أخرى على ذلك وهي :
« وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ
مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ... »
٦

حيث تفيد أنه لم يعد للمشركين أمان ولا طمأنينة ، وسط المسلمين وبيئاتهم إلا بجوار
النبي صلى الله عليه وسلم وحمايته . وإذا لاحظنا أن الإسلام قد صار منتشرًا بمقياس واسع
في جميع مناطق الجزيرة ازدادت الدلالة التي انطوت في الآية قوة .

واقعد حج النبي صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة حجته الشريفة التي عرفت بحجة
الوداع فكانت حجة إسلامية خالصة برئت من الشرك والمشركين . وقد هتف صلوات
الله عليه بجموع المسلمين الفقيرة التي شهدت معه الحج بلسان الله عز وجل القرآني .
« الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ... »
٣

فكان في هذا إيذان آخر بعموم الدين الإسلامي لمختلف أنحاء الجزيرة العربية .
ولقد كان الذين استجابوا للدعوة في العهد المكي يمثلون البشرية من حيث الأقطار
والأجناس والألوان والأديان والطبقات على ما شرحناه في الجزء الأول . ولقد استمر
هذا المظهر في العهد المدني بالمقياس الواسع المتناسب مع ظروف هذا العهد . وكان من
المضافات إليه استجابة ملوك وأمراء وأقيال العرب في مختلف أنحاء الجزيرة وأطرافها ثم بدء
استجابة غيرهم متمثلاً في إسلام نجاشي الحبشة على ما سوف نشرحه بعد .

المبحث الرابع

صور متنوعة للمسلمين في العهد المدني

تفاوت صور المسلمين في العهد المدني وتعليقه - تصنيف القرآن للمسلمين وطبقاتهم - تقسيمهم إلى صنفين - صور للصنف الأول : من صور البقرة وآل عمران والمائدة والتوبة والأحزاب والفتح والحديد والمزمل - صور للصنف الثاني : من سور البقرة وآل عمران والنساء والتوبة ومحمد والحجرات والحديد والمجادلة والمتحنة والجمعة والتغابن - غنى المسلمين وفقركم في العهد المدني - إشارات تذكيرية إلى صور متنوعة أخرى في المباحث الأخرى .

الصورة الأولى

إن الصور التي يمكن اقتباسها من الآيات المدنية للمسلمين في العهد المدني متفاوتة أيضاً كالصور المقتبسة لهم في العهد المكي ، وهو تفاوت متسق مع طبائع البشر ، غير أن الصور المدنية أكثر عدداً وتفاوتاً وتنوعاً ، وهذا متصل بطبيعة العهد المدني الذي اتسع فيه نطاق الإسلام مساحة وعدداً ، وتنوعت فيه الفئات والطبقات من جهة ، والأحداث والمشاكل والרגبات من جهة أخرى .

ولقد صنف القرآن المسلمين في آيات من سورة التوبة نزلت في سياق غزوة تبوك ، أي في السنة الهجرية التاسعة ، تصنيفاً يعبر من دون ريب عن حالة المسلمين وتفاوتهم في الإيمان والأخلاق في أواخر العهد النبوي ؛ وهذه هي :

١ - وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ...

١٠٠

٢ - وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى

النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ...

١٠١

٣ — وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ

١٠٢

أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

٤ — وَآخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ

١٠٦

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ...

٥ — وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا

لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

كَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ

أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ . أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ

عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ . أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ

فَأَنْهَارٍ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي

بَنَوْا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ...

١٠٧ - ١١٠

إذ يستفاد منها أن المسلمين كانوا مؤلفين من هذه الطبقات :

١ - المهاجرين الأولين .

٢ - الأنصار الأولين .

وهاتان الطبقتان كانتا وظلتا مخلصتين كل الإخلاص لله والرسول والإسلام ، وفانية

فيهم كل الفناء ، وقائمة بواجباتها كل القيام ، فاستحقوا الوصف العظيم المندمج في جملة

« رضي الله عنهم ورضوا عنه » .

٣ - الذين أسلموا بعد الهجرة النبوية ، وحسن إسلامهم وساروا على قدم السابقين

المهاجرين والأنصار في الإخلاص والفناء والقيام بالواجب ، ودخلوا في شمول ذلك الوصف العظيم أيضاً .

٤ - مناقبين من أهل المدينة والأعراب متكتمين غير ظاهري الأمر كما هو شأن المناقبين المشهور أمرهم . والآية تلهم أن النبي لم يكن يحبل سيرة هذا الفريق وسريته ، ولعل آيات سورة محمد هذه :

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْفَثَهُمْ . وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَلَعَهُمُ بَيْمَتُهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ... »

٢٩ - ٣٠

مما يمكن أن يكون وصفاً لهذه الفئة وقربنة على أن النبي كان يعرفهم من أقوالهم وتصرفهم .

٥ - فريق كانوا يخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً مع إخلاصهم للإسلام .

٦ - فريق كان أمرهم غامضاً في نظر الجمهور ، ولعل أعمالهم وأقوالهم ومظاهرهم كانت متناقضة تدعو إلى الحيرة والتساؤل ، ويبدو أنهم كانوا يتظاهرون بالإخلاص ، كما يبدو أن أمرهم لم يكن خافياً على النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه كان يؤمل غلبة النية الحسنة على السيئة عندهم أو كان لا يريد أن يجبههم لأنه لم يكن يرى فيهم ضرراً وبأساً وأذى كبيراً .

٧ - فريق منافق صريح غير خاف أمرهم على رسول الله والمخلصين . يحلفون على أن نواياهم حسنة . ولكنهم لا يتورعون عن الكيد والتآمر ضد دين الله ورسوله والمؤمنين . وقد سلكنا الفريق الأخير في السلك لأنه كان على كل حال يتسم بالإسلام ويقوم بمظاهره وواجباته . ويكرر الإيمان في كل مناسبة على صدق إيمانه بالله ورسوله وعلى إخلاصه . غير أن مواقفه المتنوعة كانت تكذبه وتفضحه .

وسنعرض في هذا المبحث مجموعتين من الآيات . واحدة تحتوي صوراً للصنف الأول أو الطبقات الثلاث الأولى وثانية تحتوي صوراً للصنف الثاني أو الطبقات الثلاث الأخرى أما الطبقة السابعة أي المنافقون الصرحاء فسنعرض ما ورد فيها من آيات ونشرح ما كان لها من مواقف وأدوار في مبحث خاص .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

فأولا صور عن الصنف الأول .

١ - في سورة البقرة الآيات التالية :

« السَّم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... »

٥ - ١

فقد احتوت صورة مشرقة للمؤمنين المخلصين ، وعمق إيمانهم ، وشعورهم بواجباتهم ؛ وهذه الصورة من الصور الواردة في القرآن المكي ، ومع أنها وصف عام محبب لمن يتصف بهذه الصفات فإننا نعتقد أنها صورة واقعية للصنف الأول من المسلمين في العهد النبوي المدني .

٢ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ... »

وقد تضمنت وصفاً محبباً وثناءً عظيماً على الفئة المؤمنة المخلصة التي تلقي ما يحل بها في سبيل الله بالرضاء والصبر والتسليم ؛ ومع أنها وصف عام فإننا نعتقد كذلك أنها صورة واقعية للصنف الأول من المسلمين في ذلك العهد .

٣ - وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ... »

٢٠٧

وقد تضمنت صورة واقعية لفئة مخلصه تباع نفسها في سبيل مرضاة الله ؛ وهي كذلك بطبيعة الحال من الصنف الأول للمسلمين في ذلك العهد .

٤ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْفَافًا وَمَاتُفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَاهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ... » .

٢٧٣ - ٢٧٤

٥ - وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِتَّةِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ... »

١٥ - ١٧

والآيات وإن تكن في مقام البشرى للمتقين الذين يقولون ويفعلون ما ذكرته والتنويه بهم فإن روحها مما يلهم بقوة أنها في صدد وصف فريق من المؤمنين والتنويه

بهم وتبشيرهم . وهذه الأوصاف هي أوصاف الصنف الأول من المسلمين . كما هو المتبادر .

ولقد جاءت هذه الآيات بعد هذه الآية :

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ... »

١٤

حيث يلهم هذا أن الآيات جاءت في الوقت نفسه بسبيل تسليمة ذلك الفريق من المسلمين الذين كانوا على الأغلب فقراء ومنصرفين عن زينة الحياة الدنيا ومباهجها ومستغرقين في الله ودينه وعبادته .

وقد احتوت الآية الأولى صورة لفريق من المسلمين وهبوا كل أوقاتهم وأنفسهم لله : عبادة وجهاداً ومرابطة ، وشغلهم هذا عن طلب الرزق والسعي إليه ، ومع فقرهم وشدة حاجتهم لم يطلبوا من أحد معونة ، وتعفوا حتى ليظنهم الجاهل أغنياء ؛ واحتوت الآية الثانية صورة أخرى لفريق من المسلمين أغنياء ينفقون أموالهم في الليل والنهار ، في السرو والعلانية .

وكلتا الصورتين مشرقتان باهرتا السناء ، تدلان على قوة إيمان وشدة ورغبة فيما عند الله ؛ فهما من صور الصنف الأول في ذلك العهد .

٦ - وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْفَيْضَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ

يَعْلَمُونَ . أُولَٰئِكَ جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ... »
١٣٦ - ١٣٣

٧ - وفي السورة نفسها هذه الآيات :

« الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ
وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ
إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهُمُ
سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ... »
١٧٤ - ١٧٢

وفي الآيات وصف لموقف متفانٍ رائع وقفته الفئة المخلصة عقب وقعة أحد رغم
ما كان ألم بها من تعب وجروح وحزن ومضض . وما رواه المفسرون من صور في سياق
هذه الآية أن رجلين من الأنصار كانا جريحين فلما دعا داعي النبي صلى الله عليه وسلم
للخروج إلى العدو الذي قيل : إنه يريد أن يكر على المسلمين قالوا لبعضهما : أتفوتنا غزوة
مع رسول الله . ولم يكن لهما دابة يركبانه فخرجا مع ذلك . وكان أحدهما أشد
جراحاً من الآخر فكان أخوه يحمله من حين إلى آخر حتى بلغا ركب النبي صلى الله
عليه وسلم .

ومع أن الآيات بسبيل بيان أجر المتقين وصفاتهم وأخلاقهم فإن روحها تلهم أنها
تنطوي على صورة واقعية للفئة المخلصة ؛ وقد احتوت وصفاً باهراً لأخلاقهم وصفاتهم
وتفانيهم في الله رغبة ورهبة .

٨ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ
مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا

يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مَّن ذَكَرِ أَوْ أَنَّى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ... »

١٩٥ - ١٩٠

والآية الأخيرة قرينة حاسمة على أن هذه المناجاة الخاشعة الدالة على عمق الإيمان والخشية من الله ، مما كان يصدر مثله من الفئة المخلصة التي تحملت عظيم التضحيات ، وصبرت أجمل الصبر على ما نالها من أذى ، وقاتلت في سبيل الله ؛ والصورة مشرقة كل الإشراق ، سنية كل السناء كما هو واضح . وفي الآية في الوقت نفسه قرينة حاسمة على أن المرأة المسلمة كانت تشارك الرجل في هذه الصورة المشرقة .

٩ - وفي سورة المائدة الآيات التالية :

« إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ... »

٥٥ - ٥٦

والآيتان في صدد فريقين من المسلمين . فريق شديد الإخلاص والاستغراق في الله ودينه ورسوله وواجباته . وهذه صفات الصنف الأول من المسلمين كما هو واضح . وقد نهت الآيتان الفريق الثاني إلى أن هذا الفريق هو الذي يجب أن يتولوه دون غيره ووصفته بأنه حزب الله المضمون له الغلبة والتأييد من الله . وفي هذا مافيه من تنويه عظيم . وفي الآيتين تدعيم للتصنيف الذي صنفناه . ويتضح هذا أكثر بالآيات التي سبقت الآيتين حيث احتوت نهياً للمؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء أي نصراء وحلفاء

ونددت بمرضى القلوب الذين يسعون فيهم متذرعين بالخوف من العواقب وأنذرتهم كما ترى فيها:

« يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلُوا لَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأُضْبِحُوا خَسِرِينَ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ... »

٥٤ - ٥١

١٠ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ . لَا يُوَآخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَنِكُمْ وَلَكِنْ يُوَآخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتَهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرةُ أَيْمَنِكُمْ إِذَا حَلَقْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... »

٨٩ - ٨٧

وقد جاءت هذه الآيات ٨٢ - ٨٦ التي نقلناها في مناسبة سابقة والتي فيها وصف أخاذ لخشوع فريق من النصاري وإيمانهم وتصديقهم وثناء عليهم ومنهم القسيسون والرهبان.

١١ - في سورة الأنفال الآيات التالية :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَكَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ... »

٢ - ٤

والآيات وإن تكن في مقام التقرير والتنويه والبشرى فإن روحها تلهم أنها بسبيل
وصف الصنف الأول من المسلمين كما هو المتبادر .

وقد روى المفسرون والرواة أن الآيات نزلت بمناسبة اتفاق فريق من كبار الصحابة
على الزهد والتنسك وتحريم الاستمتاع بطيب المآكل والمشرب واللذائذ الأخرى ،
والسياحة في الأرض والانقطاع للعبادة ، وأن النبي قد بلغه ذلك فكرهه ولم تليث أن
نزلت الآيات . وورود الآيات عقب الآيات التي فيها وصف مشهد القيسيين والرهبان
والثناء عليهم يدعم صحة الرواية ؛ إذ يتبادر أن الذين عزموا العزيمة التي ذكرتها الرواية
قد تأثروا بذلك الثناء على تلك الطبقة التي كان أفرادها أو كثيرون منهم منقطعين للعبادة
في الصوامع والأديار المنعزلة ، زاهدين في لذائذ الحياة ، وأطايب المتع ؛ ولما لم يكن مما
استهدفه الإسلام إيجاد طبقة مثلها في مجتمعه الذي أحلت له الطيبات وحرمت عليه الخبائث
ورفع عنه الإصر والتكاليف السابقة اتساقاً مع طبيعة الحياة ونواميسها - حظرت
الآيات ذلك .

وعلى كل حال فالصورة التي تضمنتها الآيات والرواية الواردة في سبب نزولها طريقة
حقاً ، وتدل على ما كان من استعداد الفئة المخلصة للانصراف عن الطيبات واللذائذ
ابتغاء مرضاة الله ، وبالتالي تدل على تفانيها في الله ومرضاته ودينه .

١٢ - في سورة التوبة الآية التالية :

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... »

٧١

وقد جاءت مقابلة لوصف ما كان من تعاون المنافقين والمنافقات على الإنهم والعدوان ؛ وفيها على كل حال صورة قوية لما كان عليه المؤمنون المخلصون من أخلاق حميدة ، وتضامن قوي ، وقيام بالواجبات الإسلامية من تعبدية ومالية واجتماعية . ويُلفت النظر خاصة إلى ذكر المؤمنين إلى جانب المؤمنين في الآية ، فإن ذلك يلهم قصد التنويه بالمؤمنات خاصة ، وما كان لهن من أثر ودور إيجابيين في الدعوة والسيرة النبويتين في العهد المدني كما كان الحال في العهد المكي أيضاً وهذا فضلاً عن قصد تقرير التكافؤ بين رجال المسلمين ونسائهم في التعاون والتناصر .

١٣ - وفي السورة نفسها الآية التالية :

« لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... »

٨٨

وهذه الآية جاءت كذلك : مقابلة لوصف ما كان من تخلف المنافقين عن الجهاد وختالهم وتثبيطهم ؛ وفيها على كل حال صورة قوية لما كان من إقبال المؤمنين المخلصين على الجهاد بالمال والنفس .

١٤ - وفي السورة نفسها الآية التالية .

« وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ... »

٩٢

وفي الآية مشهد رائع لفريق من فقراء الأعراب المخلصين الذين كانوا شديدي الرغبة في الاشتراك في غزوة تبوك فبكوا وحزنوا لأنهم لم يكونوا يملكون وسائل الاشتراك ولم يكن لدى النبي ما يساعده على مساعدتهم .

١٥ - وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . . . »

١١٨

وفي الآية مشهد رائع آخر لفريق من المخلصين تخلفوا بدون عذر عن غزوة تبوك فداخلهم الندم والجزع من الله حتى لم تعد الدنيا تسعهم فاجأوا إلى الله يسألونه العفو والتوبة .

١٦ - وفي سورة التوبة الآيات التالية :

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّهُمْ أَجْنَتَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ أَنِ مَنْ أَوفَىٰ بَعْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاَسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُوتُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . . . »

١١١ - ١١٢

والآيات وإن تكن في مقام التقرير والتبشير فإن روحها بل ونصها يلهمان أنها في صدد وصف فريق من المؤمنين كانوا متفانين في دين الله والجهاد في سبيله والتقرب إليه بالعبادة والتزام أوامره ونواهيه .

١٧ - وفي السورة نفسها الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ . . . »

١١٩

وقد وردت في سلسلة تعقيبية على وقائع غزوة تبوك احتوت إشارات إلى ما كان

من صعوبة الحال حيث كاد يزيع قلوب فريق من المؤمنين ، وجاء بعدها آيات تنبه المسلمين من أهل المدينة والأعراب إلى أنه لا يصح أن يتخلف أحد منهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهذا وذاك يلهمان أن الآية موجهة إلى عامة المسلمين ، وأن القصد من الصادقين هو السابقون الأولون من الأنصار والمهاجرين والذين اتبعوهم بإحسان ؛ وهكذا تصف الآية الصنف الأول بهذا الوصف الذي يندمج فيه معان عدة كالصدق والإخلاص والتفاني في الواجب من جهة ؛ وتدعو عامة المسلمين ، وبالأحرى الصنف الثاني ، إلى اتخاذهم أسوة وقدوة ؛ وفي ذلك إقرار لمكانتهم عند الله ورسوله ، وتوكيد لمعنى التصنيف الذي احتوته الآيات التي نقلناها في مطلع المبحث .

١٨ - في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . . . »

٢٢ - ٢٣

وفي الآيات صورة رائعة لموقف المؤمنين المحلصين إزاء زحف الأحزاب على المدينة وما كان لذلك من أثر في ازدياد تمسكهم بدين الله وتفانيهم في سبيله وتنويه بهم على قوة عقيدتهم وثباتهم سواء منهم الذين استشهدوا وقضوا نحبهم أم الذين بقوا . ونص الآية الثانية قد يدعم صحة التصنيف من حيث أن المؤمنين كانوا طبقات منهم الفريق المحلص الثابت الموصوف فيها .

ولقد روى الترمذي حديثا عن أبي عبد الله بن مغل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي . لا تتخذوهم غرضا بعدي . فمن أحبهم فبحبي أحبهم . ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم من آذاهم فقد آذاني . ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه) وقد روى البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود

حديثاً : عن أبي سعيد قال (كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لاتسبوا أحداً من أصحابي فإن أحداً لم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه) والخطاب موجه إلى المسلمين السامعين . وهذا يعني أن المقصود من أصحاب رسول الله في الأحاديث هو المقصود من الصادقين في الآية . وهم الصنف الأول أو بتدقيق أكثرهم الرعيل الأول السابقون من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم .

١٩ - وفي سورة الأحزاب الآية التالية :

« إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً . . . »

٣٥

وقد احتوت تنويهاً عظيماً بالمخلصين من المسلمين رجالاً ونساء ؛ وهي وإن كانت تنوّه بكل من يتصف بهذه الصفات فما لاشك فيه أنها تنطوي على تنويه بطبقة كانت متصفة بها من المسلمين فعلاً حين نزولها ، وهي الصنف الأول منهم على ما هو المتبادر .

ويلفت النظر خاصة إلى ذكر النساء إلى جانب الرجال في جميع الصفات ، وما في ذلك من قصد تنويهي صريح بالمسلمات المخلصات ، ثم ما في هذا من دلالة على أن من المسلمات من كن من الصنف الأول ، وعلى ما كان للمرأة المسلمة المخلصة من دور إيجابي يستحق هذا التنويه الصريح أيضاً .

٢٠ - وفي سورة الفتح الآية التالية :

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ

السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيْفِيضَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . . . »

٢٩

وقوة الثناء والتنويه ملموسة في الآية ، كما أن الصفات التي وصف بها النبي والذين معه قوية في صدد تفانيهم في الله ورضائه وطاعته ، وفي صدد رافتهم ورحمتهم بالمؤمنين وشدتهم على الكفار ؛ ونعتقد أن المقصود منهم الصنف الأول من المسلمين ، وقد احتوت الآية صورة وضاء لهم كما هو ظاهر .

٢١ - وفي سورة الحديد الآيات التالية :

« إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَعْفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . . . »

١٨ - ١٩

والآيات وإن كانت بسبيل التنويه بالمتصفين بالصفات المذكورة فيها ، فإن روحها تلهم أن فيها صورة مشرقة لفئة كانت متصفة فعلا بها استحققت بسبب ذلك هذه المرتبة العالية ، وهي من الصنف الأول على ما هو المتبادر . وفي عبارة (المصدقات) هنا تنويه بالمرأة المسلمة وتقرير لدورها الإيجابي في الإسلام وفي الدور الأول منه كما هو شأن دلالة ذكرها في المقامات الأخرى .

٢٢ - في سورة الزمل الآية التالية :

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَلَّنْ خُصُّوهُ فَتَبَّ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا

مَا تَيْسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَهُوا مَا تَيْسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ . . . »

٢٠

والآية مدنية على ماعليه جمهور الرواة والمفسرين ، وطابعا للمدني بارز ؛ وقد احتوت صورة مشرقة لما كان من استغراق النبي صلى الله عليه وسلم والطبقة الملازمة له الفانية فيه . في عبادتهم وتهجدهم مهما نالهم في ذلك من المشقة ، حتى لقد شاءت حكمة الله أن يخفف عنهم بهذا الأسلوب المحبب الذي انطوى على تنويه عظيم أيضاً

الصورة الثالثة

وثانياً : صور للصنف الثاني .

١ - في سورة البقرة الآيات التالية :

« أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْخُلُقُ . . . »

١٠٩ - ١٠٨

وتلهم أن بعض المسلمين كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً أسئلة تعجيز ، أو نامة على شيء من التشكيك في بعض الأمور الغيبية ؛ والآيات من سلسلة في حق اليهود ودسائسهم ، وفي هذا دلالة على أن هذه الدسائس كانت تجد أذناً في بعض المسلمين فتدفعهم إلى بعض المواقف التي تستوجب العتاب ؛ وطبيعي أن هذا إنما يكون من الصنف الثاني من المسلمين ؛ لأن الصنف الأول قد وصف بصفات تدل على إيمانهم القوي التام بالغيب ، وخشيتهم الشديدة من الله ، وتوقيرهم العظيم للنبي ، ومعرفتهم حدودهم ..

٢ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

١ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ تَمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ...

٢٦٤

٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَّائِبِينَ إِلَّا أَنْ تُنْفِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ...

٢٦٧ - ٢٦٨

فهذه الآيات وإن كانت في معرض وعظ وتعليم عامين فإن روحها تلهم أن بعض المسلمين كانوا يمتنعون على الذين يتصدقون عليهم ويسمونهما مايؤذي ، كما أن بعضهم كان يتصدق بالردي من الغلة الذي لا يكاد ينفع أحداً ؛ وقد ذكرت الروايات في سياقها ما يدل على صحة هذا الاستلham .

٣ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

٣ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ...

٢٧٨ - ٢٧٩

وهذه مثل تلك بسبيل الوعظ والتعليم ، وتلهم في الوقت نفسه بقوة ووضوح أكثر ، أن بعض المسلمين كانوا يتعاطون الربا وكانوا متمسكين به إلى درجة أن اقتضت الحكمة إنذارهم هذا الإنذار القاصم .

وإذا لوحظ أنه قد تقدم هذه الآيات آيات حمل فيها على الربا حملة شديدة ، وسفه

فيها قول القائلين إنه كالبيع ، وضحت الصورة أكثر ، ودلت على أن بعض المسلمين ظلوا مستمسكين برباهم على رغم الحملة التي يرجح أنها جاءت متقدمة فترة ماعلى هذه الآيات :

ولقد جاء في سورة آل عمران نهى مشدد آخر عن الربا كما ترى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... »

١٣٠ - ١٣٢

وأكثر الروايات على أن هذه الآيات سبقت آيات البقرة في النزول وأن آيات البقرة كانت من أواخر ما نزل من القرآن . وهذا يفيد أن الذين كانوا يتعاطون الربا من المسلمين لم يقلعوا عن العادة كما يدل على شدة رسوخها فاقترضت حكمة التنزيل إنذارهم الإنذار القاصم في آية البقرة . وهذا الموقف لا يمكن أن يكون من الصنف الأول كما هو المتبادر .

٤ - وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْمَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ . قُلْ إِنْ تُخَفُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ يُعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْءِيبَادِ . قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ... »

٢٨ - ٣١

في الآيات نهى للمؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ونصراء دون المؤمنين . وإنذار

شديد لمن يفعل ذلك . وحض على اتباع رسول الله لنيل رضوان الله . وهي وإن كانت تعليمية وتشريعية عامة فإن نصها وروحها يلهمان بقوة أنها موجهة إلى فريق من المسلمين كانوا يتخذون بعض الكفار أولياء ونصراء . وهو ما روثه روايات التفسير حيث ذكرت خبر استمرار الموالاة بين بعض المسلمين واليهود في المدينة . وهذا لا يمكن أن يكون من الصنف الأول .

٥ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَآأَنتُمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِأَلْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ... »

١٢٠ - ١١٨

وفي الآيات نهى آخر عن اتخاذ اليهود أولياء وبطانة واطلاعهم على أسرار المسلمين، مما يلهم أن من المسلمين من كان شديد الصلة والاندماج فيهم ؛ وتفصيل ما عليه اليهود من عدا كامن للمسلمين وبغضاء شديدة وتربص سوء بهم ، يدل على تلك الشدة في الصلة والاندماج ؛ إذ توخى به حملهم على الارعواء عما هم متورطون فيه من خطة ضارة كل الضرر ، مناقضة لواجب كرامة النفس وحفظ الكيان . والراجح أن اليهود كانوا يستغلون هذا الاندماج والصلة في الدس والتشكيك . وتكرار النهي بهذا الأسلوب يدل على عدم الارعواء والاستجابة للنهي الأول ؛ ولا يمكن أن يصدر كل هذان الصنف الأول كما هو المتبادر .

٦ - في السورة نفسها هذه الآيات :

« ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ يُخَفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قَتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ... »

١٥٤

وهذه الآية من جملة ما نزل من آيات السورة تعقيبا على حوادث وقعة أحد التي دارت الدائرة فيها على المسلمين . وبعض المفسرين قالوا إن الكلام الذي حكته الآية هو كلام المنافقين . وهذا القول محل توقف لأن المنافقين لم يشهدوا الوقعة على ما جاء صراحة في آية أخرى من السورة وهي :

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَوْا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ ... »

١٦٧

فيكون الكلام صادرا في ظرف حزن وألم من فريق من المسلمين غير منافق والمتبادر أنه لا بد من أن يكون من الصنف الثاني دون الأول .

٧ - وفي سورة النساء الآية التالية أيضا :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَن يُجْعَلُوا لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ... »

١٤٤

والآية من سلسلة فيها حملة على المنافقين باسمهم الصريح لاتخاذهم الكافرين أولياء ، وروح السلسلة تلهم أن المقصود مباشرة هم اليهود ؛ وروح الآية تلهم أنه كان من المسلمين غير المنافقين من ظل يتمسك بولائه لليهود مع ما كان من نهبي متكرر ،

وهذا مما يدعم ماقلناه آنفا . وفي ذلك صورة من الصور الممثلة للصنف الثاني دون الأول .

٨ - وفي سورة النساء الآية التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ... »

٩٧

وتدل على أنه كان هناك فريق من المسلمين استكانوا وبقوا في مكة ولم يهاجروا وانتحلوا الأعذار الواهية : وننبه إلى أن الآية التي تلت هذه الآية أشارت إلى فريق آخر مستضعف حقا ، وعذرته ، وفي سورة الأنفال آية أخرى تذكر طبقة المتخلفين عن الهجرة بأسلوب فيه شيء من الملامة ، وإن لم يبلغ من القوة في ذلك مبلغ آية النساء ؛ وهي هذه :

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... »

٧٢

وسورة الأنفال نزلت قبل النساء ؛ وعلى هذا تكون آية الأنفال إنذارا أوليا للمتخلفين ، فلما ظل بعضهم متخلفا استحق اللوم والإنذار العنيفين . وفي صورة ممثلة للصنف الثاني دون الأول .

٩ - وفي سورة النساء الآيات التالية :

١ - إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيًّا . وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا . يَسْتَخْفُونَ مِنَّ

النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا . هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءُ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ... ١٠٥ - ١٠٩

٢ — وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ... ١١٢ - ١١٣

وهذه الآيات تضمنت إشارة إلى حادثة أ كملت الروايات صورتها ؛ إذ روي أنها نزلت في قصة درع لمسلم سرقها مسلم آخر اسمه طعمة وأودعها عند يهودي ، وأن أصحاب الدرع تعقبوا الأثر وسألوا طعمة فأنكرها ، ثم وجدوها عند اليهودي فأخبرهم أنها وديعة طعمة ، فرفعوا الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء طعمة مع أهله يؤكدون بسائق العصبية العائلية عدم سرقة صاحبهم وأن اليهودي هو السارق حتى كادوا يقنعون النبي صلى الله عليه وسلم ويجعلونه يحكم بقطع يد اليهودي ، ثم لم تلبث أن ظهرت براءة اليهودي وذنوب طعمة وتضليل أهله . وهكذا تكون الآيات مع الروايات قد انطوت على شيء مما كان يقع من بعض المسلمين الذين لا شك في أنهم من الصنف الثاني .

١٠ - وفي سورة النساء أيضا الآية التالية :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْقُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ أَنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ... » ١٤٠

والآية تلهم أن بعض المسلمين كانوا يترددون على مجالس وحلقات المنافقين ، ويفضون عما يسمعون من هزء بآيات الله ونقد لها ؛ ويبدو أن صلة المسلمين غير المنافقين بالمنافقين كانت مما لا مناص منه ، لأنها ناشئة عن أوشاج القربى وضرورات المصلحة ،

بدليل أن الآية إنما نهت على عدم الاندماج في جلسة فيها هزؤ وكفر ، وطبيعي أن هذا الاتصال ظل مستمرا طيلة العهد المدني ، وذلك ما تلهمه الآيات القرآنية العدة في مختلف أدوار التنزيل ، وفي هذا وذاك صور لما كانت عليه الحال ولبعض المسلمين كما هو واضح وكل هذا لا يمكن أن يقع من الصنف الأول

١١ - وفي سورة الأنفال الآيات التالية :

« كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ .
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ... »

٦ - ٥

حيث تضمنت إشارة إلى كراهية فريق من المؤمنين لخروج النبي صلى الله عليه وسلم للجهاد ومجادلته في ذلك مع ما كان من الحق والمصلحة في الخروج كراهية الموت وواضح أن هذه الصورة تمثل فريقاً من الصنف الثاني .

١٢ - وفي نفس السورة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ .
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ
الْعَصْمُ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ
لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا
يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَاتَّقُوا فِتْنَةً
لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . وَاذْكُرُوا
إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَثَاوَوْكُمْ
وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَاعْلَمُوا أَنَّمَا

أَمْوَالِكُمْ وَأُولَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ... »

٢٩ - ٢٠

والآيات وإن تكن في مقام التعليم والتأديب والتنبيه والتحذير فإن روحها بل ونصها يلهمان أنها موجهة إلى فريق من المؤمنين كانوا يترددون في إطاعة أوامر النبي صلى الله عليه وسلم ويقفون مواقف غير مستحبة فيها ضرر بمصلحة المسلمين العامة وإثارة للفتنة متأثرين في ذلك بحرصهم على مصالحهم الخاصة أو شدة تعلقهم بأموالهم وأولادهم حيث ينطوي في كل هذا صور لفريق من المؤمنين من الصنف الثاني دون الأول .

١٣ - وفي سورة التوبة الآيات التالية .

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ ءِآبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ... »

٢٤ - ٢٣

وروح الآيات تلهم أن أثر العصبية العائلية ظل قوياً في نفوس بعض المسلمين إزاء ذوي قرباهم من الكفار حتى وقت متأخر من العهد المدني ، لأن هذه الآيات نزلت على الراجح بين يدي الفتح المكي ، وأن هذا كان يؤثر أثراً سلبياً وضاراً في مواقف المسلمين والحركة الإسلامية ؛ وفي هذا صورة لما كانت عليه حال بعض المسلمين . وهذا التحذير مسبق بتحذير آخر بأسلوب آخر في آية في سورة المجادلة التي نزلت قبل هذه الآيات ، مما يدل على أن الأثر السلبي الضار المذكور كان محسوساً منذ العهد الباكر ؛ وهذه آية المجادلة :

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... »

٢٢

والآية إلى ما قلناه تدل على أن النهي الوارد في آيات التوبة موجه إلى الصنف الثاني من المسلمين كما هو واضح ؛ إذ تنكر أن يواد المخلصون الكفار بأي حال ؛ هذا إلى ما فيها من صورة مشرقة للصنف الأول في موضوع كان راسخاً عميق الجذور في نفسية المجتمع العربي وحياته ، إذ استطاعت هذه الفئة أن تتغلب من أثر ذلك وأن تغنى في الله ورسوله ودينه فناء تاماً .

ولقد كانت صلات القربى وعصبيتها القائمة بين المسلمين والكفار والمنافقين مما يثير أزمات نفسية شديدة في كثير من المسلمين الذين كان يتألف منهم الصنف الثاني ، وخاصة في ظروف الحرب ، مما تلهمه آيات عدة سنشرحها في فصل الجهاد .

١٤ - في سورة التوبة الآيات التالية :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلُّمُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . »

٣٨ - ٣٩

والمبادر أن الذين يوجه إليهم الخطاب والتنديد في الآيات إنما يمثلون فريقاً من الصنف الثاني .

١٥ - في سورة محمد الآيات التالية :

«إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ . إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْفَانَكُمْ . »

هَآأَتُمْ هَؤَلَاءَ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ
فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ
ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ . . . »

٣٨ - ٣٦

وفي الآيات صورة لما كان عليه بعض المسلمين من شح حينما يدعون للإِنفاق في
سبيل الله ، وقد احتوت حكمة سامية في عدم تكليف المسلمين تكاليف مالية عظيمة
لثلا يبدو منهم مالا يتفق مع خلق الإسلام الصحيح من الطاعة والسخاء . والصورة لا
تقع كما هو ظاهر إلا من الصنف الثاني .

١٦ - في سورة الحجرات الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ
وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا
بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا
وَلَا يَغْتَبِ بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ . . . »

١٢ - ١١

وهذه الآيات وإن كانت في معرض التعليم والتأديب فالتبادر أن ما نهت عنه مما
كان يصدر من بعض فئات المسلمين تجاه بعض ، وفي الفقرة الأخيرة من الآية الأولى
قرينة على ذلك ، ولقد روي أن الآية نزلت بسبب سخرية بعض الأغنياء من بعض
الفقراء ، وبسبب غمز بعض زوجات النبي بعضا ، وبسبب نبذ بعض المسلمين مسلمي
اليهود والنصارى بالنصراني واليهودي بعد إسلامهم ، وأن الآية الثانية نزلت بمناسبة
إساءة الظن بخازن للنبي صلى الله عليه وسلم وتجسس بعض المسلمين عليه ، وواضح أن كل
هذا إنما يحتمل صدوره من الصنف الثاني في الأغلب .

١٧ - في سورة الحجرات أيضا الآيات التالية :

١ — قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ
الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ...

١٤

٢ — يَمْشُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْتَنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ
أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ...

١٧

وفي الآيات صورة لإيمان بعض الأعراب وزهوهم ، بل منهم به ، مع أنه إسلام
ظاهري أكثر مما هو إيمان قلبي ، ولعلمهم كانوا يرمون بذلك إلى الحصول على مساعدات
ومنافع ؛ ويبدو من روح الآيات أن قبول إسلام الأعراب على هذا الوجه أيضاً مما كانت
تسوغه الظروف مع شرط الانقياد والطاعة للرسول على اعتبار أن الأعراب لا يستطيعون
أن يبلغوا أكثر من ذلك في بادي الأمر ، وأن الاستمرار كفيف بلوغه إلى مداه .
على أن في سورة التوبة بعد آيات فيها حملة على الأعراب المنافقين والمتخلفين عن الجهاد
جاءت هذه الآية :

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ
اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ... »

٩٩

وقد احتوت مصداق الحكمة التي ألمعنا إليها ، وصورة مشرقة لبعض الأعراب الذين
نفذوا الإسلام إلى أعماقهم واستشعروا واجبه ، وإذا لاحظنا أن آية التوبة من أواخر
ما نزل بدت لنا الحكمة السامية لذلك ، كما بدت لنا صورة تطورية لإسلام الأعراب
في مدى العهد المدني أيضاً .

١٨ — في سورة الحديد الآيات التالية :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ^(١) وَقَدْ
أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ

(١) الراجح المستلهم من روح الآية أن المقصود من « تؤمنون ، ولتؤمنوا » التصديق بما يؤمرون به والانقياد له .

لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . وَمَالَكُمْ إِلَّا تَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى . وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . . . »

١٠ - ٨

والآيات موجهة للمسلمين ، وروحها تلهم أن بعضهم لم يكن عميق الإيمان والتصديق والطاعة لله ورسوله ، كما أن بعضهم لم يكن يقابل الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله مقابلة حسنة ؛ فهل كان يظن أن قليل الإنفاق يجزي كما كان الأمر قبل الفتح وفي أيام الشدة ؟ وفي ذلك على كل حال صورة ممثلة للصنف الثاني .

١٩ - وفي السورة نفسها الآية التالية :

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ . . . »

١٦

الآية احتوت كما تلهمه روحها تنديداً بأولئك الذين لم يكونوا مندمجين كل الاندماج في الإسلام وواجباته - وخاصة الإنفاق في سبيل الله - من المسلمين ، والذين كانوا موضوع الآيتين السابقتين . وقد حذرهم من أن تقسو قلوبهم كما قست قلوب الكتابيين .

ومن الجدير بالتنبيه أن الآيات ١٨ - ١٩ وقد نقلناها في القسم الأول من هذا المبحث - قد احتوت تنويعاً بالمتصدقين والمتصدقات والمخلصين في الإيمان ، كما أن الآيات التالية لهذه أيضاً احتوت تهويماً لشأن الحياة والاستغراق فيها ، ودعوة إلى التسابق إلى ما عند الله من عظيم الأجر والمغفرة ، وتنديداً بالبخلاء الذين يأمرؤن الناس بالبخل كما ترى :

« أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا

ثُمَّ يَكُونُ حُطْمًا فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ . سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لَّكَيْلًا تَأْسَوْا
عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ .
الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ...»

٢٠ - ٢٤

مما يدل على أن موقف بعض المسلمين السليبي من الإنفاق في سبيل الله كان موقفاً
استحق ذلك . وفي ذلك صورة ممثلة للصنف الثاني كما هو المتبادر .

٢٠ - في سورة المجادلة الآية التالية .

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ
الرَّسُولِ وَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . . .»

٩

وقد سبقها آية فيها تنديد بالمنافقين الذين كانوا يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية
الرسول ولم ينتهوا عن ذلك على رغم نهيم عنه ؛ غير أنها تلهم أن من المسلمين من كان
يعقد أيضاً مجالس خاصة يتسارون فيها في الأمور العامة ، وكانت أخبارها تصل إلى النبي
صلى الله عليه وسلم ، ويبدو أنه كان يجري فيها من الأحاديث ما يضر الخوض فيه ،
فجاءت الآية محذرة منبهة . وقد روي أن هذه المجالس كانت تعقد على الأكثر في
أزمات الحروب ؛ فلعله كان يجري فيها من الحديث ما يفت في أعضاد المسلمين ويشير هو أجسهم

٢١ - في سورة الممتحنة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ
إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْخَلْقِ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ
أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي
مُتَسَرِّثُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا
إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالشُّوَءِ وَوَدُّوا أَنْ تَكْفُرُوا . لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ
وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْضِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . . . »

٣ - ١

وقد روى المفسرون أن الآيات نزلت في رجل من المهاجرين اسمه حاطب في مناسبة
إرساله رسالة إلى أهل مكة يخبرهم فيها بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم . والرواية تذكر
أن الرجل اعترف وتذرع بأن له في مكة عشيرة ليس لها عصبية تحميها لأنها غريبة عن
مكة فأراد أن يتخذ عندهم يداً وهو موقن بأنه لن يضر مصلحة المسلمين لأن الله سوف
ينصرهم على كل حال وأقسم أنه لم يكن كافراً ولا منافقاً . وكان ممن شهد بدرًا . فصدقه النبي
وعفا عنه . وقال لعمر بن الخطاب الذي استأذنه بقتله (وما يدريك يا عمر . لعل الله قد
اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)^(١) .

وعلى كل حال ففي ما انطوى في الآيات صورة مما يحدثه تأثير المصالح الشخصية أو
الأسروية في نفوس بعض المسلمين فيجعلهم يحرصون على اصطناع اليد واستبقاء الروابط
بينهم وبين الكفار على رغم ما كان واستمر من هؤلاء من مواقف العداء والكيد والأذى
ضد المسلمين .

٢٢ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ ءَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ »

(١) انظر تفسير الآيات في تفسير الطبري والبغوي والطبرسي والزمخشري .

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ...»

٩ - ٧

وروح الآية الأولى تلهم صورة لما كان يعتلج في نفوس بعض المسلمين ، وبتعبير أدق : المهاجرين ؛ من أمنية ملحّة أن تنتهي حالة العداء والتشاد القائمة بين المسلمين ومشركي مكة ، كما أن الآية الثانية تبيح لهم أن يبروا ويقسطوا إلى ذوي النيات الحسنة والمواقف السلمية من غير المسلمين ، والآية الثالثة تشدد الحظر على الولاء لذوي النيات السيئة والمواقف العدوانية ، وتصف من يخالف ذلك بالظلم ، مما يمكن أن يستلهم منه ومما قبله أن ذلك الحكم كان الصورة السابقة في أن هذه الفتوى كانت نتيجة لاستفتاء واقعي ، وأمنية ملحّة أيضاً ؛ ولقد روي في صدد الآيات أن إحدى قريبات زوجة من زوجات النبي جاءت لزيارتها فلم تشأ البر بها قبل استئذان النبي وإذنه ؛ غير أننا نرى الآيات أبعد مدى من هذه الحادثة الفردية في روحها ومضمونها ، وخاصة بسبب مجيئها بعد آيات السورة الأولى التي احتوت الصورة التي ذكرناها . وعلى كل حال ففي الآيات صور لما كان يشعر به بعض المهاجرين نحو أقاربهم وأصدقائهم في مكة من شعور أليم بسبب حالة العداء ، وما كانت تدفعهم رابطتهم وعاطفتهم إليه من مواقف محرّجة تستوجب العتاب والتحذير .

٢٣ - في سورة الصف الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرَّضُونَ ...»

٤ - ٢

والخطاب كما هو واضح موجه للمؤمنين . حيث يفيد هذا أن فريقاً منهم كان يتخاذل عن الجهاد أو في أثناء القتال . ويدعى أو يقول أو يعد شيئاً ثم ينكل عنه ولا يفعله . وهذا لا يمكن أن يكون من صفات الصنف الأول كما هو المتبادر .

٢٤ - في سورة الجمعة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ... »

١١ - ٩

وفي هذه الآيات صورة لفريق من المسلمين كانوا لا يبالون أن يتركوا المسجد وقت صلاة الجمعة والنبي قائم فيهم ، ليسارعوا إلى تجارة وصل إليهم خبرها ، أو لهُو بدت لهم أسبابه ؛ وقد روي أنهم كانوا يفعلون ذلك حينما ترد قوافل التجارة من الخارج ، أو حينما تسير مواكب الغناء والزمير ؛ وظاهر أن هذا إنما يكون من الصنف الثاني .

٢٥ - في سورة التغابن الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... »

١٦ - ١٤

وقد روي أن الآيات نزلت في مسلم كان أولاده وزوجته يثبطونه عن الغزو والإنفاق خشية الموت والفقر ، كما روي أنها نزلت في جماعة آخرتهم أموالهم وعيالهم

عن الهجرة ، فلما وجدوا إخوانهم السابقين قد سبقوهم فقهاً في الدين وبلاء في الجهاد هموا بمعاقة أولادهم وأزواجهم ؛ ومما يلاحظ أن الآية الأخيرة تبحث على الإنفاق ، ويستلهم من ذلك أن للإمساك عن الإنفاق دخلاً في هذا الموقف متصلاً بتثبيط الأولاد والزوجات ، وعلى كل حال في الآيات صورة لما كان يقع أحياناً من تقاعس بعض المسلمين وتقصيرهم في واجباتهم بسبب الأزواج والأولاد وحب المال .

ولقد ورد في سورة الأنفال آية تنبيهية في هذا المعنى وهي :

« وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ... »

٢٨

وقد جاءت بعد آية فيها نهى للمسلمين عن خيانة الله ورسوله والأمانات ، مما يدل على حدوث واقعة اقترف فيها بعض المسلمين خيانة ما بسبب الأموال والأولاد . ولقد كانت الأموال والأولاد مدار اعتذار حتى عن الجهاد في بعض الأحيان كما جاء في آية سورة الفتح (١١) التي شرحناها في المبحث الأول .

صور متنوعة أخرى لا تقوم على مظاهر التفاوت في الإخلاص

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

بالإضافة إلى تلك الصور التي تتضمن مواقف وحالات المسلمين حسب تفاوتهم في الإخلاص فإن هناك صوراً عديدة أخرى عامة وخاصة لا تقوم على مظاهر التفاوت في الإخلاص نعرضها فيما يلي :

١ - في سورة آل عمران الآيات التالية .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ .
وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ
أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنْ

النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . . . »

١٠٢ - ١٠٣

وفي سورة الأنفال هذه الآيات :

« وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

٦٢ - ٦٣

حيث انطوى في المجموعتين إشارة إلى ما كان من حالة العداء بين طوائف العرب المسلمين قبل إسلامهم وكيف انقلبت هذه الحالة بفضل الله تعالى ودينه إلى أخوة قوية متينة .

ورواة التفسير والمؤرخون يذكرون أن ذلك كان حالة قبيلتي الخزرج والأوس اللتين تتألف منهما غالبية حرب المدينة حيث كانت حالة الحروب والعداء قائمة بينهما قبل الإسلام .

وفي سورة الأنفال آية تقرر التناصر التام بين طوائف المهاجرين والأنصار أيضاً وهي :

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... »

٧٢

وفي سورة التوبة آية تقرر التناصر التام بين المؤمنين على اختلاف طوائفهم وهي هذه :

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... »

٧١

وبذلك تمت مظاهر فضل الله ودينه ونعمته بالأخوة الإسلامية المتينة التي كانت تشمل الجمهور الإسلامي في العهد المدني .

وما كان من بعض المظاهر التي فيها شذوذ عن ذلك إنما كان في نطاق ضيق ثم تضاعف مع تقدم العهد .

٢ - في سورة النساء الآية التالية :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ... »

٧٥

حيث ينطوي فيها صورة لفريق من المسلمين من رجال ونساء وولدان ظلوا في مكة على الأرجح مستضعفين مغلوبين على أمرهم يسألون الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجاً . وإلى هذه الصورة في هذه السورة آيات تفيد أنه كان هناك فريق آخر رضوا بالبقاء في أرض الكفر والظلم ولم يحاولوا النجاة منها مع أنهم لم يكونوا فاقدين كل حيلة ووسيلة إلى ذلك فاستحقوا التثريب والإنذار كما ترى فيها :

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ... »

٩٧ - ٩٩

٣ - في سورة النساء الآية التالية :

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ... »

٩٢

وفي الآية ما يفيد أنه كان من المؤمنين من كان أهله وعصبته القرية أعداء كافرين ومنهم من كان بين أهله وعصبته القرية وبين المؤمنين عهد وميثاق أيضاً .

٤ - في هذه السورة كذلك الآيات التالية :

« لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ... »

٩٥ - ٩٦

وفي الآيات ما يفيد أنه كان من المؤمنين من يقعد عن الاشتراك في الجهاد وأن ذلك لم يكن أمراً ملزماً لجميع المسلمين . (ولعل ذلك كان في ظرف من ظروف العهد المدني) .

٥ - في سورة الأنفال الآية التالية :

« وَأَذْكُرُوا إِذْ أَتَيْتُمْ قَلِيلًا مُّسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَثَاوَنَكُمُ وَأَيْدِيكُمْ يُنْصِرُهُ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... »

٢٦

وقد انطوى في الآية تذكير للمؤمنين بما كانوا عليه في العهد المكي من قلة وضعف وخوف . وصورة لما صاروا إليه في العهد المدني من قوة ونصر ورخاء رزق .

٦ - في سورة الممتحنة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهْجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالْإِيمَانِ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ

وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ... »

١١ - ١٠

وقد احتوت الآيات صوراً متنوعة عن العهد المدني . منها :

(١) أن بعض المؤمنات لم يستطعن الهجرة من المدينة في مراحلها الأولى فظلن في مكة تحت حفظ ومراقبة ذويهن وكن يترقبن الفرصة للنجاة ولما واتهن فررن من مكة مهاجرات إلى المدينة فضربن بذلك مثلاً رائعاً للمرأة المسلمة في الصدر الإسلامي الأول على الجرأة والإقدام على التضحية والخطر في سبيل الدين الحق والحرية .

(٢) إن نساء بعض المهاجرين ظلن في مكة متمسكات بدين الآباء وظلن مع ذلك في عصمة أزواجهن المؤمنين المهاجرين .

(٣) إن نساء بعض المهاجرين هربن من المدينة أو أغرين على الهروب منها وعدن إلى حيث ذويهن الكفار .

٧ - وهناك آيات عديدة بعضها يفيد أن من المسلمين من كان غنياً واسع الرزق . ومنهم من كان فقيراً معوزاً . كما ترى في ما يلي :

(١) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ...

٢٧٣ البقرة

(٢) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ...

٢٧٤ البقرة

(٣) وَءَاتَيْتُمْ إِيَّاهُمْ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ...

٢٠ النساء

(٤) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مَنْ فَتَيْتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ... ٢٥ النساء

(٥) وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ٢٢ النور

(٦) وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... ٣٢ النور

(٧) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ... ٧ الحشر

٨ — وهناك آيات تفيد أن الله عز وجل من على المؤمنين فبدل عسرهم يسراً وقهرهم غنى وضيقهم سعة ففهم من شكر ومنهم جحد كما ترى في الأمثلة التالية :

(١) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَثَاوَوْكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... ٢٦ الأنفال

(٢) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَنْتَهِوا عَنْ شَيْءٍ فَلَمَّا عَاهَدُوا مِنْ فَضْلِهِ جَاحِلُونَ بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ... ٧٤ - ٧٦ التوبة

(٣) وَأَوْزَرَ كُفْرَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ... ٢٧ الأحزاب

٩ - ولقد احتوى القرآن حكاية أسئلة واستفتاءات كثيرة كان المسلمون يوردونها على النبي صلى الله عليه وسلم فينزل الله جواباً عليها للتشريع والتأديب . مما فيه صور متنوعة للمسلمين وشؤونهم ومشاكلهم في هذا العهد . وما كان من شعورهم بالطمأنينة والاستقرار وبالحاجة إلى التفقه في الدين وإقامة أمورهم وحل مشاكلهم على أسس مستلزمة من أوامر الله تعالى وإرشاد من رسوله صلى الله عليه وسلم . وهذه جملة من ذلك :

(١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحُجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ...

البقرة ١٨٩

(٢) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ...

البقرة ٢١٥

(٣) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ...

البقرة ٢١٧ - ٢١٨

(٤) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخُمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى

قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ...
البقرة ٢١٩ - ٢٢٠

(٥) وَبَسَّطْنَاكَ مِنَ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ
وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الَّتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ...
البقرة ٢٢٢

(٦) وَبَسَّطْنَاكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ
فِي يَتَمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنَ الْوُلَدِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِهِ عَلِيمًا ...
النساء ١٢٧

(٧) يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَلَةِ إِنْ أَمْرُؤُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ
أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا
الْثُلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ...
النساء ١٧٦

(٨) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ
مُكَلَّبِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ بِمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا أَسْمَ
اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ...
المائدة ٤

(٩) « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ
تَحَاوَرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ
أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا اللَّيْ وَلَدُهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا
وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَ لِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتِمَّ سَائِمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . »

١ - ٤ المجادلة

والصورة التي انطوت في آيات المجادلة بخاصة خطيرة ورائعة معاً حيث تضمنت حكاية جدال امرأة مسلمة في أمر زوجها الذي ظاهرها (أي قال لها أنت على محرمة كظهر أمي) وكان الظهار يجعل الزوجة محرمة فعلاً على زوجها . فلما رفعت أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم شاكية قال لها ما أراك إلا حرمت عليه فجأرت بالشكوى إلى الله مما سوف ينالها من مصيبة من جراء ذلك فلم تلبث الآيات أن نزلت منددة بتقليد الظهار الجاهلي ومشرعة تشريعاً لتفادي أثره في الإسلام .

١٠ - وهناك صورة طريفة تستفاد من آيات سورة المائدة هذه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدِّلَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ . . . »

١٠١ - ١٠٢

وقد تعددت الروايات المروية في صدد هذه الآيات . ومنها أن بعضهم سأل عما إذا كان الحج سنوياً . وأن النبي صلى الله عليه وسلم سكت فأتى السائل فقال لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم فاتركوني ما تركتكم وإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه .

ومنها أن بعضهم سأل عن صحة ما كان عليه العرب في الجاهلية من عقائدهم في البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي^(١) وهي التي ذكرت بعد الآيات وهذه تقاليد جاهلية كان العرب

(١) البحيرة : هي المشقوقة الأذن . والسائبة : هي التي يتركونها دون تحميل ولا تشفيل . والوصيلة : هي أنثى النعم التي تأتي بعد ذكر فيقال لها وصلت أخاها . والحامي : هو الفحل الذي ينتج عشرة فبحمي ظهره من التحميل والركوب .

يسرون عليها في حق الأنعام في بعض الظروف على ما شرحناه في كتابنا عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة . وعلى كل حال فالآيات تفيد أن بعض المسلمين كانوا يلحون في الأسئلة عما هو ضروري وعما هو غير ضروري وكان في بعض أسئلتهم إخراج أو إثارة للخرج فاقترض الحكمة الإيحاء بالآيات .

١١ - وهناك صورة طريفة أخرى تستفاد من آيات سورة المجادلة هذه :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَتْ فَإِذْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . . .

١٢ - ١٣

وعبارة (ناجيتم الرسول) بمعنى ساررتموه في مجلس خاص والمقصود من ذلك على ما هو المتبادر الاجتماعات الخاصة التي كان بعض المسلمين يرغبون في عقدها مع النبي صلى الله عليه وسلم لاستشارته أو استفتائه في بعض أمورهم . وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وسيلة إلى أخذ رسم من الأغنياء منهم لينفق على مصلحة المسلمين . وفكر في أن يكون ديناراً فاستشار علياً بن أبي طالب رضي الله عنه فاستكثر ذلك واقترح أن يكون حبة أو شعيرة أي جزءاً صغيراً من الدينار . غير أن بعض المسلمين استنقلوا ذلك وقالوا إن ما يدفعونه باسم الزكاة كاف فاقترضت حكمة الله إلغاءه في الآية الثانية .

١٢ - وفي سورة الممتحنة هذه الآية :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . . »

والآية صريحة بأن النساء للمؤمنات جئن إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبايعنه أسوة بالرجال فأمر بأخذ البيعة منهم بالنص الوارد فيها . وينطوي في هذه الواقعة صورة خطيرة من صور المسلمين في العهد المدني تتمثل في طموح المرأة المسلمة إلى تقرير شخصيتها المستقلة في دولة الإسلام إزاء السلطان الإسلامي الذي كان يمثله النبي صلى الله عليه وسلم . وفي أمر القرآن للنبي بمبايعة المؤمنين إقراراً لذلك الطموح وتقرير لتلك الشخصية إقراراً وتقريراً خالدين عظيمي المدى كما هو المتبادر .

وهذه الصور ليست كل ما كان من المسلمين في صدد مشا كلهم وأسئلتهم واستفتاءاتهم . فإن كثيراً من التشريعات القرآنية المتصلة بشؤون الزواج والطلاق والرضاع والعدة والدين والوصية والارث ودخول الناس على بيوت بعضهم ومكاتبة الرقيق . والحج والقتال والجهاد والزكاة والصدقات الخ وإن كانت تبدو في أسلوبها تنزيلات مباشرة فإن روحها والروايات الواردة في صددتها تلهم أنها نزلت في مناسبات ووقائع واستفتاءات ومنازعات بين بعض المسلمين مما ينطوي فيه صور كثيرة متنوعة عن المسلمين في العهد المدني كذلك . ويصح أن يشار هنا إلى ما أوردناه في المبحث السادس من فصل شخصية النبي صلى الله عليه وسلم في الجزء الأول من صور سلوكية للمسلمين نحو النبي التي احتوتها آيات مدنية مثل آيات سورة الحجر ١ - ٣ و ٤ - ٥ وآيات سورة النور ٤٧ - ٥٢ و ٦٢ - ٦٣ وآيات سورة الأحزاب ٦٩ - ٧١ لأن لها صلة بهذا المبحث من حيث هي صور للمسلمين في العهد المدني كما هو المتبادر .

وهناك صور متنوعة أخرى أرجأنا عرضها إلى فصول المناققين والجهاد والكتابين لأنها أكثر ارتباطاً بها .

فصل في المنافقين في العهد المدني تمهيد

علة ظهور الحركة في المدينة دون مكة - مدى نفاق المنافقين في العهد المدني
أثر مواقفهم وخطورتها - أثر اليهود في حركتهم - مباحث الفصل على
حسب تصنيف الآيات - مدى ما في القرآن من ملهات بأن المنافقين طبقات -
عدم اعتبار النبي المنافقين أعداء محاررين وقتلهم أو قتالهم ومدى ذلك -
ملهات القرآن بأن معظم المنافقين أفراد بارزون .

الصورة الأولى

في سورة العنكبوت آيات احتوت كلمة (المنافقين) ونددت بهم وهي هذه :
« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ
كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ
بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ . وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ . . . »

١٠ - ١١

ولقد روى المفسرون أن هذه الآيات مدنية . غير أننا شككنا في ذلك استلهاماً مما
سبقها وما لحق بها من الآيات . وسواء أصبح استلهاماً أم لم يصح فإن حركة النفاق التي
نبحث لناواة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والإسلام هي في الحقيقة من حركات
العهد المدني وأحداثه .

وعلة ظهور تلك الحركة في المدينة واضحة ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون
الأولون في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم
أو ترجو خيرهم ، فتتملقهم وتزلف إليهم في الظاهر ، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر
بهم في الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجه عام ؛ ولقد كان أهل مكة وزعماءها خاصة

يناوئون النبي جهاراً ، ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد ، ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ماتحرز أو تحفظ ، وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فراراً بدينهم ودمهم إلى الحبشة ، أولاً ثم إلى يثرب ؛ وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه ، أو بالإغراء والتهويش ، وحتى تزلزل بعضهم وتبرم وناق المشركين ، وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب ، كما مر تفصيله في مباحث العهد المبكي .

أما في المدينة فقد كان الأمر مختلفاً جداً . فالنبي صلى الله عليه وسلم استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصاراً أقوياء من الأوس والخزرج ، ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه ، ولم يبق تقريباً بيت عربي فيها لم يدخله الإسلام ^(١) ففي هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به - إما عن جهالة وغباء ، وإما عن غيظ وحقد وعناد لأنهم رأوا في قدوم النبي حداً لنفوذهم وسلطانهم - ^(٢) موقف الجحود والعداء العلني للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار ؛ وكان للعصبية في الوقت نفسه أثر غير قليل في عدم الوقوف هذا الموقف ، لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبي ، ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر ، إلى أن جلهم قد حسن إسلامهم ، وغدوا يرون في النبي رسول الله وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة ، ومرشداهم الأعظم الواجب الاتباع ؛ فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك ، ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد ويحملهم ذلك على مناوأة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ونفوذه - أن يظهروا علناً في نزعتهم وعدائهم ، ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام والقيام بأركانه ، والتضامن مع قبائلهم ، وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والمواربة والخداع والتمويه ؛ وإذا كانوا وقفوا أحياناً مواقف علنية فيها كيد ودس وعليها طابع من النفاق

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣١ .

(٢) في سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٣٥ أن الخزرج كانوا مزعمين المنادة بعبد الله بن أبي زعيم المنافقين ملوكاً عليهم قبيل الهجرة ، وأنه حقد على النبي لأن قدومه حال دون ذلك .

بارز ؛ فإنما كان هذا منهم في بعض الظروف والأزمات الحادة التي كانت تحدث بالنبي والمسلمين ، والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط ، ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو بالنفاق ، غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم في الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، كما أن تلك المواقف العلنية التي كانوا يقفونها في فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتاً ؛ وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضايح المرة بعد المرة ، وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون ، وتدمغهم بشروهم وخبثهم ومكايدهم ، وتحذر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين منهم في كل ظرف ومناسبة .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّة

ولقد كانت مواقف المنافقين ومكايدهم بعيدة المدى والأثر على ماتلهم الآيات المدنية، حتى لكانه نضال قوي يذكر بما كان من نضال بين النبي صلى الله عليه وسلم وزعماء مكة وإن اختلفت الأدوار والنتائج ؛ إذ أن النبي لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد ، وقوته تزداد ، ودائرة الإسلام تتسع ، وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز ؛ وإذا لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة ؛ وكان ضعفهم وضالة عددهم وشأنهم يسيران سيراً متناسباً عكسياً مع ما كان من تزايد قوة النبي صلى الله عليه وسلم واتساع دائرة الإسلام ، وتوطد عزته وسلطانه .

ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذي قام به المنافقون ، وخاصة في أوائل العهد ، أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبياً بعصبياتهم التي كانت ما تزال قوية الأثر في نفوس سواد قبائلهم ، كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة ، ولم يكن الإسلام قد رسخ في هذا السواد رسوخاً كافياً ؛ وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان محوطاً بالمشركين الجاحدين من كل جانب ؛ وأهل مكة خصومه الألداء ، وهم قبلة الجزيرة ، يتربصون به الدوائر ، ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ؛ واليهود في المدينة

وحولها قد تفكروا له منذ عهد مبكر وتطيروا به ، ثم جاهره بالكفر والعداء والمكر والكيد ؛ ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعي على توحيد المسعى ، والتضامن في موقف المعارضة والكيد ، حتى ليكن القول إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار في الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد ، وما انعقد بينهم من تضامن وتوافق ؛ ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي من هؤلاء وأظهره عليهم وكفاه شرهم .

الصورة الثالثة

والآيات التي تتضمن أوصاف وأخبار ومواقف المنافقين والحملات عليهم كثيرة جداً ، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية منها وخاصة الطويلة والمتوسطة ؛ وهذا يعني أن هذه الحركة ظلت طيلة العهد المدني تقريباً ، وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأول ، وهي متنوعة المدى والدلالات ، ويمكن تصنيفها كما يلي :

- ١ - ما جاء في صفاتهم وأحوالهم .
- ٢ - « » « مواقفهم الكيدية والساخرة وتآمرهم ضد المسلمين والإسلام .
- ٣ - « » « مواقفهم من الجهاد ووقائعه .

الصورة الرابعة

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى ثلاث نقط في صدد هذا الفصل :

أولاً ما جاء في الآيات التي سنوردها من وصف «الذين في قلوبهم مرض» بدل وصف «المنافقين» ومن اجتماع الوصفين معاً في آية واحدة ، ومن تفاوت الشدة في الحملات وتنوع الصور ؛ مما يسوغ القول إن هذه الفئة كانت فريقين أو طبقتين ، واحدة كافرة كل الكفر ، عدوة كل العداوة ، ماكرة كل المكر ؛ وأخرى ضعيفة النفس ، مريضة القلب ، تميل مع المنفعة ، وترغب بنفسها عن ما تسميه مخاطر ومجازفات ومشاكل ، ويأخذها شيء من الشك والتردد في طاعة الله ورسوله طاعة تامة ، وتنجرّ أحياناً إلى الفئة الأولى فتحذو حذوها ، أو تقع في شباكها وتندمج معها .

ومما يجدر التنبيه إليه مع ذلك أن الحملات القرآنية العنيفة ، ووصف الكفر والنفاق ، والأمر بالمجاهدة والشدة ، قد تناول هذه الطبقة في آيات عدة كما تناول تلك مما يمكن الاستدلال به على أن القرآن وإن تضمن إلهام كونهم طبقتين أو طبقات - إذا أردنا أن نصنفهم على حسب تنوع مواقفهم - فإنه تضمن إلهام أنهم فئة واحدة ، وتضمن بالتالي إلهام أن أي ختل أو شك أو تردد أو تهرب أو سخرية أو تقصير في الواجبات العظمى كالإيمان التام بما يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم من قرآن أو يأمر به من أوامر أو يحكم به من أحكام ، وكالطاعة التامة له ، وكاحترامه كل الاحترام ، وكالقيام بواجب الجهاد بالنفس والمال لتوطيد حرية الإسلام ، ودفع الخطر والبغي والكيد عن الإسلام والمسلمين ومصالحهم ، والتضامن القوي التام في كل هذا مع سائر المسلمين باطناً وظاهراً ؛ أو الاندماج مع أعداء الإسلام والمسلمين في مؤامرة أو مكيدة ، أو مسايرتهم في أي موقف أو قول مهما كان نوعه ومهما كان ناتجاً عن أوشاج الرحم والقربى والعصبية والمصلحة نفاقاً - يعتبر داخلًا في شمول صفات النفاق التي وردت في الآيات القرآنية وفي شمول ماورد بحق المتصفين بها من تنديد قارع ، وإنذار قاصم ، وإن كان فريق أقل شدة أو أكثر تحفظاً من فريق آخر ، وننبه إلى ما في هذا من تلقين قرآني جليل مستمر المدى .

والثانية ولها أهمية عظمى فيما نعتقد من ناحية السيرة النبوية : هي عدم ورود روايات موثقة تتضمن أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتبر المناقذين أعداء محاربين أو عاملهم كذلك ، أو أمر بقتلهم ، أو قتل بازريهم ، بسبب صفة النفاق ، أو بسبب موقف منبعث عنه من تلك المواقف الكثيرة المتنوعة التي حكمتها الآيات التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل عنهم ، والتي احتوت صوراً كثيرة من الأذى والكيد والسخرية بالله ورسوله وآياته ، والتناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، والتثبيط عن الجهاد والختل فيه ، ودس الدسائس وإثارة الفتن والأحقاد ، وإشاعة الفاحشة والإرجاف بين المسلمين بما يثير قلقهم وفزعهم ، والتعرض لنساء المسلمين ، بل لنساء النبي بالأذى والكيد ، والتضامن

مع أعداء الإسلام وموالاتهم وتقرير كونهم قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إيمانهم الخ ، وفي حين أن القرآن أمر بمجاهدتهم مع الكافرين ، والإغلاظ لهم واعتبارهم أعداء ، وأمر بقتل من لم ينته منهم عن مواقف الأذى والإرجاف ، وبنفيه ، وبتقتيله أينما ثقف ، فضلاً عما أُنذروا به من عذاب دنيوي وأخروي شديدين ، وفي حين أن القرآن حكى مواقف لهم مثل هذه المواقف ، وبعد هذه الأوامر والإنذارات والتقارير الحاسمة ؛ كما أن القرآن لم يتضمن إشارة ما إلى ذلك .

فإزاء هذا لانعدو الصواب إذا قلنا :

(١) إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعتبر المنافقين أعداء محاربين ، فلم يقاتلهم فعلاً كما كان شأنه مع الكفار ، لاسيما أن حرب النبي لهؤلاء إنما كان لبدئهم بالعدوان واستقرارهم فيه ، وحربه لليهود إنما كان لمثل ذلك ، وغزوته لتبوك بسبيل التنكيل بسكان المشارف الذين كان غالبهم نصارى ، وتسييره السرايا على هذه المشارف واشتبأ بها بحرب مع النصارى فيها إنما كان كذلك لعدوان سابق ؛ ولم يكن حال المنافقين على كل حال يشبه حال كفار العرب أو اليهود أو النصارى المحاربين .

(٢) إن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتبر ما جاء في الآيات القرآنية بمثابة توجيهات متروك إليه أمر تقدير ظروف تنفيذها والسير فيها بما يوافق مصلحة الإسلام والمسلمين ؛ لاسيما أن بعض الآيات الواردة في هذا الصدد قد تخللتها جمل تلهم معنى التعليق على شرط مثل جمل « فإن يتوبوا بك خيراً لهم » و « لئن لم ينته المنافقون » و « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم » و « إن نفع عن طائفة منهم نعذب طائفة » إلخ كما تخلل الآيات الواردة في شأنهم إشارات إلى أنهم كانوا يصلون مع الجماعة وكان يؤدون الزكاة - مع وصف ذلك بأنه وقع كرها ورياء - وكانوا يحلفون الأيمان على حسن نيتهم وصدق إسلامهم ؛ فرأى أن يعاملهم بسعة صدر وحلم وصبر إلى النهاية ، لما كان بينهم وبين كثير من الخالصين من روابط القربى والرحم ، ورأى أن خلاف هذه الخطة قد يفتح في صفوف الإسلام

تفترات واسعة ، ويشير أزمات داخلية حادة ^(١) ؛ لاسيما أنه كان مطمئن القلب بوعده الله بالنصر النهائي ، وإظهار دينه على الدين كله ؛ وقد أخذ يرى منذ أوائل النصف الثاني من العهد المدني وبعد ما خضدت شوكة اليهود - وهو الوقت الذي صار في إمكانه من جهة مادية شن حرب عملية عليهم مأمونة عواقبها بعض الأمان - أن صوته بدأ يخفت ، ونشاطهم يخمد ، وعددهم يقل ، وتزلفهم يشتد ، ومداراتهم تزداد ، وخوفهم يبدو واضحاً ؛ وربما ندم منهم كثيرون فعادوا إلى حظيرة الحق والإسلام الصحيح ، فكانت هذه الظواهر مما ثبتته في خطته ورأى فيها الصواب والمصلحة .

أما الثالثة فهي أن الآيات الواردة في حق المنافقين ومرضى القلوب ، تلهم روحاً أو مضموناً ، أو روحاً ومضموناً في آن واحد ، أن حركة النفاق إنما قام بها وتولى كبرها أفراد من البارزين في قومهم وعشائرم قليلاً أو كثيراً ، بل إننا لنكاد نقول استلهاها من روح الآيات ومضمونها إن معظم أفراد هذه الفئة من تلك الطبقة ، وإنه إذا كان اندمج فيها أناس من طبقة السواد أو العامة فإنهم لم يكونوا كثيرين وإنما انساقوا فيها بتأثير أولئك ، من ناحية زعامتهم وعصبية الأرحام التي تربط بينهم ، أو من ناحية الإغراء والمنفعة .

وهذا طبيعي كما هو المتبادر ؛ لأنه ليس لأفراد من السواد مصلحة في مناوأة حركة اندمج فيها غالب قومهم ، إيماناً وتصديقاً وإخلاصاً وجهاداً ثم مصلحة وكيانا ، كما أنه قلما يكون في هؤلاء من يظن أنه أعقل من أن يندمج في حركة اندمجت فيها الكثرة

(١) في روايات السيرة أن عبد الله بن أبي هو الذي قال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرس منها الأذل » و « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » ، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم بقتله فأبى فأتاه ما مفاده : لا أريد أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، وأن كعب بن عبد الله رضي الله - وكان مخلصاً - جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له يا رسول الله إن كنت قاتل أبي فأمرني أنا أقتله ولا تأمر غيري لأني لأطيق أنت أرى قاتلاً لأبي ، فأقتله فأ كفر ! فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم قاتلاً بل نعوذ ونصبر عنه .. وفي هذا مصداق ما قرناه آتفا .

الكبرى ؛ وإن الذين اندفعوا في مناوأتها واغتياظوا منها وحقدوا عليها لا يمكن أن يكونوا إلا أفرادا من البارزين الذين يمكن أن يتوهما فيها ضررا وخطرا على مركزهم ومصالحهم ، وأن يأنفوا لكرامتهم ولما يتوهمونه في أنفسهم من عقل من الاندماج فيها ؛ ولقد كان لليهود يد قوية في هذه الحركة كما ذكرنا ؛ فالذين أخذوا على عاتقهم مهمة تغذية هذه الحركة وتنميتها لا يمكن أن يتصلوا بشأنها إلا مع أمثال هؤلاء كما لا يخفى .

الصورة الخامسة

كذلك نريد أن نشير إلى ما كان من انقسام المسلمين في الرأي فيهم ؛ فقد جاء في سورة النساء الآيات التالية :

« فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَنَفِقِينَ فِتْنَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا . وَذُؤَا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . . »

٨٨ - ٨٩

إذ تلهم الآية الأولى أن المسلمين كانوا منقسمين في الرأي في المنافقين ، منهم من يحسن الظن بهم ويعتذر عنهم ويأمل في إرجعائهم ، ومنهم من لا يرى ذلك . ولقد ذكرت الروايات أنها بحق منافقي المدينة الذين خذلوا المسلمين في وقعة أحد ؛ كما ذكرت أنها بحق فريق من البدو أعلنوا إسلامهم ولكنهم لم يتضامنوا مع المسلمين في الجهاد والهجرة ؛ وبعض الروايات قال إنها بحق الفريق الذي تخلف في مكة ولم يهاجر ؛ والرواية الأولى قد تصح إذا دلت كلمة « يهاجروا » بمعنى يجاهدوا أو يخلصوا ، وقد أولها غير واحد من المفسرين هذا التأويل .

ومع احتمال وجاهة الروايتين الآخرين فإننا نرى الرواية الأولى - بقطع النظر عن

ظرف وقعة أحد - بهذا التأويل أوجه ، لأن اختلاف المسلمين في الرأي في المنافقين أكثر احتمالاً بالنسبة لمنافقي المدينة ؛ وقد يكون في الآية الثانية تدعيم لهذا أيضاً ، إذ تذكر كفرهم ، وتذكر تمنيتهم أن يكفر المسلمون مثلهم ؛ وهذه صفات وصف بها منافقو المدينة على ما ورد في آيات التوبة وغيرها مما سنورده في هذا الفصل ؛ لاسيما أن الروایتين الآخرين لا تذكران بصراحة اتصاف البدو أو المتخلفين عن الهجرة في مكة بصفة النفاق والكفر ، ولا تتحمل حالتهم المروية هذه الصفة .

والأمر بقتلهم حيث وجدوا إذا تولوا ولم يخلصوا ليس من شأنه أن يضعف توجيهنا بأن المقصودين هم منافقو المدينة ، فقد ورد في آيتي الأحزاب ٦٠ - ٦١ اللتين سنوردهما في أحد مباحث هذا الفصل صراحة أن المقصودين هم منافقو المدينة إذا لم ينتهوا .

وقد احتوت الآية الثانية حكم الله في هذا الخلاف ، وفيه تأييد للمتشددين في أمرهم وبيان لمواقع حالهم من الارتكاس في الفتنة والكفر والضلال .

والذي نرجحه أنه كان للعصبية الاجتماعية والمصالح المشتركة الوثيقة أثر فيما كان من رأى التسامح الذي أبداه الفريق الأول ، كما نرجح أن المنافقين كانوا يستغلون هذه الروابط القوية المؤثرة فيما كان منهم من مواقف دس وكيد وتشكيك وسخرية وعدم تضامن إلخ مما احتوت صوره آيات كثيرة سنوردها في مباحث الفصل ، ثم في الاطمئنان من عدم الوقوف منهم موقف الشدة والغلظة رغم ما كان منهم من مواقف شديدة الأذى والكيد ، فاقترضت الحكمة نزول الآيات بالحكم الحاسم والأمر الشديد حتى يسد الباب أمام هذا الاستغلال ويقف المسلمون موقفاً واحداً ورأياً واحداً منهم ، وهو موقف الشدة والتكفير إذا لم يتوبوا ويخلصوا .

ولقد احتوت إحدى آيات سورة النساء وهي هذه :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا

وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ...»

١٤٠

شيئاً من التدعيم لما قررناه من هذا الأثر ، إذ تلهم أن بعض المسلمين لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من التردد على مجالس الزعماء المنافقين ، والإغضاء عما يدور فيها من كفر وهزء بآيات الله ونبيه ، فأمرُوا بعدم مجالستهم أثناء الخوض في مثل ذلك على الأقل ؛ كأنما رأت الحكمة حرجاً في منعهم بالمرة .

ومن هنا تبدو لنا ناحية من حكمة الخطة النبوية في المنافقين التي شرحناها في الفقرة السابقة . ولما كانت الخطة المذكورة قد استمرت إلى آخر العهد النبوي أو أواخره ، فإن هذا يسوغ القول إن فريقاً من المسلمين ظل على رأيه في العطف على ذوي قرباه منهم ، والاعتذار عنهم وأمله في ارعوائهم ، وظل متأثراً بالعصبية والقرابة والمصلحة ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم رأى من الحكمة أن يستمر في خطته تلك .

ولقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم في آية التوبة هذه :

«وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ...»

٨٤

التي نزلت في أواخر العهد المدني ، أي في ظروف غزوة تبوك ، بعدم الصلاة على من يموت منهم وهو ثابت على نفاقه وكفره ، مما يلهم أن النبي كان يستجيب إلى طلب ذوي قربي المنافق فيصلي عليهم إذا ماتوا ويدعو لهم ، وأن هذا قد استمر إلى أواخر العهد المدني ؛ وفي هذا تدعيم لما نحن بسبيل تقريره .

المبحث الأول

في صفات المنافقين وأحوالهم

وصف شامل للمنافقين في سورة البقرة ومداه - وصف آخر لهم في نفس السورة - صور وأوصاف وحالات متنوعة لهم من سورة النساء - من سورة التوبة - ما تلمح آيات التوبة من تبدل حالهم إلى القلة والضعف - النفاق في الأعراب - منافقون متكتمون - صور وحالات من سورة الحديد - من سورة محمد - من سورة « المنافقون » .

الصورة الأولى

(١) في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . إِنَّمَا كَانُوا يَقُولُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ الْسُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . . . »

١٦ - ٨

وقد احتوت الآيات وصفا قويا شاملا للمنافقين ، فهم يدعون الإسلام كذبا ، ويدسون ويفسدون ثم يزعمون أن فيما يبدو منهم إصلاحا ومصلحة ، ويأنفون أن يكونوا كالمخلصين فناء في الإسلام وواجباته وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعتبرون ذلك سفها ، وقد عقدوا الصلات الوثيقة باليهود فكلموا إخلاهم أكادوا لهم أنهم معهم ،

وأنهم إذا تظاهروا بالإسلام فليس إلا خداعاً واستهزاء ؛ وكل هذا منبث عن مرض قلبي ونية خبيثة فيهم .

والآيات لا تحتوي كلمة « المنافقين » ولكنها لا تدع أي شك في أنها تعنيهم . والآية (١٣) التي تحكي وصفهم المؤمنين المخلصين بالسفهاء ، تلهم أن القائلين من الزعماء البارزين الذين تدفعهم عنجهيتهم إلى الترفع ، والذين كانوا يرون في التفاني في النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته غلوا لا محل له والراجح مع هذا أن ما حكي عنهم إنما كان يصدر منهم حينما يكون مخاطبهم أو معاتبهم من طبقتهم ، أو من ذوي رحمتهم ، بحيث يأمنون النيمة والعصية ؛ ومثل هذا ما حكته عنهم الآية (١٢) أيضاً إذ ترجح أن الذين كانوا يعاتبونهم على دسهم وإفسادهم من طبقتهم أو ذوي رحمتهم ؛ ولعل في جملة « وإذا قيل لهم » في كلتا الآيتين قرينة ما على ذلك . ويبدو أن تفاني المخلصين في النبي والإسلام مما كان يزيد في لهيب هذه الفئة ، لأن ذلك كان مما يحبط مكائدهم ، ويبعد عنهم ذوي أرحامهم ولعل فيما حكي عنهم في الآيتين من الاعتذار الواهي المكابر قرينة ما على ذلك أيضاً . ومهما كان احتمال ألا تكون هذه الآيات من أول ما نزل من القرآن المدني . فإننا لا نشك في أنها مما نزل في عهد مبكر ، ويستلهم هذا من أنها إنما تحتوي وصفا عاما . وتبكير نزولها يلهم أن هذه الحركة قد ظهرت مبكرة جدا ،^(١) وأن التوافق بين القائمين بها واليهود قد توطد كذلك في عهد مبكر جدا .

٢ - وفي سورة البقرة الآيات التالية أيضاً :

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ... »

٢٠٤ - ٢٠٦

(١) ورد في روايات السيرة أن غيظ بعض زعماء المدينة الذين صاروا زعماء المنافقين قد بدأ قبل الهجرة النبوية ، وفي عهد القاري أو الإمام الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم مع وفود المدينة ليعلمهم القرآن ويؤمهم في الصلاة .

وفي هذه الآيات صورة أخرى للمنافقين ، وإن لم يرد فيها كذلك كلمة « المنافقين » وهي صورة قوية الملامح للناس الذين يستثيرون الإعجاب بأقوالهم المنمقة ، وأيمانهم المغلظة ، ولكنهم لا يتورعون عن أفظع الآثام ؛ ثم يفضبون إذا ما عوتبوا وطولبوا بتقوى الله وخوفه مما يقترفونه ، ويعتبرون ذلك إهانة لكرامتهم ، ووسيلة للإغفال في الشر والفساد والفتنة . والصورة وإن كانت مطلقة تعبر عن فئة من الناس قد توجد في كل زمن ومكان لأنها متصلة بطبائع البشر المختلفة ، فلا شك في أن الآيات قد نزلت في صدد أناس من المتظاهرين بالإسلام كانوا يبطنون الكفر ، ويوغلون في الإثم والعداء والفتنة ؛ ولقد ذكرت الروايات أنها نزلت في زعيم بدوي اسمه شريق بن الأخنس ، غدر وأثم بعد توكيد الإيمان ، وعهده على عدم الخيانة والغدر .

الصورة الثانية

٣ - في سورة النساء الآيات التالية :

١ — إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَدُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا . بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ...

١٣٧ - ١٣٨

٢ — إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . مُذَبَذِينَ بَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ...

١٤٢ - ١٤٣

وقد ذكر المنافقون في الآيات بصراحة ، وفي الآيات الأولى صورة نفاق وتذبذب عجيبة لهم ، إذ كانوا يعلنون إيمانهم ثم يكفرون ثم يعلنون إيمانهم ثانية ثم يكفرون ، على حسب ما توحيه إليهم ظروف الأمن والخوف والمصلحة ؛ وفي الآيات الأخرى صورة ثانية ، فقد كانوا يظنون أنهم ناجحون في دور خداعهم مع أنهم مفضوحون فيه ، وقد كانوا إذا حضرت الصلاة قاموا إليها كسالى مرآة للناس فحسب ،

وقلما ذكروا الله ذكر المؤمل في رحمته الخائف من نعمته ؛ وهكذا كانوا مذبذبين في حالتهم ، تبعاً للظروف ، غير صادرين على أي حال عن نية حسنة ، ورغبة صالحة ؛ وروح الآيات تلهم أن موضوع الكلام أفراد معدودون وغير مجهولين كما هو واضح فيها ؛ ولقد تقرر التنديد بهم لقيامهم إلى الصلاة كسالى في الآية ٥٤ مما يلهم :

(١) أنهم كانوا يمارسون الصلاة مع الجماعة و (٢) أن حالتهم هذه كانت من الأمارات العامة على نفاقهم وعدم إخلاصهم في إسلامهم .

٤ - وفي السورة نفسها هذه الآيات أيضاً :

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً . . . »
١٤٥ - ١٤٦

فالمنزلة التي يتوعد الله بها المنافقين في النار تلهم كما هو المتبادر شدة نكابتهم ، وسوء أثر مواقفهم حتى لكأنهم من شر الكفار الصريحين - أما الآية الثانية فإنها بسبيل بث الأمل فيهم بعد بيان تلك المنزلة الرهيبة ، ودعوة لهم إلى الكف والارعواء حتى لا يتحقق وعيد الله فيهم . ومع أن فتح باب الإنابة والتوبة للجاحدين والآمين هو مما تكرر في القرآن تقريره من المبادئ العامة ، فإن الآية مما يمكن أن تلهم أن المنافقين أو أن فريقاً منهم ، وخاصة الخدوعين بزعمائهم ، لم ينقطع الرجاء من ارعوائهم وإخلاصهم ؛ ولقد احتوت سورة التوبة آيات فيها ما يدل على تناقص عددهم وضعف شأنهم سوف نوردها بعد ؛ فلعل في هذا التطور ما يدعم ما يمكن أن تلهمه الآية وننبه إلى أن في الآية وما تلهمه تأييداً لما استنتجناه من حكمة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيهم على ما قررناه في الفقرة الأخيرة من التمهيد .

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ

٥ - في سورة التوبة الآيات التالية :

١ - وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُم مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ .
لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ...

٥٦ - ٥٧

٢ - يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ أَخْزَىٰ لِلْعَظِيمِ ...

٦٢ - ٦٣

٣ - الْمُتَنَفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .
وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ...

٦٧ - ٦٨

٤ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبَشَ الْأَمْصِرُ . يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . يَمَّا لَمْ يَنَالُوا مَّا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُم مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ...

٧٣ - ٧٧

وسورة التوبة من أواخر ما نزل من القرآن، وهذه المقاطع قد نزلت - على ما يستلهم

من سياقها ومضامين المقاطع الأخرى المتصلة بها - في ظروف الاستنفار إلى غزوة تبوك ، وبسبب ما كان من مواقف المنافقين يومئذ ؛ مع التنبيه إلى أنها قد جاءت بقصد التنديد والتذكير بمواقفهم وأخلاقهم وحالتهم بصورة عامة .

والمقطع الأول احتوى صورة لما وصل إليه شأهم من خوف وضعف وقلة وتزلف ؛ وهذه الصورة تمثلهم في أواخر العهد المدني ، لأنهم كانوا يستشعرون القوة والعزة شيئاً ما قبل ذلك ، كما تلمه آيات أخرى سوف نوردّها بعد .

والمقطع الثاني احتوى صورة من صور تزلفهم للمخلصين وحلفهم الأيمان على إخلاصهم بقصد إرضائهم ؛ وينطوي في هذا صورة الضعف والخوف والتزلف أيضاً كما هو واضح ؛ وبهذا يمكن أن ينسحب عليها ما قلناه آنفاً من تمثيلها لهم في أواخر العهد المدني .

والمقطع الثالث يحتوي وصفا لسوء أخلاقهم وتضامنهم في النهي عن المعروف والخير ، والأمر بالمنكر والشر ؛ ويسوي في ذلك الرجال والنساء منهم ، والراجح أن هذا التضامن إنما كان منهم في صدد الدعوة الإسلامية ، وتعليمات النبي صلى الله عليه وسلم وتبليغاته إذ كانوا يأمرون بمخالفة أوامر النبي ومبادئ الإسلام ، وينهون عن الانقياد للنبي والتزام تلك المبادئ التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر أما المقطع الرابع فقد احتوى أمراً بمجاهدتهم هم والكفار سواء بالإغلاظ عليهم ، وتبعية الأمر ببيان عن بعض حالاتهم وأخلاقهم ، فهم يفكرون أنهم كفروا بعد إيمانهم ويحلفون على ذلك مع أنهم كاذبون ، لأن الكفر صدر منهم قولاً وعملاً ، وحاولوا تقويض الإسلام جهدهم فخابوا وفشلوا ؛ ولم يكن لموقفهم هذا من سبب إلا الحقد والفيظ من النبي واشتداد أمره ، مع أنه قد عاد عليهم من ذلك بسطة العيش والفني ، ولقد كان منهم من ينفذ بأن يتصدق في سبيل الله ويخلص له إذا أنعم عليه ، فلما آتاه الله من فضله بخل وتولى ، فتمّ عن خبث نيته وسوء طويته ، ودمغ إلى الأبد دمغة النفاق .

وفي المقطع ما يدل على ما عاد على أهل المدينة ، من الهجرة النبوية والحركة

الإسلامية ، من الخيرات والبركات ، وفي هذا مشهد من مشاهد هذا العهد كما هو واضح .

ويلفت النظر خاصة إلى الآية (٧٣) التي تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بمجاهدة المنافقين والكفار ، وما يتضمنه هذا من اعتبار الفريقين في موقف واحد من العداء للإسلام والكيد له ؛ وما لا ريب فيه أن هذا قد كان بسبب ما بدا منهم من بغى ودس وكيد ، وينطوي فيه الإشارة إلى خطورة مواقفهم وشدة نكاية حركتهم ، كذلك يلفت النظر إلى الفقرة الأخيرة من الآية (٧٤) ففيها إنذار لهم بالتوبة ، وتنبيه إلى أن في ذلك خيرهم ، وبالتالي إبقاء باب التوبة مفتوحاً أمامهم ، مما هو متسق مع التقارير القرآنية ، وما عللنا به صبر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم وعدم معاملتهم معاملة الأعداء المحاربين ؛ وما ينطوي فيه أمل ارجعوا إليهم . على أن فيها صورة أخرى لما وصلوا إليه من ضعف وازورار عن المسلمين وفيهم ذوو رحمهم ، وذلك في جملة « وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير » ، كما يتبادر لنا .

والمقاطع الأول والثاني والرابع تلهم أن موضوع الكلام أفراد بارزون كما هو واضح ، وفي ذلك مصداق لما ذكرناه في التمهيد .

(٦) وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ . وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ . . . »

٨٤ - ٨٥

وهي من سلسلة تضمنت حملة على المنافقين لتخلفهم عن غزوة تبوك بأنفسهم وتثبيطهم غيرهم مما سوف نورد في مبحث آخر ؛ والمتصل بهذا المبحث منها هو ما تدل عليه (١) من افتضاح أمرهم أو أمر بعضهم بأعيانهم ، وتقرير كفرهم ونفاقهم بأسلوب حاسم ؛ بمحيث

نهت النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على من يموت منهم والدعاء له والقيام على قبره .
(٢) من غناهم أو غنى بعضهم وكثرة أولادهم ، واعتدادهم بذلك ؛ وقد تلهم الآية الثانية إلى هذا ما كان لهم من تأثير بسبب ذلك ، وما كان يعتلج في نفس النبي والمسلمين من رغبة في ارعوائهم ، وغيظ مما حازوه من ذلك لما كان لهم بسببه من قوة التأثير في غيرهم ؛ وواضح من هذا أن موضوع الكلام أفراد بارزون أيضا . ولقد ورد في السورة نفسها آية مقاربة النص لهذه الآية وهي الآية ٥٥ ؛ وتكرار ذلك في سلسلة واحدة تقريباً ، قد يدل على صحة ما استلهمناه ، واستهداف القرآن إضعاف مقام في نفوس المسلمين من رغبة أو ثار من عاطفة .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

(٧) وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .. وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ... »

٩٨ - ٩٧

وقد جاءت هذه الآيات في سياق التنديد بالمتخلفين من الأعراب عن غزوة تبوك ، وهي صريحة الدلالة على أن النفاق لم ينحصر في منافقي المدينة ، بل كان في الأعراب منافقون أيضا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، ويتملقون المسلمين حينما مع تربصهم الدوائر بهم ، ولا يرون فيما يدفعون من زكاة ونفقات جهاد إلا مغرما ، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يرجون وجه الله وثوابه فيما يفعلون .

ولعل من الجائز أن يقال إن منافقي الأعراب لم يكن منهم ذلك الدور الخطير المؤذي الذي كان من منافقي المدينة ، وإن مواقفهم النفاقية إنما كانت تظهر في

المناسبات وعند الاختبار ، وخاصة في ظروف الاستنفار إلى الجهاد ، واستيفاء زكاة الأموال ، كما كان أحيانا يظهر من أعراب لم ينعتوا بنعت النفاق كاجرى في الاستنفار إلى زيارة الكعبة التي انتهت بصلح الحديبية على ماجاء في آيات سورة الفتح ١١ - ١٢ التي نقلناها في مناسبة سابقة . ولعل عدم الإشارة إليهم إلا في هذه السورة ومناسبة غزوة تبوك قريبة ما على ذلك ؛ وقد يكون هذا طبيعيا ، لأن منافقي المدينة في حالة مواجهة واتصال واحتكاك دائمة مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين وذوي قرباهم واليهود ؛ هذا إلى ما في الآية الأولى من تعليل متصل بطبيعة البدو والبادية وما يلهم هذا التعليل من الفرق بين منافقي الأعراب ومنافقي المدينة .

٨ - وفي السورة نفسها الآية التالية :

«وَمِنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ...»

١٠١

وهي تقرر أنه كان هناك طبقة من المنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب استطاعت أن تتقن نفاقها عن المسلمين أو جهلهم ؛ ويبدو أنه كان هؤلاء أذى بليغ ، لأن الآية توعدهم بالعذاب مرتين في الدنيا فوق ما ينتظرهم من عذاب الآخرة ، وفي هذا صورة جديدة من صور حركة النفاق في العهد المدني كما هو واضح .

٩ - وفي سورة محمد الآيات التالية :

«أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَثَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَقْتُمُ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ...»

٢٩ - ٣٠

وفي الآيات إنذار لمرضى القلوب بالفضيحة . وبأن الله لا يخفى عليه أمرهم . ولو شاء

للد النبي عليهم فرداً فرداً . ومع ذلك فقد أكدت أن النبي صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يعرفهم من أسلوب أقوالهم . ويبدو أن الآيات قد عنت الفريق الذي اتقن كتم نفاقه عن سواد المسلمين والذي أشارت إليه آية التوبة . (١١٠) التي أوردناها قبل هذه الآيات غير أن أحواله وأقواله ومواقفه كانت تفضحه أحياناً . أو على الأقل كانت تكشف للنبي صلى الله عليه وسلم عما في قلبه من مرض . وهذا الإنذار بهذا الأسلوب قد يلهم أن من هذا الفريق من كان يرجى ارجعواؤه وعودته إلى حظيرة الإخلاص خشية الفضيحة التامة على الأقل وروح الآيات تلهم أن موضوع الكلام أفراد بارزون .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

١٠ — وفي سورة الحديد الآيات التالية :

« يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ... »

١٤ - ١٣

وهي وإن كانت وصف حال مشهد أخروي ، فإن الآية الثانية قد احتوت بيان ما كان من واقع حالهم الدنيوي من انحراف وريبة وغرور وتربص ، إلى سائر صفات النفاق التي كانوا متصفين بها . وقد ذكر المناققات إلى جانب المنافقين كما ورد أكثر من مرة واستدلنا به على أنه كان للمرأة دور في حركة النفاق كما كان لها دور في الحركة الإسلامية والحركة الجحودية معاً .

١١ - وفي سورة المنافقون الآيات التالية :

« إِذَا جَاءَكَ الْمُنفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنفِقِينَ لَكَاذِبُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ
خُشِبَ مُسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى
يُؤْفَكُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ
يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ
اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ
رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنفِقِينَ
لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... »

٨ - ١

وفي الآيات صورة قوية صريحة للمنافقين ؛ فهم يظهرون الإسلام ويحلفون كذباً
أنهم مصدقون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم وفي حين أنهم لا يتورعون عن
الكفر ، ويعطلون الناس عن تأييد النبي ويصدون عن سبيل الله ، ويأنفون أن
يطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر الله لهم على ما اقترفوه من آثام ؛ وإن
مظاهرهم لتعجب الرأي ، وأقوالهم لتحمل المخاطب على الاستماع لما فيها من تنميق
وتزويق ، في حين أنها عاطلة من الإخلاص ، وصادرة عن نية خبيثة ، وطوية
مريبة ؛ وهم إلى هذا كله دائمو الخوف والقلق النفسي ، كلما هتف امرؤ ظنوا أنه يهتف
ضدّهم ، وكلما أشار امرؤ إلى أحد توهموا أنه يشير إليهم ويحاول أن يفضحهم ؛ فهم
العدو الذي يجب الحذر منه وعدم الركون إليه في حال . والآيتان الأخيرتان في صدد
مواقف كيدية للنبي والمسلمين دعا إليها بعض زعماء المنافقين في بعض المناسبات ،

وسفسرحها في مبحث آخر ؛ غير أنهما تحويان بالنسبة لحالهم ما يلهم أنهم كانوا على شيء من القوة ونفوذ الكلمة حينما نزلت الآيات ، أو أنهم كانوا يشعرون بذلك في أنفسهم ؛ إذ جهروا بالدعوة إلى مقاطعة المهاجرين وعدم مساعدتهم ، وإلى نذر إخراجهم مع النبي من المدينة .

وروح الآيات تلهم أن الصورة هي بنوع خاص لزعماء المناققين وبارزيهم ؛ وهذا ينسحب فيما نفتقد على ما جاء في الآيات الأخرى من صورة ووصف حال .

المبحث الثاني

في مواقفهم الكيدية والساخرة والتآمرية

صور لمواقفهم الكيدية من سور النساء والتوبة والأحزاب والمجادلة والنافقون - إشارة تذكيرية إلى صور كيدية سابقة - صور لمواقفهم الساخرة من سور النساء والتوبة ومحمد - صور لمواقفهم التآمرية من سور النساء والتوبة ومحمد والمجادلة تذكير بصور تآمرية سابقة إتماماً للسلسلة .

الصورة الأولى

إن هذا المبحث يتناول كما هو واضح من عنوانه ثلاثة أنواع من المواقف ؛ ولهذا رأينا أن نقتبس صور كل منها لحدتها .
فأولا مواقفهم الكيدية :

١ - في سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ... »
٦٠ - ٦١

وقد احتوت صورة لما كان من تعطيل المنافقين وصددهم عن التقاضي لدى رسول الله ، وتفضيلهم التقاضي لدى زعيم من زعماء اليهود عرف بشدة حقده وعدائه للنبي والإسلام ؛ والصورة من صور الكيد الواضحة كما هو المتبادر .

٢ - وفي سورة التوبة الآية التالية :

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ... »
٥٨

وقد احتوت صورة كيدية للنبي صلى الله عليه وسلم باتهامهم إياه بالخبايا في توزيع أموال الزكاة ، وتقريراً لواقع حالهم في هذا الاتهام ، فهم يتوسلون بالافتراء والسكيد للحصول على نصيب منها قد لا يرى النبي لهم حقاً فيه .

٣ - وفي سورة الأحزاب الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا . وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَبْنَا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِنَّ نَوْمٌ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَقْتِيلًا ... »

٥٧ - ٦١

وقد تضمنت إشارات إلى مواقف كيدية للمنافقين فيها أذى وسوء أدب إزاء النبي والمؤمنين والمؤمنات ، وإلى ما كانوا يسعون فيه من نشر إشاعات السوء عنهم والإرجاف في حقهم بما هم براء منه ؛ والآية ٥٩ قد تلهم أنه كان من جملة مواقف هذه الفئة ما يتنافى مع الرجولة والمروءة من التعرض للحرائر من نساء المسلمين أثناء خروجهن إلى حاجاتهن ، وأذيتهم بفاحش القول وبذيئه . والإنذار الذي احتوته الآيتان الأخريان قاصم وحاسم ومتناسب مع ما أشارت إليه الآيات من مواقف الأذى والسكيد والإرجاف . وعدم ورود ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد طردهم أو طرد بعضهم عن المدينة ، أو أمر بقتلهم أو قتل بعضهم بعد هذا التوجيه القرآني الحاسم ، قد يلهم أن الذين كانوا يقفون هذه المواقف الكيدية والمؤذية قد ارتدعوا عنها .

ولقد نقلنا في بحث حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية آيات عدة من سورة

النور احتوت إشارات إلى ما كان من بعض زعماء المنافقين من موقف شديد الأذى للنبي صلى الله عليه وسلم وآله في ظروف ماعرف في تاريخ السيرة بحديث الإفك ؛ وهذا الموقف من حيث الشكل والأسلوب يتصل بما أشارت إليه آيات الأحزاب من مواقف ، كما أن آيات النور قد احتوت إنذاراً شديداً لهم وقررت أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، وحذرت من خطتهم القائمة على اتباع الشيطان الذي يأمرهم بالفحشاء والمنكر ؛ وهذا مقارب لما احتوته آيات الأحزاب من إنذار ، ومن بابه أيضاً .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

٤ - وفي سورة المجادلة الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ... »

٨

وقد احتوت صورة لموقف شديد الأذى والكيد مما كان يقفه المنافقون ؛ فقد كانوا يعقدون المجالس والحلقات الخفية ليضعوا خطط الكيد والمصيان والتمرد على النبي ؛ فعاتبهم النبي صلى الله عليه وسلم ونهاهم عن ذلك فلم يأبهوا للعتاب وظلوا في خطتهم الإثمة ؛ ومما روي أن هذه الحلقات كانت تعقد أكثر ماتعقد في ظروف الأزمات الحادة التي كان يضطرب لها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وهذه الرواية متسقة مع منطق الأمور ، حيث تكون الفرصة سانحة لهم لوضع خطط الدس والتثييط والكيد ، استغلالاً للظروف الحرجة ؛ وفي هذا ما هو ظاهر من شدة الكيد والأذى ؛ وقد يدعم هذه الرواية آية جاءت بعد قليل وهي :

« إِنَّمَا النِّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ... »

١٠

إذ احتوت طمأنة للمسلمين بأن هذه الحلقات السرية هي من وساوس الشياطين
بقصد إدخال الحزن على نفوسهم مع أنها ليست بضارتهم شيئاً؛ لأن الضرر والنفع إنما هو
من الله ، وعليهم أن يتوكلوا عليه .

وفي الآيات إلى صور مواقف الأذى والكيد صور تصف سخرية المنافقين من النبي صلى
الله عليه وسلم ؛ إذ تضمنت الإشارة إلى أنهم كانوا حينما يأتون إليه لا يسلّمون عليه بالسلام
المعتاد ؛ وإنما بسلام فيه غمز أو سخرية ثم يتساءلون ساخرين جاحدين متى يقع
عليهم عذاب الله الذي أنذرهم به النبي صلى الله عليه وسلم جزاء ما يصدر منهم من
أقوال وأفعال ؟!

ولما كان من المرجح أن هذا التساؤل إنما كان يقع فيما بينهم ، كما أنهم كانوا
يعقدون تلك الحلقات متكتمين ، فإن من المحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم
قد جعل عليهم عيوناً يأتونه بأخبارهم وما يبيتونه من خطط الكيد والأذى ، كما تلهمه
روح الآيات ، لاسيما أنه ليس فيها ما يفيد أن الله هو الذي أطلع النبي بالوحي على
ما يعقدونه من حلقات ويصدر منهم من أقوال جحودية ساخرة ، وهذا مما قد ينسحب
على كثير من خطط المنافقين الكيدية على ما هو المتبادر ، وفيه إن صح مشهد من مشاهد
السيرة النبوية .

٥ - وفي سورة المنافقين آية نقلناها في المبحث السابق وهي الآية ٧ ؛ وقد تضمنت
حكاية توصية كيدية من زعماء المنافقين للناس بعدم الإنفاق على المحتاجين ممن هم
حول النبي حتى تضيق بهم الحال وينفضوا عنه وتضعف حركته وشأنه ، والراجح
أن المقصودين هم المهاجرون من قريش الذي أصبح كثيرون منهم أو بالأحرى

أكثرهم فقراء محتاجين بتركهم أموالهم في مكة على ما أشارت إليه إحدى آيات الحشر هذه :

« لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ... »
٨

وفي السورة نفسها آية أخرى نقلناها كذلك في المبحث السابق وهي الآية ٨ ؛ وقد تضمنت حكاية نذر شديد الخطورة والكيد من زعماء المنافقين بأنهم سيخرجون النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه القرشيين من المدينة ؛ وهذا النذر يدل على ما كان يستشعره هؤلاء الزعماء من الثورة والعزة والقدرة على النكاية والكيد ، على ما ذكرناه في المبحث السابق .

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ

وثانيا مواقفهم الساخرة :

(١) في آيات سورة البقرة التي نقلناها قبل هذه الآيات :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامِنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ... »
١١ - ١٤

حيث تتضمن الآيات صوراً من سخريتهم وانتقاصهم للمسلمين .

(٢) في سورة النساء الآية التالية :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ... »
١٤٠

وقد جاءت الآية في معرض التنديد بالمنافقين؛ واحتوت صورة لما كان يعقده المنافقون من مجالس يستهزئون فيها بالنبي والقرآن، وينسكرون أن يكون متصلاً بالله. وفي الآية صورة لبعض المسلمين هم المقصودون بالنهي في الآية، إذ تلهم أن فريقاً منهم لم يكن يرى بأساً في التردد على مجلس المنافقين والسمير معهم، والإغضاء عما يدور فيها من استهزاء وكفر؛ وكما كان للعصبية والقراية والمصالح المشتركة أثر فيما كان من مواقف دس المنافقين، فإن لها أيضاً أثراً في هذا الموقف كما هو المتبادر، ويبدو أن هذا الأثر كان قوياً بحيث أن الآية اكتفت بالنهي عن الاشتراك في مجالس فيها كفر وهزل بآيات الله فقط، إلى أن ينتقل الكلام إلى مالا حرج فيه.

(٣) وفي سورة الأنفال الآية التالية :

« إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوًى لَّآءَ دِينِهِمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... »
٤٩

وهذه الآية نزلت في جملة السياق الوارد في سورة الأنفال تعقيماً على ما أحرزه المسلمون من نصر على قريش في وقعة بدر. ولقد أثار هذا النصر دهشة المنافقين ولكنهم كظموا غيظهم وعبروا عنه بالعبارة الساخرة التي حكها عنهم الآية.

(٤) وفي سورة التوبة الآية التالية :

« وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذْنٌ قُلْ أَذْنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... »
٦١

وقد احتوت حكاية قول ساخر لهم إزاء النبي في تقديم له، وقولهم عنه إنه سماع لكل ما ينقل له، كما أن فيها تنبيهاً إلى أن هذا القول كان مما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم؛ وقد روي في صدرها أن بعضهم كان يقدح في النبي فإذا حذر بعضهم بعضاً من وصول الخبر إليه قالوا إنه أذن سهل الاقتناع فتحلف له فيصدق؛ والتنبيه على أن قولهم

كان مما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم مما يجعل الرواية سائغة كما هو المتبادر .

(٥) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزْهُوَ إِنْ أَلَّ اللَّهُ مُخْرَجًا مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ... »

٦٥ - ٦٤

ولقد روى أن الآيات نزلت في فريق من المنافقين كمنوا للنبي صلى الله عليه وسلم في طريق عودته من تبوك ليقعوه عن دابته ، فعلم بالمؤامرة وعان بهم فأنكروا واعتذروا ؛ كما روي أن بعضهم كان يقده أثناء الغزوة فيه ويستهزيء بما يقول ويعد من نصر الله على الروم ، فعلم بأقوالهم فأوقف الركب وعان بهم فأنكروا واعتذروا ، ومنهم من تاب وحسن إسلامه .

والروايتان لاتتسقان مع روح الآيات ومضمونها وسياقها إذا ما أنعم النظر فيها ، ولعلها متصلة بموقفهم الذي حكته عنهم الآية السابقة مباشرة لها من أنهم كانوا يفتابون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون إنه أذن ، ثم يقولون على سبيل الهزء أيضاً إنه سينزل فيهم سورة تفضحهم ؛ بل إن مضمون الآيات وروحها تدعم هذا أكثر كما هو المتبادر منها . وعلى كل حال فإن فيها صورة واقعية لموقف كيد وسخرية وسوء أدب وقبح فريق من المنافقين .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

(٦) وفي السورة نفسها الآية التالية أيضا :

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... »

٧٩

وقد روي أنها نزلت في مناسبة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى التصديق ،

فأقبل أغنياؤهم وفقراؤهم على السواء ، كل يتصدق بحسب قدرته ، فأخذ المنافقون يلحزون الفريقين ، فيقولون عن الأغنياء إنهم إنما يعطون رياء ، وعن الفقراء إن ما أتوا به تافه لا قيمة له ، وإنهم إنما أعطوه ليدكروا بأنفسهم به ، وليكون لهم وسيلة إلى نيلهم نصيبا من مال الصدقة ، وقد عينت الرواية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من الأغنياء حين تصدق بنصف ماله ، وأبا عقيل من الفقراء حين جاء بصاع من تمر ؛ ومع احتمال صحة الرواية واتساقها مع الآية فإنه يتبادر لنا أنها أوسع شمولاً ؛ والراجح أن الدعوة النبوية كانت بسبيل تجهيز حملة تبوك ، لأن الآية قد نزلت في ظروفها ، وموقف السخرية والكيد بارز في الآية كما هو واضح ؛ ولقد جاء عقبها آية شديدة حاسمة في دمع المنافقين بالكفر وعدم إمكان غفران الله لهم كما ترى فيها :

« أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .. »

٨٠

ومع أن المروي أن هذه الآية نزلت في صدد مراجعة أحد أقرباء زعيم من زعماء المنافقين كان في حالة الاحتضار وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله خيرني واستغفر له تطيباً لقلب المؤمن المخلص الذي طلب منه ذلك ، فإننا نرجح أنها أسلوبية استهدفت كما قلنا دمع المنافقين بالكفر والفسق ، وعدم احتمال غفران الله لهم بسبب ما حكته هذه الآيات وما قبلها من مواقفهم الكيدية والساخرة ؛ ولا نعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم خالف روح الآية واستغفر لأحد ممن كان مصراً على نفاقه وكفره ومواقفه الكيدية والساخرة .

(٧) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ

فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ . أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَسُكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ... »

١٢٤ - ١٢٧

وقد احتوت صوراً عن سخرية المنافقين واستخفافهم بما كان النبي صلى الله عليه وسلم يبلغه من آيات القرآن وسوره حينما تنزل عليه ، واستخفافهم كذلك بمجالسه، وانصرافهم عنها خلسة .

(٨) وفي سورة النور الآيات التالية :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... »

٦٢ - ٦٣

والآيات تذكر موقف فريقين من المسلمين مخلص ومخامر . وتذكر كيف كان المخامرون يتسللون من مجالس رسول الله بدون استئذان وتندد بهم وتنفذهم . والمفسرون يذكرون أن هذا كان شأن المنافقين في وقت حفر الخندق حينما زحفت قريش وأحزابها على المدينة .

(٩) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا

سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً . . . »
٦٩ - ٧١

ويروي المفسرون أن الآية الأولى نزلت في مناسبة قول أحد المنافقين عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم في قسمة قسمها إنها قسمة لم يرد بها وجه الله فبلغ ذلك النبي صلى الله
عليه وسلم فتأذى أذى شديداً .
(١٠) وفي سورة محمد الآية التالية :

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . . »
١٦

وقد احتوت صورة مقارنة للصورة التي احتوتها آية التوبة (١٢٤) ؛ إذ تلهم أنهم
كانوا يتلهون عن سماع الآيات القرآنية والمواعظ النبوية ، وحينما ينصرفون يتساءلون
تساؤل المستخف عما تلاه وقاله .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

وثالثاً مواقفهم التأمرية :

(١) في آيات سورة البقرة التي أوردناها في مطلع الفصل هذه الآية :
« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا
إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ . . . »
١٤

والمفسرون متفقون على أن (شياطينهم) تعني اليهود وفي الآية والحالة هذه صورة من
صور التأمر بين المنافقين واليهود ضد المسلمين والإسلام .

(٢) في سورة النساء الآية التالية :

١ — بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . . .

١٣٨ - ١٣٩

٢ — الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوَذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا .

١٤١

وقد احتوت الآية (١٣٩) تقريراً بأن المنافقين كانوا يتمسكون بولائهم ، للكفار دون المؤمنين ابتغاء الاعتزاز بذلك ، واحتوت الآية (١٤١) صورة أخرى عن نفاقهم وذبذبتهم ، إذ كانوا يقفون موقف المتربص المنتهز للفرصة متى جاءت وكانت ؛ وقد قال المفسرون إن المقصود من الكافرين هم اليهود ، وقد جاء بعد الآيات بقليل سلسلة فيها حملة شديدة على اليهود مما يمكن أن يوجه ذلك القول ؛ وعلى هذا فالآيات بسبيل الإشارة إلى موقف تأمري بين المنافقين واليهود ؛ والأرجح إن هذا الموقف كان قبل التنكيل باليهود جميعهم ، وبالتالي في وقت كان اليهود فيه أقوياء بعض القوة ، وكان المنافقون فيه كذلك أقوياء بعض القوة ؛ والآيات تلهم هذا وتلهم أنها في صدد اليهود ؛ فاحتمال اعتزاز المنافقين بالولاء للكفار ، واحتمال قولهم لهم إنهم نصروهم بموقفهم السلبي فتم لهم النصر على المسلمين ، لا يمكن أن يكون إلا مع المنافقين واليهود ، وفي وقت كان الفريقان فيه على شيء من القوة .

(٣) في سورة المائدة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ

نَدِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ

٥٣ - ٥٠

والمفسرون متفقون على أن (الذين في قلوبهم مرض) هم فريق المنافقين الذين كانوا متحالفين مع اليهود رغم تحذير القرآن بذريعة الخوف من العواقب . وفي الآيات والحالة هذه صورة من صور التآمر بين المنافقين واليهود وتأيد لما احتوته الآيات السابقة من استمرار موالاتهم وإصرارهم على ذلك .

(٤) وفي سورة التوبة الآيات التالية :

« وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ . أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

١١٠ - ١٠٧

والجمهور على أن الذين بنوا هذا المسجد الذي عرف في تاريخ السيرة بمسجد الضرار اتساقاً مع الوصف القرآني ، فريق من المنافقين كانوا يقطنون محلة قباء ، وكان في المحلة مخلصون أيضاً استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في بناء مسجد حيث كانت صلاته حينما جاء مهاجراً من مكة ، وحيث أقام بعض الوقت ، ليصلوا فيه في أيام الشتاء والبرد والليل بسبب بعد المحلة عن مسجده ، فأذن لهم ؛ وكان راهب عربي اسمه أبو عامر قد تلاهى مع النبي صلى الله عليه وسلم وأقسم أن يحاربه أينما وجد محاربا له ، فلما انتصر المسلمون في فتح مكة ويوم حنين ، تأمر مع المنافقين على أن يبنوا مسجداً في قباء ليكون مركز اجتماعاتهم ، وينتظروا عودته من بلام الروم حيث أزمع أن يذهب ليدبر المكائد للنبي

والمسلمين ؛ فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد مثل رفاقهم ، فأذن لهم ، ورجوه أن يصلي لهم فيه فوعدهم بذلك بعد عودته من غزوة تبوك .
والصورة التأميرية واضحة في الآيات وليس فيها مالا يتسق مع الرواية ؛ والمروي أيضا أن الآيات قد نزلت أثناء غزوة تبوك ، وأن النبي علم وهو في الرحلة بنجث نية بناء المسجد ؛ وقد أرسل فور عودته إلى المدينة من هدمه وحرقه . ومضمون الآيات يلهم أنها نزلت في وقت كان المنافقون فيه في ضعف وضالة شأن ، إذ جاءوا للنبي صلى الله عليه وسلم يؤكدون له حسن نياتهم .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

(٥) وفي سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ أُرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ... »

٢٥ - ٢٦

وقد احتوت الآية الثانية منها إشارة إلى ما كان من وعد المنافقين ، للذين كرهوا ما نزل الله - وهم اليهود على الأرجح - بطاعتهم والاندماج في مكابدهم ؛ وفي هذا صورة تأمرية واضحة كما هو المتبادر ؛ وتعبير « إسرارهم » قد يلهم أن المنافقين واليهود كانوا يعتقدون جلسات خفية يتآمرون فيها على النبي والإسلام .

(٦) وفي سورة المجادلة الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِّنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ... »

١٤ - ١٦

ومع أن ذكر المنافقين لم يرد في الآيات إلا أن صفاتهم التي جاءت في آيات أخرى

قد وردت فيها ، كما أن الجمهور على أنهم هم موضوع التنديد وما تبع الآيات من حملة شديدة ؛ وتعبير « ما هم منكم ولا منهم » يدل بقوة على أن المقصود من القوم الذين غضب الله عليهم وليسوا من العرب ، هم اليهود على الغالب ؛ وفي الآيات صورة لما كان بين اليهود والمنافقين من تواتق وتآمر كما هو ظاهر .

ويظهر أن المنافقين كانوا يماثلون على مواقفهم التآمرية فينكرونها ، ويخلفون على ذلك الإيمان الكاذبة ، شأنهم في كل موقف من مواقفهم الأخرى على ما احتوته الآيات التي نقلناها .

هذا ؛ وإتماماً للسلسلة نذكر هنا بالصور التآمرية التي احتوتها آيات الحشر (١١ - ١٤) والبقرة (١٤) والمائدة (٥١ - ٥٣) التي أوردناها في فصل اليهود ، لاتصالها بهذا المبحث أيضاً بقدر اتصالها بالفصل المذكور .

المبحث الثالث

مواقفهم من الجهاد ووقائمه

هذه المواقف نوعان - الأول لإزاء الدعوة - صور له من سور آل عمران والنساء والتوبة وعمد - الثاني لإزاء الوقائع الجهادية - صور له من سور آل عمران والأنفال والأحزاب - إشارة تذكيرية بما كان من موقفهم لإزاء وقعتي بني النضير وغزوة تبوك - صور أخرى للنوع الثاني من سورتي التوبة والنسافقون - تعليق على شدة نكابة مواقف النوع الثاني - إشارة إلى ما كانوا عليه من قوة في ظروفها .

الصورة الأولى

إن هذه المواقف على ما يستفاد من الآيات نوعان : نوع لإزاء الدعوة إلى الجهاد والاستنفار إليه ، وآخر لإزاء الوقائع الجهادية .
(١) في سورة آل عمران الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... »

١٥٦

وقد جاءت الآية في سياق الإشارة إلى مشاهد وقعة أحد ، وما كان للمنافقين وبعض فئات المسلمين المخلصين من مواقف فيها ؛ والآية مطلقة تلهم أنها بسبيل تقرير موقف متكرر منهم ؛ وهو أنهم كانوا يعمدون إلى إثارة شجون أهل الشهداء والموتى من المسلمين الذين يستشهدون في الجهاد أو يموتون في السفر فيقولون إنهم لو لم يخرجوا إلى ماخرجوا إليه لما ماتوا وماقتلوا ؛ وواضح أن في هذا دسا خبيثا وتثبيطا عن الاستجابة إلى الجهاد ؛ وقد تلهم الآية أن المقصودين بالذين

يضرّبون في الأرض هم الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يندبهم لمهمة ما فيلقون حتفهم ؛ لأن الدس والتشبيط إنما يجردان سبيلهما في ذلك دون الأسفار المطلقة الخاصة التي لاغنى للناس عنها ولا سبيل إلى إثارة الشجون والدس فيها .

(٢) وفي سورة النساء الآيات التالية :

١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا . وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ... ٧١ - ٧٣

٢ — أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ...

٧٧

٣ — وَبِقَوْلِ طَاعَةٍ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ...

٨١

وقد احتوت الآيات الأولى إشارة إلى ما كان من تشبيط المنافقين الناس عن الاستجابة إلى دعوة الجهاد فضلاً عن تربصهم وانكماشهم . وفيها صورة مؤكدة لنفاقهم وكون ما يصدر عنهم لا يصدر عن إيمان وإخلاص . وكون كل ما كان هدفهم هو الكسب والفوز مع العافيه والسلامة . واحتوت الآية (٧٧) صورة من تذرهم حينما فرض الجهاد ودعوا إليه . واحتوت الآية (٨١) صورة من مواقفهم من الدعوة إلى

الجهاد حيث كانوا أحيانا : يعلنون السمع والطاعة في مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم ولكنهم لا يلبثون إذا ما فارقه أن ينقضوا ما أرموا ويمنحوا إلى الخلاف والتخلف .

(٣) في سورة التوبة المقاطع التالية :

١ — لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّعَّةُ وَسَخِخِلُفُونَ . بِاللهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا نَخْرُجَنَّاهُ مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسُهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ . لَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْمَرُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَرِهُونَهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذَا دُنِيَ وَلَا تَفْتِنِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ...

٤٩ - ٤٢

٢ — فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلْفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَنْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ...

٨٣ - ٨١

٣ — وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَنْذَنُوكَ أُولَئِكَ

الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَعْدِينَ . رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ
وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ...

٨٧ - ٨٦

٤ — وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ...

٩٠

٥ — إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا
مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا
رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ تَبَيَّنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ
فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَهُمْ جَنَّةٌ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .
يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ...

٩٦ - ٩٣

ففي هذه الآيات التي نزلت في معرض التنديد بالمنافقين والجملة عليهم وذکر مواقفهم
المنكرة ، صور عدة ولكنها متقاربة لتلك المواقف ؛ فهم إذا اتبعوا النبي صلى الله عليه
وسلم في سفر فإنما يتبعونه حينما يكون السفر سهلاً والخطر مأموناً ؛ فإذا ما انعكس الحال
اعتذروا بعدم الاستطاعة وأقسموا الأيمان وهم كاذبون ، فيستأذنون النبي صلى الله عليه
وسلم بالتخلف من جهة ، ويشبّطون الناس عن النفرة من جهة أخرى ؛ وكلما دعا الله
ورسوله إلى الجهاد سارع أولو الطول والقدرة إلى النبي يطلبون منه أن يتركهم في المدينة -
ويبدو من روح بعض الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأذن لهم تفادياً لما يعلمه
من دسهم وشغبهم وتثبيطهم وأثر ذلك في المخلصين الذين كان منهم من تربطه بهم الروابط
الوثيقة المتنوعة .

ولقد سبق القول أنه كان من الأعراب منافقون . وفي المقطعين الأخيرين من مقاطع سورة التوبة صورة لموقف هؤلاء من حركة الجهاد والدعوة إليه مماثلة لموقف زملائهم من أهل المدينة .

(٤) وفي سورة محمد الآيات التالية :

« وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ . فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ... » ٢٠ - ٢٣

وقد احتوت الآية الأولى وصفاً بديعاً وقويا لجبن المنافقين حينما كانت تنزل سورة فيها أمر حازم بالجهاد توافق رغبة المخلصين من المسلمين . وفي الآيات الأخرى حملة عليهم لجبنهم ، وتنبيه إلى مافي ذلك من تقطيع الأرحام ، وتدمير البلاد ، لأن فيه تشجيعاً للعدو وإغراء له .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

وثانيا : مواقفهم في وقائع الجهاد :

(١) وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجُمُعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْنَعُكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَأَدْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ... » ١٦٦ - ١٦٨

والآيات مما نزل عقب وقعة أحد التي دارت الدائرة فيها على المسلمين ، والتي أثارَت فيهم آلاماً مرة ؛ وقد احتوت الأولى صورة لموقف المناققين في هذه الوقعة ، إذ يستفاد منها أنهم دعوا إلى الاشتراك في الجهاد في سبيل الله ، أو التضامن على الأقل في الدفاع عن وطنهم وقومهم ، فأبوا وتحلفوا قائلين إنهم لا يظنون أن يقع اشتباك ، ولو تيقنوا من ذلك لخرجوا معهم ؛ وكان قولهم كذباً لأنهم تحلفوا بقصد الخذلان ، واجتناب الحرب ، وتربص السوء بالمسلمين ؛ وقد احتوت الثانية صورة لموقف آخر لهم بعد المعركة ، فإنهم عمدوا إلى الدس الخبيث ، وإثارة شجون أهل الشهداء ، فقالوا إنهم أطاعونا وتحلفوا كما تحلفنا لما قتلوا ؛ وفي جملة « لو أطاعونا » صورة لموقف ثالث قبل المعركة ، إذ تلهم أنهم لم يكتفوا بالتخلف بل حاولوا حمل غيرهم من المخلصين الذين تربطهم بهم روابط القربى والعصبية على التخلف أيضاً ولكن هؤلاء لم يسمعوا لهم .

الصورة الثالثة

(٢) وفي سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلٍ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَآ وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْنُورًا . قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْتَعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ

أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .
 قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ
 إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
 كَالَّذِي يُفْتَشِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ حَدَادٍ أَشِحَّةً
 عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ
 الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ
 يَسْتُلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا ... » ٩ - ٢٠

وهذه الآيات مما نزل عقب وقعة الخندق أو الأحزاب ، وفي صدد وقائهما ومشاهدتهما ؛ وقد احتوت صوراً لمواقف المنافقين ودسائسهم في ظروف الوقعة ؛ وإذا لاحظنا أن هذه الآيات هي معظم ما نزل في صدد الوقعة بدا لنا أنها إنما نزلت للتنديد بهم وفضيحتهم خاصة .

والآيات الثلاث الأولى تصور مقدار ما كان من شدة اضطراب المسلمين لتقدم جيوش الأحزاب ووفرتهما ؛ ودسائس المنافقين وتثبيطهم في هذه الحالة يكون بطبيعة الحال شديد الأذى بعيد المدى بحيث يتناسب مع تلك الشدة ؛ يضاف إلى هذا أن هذه الغزوة كانت أشد ما تعرضت له المدينة والمسلمون من خطر ، بل كان من شأنها أن تعصف بالإسلام لولا تأييد الله وثبات رسوله ، لاسيما أنها جاءت بعد وقعة أحد التي كانت الدائرة فيها على المسلمين وكاد النبي يقتل فيها ؛ وهذا مما يجعل مواقف الدس والتثبيط التي وقفها المنافقون أشد خطراً وأبعد نكابة وأذى .

وفي الآية الرابعة تبدو صورة للمنافقين في جرأتهم على الله ورسوله جهره وقولهم إن ما وعدوا به من نصر ليس إلا غرورا أو تغريرا بالناس ؛ ومما لا ريب فيه أن خطورة الظرف هي التي جرأتهم على هذا القول .

وفي الآية الخامسة تبدو صورة أخرى لهم في تشبيطهم أهل المدينة وتخويفهم إياهم ودعوتهم إلى الرجوع إلى المدينة ، وصورة ثانية أيضاً في استئذانهم النبي صلى الله عليه وسلم بالعودة إلى بيوتهم لحمايتهم ولما هم كاذبا أنها مكشوفة للعدو ، وقد قررت الآية والآية التالية لها واقع أمرهم في الحقيقة ، فهم لا يبنون إلا الفرار ، وإذا قدر للعدو أن يدخل إلى المدينة منصوراً وطلب منهم أن يجهروا بالكفر وأن يثيروا الفتنة لما توقفوا في الإجابة إلى ذلك ؛ ويبدو من الآية السابعة أن المنافقين عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأشهدوا الله عليهم على عدم الفرار بعد ما كان منهم ما كان في وقعة أحد فذكرتهم الآية بهذا العهد تذكير تأنيب وتنفيد .

وفي الآية التاسعة صورة أخرى لهم في ظروف الوقعة ؛ إذ تلهم أنه كان منهم من يشنون فكرة الالتحاق بمعسكر النبي لتعويق الناس عنه ، ويدعون بني قومهم وذوي قرباهم إلى الانضمام إليهم بحجة الرغبة في القتال فريقاً خاصاً ، في حين أنهم كانوا لا يقصدون إلا التفريق ، ولم يبيتوا النية على الاشتباك في الحرب إذا نشبت بصورة فعالة .

وفي الآية العاشرة تقرير آخر لواقع حالهم ؛ فهم بخلاء ، وحينما يحصد الخطر بهم يظهر جبنهم شديداً صورته الآية أبلغ تصوير ، وحينما يذهب الخوف يطلقون ألسنتهم بالنقد الشديد والتبجح العريض ، وهم بعيدون عن كل خير . وفي الآية الحادية عشرة وهي الأخيرة صورة أخرى لهم ، إذ يبدو أنهم حينما قيل لهم إن الأحزاب قد ارتدوا خائبين عن المدينة لم يكادوا يصدقون ، وقد احتوت تقريراً للحالة فرضية لهم متصلة بموقف الجبن وعدم التورط الذي وقفوه ، فقررت عنهم أنه لو عاد الأحزاب ثانية لتمنوا أن يكونوا في البادية بعيدين عن المدينة ، فلا يشهدوا الوقعة ، ولا يتورطوا فيها ، ويكتفوا بالسؤال عن الأخبار ؛ وقد استدركت الآية فقررت أنهم لو كانوا مع المسلمين لما قاتلوا قتال جد فيه غناء .

والصور القرآنية واضحة كل الوضوح؛ وهي تؤيد ما قلناه من شدة نكاية مواقف المنافقين وبعد مداها في ظروف هذه الواقعة التي هي أشد ما تعرض له الإسلام من خطر .

الصورة الرابعة

(٣) وفي سورة الحشر الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُذُنُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ . . »

١١ - ١٢

وهذه الآيات من جملة ما نزل من آيات سورة الحشر تعقيباً على وقعة إجلاء يهود بني النضير عن المدينة . وكان زعيم المنافقين عبد الله بن أبي وعشيرته حلفاء لهم . فلما استحقوا نكال الله ورسوله وحاصرهم النبي أرسل المنافقون إليهم يشجعونهم على الصمود ويعدونهم بالتضامن معهم في الحرب والخروج حيث انطوى في الآيات صورة من صور تأمر المنافقين من ناحية وموقفهم في حالة الحرب التي قامت بين المسلمين واليهود من ناحية أخرى .

(٤) وفي آيات سورة التوبة ٢٢ و ٤٧ - ٤٨ و ٨٣ التي أوردناها في النبذة السابقة لهذه النبذة من هذا المبحث صور لمواقف المنافقين من وقائع الجهاد نفسها مما يدخل في باب هذا القسم أيضاً . وتحسن الإشارة إليه لتمام السلسلة . فالآية (٤٢) تذكر أن المنافقين كانوا أحياناً يستجيبون للدعوة ويشترون في حملات الجهاد حينما تكون الرحلة قريبة والغزوة سهلة مأمونة . والآية (٨٣) احتوت أمراً للنبي بإعلانهم أنه لن يسمح لهم بالخروج

معه إلى غزوة ما أو بمقاتلة عدو ، بسبب ما كان من تخلفهم وتهربهم وتثبيطهم ؛ والآيتان ٤٧ - ٤٨ تصفان واقع حال المنافقين في الوقائع الجهادية . فهم لا يألون جهدهم في بث الفتنة وإثارة القلق وتثبيط الهمم ودس الدسائس إذا ما خرجوا مع الحملات الجهادية ؛ ولما ساعى هذه أثر في بعض المسلمين الذين يستمعون إليهم بسبب الروابط التي تربط بينهم ؛ وفي الآية الثانية إشارة إلى موقف واقعي منطبق على ما ذكرته الآية الأولى من واقع حالهم ، إذ لم يألوا جهدهم في فتح الثغرات ، وخلق المشاكل ، وظلوا كذلك إلى أن صارت كلمة الله هي العليا ، وتوطدت قوة الإسلام رغم أنوفهم وعلى كره منهم .

الصَّوْرَةُ الْخَامِسَةُ

(٥) وفي سورة التوبة آيات لم نقلها قبل وهي متصلة بمواقف المنافقين في ظروف الوقائع الجهادية ، منها الآيات التالية :

« إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَبَتَّوْا لَهُمْ فَرِحُونَ . قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَحْنُ تَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ . قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَسِيقِينَ . . . »

٥٠ - ٥٣

وهي صور متصلة بوقائع الجهاد من بعض النواحي أيضاً ، إذ حكى الأولى تربص المنافقين الدوائر بالمسلمين حتى إنهم ليستأون من فتح يفتح عليهم ، وليتمنون أن تدور الدائرة عليهم . وهذه المساجلة التي تأمر بها الآيات تدل على ما كان من شدة أثر مواقف المنافقين في نفوس المسلمين في ظروف الوقائع الجهادية كما هو المتبادر .

والآية (٥٣) مع ماورد في صدها من روايات ، تلهم أن المنافقين حاولوا أن يفتدوا أنفسهم بالاشتراك ماليا في غزوة تبوك ، فألم الله نبيه رفض ذلك مع تعليل الرفض في الآية ، وهو تعليل بليغ يلهم أن قبول المال منهم قد يتخذ دليلا على تصديقهم فيما يدعونه من نيات حسنة ويقدمونه من أعذار كاذبة .

ومنها الآية التالية :

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَآئِرِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ... »

٩٨

وقد تضمنت صورة لمنافقي الأعراب ؛ فقد كانوا يمتبسون ما يؤخذ منهم من مساعدات وصدقات ، تكاليف إجبارية ، وكانوا يدفعونها تقادياً لا إيماناً واحتساباً ، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر حتى يخلصوا من هذه التكاليف .

(٦) ولقد نقلنا سابقاً الآية (٨) من سورة « المنافقون » ، ولها اتصال وثيق بموقف للمنافقين أثناء إحدى الغزوات النبوية ؛ إذ روي في صدها أن أنصاريا خزرجيا تلاحى مع قرشي فاستغاث كل منهما بقومه على عادة العصبية القبلية الجاهلية ، وكادت تكون فتنة هوجاء ، فأخذ عبد الله بن أبي كبير المنافقين الغضب والحمية وأقسم : لنن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، كأنما كان واثقا من أنه هو الأعز ؛ ففي الآية من جهة صراحة بأن المنافقين كانوا أحيانا يخرجون في غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيها من جهة أخرى صورة لما كان من استعدادهم لإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين أثناءها .

ومما لا ريب فيه أنهم إنما كانوا يخرجون في الغزوات الهينة المضمونة العاقبة على ماوصفت إحدى آيات التوبة وهي (٤٢) من واقع حالهم في ذلك .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

ولابد أن القاري قد لاحظ أن المنافقين قد وقفوا من الوقائع الجهادية الخطيرة في تاريخ السيرة مثل أحد وبني النضير والخندق وتبوك موقف الخذلان والتشبيط ، وأن موقفهم خاصة من واقعتي أحد والخندق - اللتين دارت في أولهما الدائرة على المسلمين وكادت ثانيتها تعصف بالإسلام والمسلمين أشد العصف - من أشد مواقفهم نكاية وخبثا وأبعدها مدى .

وهذا يفسر الحكمة التي اقتضت إنزال الحملات القرآنية العنيفة في حقهم كما هو المتبادر . ويلاحظ من ناحية أخرى أنهم كانوا في ظروف الوقائع الثلاث الأولى على شيء من القوة ، فلم يعبأوا بما يمكن أن يكون لمواقفهم منها من رد فعل في نفس النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

فَصْل فِي الْيَهُودِ فِي الْعَهْدِ الْمَدْنِيِّ

تَمْهِيد

الصُّورَةُ الْأُولَى

لليهود في العهد المدني شأن كبير متعدد النواحي ، يجعل لهذا الفصل قيمة خاصة ، هذا إلى أنهم من أول من اصطدم مع النبي صلى الله عليه وسلم إن لم نقل أولهم ، ولقد شغلوا في القرآن المدني حيزاً واسعاً منذ بدء تنزيله ، وفي سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة بنوع خاص ، عدا غيرها من السور الثانوية . ولعل من الدلائل على أنهم أول من اصطدموا مع النبي ما جاء في الآيات الأولى من سورة البقرة التي هي أول السور المدنية في ترتيب النزول ، والتي يحتمل جداً أن تكون هذه الأولية لها بسبب فصلها الأول الذي منه آيات المنافقين والتي جاء فيها :

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ
إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ... »

١٤

فقد قال جمهور المفسرين إن شياطينهم هم اليهود ، ويدل هذا على أن اليهود هم الذين أغروا المنافقين بالنفاق أو شجعوهم في مواقف الخداع ، وعلى أن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لم يغب عنهم ذلك .

كما جاء في فصول السورة المذكورة الأولى ، وفي مطلع الفصول الطويلة في مواقف اليهود وأخلاقهم خطاب موجه إليهم في هذه الآيات :

« يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الَّذِينَ يَدْعُواكُم بِعَهْدِي وَأَوْفُوا بِعَهْدِي
أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا

تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِثَابِتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ . وَلَا تَلْبِسُوا
الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . . . »
٤٠ - ٤٢

وقد أُنذرت اليهود وحذرتهم من أن يكونوا أول الكافرين بالقرآن الذي هو
مصدق لما معهم ، ومن أن يلبسوا الحق الذي يعرفونه بالباطل ويكتموه ويصدوا عنه ،
ويدل هذا الخطاب صراحة على الأولوية التي ذكرناها .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

ولقد اتخذ اليهود يثرب والمناطق الواقعة على طريق الشام دار هجرة ومقام منذ أمد بعيد ،
وكان لهم كيان بارز ومؤثر بسبب ما كانوا عليه من كثرة العدد ، وسعة الثروة ، والمهارة
الزراعية والصناعية والتجارية ؛ ثم بسبب ما كان لهم من مكانة دينية وعلمية مستمدة من
أنهم أصحاب كتاب سماوي ، وذوو صلة بالأنبياء والأمم الغابرة وأخبارها على ما فصلناه
في كتابنا عصر النبي وبيئته .

وكان السبب الأخير قد جعلهم في مركز المعلم والمرشد والمرجع ، بل القاضي لسكان
يثرب ، على ما تلمه آيات قرآنية عدة شرحناها في كتابنا المذكور ، فكان لليهود من
ذلك الحرمة والحصانة ، والقوة النافذة والأثر في حل المشكلات ، وتعليل الحوادث
والقضاء في الخصومات ، والاستمتاع بالكيان والمركز الممتاز ، وقد اندمجوا في الحياة
العربية ، وارتبطوا بمواثيق الحلف مع جيرانهم العرب ، فكان هذا مما زاد مركزهم ورسوخ
قدمهم قوة وشدة ، حتى لقد احتاج الأمر إلى تكرار النهي عن موالاتهم مراراً على رغم
مابدا منهم من المواقف الجحودية والمريبة والعدائية الضارة .

ومع أنهم - على ما أشرنا إليه في فصل سابق استدلالاً من بعض الآيات - كانوا
يُبشرون بمبعث النبي العربي ويستفتحون به على العرب ، ومع أن النبي صلى الله عليه
وسلم منذ حل في المدينة كتب بينه وبينهم عهداً على ما ذكرته الروايات المعتبرة وما تدعاه
الآيات ، أنهم فيه على حريتهم الدينية وطقوسهم ومعابدهم وأموالهم وحقوقهم ، وأبقاهم

على محالفاتهم مع بطون الأوس والخزرج ، وأوجب لهم النصره والحماية مشروطاً عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدوياً ولا يمدوا يداً بأذى^(١) - مع هذا فإنهم ما لبثوا أن تطيروا من قدمه إلى المدينة ، وأخذوا ينظرون بعين التوجس والخوف إلى احتمال رسوخ قدمه وانتشار دعوته ؛ واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه بعد ذلك العداء الدموي الطويل الذي كانوا من دون ريب يستغلونه في تقوية مركزهم ، وخشوا على المركز الذي هم فيه ، والامتيازات الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها ويحنون منها أعظم الثمرات .

الصورة الثالثة

ولقد كان ظنهم على ما يبدو أن يجعلهم النبي صلى الله عليه وسلم خارج نطاق دعوته ، معتبرين أنفسهم أهدي من أن تشملهم ، وأمنع من أن يأمل النبي دخولهم في دينه ، وانضواءهم إلى رايته ؛ بل لقد كانوا يرون أن من حقهم أن ينتظروا انضمامه إليهم كما يمكن أن تلهمه هذه الآيات :

١ - وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى . . .^(٢)

البقرة ١١١

(١) قال ابن هشام عزوا إلى ابن إسحق (كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم) وفي صدد ما اشترط عليهم وشرط لهم ورد في نص كتاب رسول الله الذي أورده ابن هشام (إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين - وإن يهود بني عوف - الأغلب تعني الجملة اليهود المتحالفين مع بني عوف وهم من قبيلة الخزرج - أمة مع المؤمنين لليهود دينهم . والمسلمين دينهم . مواليهم وأتقنهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته - أي لا يهلك أو يفسد - وإن لليهود بني النجار مثل ماليهود بني عوف . وليهود بني الحرث مثل ماليهود بني عوف . وليهود بني ساعدة مثل ماليهود بني عوف . وليهود بني جشم مثل ماليهود بني عوف . وليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف . وليهود بني ثعلبة مثل ماليهود بني عوف . وإن بطانة يهود كأقنسهم وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد . وإنه لا ينحجز على ثأر جرح . وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم . وإن الله على أمر هذا . وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم . وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه . وإن النصر للظلوم . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) اظهر ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٢ .

(٢) هذه الآية والآيتان الأخريان هي من سلسلة في اليهود وذكر النصارى استطرادي على ما يتبادر .

٢ — وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَقْبَعَ مِلَّتَهُمْ . . .

البقرة ١٢٠

٣ — وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا . . .

البقرة ١٣٥

لا سيما حينما رأوه يصلي إلى قبلتهم ، و يعلن إيمانه بأنبيائهم وكتبهم بلسان القرآن ،
ويعمل ذلك جزءاً لا يتجزأ من دعوته ، ويتلوه فيما يتلوه :

١ — أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ . . . (١)

الأنعام ٩٠

٢ — وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى
لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِشَائِنَا يُؤْقِنُونَ . . .

السجدة ٢٣ - ٢٤

٣ — شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا
بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ . . .

الشورى ١٣

٤ — وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّن
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . . .

الجنات ١٦

٥ — ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ . . .

البقرة ٢٨٥

نخاب ظنهم ورأوه يدعوم في جملة الناس ، بل يختصهم بلسان القرآن أحياناً بالدعوة
ويندد بهم لعدم إسماعهم إلى استجابتها ، ولموقفهم منها موقف الانقباض ثم موقف
التعطيل والتناقض ، كما جاء في آيات البقرة ٤٠ - ٤٢ التي نقلناها وكثيراً غيرها مما سوف
نورده وخاصة هذه الآية التي تندد بتناقضهم .

(١) هذه الفقرة من سلسلة ذكر فيها عدد كبير من أنبياء بني إسرائيل ونوه بهم .

٦ — أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ ...

فكان هذا على ما هو المتبادر باعثاً على تنكيرهم للدعوة وحقدهم على صاحبها منذ الخطوات الأولى من العهد المدني ؛ ثم رأوا الناس قد أخذوا ينصرفون عنهم ، ويتخذون النبي مرجعهم الأعلى ، ومرشدهم الأعظم ، وقائدهم المطاع ، فاستشعروا حقاً وباطلاً الخطر العظيم يحقق بمركزهم وامتيازاتهم ومصالحهم إذا هم أرادوا أن يستمسكوا بكيانهم الخاص ، ويظلوا على يهوديتهم ، ولا يندمجوا في الدعوة الإسلامية ، فكان هذا عاملاً على اندفاعهم في خطة التنكر والحقد والتآمر والصد والتعطيل إلى نهايتها .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

ولقد كان من المتوقع على تلهمه الآيات المسكية والمدنية أن يجد النبي صلى الله عليه وسلم في اليهود سنداً وعضداً ، وأن يكونوا أول من يؤمن به ويصدقوه ويلتف حوله ، لما كان بين دعوته وأسس دينهم من وحدة ، ولما احتواه القرآن من تقارير متنوعة وكثيرة بأنه مصدق لما بين يديه ، وبأنه محتو حل المشاكل والخلافات التي يتعثر فيها اليهود ، وباستشهادهم خاصة والكتابين عامة على صحة رسالته استشهاداً ينطوي على الثقة فيهم والتنويه بهم ، وتقدير وحدة الحزبية بينهم ؛ ولما رآه من حسن استجابة الكتبيين وفيهم أناس من بني إسرائيل إلى دعوته ، واندماجهم فيها ووقوفهم منها موقف المصدق المؤيد على ما ذكرناه وأوردنا آياته الملهمة في فصل الكتبيين من العهد المكي ؛ فلما رأى منهم ما رآه من الانقباض أولاً والتنكر والصد وكنم الحق وإلباسه بالباطل عن علم ثانياً ، تأثر تأثراً عميقاً من خيبة أمله فيهم ردّته آيات القرآن على ما سوف نوردّه بعد .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

وقوة الدور الذي قام به اليهود ، وشدة نكايته وبعد أثره ، تبدو من خلال الفصول والحلقات القرآنية المدنية ؛ سواء أكان ذلك في مؤامراتهم مع المنافقين وتشجيعهم - حتى ليكن أن يقال إنهم هم الذين أوجدوهم بما بثوا ونموا فيهم من الريب والشكوك ، وبما أيقظوا فيهم من روح التمرّد والكيد وغذوها ؛ وإن المنافقين لولاهم لما نموا وقوا وثبتوا وكان منهم ذلك الأذى البالغ والكيد الشديد - أو في تحالفهم مع القرشيين أعداء النبي والمسلمين الأشداء الأصليين ، وتألبهم معهم ومظاهرتهم لهم حربيا ، وتبثيتهم إياهم في كفرهم ؛ أو في اضطلاعهم بأذى النبي والمسلمين مباشرة ، وإقامة العثرات في طريقهم ، والكيد والمكر والدس لهم ، والجحود والحجاج والسخرية بهم ؛ فلم يكن ثمة بد للنبي صلى الله عليه وسلم من التنكيل بهم ذلك التنكيل الحازم الذي كان فيه نهايتهم والذي نستعرض صوره القرآنية بعد .

ومما يجدر أن ننوه به للدلالة على ما كان لموقف اليهود وعدائهم من تأثير سلبي في سير الدعوة وانتشارها ، وفي مركز النبي والمسلمين ، ومن تأثير إيجابي في قوة أعداء النبي والإسلام - أنهم لم يكادوا يتوارون عن مسرح المدينة نتيجة لذلك التنكيل حتى ضعف أولا أمر المنافقين وصار أمرهم إلى ما وصفتهم بعض آيات التوبة :

« وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ » . . .

٥٦ - ٥٧

بعد أن بلغ من شعورهم بعزتهم وقوتهم وكثرتهم أن حرضوا الناس على النبي وصحبه وقالوا كما حكته آية في سورة المنافقون : « لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا » وأن أقسموا ليخرجن الأعز الأذل من المدينة ، مستشعرين أنهم هم الأعز

كما حكته آية أخرى في السورة المذكورة: « يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » ...

وخفت ثانياً غلواء زعماء قريش ولم يعودوا يفكرون في قتال المسلمين وغزوم وتزايد ثالثاً عدد المستجيبين للدعوة والمنضوين إلى لواء النبي صلى الله عليه وسلم تزايداً عظيماً .

وبلغ الأمر رابعاً إلى أن يرى النبي أن لا بأس في الرحلة إلى مكة للزيارة ومعه جمع كبير من المسلمين ، وإلى أن يمنح زعماء قريش إلى مهادنته والسماح له بالزيارة في العام القابل ، وإلى أن يصبح النبي من القوة بحيث يغزو مكة بعشرة آلاف مقاتل ويفتحها ويوطد بذلك الوحدة الإسلامية العربية . كل هذا لأن العدو الذي كان بين ظهرائي المسلمين ، وكان شديد المكر والكيد قد زال من الطريق ، ولم يعد المنافقون يجدون من يشجعهم أو يزيد لهميهم إذا خبا ، كما لم يعد العرب يجدون من يشككهم في الحق ويصدّهم عن الهدى ، ولم يعد أهل مكة يجدون في يثرب الأعوان والعيون والطاعنين من وراء طعن الفدر والخيانة .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

ومن العجيب المعجز أن يقرأ المرء اليوم آيات القرآن المدنية في أخلاق اليهود بوجه عام ، وعاداتهم ومكايدهم ودسائسهم وأنانيتهم ، وزهوهم وتبجحهم ، واستحلالهم لكل مافي أيدي الغير ، وضمنهم بأي شيء مفيد للغير ، وعدم إخلاصهم في محبة أو موقف ولائ للغير ، وحسدهم لأي نعمة ينالها الغير ، وتديبرهم لكل وسيلة مهما دنأت وفجرت وكان فيها كفر وفسق ، ونقضهم لمبادئ الدين والعهد في سبيل مكايده الغير وتهديمه وسلب ماناله من نعمة وخير ، وتشجيعهم لكل حائد وحاسد ومنافق ودساس ومتآمر... الخ ماسنورده في مباحث هذا الفصل مما قرر القرآن أنه جيلة فيهم يتوارثه الأبناء عن الآباء فاستحقوا عليه يمين الله :

«وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ...»^(١)

الأعراف ١٦٧

وجازاهم عليه بتشريدهم في مشارق الأرض ومغاربها :

الأعراف ١٦٨

«وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمْمًا...»

وتحقق ذلك القسم البار بما وصفه القرآن من واقع حالهم في عهد النبي وقبله :

«ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ...»

آل عمران ١١٢

... ثم ينظر المرء إليهم اليوم فيكاد يرى إجمالا صورة طبق الأصل : جيلة خاصة ، وترفع عن الاندماج الصادق مع من يعيشون معهم من الأمم وأهل الأوطان ، ودس ومكر وكيد ، وجحود وحجاج ولجاج ، وندب وعويل بدون مبرر ، ، وشرّة شديد إلى مافي أيدي الغير ، ومحاولة للاستيلاء على الكل ، والتأثير في الكل ، واللعب في وقت واحد على كل حبل وفوق كل مسرح ، والتوسل بكل وسيلة إلى الغاية التي يريدون ، وعداء لكل الناس وخداع لهم وسخرية منهم ، وتهديم لكل بنيان وكيان ، ونظام في كل مكان وزمان ، وتسخير لكل قوة في سبيل مآربهم وأنانيتهم وكيدهم وعدائهم ، وقسوة متناهية في أعدائهم حين يتمكنون منهم ؛ هذا إلى استمرار مصداق آيتي الأعراف والنساء في كافة أنحاء الأرض التي تقطعوا فيها ، فلا تجدهم في أرض إلا والعين مزورة منهم ، والسخط فائر عليهم ، والنفوس متبرمة بهم ، والناس مستنقلون ظلهم ، راغبون في التخلص بأية وسيلة منهم ، وجاعلون الحذر منهم أساس صلاتهم بهم ، بسبب تلك الأخلاق المتوارثة فيهم جيلا عن جيل ، والتي يلسمها الناس فيهم بكل شاعتها وسوآتها ؛ وليس هذا اليوم لحسب ، فإنه كذلك منذ عهد النبي وعلى امتداد القرون المتطاولة ومن

(١) هذه الآية من سلسلة آيات مدنية .

قبل الناس جميعاً ، بل من قبل عهد النبي على مادمتهم به أسفار العهد القديم وحوادث التاريخ ، مما لا يمكن تعليقه إلا بتلك الجبلية الخاصة التي جلبت عليهم ما جلبت منذ أقدم الأزمنة إلى الآن ...

الصورة السابعة

هذا ؛ والفصول القرآنية المدنية في اليهود كثيرة ومتنوعة كما قلنا ؛ وقد رأينا أن نستعرضها في مجموعات موضوعية أو مباحث مستقلة كما يلي :

- ١ - موقفهم إزاء الدعوة بالذات .
- ٢ - مواقفهم الحجاجية .
- ٣ - دسائسهم بين المسلمين وتآمرهم مع المنافقين والمشركين .
- ٤ - وقائع التنكيل بهم وبواعثها ونتائجها .
- ٥ - الاستثناءات القرآنية بشأن المؤمنين المعتدلين منهم ومفزاها .

المبحث الأول

مواقف اليهود إزاء الدعوة

صراحة الآيات عن عدم مقابلة اليهود للدعوة مقابلة حسنة - فصول سورة البقرة في تذكيرهم والتوبيخ بهم بسبب ذلك - دلالات أسلوب هذه الفصول ومضامينها - أسلوب آخر هاديء في القرآن المدني في دعوة أهل الكتاب إطلاقاً .

الصورة الأولى

١ - إن آيات البقرة ٤٠ - ٤٤ التي نقلناها من قبل ، والتي هي أول منازل بشأن اليهود ومن أوائل منازل من القرآن المدني على الأرجح - صريحة الدلالة على أن اليهود لم يقابلوا الدعوة الإسلامية مقابلة حسنة . ويلفت النظر خاصة إلى ما فيها من نهى لهم عن أن يكونوا أول كافر بالقرآن ، وعن إلباس الحق بالباطل وكنم الحق وهم يعرفونه ، ثم إلى السؤال الاستنكاري عن أمرهم الناس بالبر وعدم سيرهم فيه ؛ ففي كل هذا دلالات على تلك المقابلة أولاً ، ثم على بدو أمارات وقوفهم منها موقف الجحود والتعطيل ثانياً .

٢ - ولقد تبع هذه الآيات سلسلة طويلة تضمنت تذكيرهم بما كان من نعمة الله السابقة على آبائهم ، ثم بما كان من عناد هؤلاء الآباء ومواقفهم المتمردة والحجاجية والتعجيزية من أنبياء الله وأوامره ووصاياه ، وما كان من نكال الله بهم الخ ؛ ثم تضمنت تسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم عن عدم ارعواء الأبناء وصلاحهم وتبديل الجبلية الخلقية التي ورثوها من أولئك الآباء الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، والذين مالبتوا أن كفروا وارتدوا إلى عبادة العجل ، ثم انتقلت إلى اليهود المعاصرين ثانياً تندد بهم لما بدا منهم من نفاق وتحريف ، وكيد ودس ، وغرور وحسد وجحود وتناقض الخ نقتطف منها الآيات التالية :

١ — يَدْبِيْ اِسْرَءِيْلَ اِذْ كُرُوْا نِعْمَتِيْ الَّتِيْ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاَنْتِيْ فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰلَمِيْنَ . وَاَنْقُوْا يَوْمًا لَا تَجْزِيْ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُوْنَ . وَاِذْ نَجَّيْنٰكُمْ مِّنْ اِلٍ فِرْعَوْنَ يَسُوْمُوْنَكُمْ سُوْءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُوْنَ اَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُوْنَ نِسَاءَكُمْ وَفِيْ ذٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ عَظِيْمٌ . وَاِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَاَنْجَيْنٰكُمْ وَاَغْرَقْنَا اِلَ فِرْعَوْنَ وَاَنْتُمْ تَنْظُرُوْنَ . وَاِذْ وَعَدْنَا مُوسٰى اَرْبَعِيْنَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَاَنْتُمْ ظٰلِمُوْنَ . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ . وَاِذْ اٰتَيْنَا مُوسٰى الْكِتٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ ...

٤٧ - ٥٣

٢ — وَاِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسٰى اِنِ نُّوْمِنُ لَكَ حَتّٰى نَرٰى اِلٰهَ جَهَنَّمَ فَاِخَذْتَنِيْكَمُ الصَّاعِقَةُ وَاَنْتُمْ تَنْظُرُوْنَ ...

٥٥

٣ — وَاِذْ قُلْنَا اَدْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوْا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيْئَتَكُمْ وَسَتَرِ يَدُ الْمُحْسِنِيْنَ . فَبَدَّلَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِيْ قِيْلَ لَهُمْ فَاَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ ...

٥٨ - ٥٩

٤ — وَاِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسٰى اِنِ نَّصْبِرْ عَلَى طَعَامٍ وَّاحِدٍ فَاَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْاَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيْهَا وَبَصِلَهَا قَالِ اَنْتَنْبِذُوْنَ الَّذِيْ هُوَ اَدْنٰى بِالَّذِيْ هُوَ خَيْرٌ اُهْبِطُوْا مِصْرًا فَاِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلٰةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُوْا بِغَضَبٍ مِّنَ اِلٰهِ ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ كَانُوْا يَكْفُرُوْنَ بِآيٰتِ اِلٰهِ وَيَقْتُلُوْنَ النَّبِيِّيْنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ ...

٦١

٥ — وَاِذْ اَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّوْرَ خُذُوا مَآءَ اٰتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ

وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ...

٦٦ - ٦٣

٦ — وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ . قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ . قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشْبَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا آلَتَنَّا جِثٌّ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ . وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُوهَا فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِن مِّنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِن مِّنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِن مِّنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ...

٧٤ - ٦٧

٧ — أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِسْمْعُونَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ

بأيديهم ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ مِنَّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ
أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ . وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ
أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . . .

٧٥ - ٨٠

٨ — وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا
تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَزْتُمْ وَأَنْتُمْ
تَسْهَدُونَ . ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ
تَظْهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تُمْفِكُوهُمْ وَهُوَ خُحْرَمٌ
عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُونُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ
يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ
الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ...

٨٣ - ٨٥

٩ — وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ
مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ
أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ
اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يُسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ
فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ . بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ
اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ بَشَاءَ مِنْ عِبَادِهِ قَبَاءَهُ وَبَغْضَبٍ عَلَىٰ
غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ

بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَبِكُفْرُوكَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْخَلْقُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ
 أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ
 اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ
 الطُّورَ خُذُوا مَاءَ تَيْنِكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ
 الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَايَا أَمْرِكُمْ بِهِ يُؤْمِنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . . .

٩٣ - ٨٧

١٠ - وَلَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ .
 أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ
 رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ
 اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . . .

١٠١ - ٩٩

ونكتفي بهذه المقتطفات من فصول سورة البقرة في صدد موقف اليهود إزاء الدعوة
 بذاتها ، لأن فيها الدلالة الكافية على الموقف الجحودي الذي وقفوه من جهة ، ولأن
 مواقفهم الأخرى متفرعة عن هذا الموقف واستمرار له من جهة أخرى مع التنبيه إلى أن
 في غير هذه السورة آيات في صدد هذا الموقف فيها تنديد وتقرير لليهود أيضاً .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

ويلفت النظر في صدد هذه المقتطفات :

أولاً : إلى أسلوبها ؛ فقد يكون فيها كثير مما جاء في القرآن المكي من قصص بني
 إسرائيل ، غير أنه جاء بأسلوب حملات تنديدية على اليهود ، في حين جاء هناك
 بأسلوب قصصي وحسب . ولاريب في أن هذا متصل بالموقف الذي وقفه اليهود
 المعاصرون في العهد المدني .

ثانياً : إلى شدة اللحمة التي تبدو في الآيات ، إذ تستهدف تقرير وحدة الجبل والأخلاق

والأساليب بين اليهود على اختلاف أجيالهم ، وأن الأبناء قد توارثوها عن الآباء جيلاً بعد جيل ؛ وإذ يشعر القاري أن الحديث يدور عن جماعة واحدة متصلة العهد والسبب اتصالاً وثيقاً . وهذا واضح في كثرة الانتقال والالتفات في الآيات وتبادل الضمائر بين الغائب والمحاطب . ويتضح ذلك خاصة في الآيات ٦٧ - ٧٤ و ٧٥ - ٨٠ و ٨٣ - ٨٥ .

ثالثاً : إلى وصف موقف الجحود الذي تضمنته الآيات ٨٧ - ٩٣ خاصة ، إذ تقرر صراحة السبب الذي جعلهم يقفون موقفاً جحودياً مناقضاً لمواقفهم السابقة للبعثة التي كانوا يستفتحون بها على العرب ، فيجحدون شيئاً عرفوه حق المعرفة وبشروا به ؛ فاستحقوا من أجله هذه الحملات الشديدة ، واللعنات القاسية ؛ وهو البغي والحقد والحسد .

رابعاً : إلى ما تدل عليه الآيات دلالة كافية وخاصة الآيات ٧٥ - ٨٠ من أن موقفهم الجحودي من الدعوة منذ أوائل العهد المدني كان حاسماً ، بحيث لم يبق أي أمل في إرجعائهم فيه وتراجعهم عنه . ولقد كان هذا هو الواقع ، إذ ظلت كثرتهم الساحقة عليه ، وما كان من أحداث ومواقف متنوعة بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين إنما تفرع عنه .

خامساً : إلى صيغة الآيات ، سواء في إطلاقها الكلام عن اليهود عامة أو في حكايتها لأقوالهم ومواقفهم ومكائدهم وتاريخ آبائهم ؛ أو في ربطها بين الآباء والأبناء في ذلك ، إذ تلهم أن موقف الجحود كان موقف جميعهم بوجه الإجمال ، وهذا بارز كذلك في كل أو جل الفصول القرآنية المدنية التي تحكي مواقفهم المتنوعة الأخرى ؛ مع التنبيه إلى أن هناك آيات في مناسبات أخرى تضمنت استثناء لفئة قليلة منهم ، وسوف نعرض لها في مبحث خاص .

الصورة الثالثة

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى نقطة مهمة ، وهي أن أسلوب الآيات التي قلناها ، والذي هو أسلوب تنديدي ، ليس هو كل شيء في صدد دعوة اليهود إلى الدين الإسلامي ، فقد احتوى القرآن المدني كما احتوى المكي آيات تضمنت دعوتهم بأسلوب هادي لاتنديد فيه ، وأن ذلك الأسلوب إنما كان كذلك لما كان من مقابلة اليهود السريعة للهجرة النبوية وانتشار الدعوة ، ودعوتهم إلى الانضواء إليها مقابلة غير حسنة .

وإليك بعض الآيات المدنية التي تضمنت دعوة أهل الكتاب - الذين يدخل اليهود فيهم بطبيعة الحال - دعوة هادئة على سبيل المثال :

١ - فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ...
آل عمران ٢٠

٢ - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آزِبًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ...
آل عمران ٦٤

٣ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ...
المائدة ١٥ - ١٦

٤ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ...
المائدة ١٩

ونلفت النظر خاصة إلى آيات المائدة ١٥ - ١٦ وبنوع خاص إلى الأولى منها ، إذ تضمنت إيذاناً بأن من الخطة التي سوف يسير عليها الرسول العفوع عن كثير مما يمكن أن يكون صدر أو يصدر من المدعويين ؛ والتجاوز عن هفواتهم ، وتوسعة الصدر لهم ؛ وفي هذه الخطة ترغيب محبب لأهل الكتاب متسق مع الخطة القرآنية بصورة عامة ، ومع الخطة القرآنية المكينة نحوهم بصورة خاصة ، كما أنها تتضمن نفي كل ما يمكن أن يرد من قول مفروض عن نية مبيتة من النبي صلى الله عليه وسلم نحو أهل الكتاب أو فريق منهم .

المبحث الثاني

مواقف اليهود الحجاجية

حجاج اليهود حول إبراهيم وملته وزهوهم بأنهم على الهدى - الحجاج حول نبوة النبي بسبب عروبه - مواقف حجاج وتحد وسخرية من النبي حجاجهم حول جبريل - حجاجهم حول القبة والكعبة - استطراد إلى بحث تبديل سمت الكعبة وظروفه وخطورته في الشخصية الإسلامية - غرور اليهود وتبجحاتهم المتصلة بمواقفهم الحجاجية .

الصورة الأولى

(١) من هذه المواقف ما كان حول إبراهيم صلى الله عليه وسلم وملته ، وفي صدد تبجحهم بأنهم على الهدى وأن ملتهم هي خير الملل ؛ ففي سورة البقرة الفصول التالية :

١ — وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرِيَّةُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِيَّةُ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ...

١١١ - ١١٣

٢ — وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرِيَّةُ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . يٰبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ...

١٢٠ - ١٢٢

٣ — وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ . أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عٰبِدُونَ . قُلْ أُمَحْضُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ . أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنتُمْ أَغْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَدَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ...

١٣٠ - ١٤٠

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

والآيات قد جاءت - على ما يدل عليه سياقها وبعض مضامينها - في معرض مواقف اليهود وحجاجهم ، وهذا ما يجعلنا نرجح أن إدماج النصارى في الآيتين (١١٠ و ١٣٥) منها إنما كان من قبيل التعميم أو الاستطراد ؛ ومهما يكن من أمر هذه النقطة فالآيات على كل حال تتضمن حكاية أقوال اليهود ومواقفهم والحجاج معهم . ويبدو من روحها ومضامينها أن اليهود قابلوا الدعوة الإسلامية بقولهم إن الهدى إنما هو

في اليهودية ، واحتجوا على دعوى النبي صلى الله عليه وسلم بأنه على ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم وإن دعوته إليها ، فقالوا إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم هو أبوهم وأبو الأنبياء ، وإن أبنائه قد ساروا على ملته ، وإن اليهودية التي هي دين هؤلاء الأنبياء والأبناء هي ملته . فردت عليهم الآيات قائلة إن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، وهذه هي ملته التي يدعو إليها النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قررت العقيدة الإسلامية الواجبة على الجميع ومنهم اليهود ، وهي الإيمان بالله وبما أنزل إلى محمد وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والنبيين صلوات الله عليهم جميعاً بدون تفريق بين أحد منهم ، وإسلام النفس لله وحده ، ودعتهم إلى هذه العقيدة ، وطأنت النبي صلى الله عليه وسلم في حال عدم استجابتهم - وهو المتوقع - مقررّة أنهم في شقاق وخلاف ، وأن الله كافيه شرهم ومكرهم .

وقد نصت الآية (١١٣) خاصة من قبيل الإفحام ودحض الحجة التي يحتجون بها ، على أن شقاقهم ليس فيما بينهم فقط بل بين الكتابيين عامة ، إذ يقرر اليهود أنهم وحدهم على الحق وأن النصارى ليسوا على شيء منه ، ويقرر النصارى هذا عن اليهود ، في حين أن الفريقين يتلون الكتاب (التوراة على الغالب لأنها مشتركة بينهما) ويؤمنون به ؛ وهكذا يشهد كل فريق على ضلال الفريق الثاني ؛ فتصدق الشهادة على الفريقين وتدمغهم حجة القرآن ودعوته ، ويصبح لزاماً عليهم اتباع العقيدة التي قررها والتي بها وحدها يتحد الجميع في الطريق القويم ويتخلص اليهود والنصارى من شقاقهم ومشاكلهم .

الصورة الثالثة

هذا ؛ ولعله أريد بتقرير أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين جواباً على قولهم « كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » الإشارة إلى عقيدة النصارى ببنوة عيسى وألوهيته ، وإشراكهم إياه مع الله في الربوبية والعبادة ، وإلى ما كان من عبادة اليهود المعجل ، ثم إلى عقيدتهم في بنوة العزيز لله التي أشارت إليها إحدى آيات التوبة هذه :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَّا يُؤْتِكُون ... »

٣٠

وهي عقيدة لا بد أن يكون اليهود المعاصرون في المدينة أو فريق منهم على الأقل يدينون بها ؛ ولعله أريد بها كذلك الإشارة إلى اتخاذهم وأخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله كما نددت بذلك آية التوبة التالية لهذه الآية وهي :

« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ... »

٣١

والإشارة إلى ما تلمهه بعض آيات سورة آل عمران وهي هذه :

« مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ... »^(١)

٧٩ - ٨٠

فتمة دلالة على أن الكتابيين أو بعضهم كان يتخذ الملائكة والأنبياء أرباباً ، أو يستشفع بهم مع الاعتقاد بتأثيرهم ، مما هو من جملة الشرك .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

(٢) وقد جاء في سورة آل عمران في صدد الحجاج حول إبراهيم وملكه

الفصل التالي :

« يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ

(١) قال بعض المفسرين والرواة : إن الآيات نزلت بمناسبة سؤال اليهود للنبي عما إذا كان يريد منهم أن يسجدوا له . والآيات وسياقها تجعل ما استلهمناه أوجه وتلهم أن الآيات بسبيل التنديد باليهود .

إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَلْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ حُجَجَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ
تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ
يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنْ
أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ ... »

٦٥ - ٦٨

وفي الآيات شيء مما تضمنته آيات البقرة ، وتلهم وقوع حجاج مماثل لما استأمنناه من
تلك الآيات مرة أخرى بين النبي صلى الله عليه وسلم واليهود ، فنزلت معقبة منددة وموضحة
دامغة الحجة ؛ وقد جاءت عقب سلسلة أشير فيها إلى مشهد حجاجي بين النبي وبعض
النصارى حول ماهية المسيح ، غير أن الآيات التي تلتها احتوت حكاية موقف كيد
ودس لليهود ، مما يسوغ أن القول بأن الخطاب الموجه فيها إلى « أهل الكتاب »
قد قصد به اليهود . ومهما يكن من أمر هذه النقطة فإن اليهود داخلون في هذا التعبير
على كل حال .

وفي الآيات حجة جديدة ، وهي أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم إنما عاش قبل
التوراة ، واليهودية إنما بدأ عهدها بعد التوراة ، وأن ملة إبراهيم والحالة هذه لا يمكن
أن تكون اليهودية ، وأن دعوى اليهود ذلك باطلة من أساسها ؛ وأن أبوة إبراهيم
لليهود ليس من شأنها أن تجعلهم على ملته ، وأن تدعم أولويتهم به ؛ فأولى الناس
به هم الذين اتبعوا ملته حقاً ، والنبي صلى الله عليه وسلم الذي اتبعها ، ويدعو إليها
بصراحة لا التواء فيها ، والذين تابعوه في دعوته من المؤمنين . وهكذا يكون القرآن قد
دمغ اليهود في موقفهم الحجاجي الثاني أيضاً ، وزيف دعوى أولويتهم به بسبب أبوته لم
وحسب ، وجعل هذه الأولوية للنبي صلى الله عليه وسلم ومن تابعه من المسلمين . ومما لا شك
فيه أن الحجاج استؤنف وأن النبي صلى الله عليه وسلم واجههم بهذه الحجة القرآنية في
مشهد مواجه .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

(٣) ومن هذه المواقف ما كان حول نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بسبب عروبه .
فقد جاء في سورة الجمعة الآيات التالية :

« هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَنِي ضَلَّلِ مُبِينٍ . وَآخَرِينَ مِنْهُمْ
لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ
أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِنَايِتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .
قُلْ يَٰ أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ... »

٦ - ٢

ويستلهم من روح الآيات أن اليهود ادعوا أن الله قد اختص بالنبوة بني إسرائيل دون
سائر الأجناس ، وأنكروا نبوة النبي لأنه ليس من بني إسرائيل ؛ فردت الآيات
عليهم مثبتة أولا نبوة النبي الأمي العربي ، ومقررة ثانيا أنه لا حرج على فضل
الله ، وأنه مطلق الإرادة يختص بفضله من يشاء ؛ وهاجت ثالثا اليهود
لأنهم مكابرون في موقفهم ، يعرفون الحق ويكتمونه ، وأن مثلهم في
موقفهم كمثل الحمار الذي لا ينتفع بما يحمله من أسفار العلم ؛ ومما لاشك فيه أن
النبي صلى الله عليه وسلم واجه اليهود بهذه الآيات في مشهد استؤنف فيه
الحجاج مواجهة .

ولقد سجل القرآن المكي موقفين فيهما اعتراف بعض اليهود بمطابقة صفات النبي
صلى الله عليه وسلم لما هو مكتوب عندهم في التوراة واتباعهم له وإيمانهم به في آية سورة
الأعراف (١٥٧) وآية سورة الأحقاف (١٠) على ما شرحناه وفي الجزء الأول فاستحكمت
بذلك الحجة القرآنية عليهم .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

(٤) ومنها مواقف حجاج وتحذ وسخرية نحو شخص النبي ونبوته :

١ - فقد جاء في سورة آل عمران الآيات التالية :

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . . . »

١٨٠ - ١٨٣

والآيات لا تحتوى دلالة صريحة على أنها في حق اليهود ؛ ولكن في الفقرة الأخيرة من الآية الأخيرة قرينة حاسمة على أنها في حقهم .

وقد ذكر المفسرون والرواة في صدد القسم الأول من الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استعان باليهود ماليا في ظرف من الظروف - تمشيا مع عادة الحلف العربي وتبعاته - بواسطة أبي بكر رضى الله عنه ، فذهب إلى محلهم فردوه ردأ قبيحا ، كما رووا أن أبا بكر ذهب ليدعوم إلى الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإقراض الله قرضا حسنا ، فقابلوا الدعوة بالجحود ، والجملة الأخيرة بالسخرية ، وقالوا إذا كان الله يستقرضنا فهو إذن فقير ونحن أغنياء ؛ ولم يرو في صدد القسم الثاني مناسبة خاصة فيما اطلعنا عليه . ولعل ما حكى عنهم فيه قد صدر منهم في الظرف نفسه الذي صدر عنهم فيه ما حكاه القسم الأول ، جوابا على دعوتهم إلى الإسلام . والآية الأخيرة تلهم أن هذا الموقف قد كان

بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم مواجهة فيما يتبادر لنا .
ومهما يكن من أمر فالآيات صريحة بأنها قد تضمنت حكاية موقف يهودي بذيء
ساخر في حق الله ، وموقف تحد وتعجيز وحجاج من النبي صلى الله عليه وسلم .

٢ - وقد جاء في سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن
تَضِلُّوا السَّبِيلَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا .
مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنشُرْ غَيْرَ
مُسْمَعٍ وَرَّعِنَالَيْتَ بِالْأَسِنَّةِ طَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَنُشِرْ وَأَنُظِرْنَا
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ... »

٤٤ - ٤٦

وقد تضمنت صورة موقف ساخر لليهود من النبي فكانوا يلون ألسنتهم بكلمة
« راعنا » حتى تؤدي إلى نعت النبي بالرعونة ، ويجهرون بعصيانهم فيما يأمر ويدعو ،
فيستعملون كلمة « عصينا » بعد « سمعنا » استخفافاً به بدلا من الجملة العربية المعتادة « سمعنا
وأطعنا » أو « سمعاً وطاعة » ، ويدعون عليه بالسوء فيقولون اسمع لا سمعت ، أو اسمع
غير مستجاب ، ويقصدون في كل ذلك الانتقاص من الدعوة النبوية والشخصية النبوية
والطعن فيهما . ومما يروى أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه انتبه إلى خبثهم في ليهم
كلمة « راعنا » فقال لهم : يا أعداء الله عليكم لعنة الله ، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من
رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه ...

وقد يبدو من هذا أن اليهود بعد أن كانوا يحاجون النبي صلى الله عليه وسلم ويقفون
موقف الجحود دون أن يخرجوا - ولو في مواجهته على الأقل - عن حدود الأدب ،
رأوا في أنفسهم القوة فتجاوزوا هذا النطاق إلى الهجوم وبدأوه بالسخرية والبذاءة ؛

ولعل هذا كان منهم في ظرف أزمة من الأزمات مرت بالنبي والمسلمين كواقعة « أحد »
فاغتنمها اليهود فرصة لإظهار ما امتلأت به قلوبهم من غل وحقد.

٣ - وقد جاء في سورة النساء أيضاً الآيات التالية :

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ
أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا
الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا .
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي
السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا . فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا . وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ
عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
أَخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا .
بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَإِنَّ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ
قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا . فَيُظْلَمُ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتِ أَحْلَلَتْ لَهُمْ وَبَصَدُّهُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا . وَأَخَذَهُمُ الرُّبُوبُ وَقَدْ
نُهِوا عَنْهُ وَأُكِّلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .
لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا . إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ
وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَعِيسَىٰ وَيُحْيَىٰ وَيُوسَىٰ وَهَارُونَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ

قَصَصْنَهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا .
رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ
اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ الْمَكِينُ
يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا
ضَلَالًا بَعِيدًا . . . »

١٦٧ - ١٥٣

والآية الأولى تضمنت حكاية موقف تحدٍ يهودي للنبي إزاء دعوتهم إلى التصديق
بنبوته ؛ ومن المتبادر أن هذا التحدي قد كان في مشهد دعوة وحجاج مواجه ؛ أما الآيات
الأخرى فقد جاءت تعقيباً على هذا الموقف ، واحتوت ربط موقفهم هذا بموقف آبائهم ،
وحملت عليهم حلة شديدة بسبب تحديهم لموسى عليه السلام وانحرافاتهم عن مبادئ
دينهم وعقيدة التوحيد ، وافتراءاتهم على مريم والمسيح ؛ وقد استهدفت الآية التي
ذكرت إيمان الراسخين في العلم منهم ، دمعهم بحجة قاطعة كما هو المتبادر ، كما استهدفت
الآيتين التي تلتها بتقرير أن وحي الله بالقرآن لنبيه كوحى للأنبياء الذين يؤمن بهم
اليهود - بيان تناقضهم في تحديهم وتمجيزاتهم ؛ وبما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه
وسلم قد أسمعهم هذا الفصل التعقيبي القوي في مشهد مواجه وأخضعهم بالحجة القرآنية
الدامغة ، والتفريع القرآني اللاذع .

٤ - وقد جاء في سورة المائدة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا
ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ
ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ
وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ
الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .
سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ

عَنْهُمْ وَإِنْ تَعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . . . »

٤١ - ٤٣

وقد روى جمهور المفسرين والرواة أنها نزلت في حادث زنا اقترفه يهودي فطلب اليهود قضاء النبي فيها آملين أن يقضي بغير الرجم الذي هو قصاص ذلك في شريعتهم ؛ كما أن بعضهم روى أنها نزلت في حادث دم ؛ وهذه الرواية أكثر اتساقا مع سياق الآيات التي أتت بعدها ، لأنها ذكرت أحكام التوراة في حوادث الدماء . ومهما يكن من أمر ففي الآيات صورة صريحة لموقف حجاج وتعجيز وتهويش وقفه اليهود من النبي يطلبون التقاضي عنده ؛ ويبدو منها أن المنافقين اندمجوا في هذا الموقف وأنه كان له أثر أليم في نفس النبي صلى الله عليه وسلم لما بدا منهم من تمحل وتضليل وكذب وتحريف .

ومن قبيل الاستطراد نلفت النظر إلى ما احتوته الآيات من جعل الخيرة لليهود في التقاضي لدى النبي وعدمه ، وفي إيجاب القضاء بالقسط إذا ما تقاضوا لديه ، إذ حفظت لهم حريتهم القضائية وأقرت لهم القضاء بأحكام التوراة ؛ ولقد نوهت الآيات التالية لها بما في التوراة من نور وهدى تأكيداً لهذا الإقرار ؛ ففي هذا شاهد على ما جنح إليه الإسلام من احترام حرية اليهود القضائية واحترام أحكام التوراة القضائية وإقرارهم عليها مع التوصية بالقسط إذا ما أرادوا التقاضي لديه ورأى أن يقضي بينهم دون أن يكون لمواقفهم الجحودية أي تأثير في ذلك .

٥ — وقد جاء في سورة المائدة الآية الآتية :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْأَقْيَانُ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا

اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ...» ٦٤

وقد روي في نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم استعان ببعض اليهود على بعض الديات تمشيًا مع عصبية الحلف فشكوا له ضيق الرزق ، وقالوا إن يد الله مغلولة عنهم فيه .

وعلى كل حال ففي الآية صورة لموقف محاجة يهودي أساء اليهود فيه أديهم في حق الله؛ وقد سبق منهم موقف مماثل حكته آيات آل عمران ١٨٠ - ١٨٤ على ما شرحناه قبل ؛ مع فارق واحد هو أنهم في ذلك الموقف كانوا يزعمون بغناهم ، في حين أنهم في هذا الموقف كانوا يشكون إذ بدل الله حالهم بالعسر بعد اليسر وبالضيق والفقر بعد السعة والغنى !

ويبدو من مضمون الآية أن هذا الموقف الذي وقفوه كان منبعثا مما كان يملأ صدورهم من الغيظ والسخط من رسوخ في قدم النبي وانتشار دعوته ؛ ولعل مما يصح أن يضاف إلى هذا احتمال كون المسلمين قد انصرفوا عنهم أو قاطعوهم بسبب مواقف الكيد والجحود التي ما فتئوا يقفونها ، واستجابة لأمر القرآن ونهيه وتحذيره ، فأثر ذلك في حالتهم الاقتصادية تأثيراً سيئاً زاد غيظهم وسخطهم وتبرمهم ، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حق الله ومن رد غير جميل لرسوله . ولقد جاء بعد هذه الآية آيتان في ثانيتهما قرينة على صحة ماضئناه وهما هاتان :

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ... »

٦٥ - ٦٦

إذ يلح فيهما أنهم في حالة ضيق ، وأن سبب هذا هو ما كان من موقفهم الجحودي . وواضح أن في هذا فوق الصورة التي نبهنا عليها مشهداً من مشاهد الحال التي صار إليها

اليهود ؛ وننبه إلى أن الآيات وسياقها في حق اليهود ، وأنها تحتوي مشاهد وأقوالا واقعية لهم ، ولو أن الآيتين الأخيرتين جاءتا مطلقتين وشملتا أصحاب الإنجيل أيضاً ، ونرجح أن ذلك من قبيل التعميم والاستطراد :

٦ - وقد جاء في سورة البقرة الآيتان التاليتان :

« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ... »

٩٧ - ٩٨

وليس لليهود ذكر في الآيتين ؛ غير أنهما جاءتا في سلسلة في حق اليهود متصلة بهما من قبل ومن بعد ، كما أن روايات الرواة والمفسرين تذكر أنهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض اليهود حول جبريل عليه السلام ، إذ سأله عن ينزل عليه بالوحي ، فلما قال لهم إنه جبريل قالوا هذا عدونا ، وذكرت كذلك أنهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين عمر بن الخطاب رضي الله عنها وبعض اليهود قالوا فيه إن جبريل وميكال عدوان لليهود .

ومهما يكن من أمر ففي الآيتين موقف من مواقف اليهود التحلية والجحودية متصل بوحى الله وملائكته ، وصلتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم كما هو المتبادر .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

(٥) ومنها مواقفهم الحجاجية حول القبلة والكعبة والحج . فقد جاء في سورة

البقرة الآيات التالية :

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ

كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ . قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ . وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنُوا بَلَاءَ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ... »

ولقد قال جمهور المفسرين والرواة : إن المقصود من السفهاء هم اليهود ؛ وفي الآيات قرينة على ذلك في ذكر أهل الكتاب وكتابتهم الحق مع علمهم به ، مما وصف به اليهود أكثر من مرة في القرآن ، هذا إلى أن الآيات مسبوقة بسلسلة طويلة في حق اليهود . وهكذا تكون الآيات قد تضمنت فيما تضمنته صورة لموقف من مواقف اليهود

الحجاجية والكيدية في ظروف تبديل سمت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الحرام .

وروح الآيات تلهم أنه كان لهذا التبديل وقع شديد على اليهود ؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في مكة يتجه في صلاته - على ما جاء في الروايات - إلى الكعبة ، ثم اتجه إلى المسجد الأقصى عزوفاً عما كان فيها من أصنام ، وتفادياً من اشتراكه في الاتجاه إليها مع المشركين ، أو لعله فعل هذا عند هجرته من مكة من أجل هذين السببين من جهة ، وتأثراً من موقف أهل مكة الجحودي والمؤذي الذي اضطره إلى مفارقة مكة من جهة ، وتألفاً لليهود وتسهيلاً لإجاباتهم لدعوته من جهة ثالثة ، وقد عددنا العلل لأننا لم نطلع على تحليل قديم وثيق ، ولا على توقيت وثيق لاتجاهه إلى المسجد الأقصى ؛ ولكن اليهود وقفوا منه موقف الإنكار والجحود والدس من جهة ، وأخذوا يزعمون عليه وعلى المسلمين بأن اتجاههم إلى قبلتهم هو اعتراف بأنهم على الهدى ، وبأن النبي والمسلمين إنما يقتبسون الهدى منهم ، وبأنهم أولى أن يتبعوهم ويندججوا فيهم لا العكس ؛ فخرّ هذا في نفس النبي صلى الله عليه وسلم وانثقت فيها أمنية التحول عن سمت المسجد الأقصى ، لا سيما وقد ظهر من اليهود ما أياسه منهم .

ونص مطلع الآية (١٤٤) بنوع خاص « قد نرى تقلب وجهك في السماء » قرينة قوية على ما اعتلج في نفس النبي من أزمة بسبب الاتجاه نحو المسجد الأقصى وزهو اليهود وموقفهم من ذلك ، وعلى ما قام فيها من رغبة في التحول عنها ؛ وجملة « فلنولينك قبلة ترضاها » في الآية المذكورة يمكن أن تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حين صار يائساً أو كاليأس من اليهود وثارت في نفسه تلك الأزمة وقامت فيها هذه الرغبة ، تراءى له أن اتجاهه إلى قبلتهم مما يضعف قوة دعوته ، وأن عودته إلى قبلته الأولى مما يؤلف قلوب العرب ، كما أن ذلك هو الأولى ، لأنها بيت الله العربي القديم الذي يعرفه العرب ويرتبطون به ، والذي هو من عوامل وحدتهم الروحية بسبب اشتراكهم جميعاً في حجه ، فكان يتمنى أن يتحول إليها في صلاته وتكون قبلته ثانية ؛ ولعله كان يسمع تالماً

أو انتقاداً أو يرى حيرة من العرب مسلمين وغير مسلمين من الاتجاه إلى المسجد الأقصى وإهمال الكعبة وهي بيت الله العربي المقدس منذ قديم الأقطاب ، فكان هذا مما قوى مافي نفسه من الرغبة والأمنية^(١)

ولعل جملة « لئلا يكون للناس عليكم حجة » تتضمن قرينة على هذا .

ولقد رأى اليهود في هذا التحول ضربة شديدة توجه إلى مكانتهم الدينية ووسيلتهم إلى الزهو على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فنشطوا على ماتلهم الآيات إلى الدس والحجاج وتشكيك المسلمين ، فقالوا إذا كان سمت المسجد الأقصى غير حق فقد أضاع النبي عبادة الذين صلوا إليه ، وإذا كان حقاً فلا معنى للتحول عنه وتكون الصلاة إلى الكعبة ضائعة ؛ وقالوا إن أفعال النبي لو كانت مستندة إلى وحي رباني لما نسخ اليوم مافعله بالأمس ، ولما قال اليوم قولاً ثم نقضه في الغد ، لاسيما في الأمور التعبدية^(٢) .

ويبدو من روح الآيات ومضامينها أن هذه الدسائس والدعايات والمواقف الحجاجية قد أثرت بعض الأثر في بعض المسلمين ، فاحتوت الآيات أسباب طمأنينة متنوعة لهم ، وحملة على اليهود ، وتبتيماً للنبي صلى الله عليه وسلم فيما أوحى إليه به ، مثل تقرير أن المسألة ليست في الشرق والغرب^(٣) ، وإنما هي في الاتجاه الخالص إلى الله ، وأن تبديل القبلة الأولى بالثانية هو اختبار رباني لقوة إيمان المسلمين واتباعهم الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وأن من نعمة الله عليهم أن بعث فيهم رسولاً منهم ، يعلمهم ويزكيهم ، فحق عليهم شكره وذكره ، والثبات على مافرضه ، وعدم جحود نعمته والتردد في اتباع

(١) روى المفسر الطبرسي في سياق تفسير الآيات عن الحسن وأبي العالية وعكرمة من التابعين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكثر الدعاء والابتهال بأن يوجهه الله إلى الكعبة فاستجاب الله دعاءه . وروى البخاري والترمذي عن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يوجه إلى الكعبة فأُنزل الله الآيات (قد نرى قلب وجهك في السماء . . . الخ) .

(٢) هذا الدس اليهودي تضمنه آيات سابقة لهذه السلسلة سنعرضها بعد .

(٣) هذا التقرير في آيات أخرى سابقة سنعرضها بعد .

ما يأمر به ، وكون الله لا يمكن أن يضيع إيمانهم وصلاتهم فعليهم أن يطمئنوا ، ولا يستمعوا لدسائس اليهود الذين يعلمون أن ما وقع حق وإن كتموه ، وأن يستيقنوا أن انتقادهم سفه فلا يعبا به ، وأنه لا أمل في اتباعهم دعوة النبي وقبلته ، فلم يبق محل لاتباعه قبلتهم وأهواءهم .

وهذه السلسلة مسبوقة بسلسلة أخرى نفتقد أن لها صلة بالموقف وأنها نزلت هي أيضاً في مناسبة تقتطف منها ما يلي :

١ — مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَالِكُ مَنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِمَّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْخُلُقُ فَاغْفِرُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . . .

١٠٩ - ١٠٥

٢ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَالِمٌ . . .

١١٤ - ١١٥

٣ — وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ . وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا

وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهٍ نَفْسُهُ وَقَدْ اِصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . . .

١٢٤ - ١٣١

ولقد روي في صدد الآية ١٠٦ أن اليهود كانوا يغمزون النبي ويثيرون الشك في المسلمين بقولهم إنه يأمر بالشيء ثم ينهى عنه ، وإن هذا ليس شأن الأنبياء ، ويلقنونهم طلب البراهين منه على نبوته بسبيل ذلك ؛ فاحتوت الآيات طمأنة للمسلمين ، فالله إذا نسخ أمراً فلحكمة رآها ، ولعل الناسخ يأتي خيراً من المنسوخ ، وأن الكتابيين - والمقصود هنا اليهود للقرينة القائمة - لا يريدون لهم أي خير كالمشركين ، وأن كثيراً منهم يودون أن يرتدوا كفاراً حسداً وحقداً ، وأنه لا ينبغي للمسلمين أن يقفوا من النبي موقف اليهود من موسى : يحاجونه ويرادونه ويسألونه البراهين ، فإن مغبة هذا تبدل إيمانهم بالكفر . والذي يتبادر لنا أن اليهود قد غمزوا النبي صلى الله عليه وسلم بما غمزوه من النسخ بمناسبة تبديل القبلة قصد الدس والتشكيك ، فاحتوت الآيات ما احتوته من الطمأنة والتحذير .

وفي الآيتين ١١٤ - ١١٥ ما يمكن أن يكون قرينة على هذا التوجيه ، إذ احتوت

الأولى تنديدا بمن يعطل مساجد الله ويسعى في خرابها ، والثانية إعلاناً بأن المشرق لله والمغرب لله ، وأن الله موجود أينما يولي المسلمون وجوههم ؛ والأولى تلهم أنها تنديد باليهود ، لأنهم دسوا وشككوا في ظروف تبديل القبلة ، وفي هذا سعي لخراب بيت الله وإهماله ، وينطوي في الثانية معنى سعة أفق الدعوة الإسلامية ، واهتمامها بالجواهر دون العرض ، تلقينا للمسلمين حتى لا يعبأوا بما يبشيه اليهود فيهم .

أما السلسلة الثالثة (١٢٤ - ١٣٠) ففيها تأكيد :

(١) لقدسية الكعبة ، وتقرير أنها بيت الله ومعبد المظهر ، ومثابة للناس منذ طويل الأحقاب . و (٢) لصلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بها وبأمن منطقتهما ومناسك حجها . و (٣) لصلة العرب بإبراهيم وإسماعيل بالنبوة ، وتوكيد أن بعثة نبي منهم فيهم هي أمنية من أمانيهما ، ودعوة من دعواتهما لإتقاذ العرب وتطهيرهم وإرشادهم . و (٤) لأساس ومفهوم ملة إبراهيم عليه السلام وهي إسلام النفس لله وحده ، وأن المنحرف عن ذلك ضال خاسر نفسه .

والذي يستلهم من روحها ومضامينها ومن ورود الآيات المنسدة باليهود بسبب موقف الدس الذي وقفوه في ظرف تبديل القبلة بعدها بقليل ، وهي الآيات ١٤٢ - ١٥٣ أن هذه الآيات هي من جهة مقدمة للآيات التي تليها مباشرة والتي احتوت الرد على اليهود في أمر ملة إبراهيم ومجادلتهم وهي ١٣١ - ١٣٤ التي نقلناها في فقرة سابقة ، ومن جهة ثانية مقدمة أيضاً للآيات ١٤٢ - ١٥٣ التي احتوت الرد عليهم في تقديم تبديل القبلة ؛ فوق ما احتوته من تدعيم لصحة النبوة الحمديدية وأهدافها إزاء أهل الكتاب معاً . ولعل مما يتصل بالموضوع الذي نحن في صده استهدافها في تقرير صلة إبراهيم وإسماعيل بالكعبة واتصال فضلها وطهارتها - تقرير سبقها في القدم والوجود للمسجد الأقصى ، وأولويتها عليه في الاتجاه والتعظيم ، وبالتالي تقرير أن الناسخ وهو الكعبة جاء خيراً من المنسوخ وهو المسجد الأقصى .

وننبه إلى ما يمكن أن تلهمه فقرة « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم » في الآية ١١٤ من اعتراف اليهود في موقف ما قبل البعثة أو بعدها بفضل الكعبة وصلتها بإبراهيم عليه السلام وسبقها المسجد الأقصى ، إذ جبهتهم الحجة القرآنية بما كان من اعترافهم بذلك ثم إنكارهم له وسعيهم ضده باللدس والتشكيك ؛ وإذ أريد في آيات من السلسلة تقوية للحجة الدامغة عليهم ، تقرير واقع موقفهم وبواعثه ، وهو الغرض والهوى والحقد والماراة . ولقد كانت هذه الفصول القرآنية تتلى جهره ، ولا بد أن يكون اليهود قد سمعوها أو وجهت إليهم في مشهد من المشاهد ، كما سمعها العرب على اختلاف سرأثرهم ، وقد احتوت هذه التقارير القوية الصريحة عن فضل الكعبة وقدمها وصلتها بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وصلة العرب بهما ، ومعرفة اليهود أن هذا حق ، والتنديد بهم لكتهم إياه ومماراتهم فيه ؛ وكل هذا لا يبقى أي محل للماراة فيما استلهمنا من أن اليهود كانوا اعترفوا للعرب في موقف من المواقف بذلك كله .

ومع كل ذلك يظهر أن اليهود لم يقبلوا الهزيمة ، فقد جاء في سورة آل عمران الآيات التالية :

« كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ . قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِمَا آتَىٰ اللَّهَ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن

سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبِعُونَهَا ءِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ . »

٩٣ - ١٠٠

وقد روى الرواة والمفسرون في صدد القسم الأول من الآيات أنه نزل في سياق موقف حجاجي بين النبي واليهود حول تحليل النبي صلى الله عليه وسلم لحوم الإبل وألبانها ؛ إذ انتقدوا ذلك لمخالفته للتوراة وملة إبراهيم ؛ ورووا في صدد القسم الثاني أنه نزل في سياق موقف حجاجي آخر بينه وبينهم أيضاً ادعى اليهود فيه أفضلية معبدهم وأفضلية الاتجاه إليه على الكعبة ؛ وكل رواية متسقة مع مضمون القسم الخاص بها من الآيات ؛ غير أنه يتبادر لنا أن الآيات نزلت دفعة واحدة في سياق موقف حجاجي واحد اتصل الموضوعان فيه بعضهما ببعض ، إذ أنكر اليهود ما قررته آيات البقرة من صلة الكعبة وحجها بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وقالوا إن التوراة لا تذكر شيئاً من ذلك ، فردت عليهم الآيات بأن التوراة لا تذكر أشياء كثيرة مما كان قبلها ، وضربت مثلاً لهم بالمحرمات من الأطعمة التي ذكرتها التوراة مع أن كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل قبلها ، وتحذرتهم بتلاوة التوراة وإثبات عكس ذلك .

ومهما يكن من أمر هذا التوجيه فإن القسم الثاني متصل بموقف حجاجي لليهود في شأن الكعبة وفضلها ؛ وقد احتوى تثبيتاً لما قررته آيات البقرة من صلة إبراهيم عليه السلام بها ، وقدمها على كل بيت عبادة آخر ، وبالتالي على المسجد الأقصى ، وإن من علائم فضلها أن كل من دخلها آمن ، وأن الله قد فرض حجها على كل من استطاع إلى ذلك سبيلاً من الناس ، وأن فيها مقام إبراهيم ذا العلامات الواضحة المعروفة ؛ ثم حمل على اليهود حملة قوية ، وحذر المسلمين منهم ؛ فالله غني عن الكافرين وإن اليهود ليكفرون بآيات الله ويصدون من آمن عنها ، وعلى المسلمين أن يحذروهم فإنهم إذا أصغوا إليهم ارتدوا إلى الكفر بعد الإيمان . وفي الفقرة الأخيرة من الآية (١٠٩)

نقطة خطيرة المغزى نريد أن ننبه إليها ؛ فقد أمرت المسلمين بالعفو والصفح إزاء ما يبدو من اليهود من مواقف الدس والكيد والأذى والتشكيك والحسد ومحاولة رد المسلمين إلى الكفر . . . إلخ ، إلى أن يأتي الله بأمره ؛ مما يلهم أن الغضب استفز فريقاً من المسلمين عليهم فاقترح التنكيل بهم ، فاقترضت الحكمة تهدئته وتسكينه إلى وقت تكون الحجة عليهم أشد قوة وتبديل الموقف معهم أكثر تبريراً .

الصُّورَةُ الثَّامِنَةُ

هذا ؛ وقد رأينا المناسبة سانحة للتنبيه إلى بعض الأمور في صدد تبديل سمت القبلة بالذات كحادث من حوادث السيرة في العهد المدني ؛ فقد أكسب الدعوة الإسلامية شخصية مستقلة بعد أن كان في شخصيتها شيء من التمجع أو التمازج في أفق ومدار شخصية أهل الكتاب وقبلتهم ، وقد خلد قدسية الكعبة ومركزيتها ، إذ لم تلبث أن صارت متجه العرب في حياتهم الدينية الجديدة في جميع أنحاء الجزيرة ، أشد وأقوى وألزم مما كانت لهم قبل هذه الحياة أولاً ، ومتجه المسلمين في جميع أنحاء العالم ، وناظماً لوحدهم الروحية ثانياً ؛ وقد كان كذلك عنواناً على الإبقاء على مناسك الحج والكعبة ، إذ صارت ركناً مفروضاً من أركان الإسلام بعد تصفيتها من شوائب الوثنية ومشاهدها .

وهناك نقطة تستحق التوقف من ناحية ظروف حادث تبديل القبلة : فالآيتان ١٤٢ - ١٤٣ تقدمتا على الآيات التالية لها في السلسلة ١٤٢ - ١٥٣ والتي فيها صراحة تبديل القبلة . والسؤال الذي يخطر بالبال هو هل نزلت هذه السلسلة جميعها معاً ، أو أن الآيات ١٤٤ وما بعدها نزلت على حدة ونزلت الآيتان الأوليان على حدة ، وأي المجموعتين نزلت قبل الأخرى ؟ فإذا كانت السلسلة نزلت جميعها معاً فمعناه أن حادث التبديل كان بدءاً بإلهام رباني غير قرآني ، وأن السلسلة وما قبلها إنما نزلت للرد على انتقاد اليهود ، وتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم على ما ألهمه من التحول ، وتبريره

وطمأنة قلوب المسلمين . ولعل حكاية تساؤل اليهود بصيغة « ماولاهم » قرينة على هذا . وفي القرآن شواهد عدة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلهم العمل ثم ينزل القرآن بتثبيته وتبريره ومن الأمثلة على ذلك غزوة بدر ، وعزيمة زيارة الكعبة التي انتهت بصلح الحديبية ، فقد نزلت سورتا الأنفال والفتح فيها بعد وقوعهما ، وفيهما تثبت لما فعل النبي ، كما في الأنفال وعتاب بشأن الأسرى لأن ما فعله كان خلاف الأول الذي في علم الله . أما إذا كان التبديل قد وقع بأمر قرآني ، وبعبارة أخرى : بالآية ١٤٥ وما بعدها فالمتبادر أن تكون هذه الآية هي التي نزلت أولاً ثم وقف اليهود موقفهم فنزلت الآيتان ١٤٢ - ١٤٤ ثم بقية السلسلة وما قبلها من فصول متصلة بالموقف على ما ذكرنا قبل ؛ ونحن نميل إلى ترجيح الفرض الأول ، لأن الآية ١٤٥ نفسها قد احتوت رداً على أهل الكتاب ، وبياناً لواقع موقفهم وباعثه .

أما تاريخ الحادث فقد كان - فيما يروى - بعد ستة عشر شهراً من الهجرة النبوية ، في أثناء صلاة ظهر يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً حيث صلى النبي صلى الله عليه وسلم ركعتين إلى المسجد الأقصى ثم تحول إلى الكعبة^(١) ، وبقطع النظر عن التعيين الحاسم في الرواية فإن من المحتمل جداً أن تكون آيات القبلة من الفصول المبكرة في النزول تبعاً لتبكير اليهود في موقفهم الجحودي ؛ وقد يكون في هذا ما يدعم صحة التاريخ المروي أو مقارنته للصحة .

الصورة التاسعة

ومما يصح أن يلحق بهذا البحث ما حكته آيات عدة عن غرور اليهود وتبجحهم

(١) روى البخاري والترمذي عن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكان يحب أن يوجه إلى الكعبة فأُنزل الله آيات القبلة فوجه نحو الكعبة فصلى رجل معه العصر ثم مر على قوم من الأنصار وهم ركوع في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال لهم إنه يشهد أنه صلى مع رسول الله وأنه وجه إلى الكعبة فأنحرفوا نحوها وهم ركوع . انظر أيضاً تفسير الآيات في تفسير الطبري والحازن وابن كثير .

الذين كانا يبدوان منهم حينما كانت توجه إليهم الدعوة أو يحدث بينهم وبين النبي والمسلمين حجاج وجدل ، إذ ورد في القرآن غير ما مر نقله مما اتصل بالأبحاث السابقة آيات عدة أخرى .

١ - في سورة البقرة الآيات التالية :

« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ . وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . . . »

٧٩ - ٨٠

وقد تضمنت (١) حكاية موقف تدليس لهم على العرب بما كانوا يظهرونه من تعاليم ، وينسبون ما يقولونه ويكتبونه إلى الله افتراء عليه ، لاستبقاء ما لهم عندهم من ثقة ومكانة . و (٢) حكاية موقف تبجح إزاء ما كانوا يسمعون من الإنذار القرآني فيقولون: إن المذنب منهم لن تمسه النار إلا أياماً معدودة ثم يناله عفو الله لما لهم من حظوة خاصة عنده . والمتبادر أن هذا الموقف خاصة هو من باب المواقف الحجاجية فوق ما فيه من تبجح زائف .

٢ - وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْخَلْقُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . . . »

٩١

وقد تضمنت حكاية موقف غرور واستخفاف لهم؛ إذ كانوا يقولون إن ما عندهم كاف لهم ولا حاجة لهم بغيره حينما كانوا يدعون إلى الإيمان بالقرآن والنبوة المحمدية ،

والفقرة الثانية من الآية تلهم أن هذا القول منهم كان في مشهد حجاج ودعوة مواجهه كما هو المتبادر .

٣ - وفي السورة نفسها أيضا الآيات التالية :

« قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ... »

٩٥ - ٩٤

والمتبادر أن تحدي اليهود في الآية الأولى قد كان جواباً على موقف حجاج وتبجح قالوا فيه إنهم وحدهم على الهدى ، وإنهم من أجل ذلك هم وحدهم أصحاب الخطوة عند الله في الآخرة . ولقد جاء في سورة الجمعة تحد مقارب لهذا التحدي رداً على تبجحهم بأنهم أولياء الله من دون الناس ، كما ترى فيما يلي :

« قُلْ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ... »

٧ - ٦

مما يدل على أن هذا التبجح منهم في المشاهد الحجاجية كان يتكرر أنا بعد آخر .

٤ - وفي سورة البقرة كذلك الآية التالية :

« وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ... »

١١١

وهذه الآية متصلة فيما هو المتبادر بالموقف التبجحي الذي ذكرناه في الفقرة السابقة ، لأنها مع سلسلة واحدة من الآيات السابقة لها ؛ وقد لاحظنا في مكان سابق أن ذكر النصارى هو من قبيل التعميم لكل من يتمسك بما هو عليه ويزعم أنه على حق . ومع ذلك فاليهود على كل حال ممن حكى القول عنهم .

٥ - وفي السورة نفسها الآية التالية :

١٣٥

« وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ... »

وهذه أيضا متصلة بالموضوع نفسه ، وهي من سلسلة واحدة ، إذ قالوا متبجحين إن الهدى إنما هو في اليهودية ؛ وما قلناه آنفاً في صدد ذكر النصارى يصح هنا بطبيعة الحال .

٦ - وفي سورة آل عمران الآية التالية :

« وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ... » ٧٥

وجمهور المفسرين والرواة على أن قائل « ليس علينا في الأميين سبيل » هم اليهود ، وهذا متصل بفكرة أنهم شعب الله المختار ، وأنهم ليس عليهم تبعة أي عمل يصدر منهم ضد أي شخص من الأميين ، أي غير الكتابيين ، وبكلمة ثانية من غيرهم^(١) ؛ لأنهم لا يعترفون بالنصرانية وإنجيلها . وواضح أن قولهم هذا من باب الزهو والغرور والترفع عن الغير ، كما أن فيه فتوى لأنفسهم باستحلال ما في أيدي الغير دون ما حرج .

ولقد جاء في سورة النساء آيات تمت إلى هذا الخلق الذي لا يتورعون عن

التبجح به وهي :

« أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَاءِ أَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّا كَانُوا يَحْسُدُونَ عَلَيْهِمْ ... » ٥٣ - ٥٤

(١) صار المقصود من الأميين في القرآن « العرب » أيضا ، لأن اليهود حينما كانوا يقولون الأميين لم يكن أمامهم غير عرب الحجاز تقريبا . وقد وصف النبي بالأمي في آيات سورة الأعراف ١٥٧ - ١٥٨ بمعنى العربي ، كما وصف العرب بالأميين في آيات سورة الجمعة الأولى وغيرها .

إذ وصفتهم بأنهم إذا صار لهم ملك شيء أو سلطان ما فإنهم يحسرون كل منفعة لأنفسهم ، ولا يدعون للغير أي مجال للانتفاع بأي شيء مهما كان تافهاً ؛ كما أن من خلقهم حسد غيرهم على أي نعمة تصيبهم أو فضل ينالهم من الله ، مع أن الله قد آتاهم نعماً عظيمة تمتعوا بها من فضله .

٧ - وفي سورة آل عمران أيضاً الآية التالية :

« لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ... »

١٨٨

وجهور المفسرين والرواة على أن المقصود في الآية علماء اليهود . ومما روي في صدها أن النبي صلى الله عليه وسلم سألهم عن أمر فأجابوه إجابة غير صحيحة ثم أخذوا يزهون بعلمهم ، مع أن كذبهم لم يلبث أن انفضح ؛ فنزلت الآية تندد بهم وتوعدهم ؛ ومهما يكن من أمر فالوقوف التبجحي واضح في الآية .

٨ - وفي سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا . أُنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ... »

٥٠ - ٤٩

وقد روي أن الآيتين نزلتا بمناسبة تبجح صدر من اليهود بأن الله يكفر عنهم في النهار ما يقترفونه من ذنوب في الليل ، ويكفر عنهم في الليل ما يقترفونه في النهار ؛ وعلى كل حال فالتبجح واضح في الآية ، وهو متصل بدعوى الخطوة عند الله .

٩ - وفي سورة المائدة الآية التالية :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَفْعَلُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ... »

١٨

وقد تضمنت حكاية تبجح صريح وعجيب ورداً عليه ، والقسم الثاني من الآية يدل على أنه صادر في موقف حجاجي . وقد استهدفت الآية دحض دعوى الخطوة والشعب المختار ؛ كما استهدفت الآيات الأخرى ذلك أيضاً . ومما يجدر التنبيه إليه أن القرآن المكي والمدني قد احتوى تقرير تفضيل الله اليهود على العالمين ^(١) مما يمكن أن يوم تنافضاً في التقريرات القرآنية ؛ ولسنا نرى ذلك ؛ إذ الأولى صرف التفضيل إلى بعثة موسى عليه السلام ، وعدم ضرورة أن يكون ذلك مستمراً كما هو المتبادر ؛ لا سيما أن القرآن مكيه ومدنيه قد ذكر ما كان من انحراف اليهود واستحقاقهم لغضب الله ونكاله في السابق واللاحق ، وفسق كثير منهم ، وجواب الله لإبراهيم عليه السلام بأن عهده لا ينال الظالمين من ذريته ^(٢) .

هذا بقطع النظر عما إذا كان القول المحكي في الآية قد صدر عن اليهود والنصارى في مجلس أو مجالس ، أو أنه تعبير عن لسان حالهم ؛ فإنها تحتوي صراحة أن اليهود ممن صدر عنهم القول كما هو ظاهر .

(١) الجانية ١٦ والبقرة ٤٧ مثلاً .

(٢) الأعراف ١٢٨ - ١٥٦ و ١٦١ - ١٦٩ والبقرة ١٢٤ والحديد ٢٦ وكثير من الآيات التي نقلناها في هذا البحث وخاصة آيات البقرة وآل عمران والنساء .

المبحث الثالث

دسائس اليهود بين المسلمين وتآمرهم عليهم

مع المنافقين والمشركين

مدى دسائس اليهود ومؤامرتهم - أولاً دسائسهم : تظاهر اليهود بالإيمان وتواصيهم بعكسه - تدليسهم باسم التوراة - محاولتهم تشكيك المسلمين في صحة أفعال النبي وخاصة في أمر تحويل القبلة - كتمهم ما في التوراة من المحرمات بقصد التشكيك - تأمرهم على التظاهر بالإيمان ثم الرجوع عنه لتشكيك المسلمين - تدليسهم بحلف الإيمان - دسهم بقصد إثارة الفتن والشكوك - صورة بليغة عن بغض اليهود للمسلمين وتربصهم بهم - محاولات علماء اليهود في التدليس والإضلال - سخرية اليهود بالإسلام والصلاة والأذان - دور أحبار اليهود في الموقف الجحودي اليهودي العام . ثانياً تأمرهم مع المنافقين : تمازج المنافقين واليهود وأثر هؤلاء في نحو أولئك - مدى وصف اليهود بشياطين المنافقين - موالاة المنافقين لليهود - وعدمهم لهم بالطاعة - موقف تأمر صريح بين المنافقين واليهود في ظروف إجلاء بني النضير - موقف إعلان صريح من المنافقين بتمسكهم بولائهم لليهود - تعليق في صدد تولي المنافقين لليهود . ثالثاً تأمرهم مع المشركين : خطورة الصور القرآنية لهذا التأمر على قلوبها - تشجيع المشركين على الثبات على الشرك وإيمانهم بألهتهم يسبيل التحالف معهم للقضاء على الكيان الإسلامي - بعد مدى ماساقهم إليه الحقد من بشاعة الموقف - مظاهره اليهود لجيوش الأحزاب التي غزت المدينة كنتيجة للتحالف - موالاة اليهود للكفار بالرغم من تظاهرهم بالإيمان - صورة بليغة من عدائهم للمسلمين .

الصورة الأولى

في القرآن صور عدة لدسائس اليهود بين المسلمين وكيدهم لهم وللدعوة الإسلامية ، وتأمرهم عليهم مع المنافقين من جهة والمشركين من جهة أخرى ، تدل على بعد مدى ما كان من سوء نيات اليهود ضد المسلمين وشدة نكايتهم فيهم ، وتوسلهم بكل وسيلة إلى محاربة الإسلام وتقويض أركانه كما ترى فيما يلي :

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

أولا : دسائس بين المسلمين :

١ - في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِثَنَائِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونَ . وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ... »

٤١ - ٤٢

وقد تضمنت نهى اليهود عن كتم الحق وإلباسه بالباطل عن قصد ؛ والمتبادر أن هذا إنما كان منهم تجاه الغير ، وبقصد الدس والتشكيك والصد ، والراجح إن لم نقل المحقق أن هذا كان منهم إزاء المسلمين ، لاسيما أن آيات أخرى كثيرة قد أكدته بصراحة . ويلاحظ أن الآيات من أبكر ما نزل في المدينة ، ومعنى هذا أن الدس بين المسلمين قد أخذ يقع من اليهود مبكراً جداً ...

٢ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ... »

٧٥ - ٧٦

والآيات تخاطب المسلمين وتقرر لهم من جهة فقدان الأمل بارعواء اليهود وإيمانهم بالنبي ، وتتضمن من جهة أخرى صورة من صور تدليسهم على المسلمين ونفاقهم ، وصورة أخرى لتآمرهم عليهم بالتواصي بالآلا يصدر منهم أي اعتراف بحقيقة قد يكون فيها متمسك أو حجة عليهم ...

٣ - وفي السورة نفسها الآية الآتية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا آرَأٰنَا وَقُولُوا آنْظُرْنَا وَانْصَبُوا لِّلْكَافِرِينَ

عَذَابٌ أَلِيمٌ...»

١٤٠

يضاف إليها الآيات ١٠٥ - ١٠٩ التي نقلناها في بحث تبديل القبلة . ولهذه الآيات مع الآية ١٠٤ صلة بالمبحث الذي نحن في صدده ، إذ احتوت تحذيرات متنوعة للمسلمين من حسد اليهود ودسائسهم والجري على أساليبهم ؛ فاليهود كانوا يتخذون خطاب المسلمين للنبي صلى الله عليه وسلم بكلمة « راعنا » وسيلة لأذاه ، فيلوون ألسنتهم بالكلمة ليكون معناها وصف النبي بالرعونة سخريه به ، فنهوا عن ذلك ؛ وقد حذروا من تعجيز النبي صلى الله عليه وسلم بالأسئلة والمطالب تقليداً لأسلافهم الذين عجزوا موسى بمثل ذلك . مما يلهم أن اليهود قد نجحوا في دسهم وتشكيكهم بين المسلمين حتى صار بعضهم يجادل ويسأل ويبدو منه بعض الشك ، وقد رجحنا أن هذا قد كان في ظروف تبديل القبلة . وقد حذروا تحذيرين آخرين : فاليهود لا يريدون أن ينالهم خير من ربهم ، ويودون أن يرتدوا عن دينهم كفاراً ، حسداً للمسلمين وغيظاً من إسلامهم والتفافهم حول النبي صلى الله عليه وسلم . وخلال كل هذا تبدو أصابع اليهود الدساسة بين المسلمين واضحة كما ترى .

٤ - ويسلك في هذه السلسلة آيات القبلة ١٤٢ - ١٥٢ التي نقلناها سابقاً ، إذ احتوت الإشارة إلى مواقف الدس والتشكيك اليهودية ، مما شرعناه في مناسبتة .

٥ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا

أَضْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُ اللَّهُ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي
الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ...»

١٧٦ - ١٧٢

والمقصود من الحملة في الآيات ١٧٤ - ١٧٦ هم علماء اليهود على ما قاله جمهور
المفسرين . وورود آية المحرمات مع الحملة عليهم أن هؤلاء العلماء قد وقفوا موقف
دس وتشكيك من المسلمين بشأنها ، كاتمين أنها مما حرمة التوراة ، فاستحقوا هذا
التقريع والإنذار ، وتنبيه المسلمين إلى الحق في الأمر ، وإلى أن علماء اليهود إنما
يكتُمون ما في كتابهم من الحق للتسق مع التقرير القرآني بقصد بث الشك فيهم
وإضلالهم عن الهدى .

الصورة الثالثة

٦ - وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ . يَبْتَغِ هَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِثَابِتِ اللَّهِ وَأَتُمُّ تَشْهَدُونَ . يَبْتَغِ
الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَتُمُّ تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ
طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ
وَأَكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ
قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ
رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ...»

٦٩ - ٧٣

والجمهور على أن أهل الكتاب هنا أيضاً هم اليهود ؛ وفي الآيات قرائن عدة
على ذلك ؛ فالصفات والأفعال المنسوبة إليهم مما نسب في غيرها لليهود صراحة كما
مر في آيات البقرة . ويبدو أن الآيتين الأولىين تضمنتا تمهيدا تنديدياً لما حكته
الآيات التالية لهما ؛ أما الآيات التالية فقد تضمنت صورة دس وتشكيك بشعة جدا ،

إذ حكت تأمر اليهود فيما بينهم على التظاهر بتصديق القرآن والإيمان به ، حتى إذا اطمأن المسلمون لهم أعلنوا شكوكهم وارتياهم في بعض المسائل ؛ فأحدثوا بلبلا وريباً في المسلمين وثغرة في صفوفهم ؛ وقد حكت كذلك تواصلهم فيما بينهم بعدم الاعتراف بحقيقة مواقفهم ومقاصدهم ومعارفهم إلا بعضهم لبعض ، وبعدم الاطمئنان إلا لمن دان بدينهم ؛ لئلا ينتفع بذلك غيرهم ويكون لهم عليهم الحجة ، أو ينفذون إليهم من ثغرة ما .

٧ - وبعد قليل من هذه الآيات جاءت الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ... »

٧٧ - ٧٨

والآيتان من سلسله وسياق واحد ، والجمهور على أن المقصود في الآية الثانية هم علماء اليهود ؛ وقد تضمنت صورة من صور التدليس على المسلمين بقصد التعالم وكسب الثقة وضمانه المنفعة الخاصة ؛ ويبدو من فحوى الآية الأولى أنهم كانوا يحلفون الأيمان على صحة ما يقولون من الأكاذيب والافتراءات على الله ليضمنوا الأهداف الدنيوية التي يهدفون إليها ...

ومن المحتمل أن تكون الحملة المنطوية في الآية الأولى ، والتقرير الذي احتوته الآية الثانية ، متصلين بالموامة التي حكها الآية ٦٩ - ٧٤ ، وأن يكون فريق من علماء اليهود قد نفذوها ، وأنهم أخذوا يقسمون الأيمان على صدق ما قرروه من مناقضات النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن لما عندهم ، تحقيقاً لهدفهم

وهو تشكيك المسلمين ، وردهم إلى الكفر ، وتفريقهم عن النبي أو إيجاد ثغرة في صفوفهم .

ولقد جاء بعد قليل الآيات التالية :

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ . قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ . كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... »

٨٩ - ٨٣

ومن المحتمل أن تكون الآيات الأولى قد استهدفت رد دعوى المناقضة التي ادعاها اليهود تحقيقاً لمؤامرتهم ، وتوكيد إيمان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بكل ما جاء به الأنبياء السابقون بالإضافة إلى ما أنزل عليهم ، دون تفریق بين أحد ، ودون تردد ما ، وبكل إسلام و انقياد مما هو متصل بالرد عليهم أيضا على ما هو المتبادر . والآية ٨٦ تلهم أكثر من الآيات السابقة أن فريقاً من اليهود قد نفذ المؤامرة ، فأعلن إيمانه بالرسالة النبوية والتنزيل القرآني ، وشهد أنهما حق ، ثم ما لبث أن أعلن ارتداده لإثارة الشك في المسلمين ، فاستحق هذه الحملة الشديدة المتناسبة مع بشاعة المؤامرة ، واحتمالات آثارها الوخيمة .

ونحب أن نلفت النظر إلى مدى الآية الأخيرة ، إذ يتسق مع مبادئ القرآن العامة من إبقاء الباب مفتوحاً لكل إنسان جاحداً كان أم مذنبا ليصلح أمره ، ويتوب عن

موقف الإنتم والجحود فيقبل منه ذلك ؛ وإذ يدل على أن هذا لليهود كما هو لغيرهم على السواء، وعلى أن فكرة التعصب ضد اليهود ديناً وعنصراً لم يكن لها أساس أو محل في الدعوة النبوية والسيرة النبوية خلافاً لما يزعمه المفرضون .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

٨ - وفي سورة آل عمران أيضاً الآيات التالية :

« قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِٱتِّىَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شَٰهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أَوْتُوا ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۖ »

٩٨ - ١٠٠

والفريق المقصود هنا هو اليهود أيضاً على ما قاله الجمهور ، والاستنكارات التي احتوتها الآيتان الأوليان مماثلة لاستنكارات آيات البقرة الموجهة لليهود بصراحة ، مما يقوم قرينة على ذلك . ولقد روي أنها نزلت بسبب محاولة بعض اليهود إثارة الفتنة بين الأوس والخزرج مدفوعين بالغیظ من اجتماع شملهم والتفافهم حول النبي ، وعدم نجاحهم فيما حاولوه من دس وتشكيك . ولقد جاء بعد هذه الآيات آيات فيها أمر للمسلمين بالاعتصام بحبل الله وعدم التفرق ، وتذكير لهم بما كان بينهم من عدااء انقلب بنعمة الله إلى أخوة ، وبما كانوا عليه من ضلال تبدل إلى هداية ، مما يمكن أن يدعم تلك الرواية كما ترى فيها :

« وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا

وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ...»
١٠١ - ١٠٣

على أنه مما يحتمل أن تكون الآيات ٩٨ - ١٠٠ قد نزلت لمناسبة موقف دس وتضليل ديني أيضاً ، لأنها تندد باليهود لمحاولتهم صد المؤمنين عن سبيل الله وإقامة العثرات في طريقهم ، مع يقينهم صدق النبوة والتنزيل ، كما أن من المحتمل أن يكون هذا الموقف قد أثر في بعض المسلمين أيضاً .

ومهما يكن من أمر فالآيات تضمنت صوراً لمواقف دس وتضليل وإفساد وفتنة وقفها اليهود من المسلمين والدعوة الإسلامية ، واستهدفوا بها إيجاد ثغرة في صفوف المسلمين ؛ ويبدو من صيغة الآيات وقوة تحذيرها للمسلمين وتنديدها باليهود أنه كاد يكون لهذه المواقف أثر غير محمود لولا أن تدارك الله المسلمين بتثبيته وهدايته .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

٩ - وبعد هذه الآيات جاء الآيات التالية :

١ - وَلَتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ...
١٠٤ - ١٠٥

٢ - كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ . لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ أَلَا ذَبَارٌ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أُنْبُنَ مَا نُفِقُوا إِلَّا لِيُحِبَلَ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِبَايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ...

والمبادر أن الآيات استمرار لسابقتها في تحذير المسلمين وتنبههم إلى ما هو الأولى بهم ؛ وقد احتوت الآيات الأخيرة تهويماً بشأن اليهود وقوتهم ومدى أذاهم ، وإشارة إلى الطابع العام الدائم الذي دمغوا به من الذلة والمسكنة وغضب الله ، بسبب كفرهم وتمردهم وبغيهم وسوء نياتهم . والتقارير التي احتوتها متصلة بما كان من الدسائس اليهودية بين المسلمين ، ومنبهة للمسلمين إلى واجبه من التضامن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنهم بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وقد ربطت بين مواقفهم ومواقف آبائهم ، وحالتهم وحالة آبائهم ، فقررت أن هذا الواقع الذي فيه اليهود المعاصرون هو متصل بما كان عليه أسلافهم جيلاً بعد جيل . ويبدو من الآية (١١١) أن بعض المسلمين كانوا يخشون ما لليهود من قوة مال وعدد وحصون وسلاح ، وأن هذه الخشية كانت منفذاً ينفذ اليهود منهم إليهم في الدس والكيد مطمئنين إلى عدم جرأة المسلمين على التنكيل بهم التنكيل الذي يستحقونه ، فقد استهدفت هي والآية التالية لها تهوين قوتهم وشأنهم ، ولفت نظر المسلمين إلى واقع أمرهم من الذلة والمسكنة والجن ؛ ويلح من هذا بدء تطور إزاء بغاة اليهود الذين لم يتورعوا عن أي موقف من مواقف الأذى والكيد والدس وإثارة الفتنة ؛ ولقد أشرنا في فقرة سابقة إلى ما تضمنته الفقرة الأخيرة من آية البقرة ١٠٩ من معنى خطير ؛ ويبدو من الآية ١١١ هذه أن الوقت الذي هدأ فيه المسلمون الساخطون على اليهود إلى أن يحين ؛ قد أخذ يحين بما ازداد اليهود فيه من بغي وكيد وأذى وإثارة فتنة ؛ فاحتوت الآية هذا التهوين الذي احتوته ، تسكيناً لروع الخائفين ، ولعل التنكيلات باليهود قد أخذت طريقها للتنفيذي بعد ذلك .

١٠ - وفي سورة آل عمران أيضاً الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَآئِتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ

مِنَ الْعَظِيمِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنَّ تَمَسَّنَا كُفْرًا حَسَنَةً
تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَفْعَلُونَ مُحِيطٌ ...»
١٢٠ - ١١٨

والجمهور على أن الآيات تعني اليهود ، ومضامينها تدعّم هذا إذا ما أنعم النظر فيها ،
وفيهما الصفات نفسها التي وصف بها اليهود بصراحة في آيات أخرى .

ولقد تضمنت صورة قوية وبلغة لعداء اليهود الشديد ومكرهم ، ونية الشر والكيد
والبغض فيهم ضد المسلمين ، والغيب مما بلغ أمر هؤلاء إليه من القوة والتعالي ، وقد حذرت
المسلمين من أجل ذلك من موالاتهم واختلاطهم بهم ، وإطلاعهم على أمورهم وأسرارهم
مما تتضمنه كلمة « بطانة » وليس من شك في أن هذا قد كان مستندا إلى المواقف المتنوعة
والكثيرة ، العلنية والسرية ، القولية والفعالية ، التي وقفها اليهود من النبي صلى الله عليه
وسلم والمسلمين والدعوة الإسلامية . والآيات تلهم ما كان من قوة الروابط التي كانت تربط
بعض العرب باليهود ، وقوة أثر هؤلاء فيهم ؛ مما يفسر حكمة تفصيل نيات اليهود وحقيقة
أمرهم ومواقفهم تجاه المسلمين للتأثير في الذين يميلون إلى التمسك بولائهم لليهود وحملهم على
الانسحاب منه .

ولقد جاء في سورة النساء نهى آخر فيه شيء من العتاب كما ترى
في الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ... »
١٤٤

وهذه الآية من سلسلة فيها حملة على المنافقين تلهم أن الكافرين المعنيين مباشرة
فيها هم اليهود ؛ وقد استهدفت الآية ما استهدفتها الآيات السابقة ، كما أن فيها نفس الدلالة
التي ذكرناها آنفا كما هو المتبادر .

ولعل مما يصح أن يقال إن هذه الآيات تمت إلى ذلك التطور الذي أشرنا إليه
في الفقرة السابقة ، وتمهد له السبيل في نفوس بعض المسلمين الذين غفلوا عما يبيته
اليهود لهم .

١١ - في سورة آل عمران أيضاً الآية التالية :

« لَتُبْلَوْنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيْرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ... »

١٨٦

وهذه الآية جاءت بعد آيات قوية الصراحة بأنها في حق اليهود بحيث يمكن القول إنهم هم المقصودون من جملة (الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) في الدرجة الأولى . وفي الآية إشارة إلى ما كان المسلمون وظلوا يتعرضون له من أذى اليهود ومكائدهم .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

١٢ - وفي سورة النساء الآيات ٤٤ - ٤٦ التي نقلناها في مبحث مواقف اليهود الحجاجية ، فإن لها صلة بهذا المبحث أيضاً ؛ إذ تضمنت صورة للعداء والدسائس اليهودية ، من عدم تورع اليهود عن المكابرة والارتكاس في الضلال ومناقضة وصايا كتابهم وتعاليمه ، وتحريفهم له ، وتأويلهم إياه تأويلاً باطلاً بقصد إضلال المسلمين وتشكيكهم في دينهم وشق صفوفهم . والصورة هنا أقوى منها في الآيات السابقة التي تضمنت صوراً مماثلة كما يبدو منها ؛ وتكرار التنديد بهذه الصورة يدل على توالي صدورها منهم بطبيعة الحال . ويلاحظ هنا أن اليهود قد وصفوا بأنهم أعداء للمسلمين ؛ ولعل هذا الوصف يأتي في القرآن لأول مرة . ومما لا ريب فيه أن هذا إنما كان بسبب استمرارهم في المواقف الكيدية والمؤذية السرية والعلنية ، والقولية والفعلية التي وقفوها .

١٣ - وفي سورة المائدة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْ لَيًّا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ

وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ . قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ . وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ . وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنِ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ...»

٥٧ - ٦٣

ومضامين الآيات وخاصة الآية ٦٠ تدل على أن المقصود من أهل الكتاب فيها هم اليهود ، إذ وصفوا بالصفات التي تضمنتها أكثر من مرة : والربانيون والأحبار هم علماء اليهود خاصة أيضاً .

وفي الآيات تحذير للمسلمين من موالاة اليهود ، وتعليل بأنهم اتخذوا دينهم ونداءهم إلى الصلاة ، أي أذانهم ، هزواً ولعباً . وفي هذا صورة لمواقف المكر والاستخفاف اليهودية من المسلمين ودينهم وصلاتهم ، وقد يكونون استهدفوا بها - فوق دلالتها على غيظهم وجبيلتهم الخلقية - إلقاء الريب في قلوب المسلمين فيما هم عليه .

وفي الآيات صورة أخرى لمكرهم ، إذ كانوا يأتون إلى المسلمين فيعلنون إيمانهم وهم كاذبون ، وإنما يفعلون ذلك من قبيل التدليس والمكر والتضليل ؛ ولعلمهم كانوا يستهدفون بذلك كسب ثقة المسلمين وطمانينتهم حتى يكون مكرهم ودسهم وتضليلهم أنفذ .

وفيها إلى ذلك استطراد لذكر ما كانت عليه أخلاقهم من قول الإثم وأكل السحت ، ومن سكوت ربانيهم وأحبارهم عن ذلك ، مما يرجح أن يكون لهذا الاستطراد

صلة بمواقف المكر والأذى ، وقصد لتقرير اندماج الربانيين والأخبار في تلك المواقف وهذه الأخلاق .

ولقد جاء في سورة التوبة : بضع آيات في حق أهل الكتاب وقتلهم ومنها هذه الآيات :

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... » ٣٢ - ٣٤

والآيات صريحة الدلالة على ما كان للأخبار اليهود من موقف الصد والتعطيل ، وما كان لهذا الموقف من أثر في جحود جمهور اليهود للنبوة الحمدية ، وعدم استجابتهم للدعوة الإسلامية ؛ ويبدو منها أن هؤلاء الأخبار كانوا شديدي التعلق بأعراض الدنيا ، وكانوا يصدون عن سبيل الله قصد إطفاء نوره وتعطيل دعوة نبيه لتبقى لهم الرياسة والمكانة والطاعة ، مهما كانت الوسيلة مناقضة للحق . ولعل من الصواب أن يقال استلهاماً من هذه الآيات وغيرها إن أخبار اليهود وربانيهم بالتزامن مع زعماء اليهود قد تولوا كبر المعارضة والمحاجة ، والمشاقة والدسائس والتآمر والكيد والتشويش .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

ثانياً تأمر اليهود مع المنافقين .

١ - لعل أول آية ذكرت فيها صلات اليهود بالمنافقين هي آية البقرة هذه :

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ... »

وقد قلنا في مناسبة سابقة إن الجمهور على أن « شياطينهم » تعني اليهود ؛ والكلام في الآية حكاية قول المنافقين ، وهي من سلسلة وصفية لهؤلاء حمل عليهم فيها حملة شديدة ؛ ووصف اليهود بأنهم شياطين المنافقين أي الذين يوسوسون إليهم ويفوونهم من جهة ، وذكر اختلاء المنافقين بهم من جهة أخرى ، يدلان بصراحة على الأثر الكبير لليهود في حركة النفاق والمنافقين ، كما يدلان على التضامن الوثيق الموطن بين الفريقين تجاه الدعوة الإسلامية .

والآية من أبكر ما نزل من القرآن المدني على الأرجح ، وهذا التبكير يدل على ما كان من جد اليهود في تغذية وتقوية جبهة النفاق ، وعلى نجاحهم في سعيهم وقيام حالة تواتق وتآمر بينهم وبين المنافقين منذ وقت مبكر من العهد المدني .

وإذا لاحظنا الدور الباغي الذي قام به المنافقون على ما سبق شرحه ، وما كان له من آثار ضارة ، ثم لاحظنا ما كان يربط بين المنافقين والمخلصين من الأوس والخزرج من أوشاج القربى ، وما كان لعصبية القربى من قوة في المجتمع العربي ، وما كان ينتج عن وقوف بعض ذوي القربى ضد بعضهم من مشاكل ومواقف محرجة ومؤذية في الوقت نفسه للكيان الإسلامي وحركة الدعوة الإسلامية ؛ بدت لنا شدة النكاية وبعد مدى الأذى فيما كان من جد اليهود في تغذية وتقوية جبهة النفاق ، ونجاحهم في سعيهم ، وقيام حالة التضامن والتآمر بينهم وبين المنافقين منذ الوقت المبكر على ما تلهمه الآية .

٢ - في سورة النساء الآيات التالية :

« بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُلِيتْ لَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ... »

١٣٨ - ١٣٩

وجهور المفسرين على أن الكافرين هنا هم اليهود ؛ وفي الآية قرينة على صحة ذلك ،

كما أن فيما بعدها قرينة ثانية أيضا . وواضح أن اتخاذ المنافقين اليهود أولياء ، وتوابعهم معهم ، إنما هما أثر من آثار التآمر الموطن بين اليهود والمنافقين تجاه الدعوة والقوة الإسلامية .

٣ - في سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ أُرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ... »

٢٥ - ٢٦

والجمهور على أن الآية الأولى عنت المنافقين ، وأن الذين كرهوا ما نزل الله هم اليهود ؛ وهكذا تبدو في الآية الثانية صورة من صور التآمر بين الفريقين ضد الإسلام والمسلمين . ونلفت النظر إلى ما حكته الآية الثانية من وعد المنافقين لليهود بطاعتهم والسير على الخطة التي يضعونها ، ففي هذا كما هو ظاهر صورة لبعض ما كان لليهود من التوجيه والتأثير والنفوذ في المنافقين وحركتهم وأعمالهم .

٤ - في سورة المجادلة الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ... »

١٤

والجمهور كذلك على أن الآية في صدد تولي المنافقين لليهود ؛ وفيها والحالة هذه صورة من صور ذلك التآمر .

٥ - في سورة الحشر الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ... »

١١

والذين كفروا من أهل الكتاب هم اليهود ، لأن الآيات السابقة هي في صدق
حادث تنكيل بهم ؛ وفي الآية صورة قوية للتضامن والتحالف الوثيقين بين اليهود
والمنافقين ؛ كأثر من آثار التآمر الموطن بينهما .

٦ - في سورة المائدة الآيات التالية :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَهِيَ
الَّتِي آتَتْ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
نَادِمِينَ . . . »

٥١ - ٥٢

والآية الأولى وإن كانت شملت اليهود والنصارى فإن الموضوع المباشر للنهي
على ما تلهمه الآية الثانية ورواية نزولها ، هو اليهود ؛ لاسيما أن المدينة لم يكن فيها
من يسارع المنافقون إلى توليهم خشية الدوائر إلا اليهود ، إذ لم يكن فيها كتلة
نصرانية عدو .

وقد روى المفسرون والرواة أن الآية الثانية نزلت بمناسبة مشادة بين كبير المنافقين
عبد الله بن أبيّ وأحد زعماء المسلمين ، إذ قال هذا إني بريء من اليهود ، فقال الأول
أما أنا فلا أتبرأ منهم لأنني أخشى الدوائر ؛ وعلى كل حال ففي الآية الثانية صورة للتوافق الشديد
بين المنافقين واليهود وأثر من آثار التآمر بينهما .

الصورة الثامنة

ولقد يرد - في صدد الحملة على المنافقين لتوليهم اليهود في آيات هذه الفقرة وغيرها
مما نقلناه قبل - أنه كان بين الأوس والخزرج وبين اليهود عهود ومواثيق ، وأن النبي
قد أبقى عليها وجدها ، وأن تمسك فريق من العرب بها أو اعتبار أنفسهم مقيدين
بها مما لا غبار عليه ، لأنه مما توجبه واجبات الوفاء .

وجواباً على هذا نقول أولاً : إن المنعي عليهم هم فريق المنافقين فقط الذين وقفوا منذ بدء الهجرة النبوية من النبي ودعوته موقف الكيد والمكر والتآمر ، في حين أن تلك اليهود والمواثيق قد كانت بين اليهود وسائر بطون الأوس والخزرج ؛ ومعنى هذا أن المسلمين المخلصين استجابوا لتحذير القرآن والنبي الذي كان معللاً بمواقف كيد اليهود ومكرهم ودسهم وتآمرهم ؛ وإذا كان بعض المسلمين تردد أو تأخر في نفص يده من الولاء للحلف بينه وبين اليهود ، فإن الذين جاهروا بالتمسك به ولم يعابوا بالتحذير والنهي بوقاحة وإصرار وتمردهم المنافقون فقط ، وهذا يدل بصراحة وقوة على أن الباعث لهم على هذا الموقف ليس الإخلاص للحلف ، وإنما ما جمع بين اليهود وبينهم من وحدة البغض والكيد للإسلام ونبيه ، وما توطد بين الفريقين من توائق وتضامن وتآمر على النكاية بهما ، ولا يصح أن يعد من قبيل الوفاء بالعهود ، ولو أن المنافقين كانوا يعتذرون بذلك . .

ونقول ثانياً : إن تلك المواقف التي حكاها القرآن عن اليهود من شأنها أن تكون نقضاً من جانبهم لتلك العهود والمواثيق ؛ ولقد اعتبرت كذلك بنص القرآن كما تلهمه الآيات التالية :

١ — أَوْ كَلِمًا عَمَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . . .

البقرة ١٠٠

٢ — إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . . .

الأنفال ٥٥ - ٥٦

والآيات مما نزل مبكراً ، وهو أمر يدل على أن تلك المواقف قد اعتبرت نقضا منذ وقت مبكر ؛ فدعوة القرآن إلى عدم موالاتهم واتخاذهم بطانة وإطاعتهم وتحذيره ؛ هي شيء طبيعي لا يتمحل فيه إلا مكابر أو مغرض .

وثالثا : تأمر اليهود مع المشركين :

إن الآيات الواردة عن تأمر اليهود مع الكفار والمشركين أقل مما ورد عن تأمرهم مع المنافقين ؛ وهذا طبيعي فيما يبدو ، لأن اليهود في المدينة ، والصلوات بينهم وبين أهلها أوثق ، والشقة بعيدة عن مكة التي كان زعماءها قادة حركة العداء للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ؛ ومع ذلك ففي الآيات القليلة الواردة صور ذات خطورة كبيرة المغزى والأثر .

(١) - فمنها الآيات التالية من سورة النساء :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطُّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا . . . »

٥٢ - ٥١

ولقد روي في صدد الآيتين روايات مفادها أن وفداً من زعماء اليهود ذهب إلى مكة بعد واقعة أحد لبحث في أمر النبي والمسلمين مع زعمائها ، ويعرض عليهم حلقاً يهدف إلى القضاء عليهم بعد الضربة التي نزلت بهم نتيجة لتلك الواقعة ، وأنه لما تم الاتفاق على الحلف ذهب الوفد والزعماء إلى فناء الكعبة وألصقوا أكبادهم بها ، وأقسموا عند الأصنام التي حولها على البر في الحلف ، والجهد في تنفيذه ؛ ومما روي أن زعماء مكة استشهدوهم على من هو الأفضل ديناً وسبيلاً فشهدوا لهم أنهم هم الأهدى والأفضل . وليس في الروايات ما لا يتسق مع الآيات إلا كون الآيات أكثر صراحة إذ تذكر إيمانهم بآلهة الكفار .

ولعل أبشع ما في الصورة ، بل أشنع ما كان من اليهود ، أن يدفعهم الحقد والحسد والعداء للنبي ودعوته إلى عدم التورع في الشهادة الفاجرة بأن الشرك خير من التوحيد ، وأن آلهة المشركين وأصنامهم خير من إله محمد رب العالمين ، وأن ما عليه

المشركون من عادات وتقاليد أهدي مما يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ثم إلى عدم التورع في إعلانهم وإيمانهم بآلهة المشركين وتكريمهم لأصنامهم ؛ وهكذا ينكرون أساس دينهم الذي هو الإيمان بالله وحده ، في سبيل محاربة النبي الداعي إلى ذلك ، والناهي عن الشرك والإثم والفواحش ؛ وليس من ريب في أن موقف هذا الفريق يدمغه بطابع من العار لا يمكن أن ينسى .

ولقد كان من نتيجة رحلة الوفد اليهودي وعقده الحلف مع زعماء مكة أن استنفر هؤلاء أهل مكة وأحزابهم وحلفاءهم ، وأن زحفوا بجيوش جرارة على المدينة - وهو ما عرف بواقعة الخندق - وأن زلزل هذا الزحف أعصاب المسلمين وأدخل في قلوبهم الرعب ، وأن كاد يعصف فعلا بالإسلام والمسلمين لولا أن تداركهم الله بنعمته على ماسوف نذكره في فصل الجهاد ؛ وقد وفي اليهود بالحلف ، فظاهروا الجيوش الزاحفة على المسلمين ، مما زاد في حرج الموقف وشدة خطورته ؛ وهذا وذاك مما أشارت إليه الآيات في سورة الأحزاب ؛

١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ...

٩ - ١٢

٢ — وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا . وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيرِهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُم

أَرْضَهُمْ وَدِيرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ...

٢٥ - ٢٧

(٢) - ومنها الآيات التالية في سورة المائدة :

« لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ . لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ... »

٧٨ - ٨٢

وقد ذكرت صراحة أن كثيراً من اليهود كانوا يتولون الكافرين ويتواثقون معهم ، وبما لا ريب فيه أن هذا قد كان بسائق البغضاء التي كانت تجمع بين الفريقين للإسلام والمسلمين ، وبقصد التآمر على تقويض أركانهم وهدم بنيانهم ، وإذا لوحظ أن الكفار كانوا في حالة حرب مستمرة مع اليهود ، بدا لنا أن ذلك التولي قد كان نوعاً من المظاهرة الحربية وكان بالنتيجة شديد الخطورة بعيد المدى والأثر . ويبدو من الآية الأخيرة أن هذه المواقف منهم كانت مكشوفة ، وكانت آثارها ملموسة ، إذ وصفت اليهود بأنهم أشد الناس عداوة للمسلمين ، وقرنتهم في هذه العداوة الشديدة بالمشركين الذين كان منهم ما كان من شديد الصد والأذى وكانوا في حالة حرب مستمرة مع المسلمين .

ويستلهم من الآية ٨١ أن من اليهود من كان يتظاهر كذباً بالإيمان وتصديق النبي ، ففضحتهم وأقامت عليهم الحجة في موقفهم الذي لا يمكن أن يحدث لو كانوا صادقين في إيمانهم ؛ وهذه الصورة من الدس والمكر مما تكرر وروده

في آيات أخرى شرحها سابقا ، غير أنها هنا مقترنة بما كان من تفاقضهم واتخاذهم الكفار أولياء .

ولقد ربطت الآيات بين اليهود المعاصرين والسالفين في الأخلاق والمكر وعدم التناهي عن الإثم والنكر ، واستحقاقهم لعنة الله على ذلك جريا على الأسلوب القرآني الذي يستهدف تقرير أن ماعليه المعاصرون من أخلاق وما يقفونه من مواقف هوجبة متوارثة عن الآباء ...

المبحث الرابع

وقائع التنكيل باليهود وبواعثها ونتائجها

عداء اليهود وغدرهم منذ وقت مبكر ، تعدد فصول التنكيل - لكل فصل سببه - التنكيل جرى بمقدار الضرورة ، عدم خروج اليهود جميعهم من نطاق الكلام إلى الغدر والأذى في وقت واحد - أثر عدم تسكتلهم سياسيا وحريريا في ذلك - إشارة إلى ماغز به المفرضون النبي بسبب التنكيل وتفنيد - إجلاء بني قينقاع وظروفه وتحليل الإشارات القرآنية إليه - تكملة الصورة بالروايات - إجلاء بني النضير وتحليل ما في القرآن عنه - تكملة الصورة القرآنية بالروايات - التنكيل ببني قريظة وتحليل ما في القرآن عنه - تكملة الصورة بالروايات - الإشارات القرآنية إلى فتح خيبر والقرى اليهودية الأخرى وظروفه - تكملة الصورة بالروايات - الأسباب المحتملة للحملة - دلالة تساهل النبي مع أهل القرى .

الصورة الأولى

إن اليهود لم يبقوا في نطاق جحود نبوة النبي وتنزيل القرآن ، وفي نطاق المكائدات والمكابرات والمباحكات الكلامية طويلا ، بل تجاوزوه إلى الغدر ونقض العهد والعداء الفعلي الصريح منذ عهد مبكر على ما استدللنا عليه في المبحث السابق من آيات البقرة ١٠٠ والأنفال ٥٥ - ٥٦ المبكرة في النزول ؛ فكانت مواقفهم هذه سببا مباشراً لدور التنكيل الذي بدأت فصوله في الربع الأول من العهد المدني ، ثم استمرت إلى أن تم إجلأؤهم عن المدينة وخضد شوكتهم وإجلأء بعضهم عن أرباضها في ظرف الربع الثاني والثالث منه .

ولقد تعددت فصول هذا الدور ، وكان لكل فصل أسبابه الخاصة ، كما كان موضوع كل فصل فريقاً دون آخر من اليهود ، وهذا يدل على أن التنكيل إنما كان يجري بمقدار الضرورة وبقصد إزالة الضرر والخطر المتحقق من الفريق الذي حق عليه التنكيل فحسب ؛ كما يدل على أن اليهود لم يقدموا جميعهم على الخروج من نطاق الكلام

إلى الغدر والعداء العملي في وقت واحد ، ولعل من أسباب ذلك أنهم لم يكونوا مجموعي الشمل في سلك كيان سياسي وحربي واحد ومتواتق ؛ بل كانوا - والكلام في صدد يهود المدينة خاصة ؛ لأنهم كانوا الأكثر والأقوى والأغنى ، والمحتكين بالنبي والمسلمين والمنافقين والمصطدمين بالنبي والمسلمين - كتلا مستقلة ، كل كتلة أو قبيلة لحدتها وتسكن في محلة خاصة بها ؛ ولعله كان بينهم خصومات أيضاً ، بدليل أن كتلهم كانت متوزعة في التحالف والولاء بين قبيلتي الأوس والخزرج اللتين كانتا في خصومة قديمة على ما ذكرنا في مناسبات سابقة . وفي آيات البقرة ٨٤ - ٨٥ التي نقلناها من قبل دليل على ذلك ، إذ يستفاد منها أن كتل اليهود كانت تدخل في الحرب بعضها ضد بعض . كل واحدة متضامنة مع فريق عربي يخاصم آخر ، وأن اليهودي كان يقتل اليهودي ويأسره ويجليه عن أرضه فيما كان ينشب بين الكتلتين المزدوجتين^(١) .

ونحن نعرف أن بعض الكتاب من يهود ومبشرين ومستشرقين رأوا في توالي فصول التنكيل باليهود ما جعلهم يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيت نية التنكيل بهم ، وإثارة حرب عنصرية دينية ضدهم من البدء ، وأنه إذا لم ينفذ نيته فيهم مرة واحدة فلا أنه لم يكن له قبل بهم جميعاً ؛ وقد غمزوه بالنكت بما عاهداهم عليه من الحرية الدينية والاقتصادية والاجتماعية ، وبالميل إلى سفك الدم ، وبالطمع في أموالهم وإغداقها على المسلمين إلخ ، مما صدر منهم بسائق الغرض والتعصب وعدم التروي في فهم آيات القرآن التي احتوت ما فيه الحجة القاطعة والبيئة الحاسمة على زيف ما زعموا وسفه ما غمزوا .

فالقرآن قد ذكر (آيات البقرة ٨٤ - ٨٥) عدم تكتلهم وما كانوا يقعون فيه

(١) بالإضافة إلى الدلالة الحاسمة التي تضمنتها آيات سورة البقرة المذكورة فإن الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله عليه وسلم حين وصل إلى المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود والذي أوردنا خبره ونصوصاً منه في مطلع هذا الفصل ذكر كل فريق من اليهود مع الفريق المتحالف معه من بطون الأوس والخزرج مما فيه بيان وتوضيح . وكان بين بطون الأوس والخزرج قبيل الإسلام أحقاد وحروب على ما ذكرته الروايات العديدة . وقد أشرنا إلى ذلك في سياق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم . انظر أيضاً طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٦٨ و ٩٩ و ١١٨ وتاريخ العرب قبل الإسلام جواد على ج ٤ ص ٣٥٤ - ٣٥٥

من جراء ذلك من مخالفات دينية في قتل بعضهم بعضا وأسر وإخراج بعضهم بعضا في معرض الذم والتنديد ، فلم يبق أي محل للارتياح في أن ظروفهم الاجتماعية المتقدمة على البعثة - فضلا عن الهجرة - هي العامل في عدم تكتلهم ، مما يسوغ الترجيح إن لم نقل الجزم بصحة ما قلناه من أنهم لم يخرجوا جميعهم في وقت واحد من نطاق الكلام إلى الغدر والعداء العملي ، ومن أن التنكيل إنما كان يقع في نطاق إزالة الضرر المتحقق من الفريق المبادر إلى الخروج من ذلك النطاق ، ولقد احتوت الآيات القرآنية في مختلف أدوار التنزيل المدني - وقد أردنا منها جملة صالحة فيما سبق - حكاية مواقف متنوعة وكثيرة لليهود فيها تعجيز وتحذ ومكابرة ومجادلة وسخرية ، بل دسائس ومؤامرات في صدد الجحود بالنبوة ، وتعطيل الدعوة ، وتشكيك المسلمين فيهما ، كما احتوت مساجلات متنوعة معهم في الجدل حيناً ، والتنديد حيناً ، والإلحاح حيناً ، والوعظ والتذكير والإنذار والتبشير حيناً ، والدعوة إلى تخفيف الغلاء والانسجام والتوبة حيناً ؛ وبكلمة أخرى : لقد اتسع صدر النبي صلى الله عليه وسلم لهم سعة كبيرة ، وتمتعوا بحريتهم في التمسك بدينهم ، ومباشرة شؤونهم الاقتصادية ، والاستمرار في محالفتهم واتصالاتهم الاجتماعية والسياسية والشخصية ، دون انتقال من طور المساجلة إلى طور التنكيل ، ولم ينتقل إلى هذا الطور مع أي فريق منهم إلا بعد أن يطفح الكيل من دسائسه ومكائده وأذاه ، وبعد أن يكون قد انتقل هذا الفريق إلى موقف النكث بالعهد والأذى والغدر والتآمر والإضرار بكيان المسلمين ، مما تلهم أو تدل عليه الآيات والفصول العدة التي مرت ، والتي سترد بعد عند الكلام على كل واقعة من وقائع التنكيل أيضا .

ونقول من قبيل المساجلة إنه لم يكن في وقت نزول القرآن وتدوين الروايات قضية من نوع ما يثيره المفرضون من المستشرقين حتى يصح أن يقال إن الدلائل والمبررات التي انطوت فيهما قد اخترعت اختراعاً للدفاع عما فعله النبي والمسلمون في اليهود وهذا وحده كاف لإسكات كل أفاك مفرض وأخذ ماورد على حقيقته وصدقه . هذا فضلا عن أن جملة

اليهود وأخلاقهم تجاه الأمم الأخرى المشهورة منذ تاريخ خروجهم من مصر إلى اليوم في غنى عن اختراع المبررات للتنكيل بهم في كل ظرف ومكان .
وإليك الآن تفصيل الوقائع .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

أولاً : إجلاء بني قينقاع ^(١) :

ليس في القرآن ذكر صريح لهؤلاء ولا لواقعة إجلائهم ، وكل ما هناك إشارات فسرتها الروايات ؛ ولقد ذكرت الروايات التي ليس بينها خلاف جوهري ؛ أن هذه الواقعة كانت أولى وقائع التنكيل باليهود ، وأنها كانت بين واقعتي بدر وأحد . ومما ذكره ابن هشام أن يهود بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ؛ وأن بدء واقعتهم كان أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته في سوقهم ، وجلست إلى صائغ منهم ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعمقه بظهرها ، فلما قامت انكشفت سواتها فضحكوا منها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ ، فشد اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهله المسلمون ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع ، واتهمى الأمر إلى أن حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، ومما جاء في طبقات ابن سعد أن النبي أجلاهم عن المدينة إلى أذرعات ، وسمح لهم بأخذ أموالهم وأثقالهم وسلاحهم الخفيف ؛ ومما ورد في ابن سعد وابن هشام معا أن النبي صلى الله عليه وسلم استنصر من بني قينقاع الغيظ مما كان من نصر المسلمين في بدر ، ولعلمهم أخذوا يكشفون عن غيظهم ويغمزون المسلمين ، فجمعهم وحذرهم ، فكان جوابهم وقفا ، إذ قالوا له : لا يفرنك ما نلت ،

(١) روايات السيرة تذكر أن أولى وقائع التنكيل باليهود كانت قتل يهودي اسمه أبو عفاك كان شاعراً يهجو النبي ويحرض قومه عليه فنذر سالم بن عمير من الأنصار أن يقتله أو يموت دونه وتربص به حتى وافته فرصة فدخل عليه وهو في بيته وقتله . (ابن سعد ج ٣ ص ٦٧) .

فإنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ؛ وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ، وأن آيات آل عمران هذه :

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ اللَّتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلِهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ... »

١٢ - ١٣

إنما نزلت فيهم . وظروف نزول الآيات تجعل هذا سائفا ، لأنها نزلت بعد وقعة بدر ، واحتوت إشارة إليها على سبيل الإنذار ، ولا سبيل للتوهم بأن ذلك كان لكفار مكة الذين كانوا في حالة حرب مع المسلمين ؛ والتحذير إنما يكون لأناس ما يزال بينهم وبين النبي والمسلمين صلوات سلم .

وإذا كان ثمة شيء يلاحظ على ما قاله ابن سعد وابن هشام في صدد نزول الآيتين ، فهو أنهما أبعد مدى مما قالاه ، وإنهما لتلهمان أنه قد بدا من اليهود ما يصح أن يعد نقضا أو تحرشا بحرب وقاتل ، فأمر النبي فيهما بإنذارهم ، ودعوتهم إلى الاعتبار بما حل بكفار مكة في بدر ، وهم أكثر عدداً من المسلمين . وعلى هذا فإنه يصح أن يضاف إلى ما ذكره المؤلفان أن تكون حادثة المرأة أو حادثة مماثلة لها قد وقعت ، وأن الإنذار وجه إليهم بعدها فلم يعبأوا فكان الحصار والجلاء .

ولقد احتوت آية من آيات البقرة إشارة صريحة إلى نبذ فريق من اليهود العهد كما ترى فيها :

« أَوْ كَلِمَاتٍ عَهْدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ... »

وهذه الآية من السلسلة الطويلة في حق اليهود التي نقلناها في المبحث الأول ، وهي

مما نزل مبكراً كما قلنا قبل ، فيسوغ القول إن الإشارة التي تضمنتها هي إلى أول نقض بدا من فريق من اليهود ، وهو على الأرجح نقض بني قينقاع الذين كانوا أول من وقع عليهم التنكيل بسببه .

وفي سورة الأنفال آيات فيها إشارة أخرى إلى نقض يهودي ، وهي هذه :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَإِذَا تَفَقَّهُتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّذْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْعُوكُمْ . وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَبْذِ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ... »^(١)

٥٨ - ٥٥

وسورة الأنفال نزلت عقب وقعة بدر ، ولقد روى المفسرون أن الآيات نزلت في بني قريظة ، مع أن التنكيل بهؤلاء قد كان من أواخر الفصول التنكيلية ، ونزل به قرآن خاص في سورة الأحزاب ؛ والمتسق مع ظروف وتاريخ واقعة بني قينقاع التي لا يختلف في أنها الأولى ، وفي وقوعها بعد بدر وقبل أحد ، أن تكون نزلت فيهم . ولقد جاء في طبقات ابن سعد أنه لما كانت وقعة بدر ، أظهر بنو قينقاع البغي والحسد ونبذوا العهد ، وكانوا أشجع اليهود ؛ فأنزل الله « وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ... » إلى آخر الآية « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أخاف بني قينقاع ، فسار إليهم بهذه الآية . والآية إنما نزلت مع ما سبقها ولحقها من آيات ، فيكون سير النبي إليهم بسبب نقضهم العهد المرة بعد المرة ، وتكون الرواية متسقة مع ظروف واقعتهم ، ومؤيدة لرجحان أن الآيات فيهم ، مع التنبيه إلى أن الآية أبعد مدى من الرواية أيضاً في ذكرها نقض اليهود العهد مرة بعد مرة .

ونلفت النظر إلى ما ينطوي في الآيات التي نقلناها والروايات التي استأنسنا بها والتي

(١) أعلنهم أنك تقف منهم نفس الموقف الذي وقفوه ، وهو حل العهد القائم ، وفي الآية مغزى رائع ، وهو تلقين عدم المبادرة إلى القتال بدون إعلان مادام هناك عهد قائم .

تنسق إجمالاً مع الآيات ، مع ما في الآيات من بعد مدى وقوة أكثر من معنى كون التنكيل الذي وقع على بني قينقاع ، بل الحروب النبوية كلها إنما كانت رداً على عدوان أو غدر أو خيانة ، ودفاعاً عن الكيان ؛ ومما لا يصح أن يمارى فيه أحد مهما كانت نحلته أن النبي قد اتبع بدقة لا مزيد عليها ما تضمنته هذه الآيات وغيرها من تعليم في هذا الصدد .

ولقد جاء بعد آيات الأنفال هذه الآيات التالية :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ . وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . . . »

٦٠ - ٦٣

وقد تضمنت حثاً للمسلمين على الاستعداد بجميع الوسائل لإرهاب عدوهم حتى يكفوا شره ؛ كما تضمنت تعليماً بالجفوح إلى السلم إذا ما جنى الخصم إليها ؛ وهذا متصل ومؤيد لما قرناه ، وداحض للأقوال والمزاعم المفرضة كما هو واضح .

كذلك نلفت النظر إلى الإنذار الذي احتوته آيات آل عمران ١٢ - ١٣ ، إذ ينطوي فيه كما تلهم صيغة الآيات معنى التنبيه والنصح حتى للذين بادعوا بالشر والنقض ، كما يعني هذا الرغبة في تفادي القتال والتنكيل بقدر ما يمكن . وآيات الأنفال ٥٧ - ٥٨ جديرة بالفتات النظر أيضاً ، إذ انطوى في الأولى معنى التنبيه والعظة لليهود الآخرين والأمل في أن يكون التنكيل بمن نكل بهم رادعاً لهم ، وفي هذا

ينطوي رغبة تفادي القتال والتسكيل بقدر ما يمكن ؛ وانطوى في الثانية مغزى رائع جليل وهو تلقين عدم المبادرة إلى قتال من يبيتون الغدر والخيانة بدون إعلان ما دام هناك عهد قائم ، ووجوب إنذارهم بالوقوف منهم نفس الموقف الذي يقفونه وهو حل العهد القائم . وهذا وذاك متصلان بما قررنه ومؤيدان له بما لا يدع محلاً للماراة كما هو واضح أيضاً^(١) .

وفي مناسبة الآية (٨١) التي تأمر بالجنوح إلى السلم إذا ما جنح إليها العدو وقوة احتمال كون الآية في صدد اليهود نرى أن نستدرك أمراً هاماً . وهو أن الآية في صدد اليهود الذين كانوا في المدينة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من الناحية الموضوعية وأنها من الناحية المبدئية يمكن أن تنطبق على العدو الذي يكون له دار أو دولة خاصة به منذ الأصل ويظهر الرغبة في السلم والمسالمة . أما اليهود في فلسطين اليوم فهم أعداء معتدون على دار المسلمين والعرب . ومغتصبون لما احتلوه من هذه الدار اغتصاباً باغياً بعد أن حاربوهم فيها أشد حرب وأذوهم أشد أذى وطردهم من مدنها وقراها . واستولوا على بيوتهم ومخازنهم ومصانعهم ومزارعهم وبساتينهم وكرومهم وثرواتهم المنقولة وغير المنقولة . وهتكوا حرمتهم . ودنسوا مقدساتهم . وأزالوا معالم الإسلام والعروبة في وطنهم . فلا يصح عليهم معنى الجنوح إلى السلم إذا أعلنوا أنهم يريدون الصلح مع العرب والمسلمين ليحتفظوا بما اغتصبوه من ديارهم وأموالهم بالدولة الباغية التي أقاموها فيها . ولا يجوز للمسلمين والعرب إجابتهم إلى ذلك حتى لو تركوا بعض ما اغتصبوه وقبلوا بالقسم الذي قرره لهم هيئة الأمم . لأنه دار المسلمين والعرب . وليس لهذه الهيئة أن تمنحهم جزءاً مهماً كان صغيراً من هذه الدار . وعلى المسلمين والعرب واجب مقاتلتهم وتضييق الخناق والحصار عليهم بكل وسيلة وطريقة ووقت وبدون هوادة ولا كلل إلى

(١) انظر تفصيل وقعة جلاء بني قينقاع في ابن سعد ج ٣ ص ٦٧ - ٦٨ وابن هشام ج ٢ ص ٤٢٦ -

٤٢٩ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٧٢ .

أن يخرجوهم من دارهم ويطهروا كل بقعة منها من رجسهم . وتعود هذه الدار إلى السلطان العربي الإسلامي كما كانت .

الصورة الثالثة

وثانياً : إجلاء بني النضير^(١) :

وهذه الواقعة كذلك ليس لها ذكر صريح في القرآن ؛ إلا أن فيه بياناً أوفى عنها اتفق جمهور المفسرين والرواة على أنهم هم المقصودون به . أما البيان فهو في سورة الحشر التي كان ابن عباس عليه السلام يسميها سورة بني النضير على ما ورد في كتب التفسير وفي كتاب تفسير منسوب إليه ؛ وهذه آيات السورة في صدد هذه الواقعة :

١ - « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ مَأْنَعُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ . وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . مَا قَطَعْتُمْ مِّنْ لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ . وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا تَكْمُلُ

(١) ذكرت روايات السيرة خبر قتل شاعر يهودي فاجر اسمه كعب بن الأشرف بين واقعتي بني قينقاع وبني النضير . فقد نظم هذا الشاعر قصائد في هجو النبي والمسلمين وذهب إلى مكة فبرئ قتل بدر وحرش قريشاً فقال النبي من لي بابن الأشرف فقد آذاني فانتدب له محمد بن مسلمة في نفر من الأوس حتى تمكنوا من قتله (ابن سعد ج ٣ ص ٧٠ - ٧٢) .

الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَنْ نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ...»

٧ - ٢

٢ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَّ الْأَذْبَرِ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ . كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ...

١٧ - ١١

والجموعة الأولى جاءت في صدد تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم ونصره رسوله في هذه الواقعة دون اشتراك عملي وحربي منهم ، وجعل هذا مبرراً لتشريع أيلولة ما عاد منها من الغنائم فيثا لرسول الله يقسمه على المصارف المذكورة دون الأغنياء ، لا على أساس قسمة غنائم الحرب التي يشترك فيها المسلمون أغنياء وفقراء ، والتي يوزع عليهم منها الأخماس الأربعة وينال كل فرد منها نصيباً متساوياً . ومع ذلك ففيها بعض الصور عن الواقعة ، إذ يستفاد منها :

١ - إنه كان لبني النضير حصون قوية لم يكن المسلمون يأملون التغلب عليها ، كما كان اليهود يحسبون أنها مانعهم .

٢ - إن اليهود قد وقع في قلوبهم خوف شديد وبأس بحيث استسلموا من جهة وخربوا بيوتهم بأيديهم من جهة أخرى .

٣ - إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم ووضع يده على مزارعهم وأملاكهم .
٤ - إنه لم يقع اشتباك حربي بينهم وبين المسلمين ؛ وهذا يعني أن الحصار وحده كان كافيا للنصر الذي تم .

٥ - إنه كان منهم مواقف كيد ومشاقة مزعجة ، وإنها هي السبب في التنكيل بهم .
٦ - إن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقطع بعض نخيلهم ، فبررت إحدى الآيات العمل ، وقررت أنه بإلهام رباني لإرغام العدو الفاسق وخزيه ، مما ياهم أنه جرى - قيل وقال - حول تقطيع النخل .

أما المجموعة الثانية فقد تضمنت صوراً لما كان من المنافقين في هذا الموقف ، إذ وعدوا اليهود بالتضامن معهم تضامناً وثيقاً حتى أكدوا لهم أنهم سيحاربون معهم إذا حاربوا ، وسيخرجون معهم إذا غلبوا وأخرجوا ، ولكنهم كذبوا بما وعدوا ، وقد وصفت الآيات مبلغ خوف اليهود أو المنافقين أو كليهما من المسلمين ، وعدم جرأتهم على مواجهتهم في الميدان ، وقررت أن كل أمرهم القتال من وراء الحصون والجدران ، كما قررت واقع حالتهم الداخلية والنفسية ، من عدم التضامن ، وشدة التنازع والتشاد فيما بينهم ، وتفرقهم شيعاً على رغم ما يبدو من اتحادهم ؛ وشبهت المنافقين بالشیطان الذي يغوي المرء بالكفر ثم لا يلبث أن يتبرأ منه بعده .

ويرجح أن الآية ١٥ تضمنت الإشارة إلى ما كان من التنكيل ببني قينقاع ، والتنديد ببني النضير الذين لم يعتبروا بهم حتى ذاقوا وبال أمرهم مثلهم .

والروايات الواردة في كتب السيرة والتفسير تكمل هذه الصور ، إذ استفاد منها أن الواقعة كانت بعد واقعة أحد وقبل واقعة الخندق ، وأن سببها المباشر هو أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب مع بعض أصحابه إلى محلة بني النضير يستعينهم على دية بعض القتلى فتأمروا على اغتياله ، وشعر هو بذلك فنجأ بنفسه ، ثم أرسل إليهم في اليوم التالي إنذاراً بالجلء على أن يأخذوا أموالهم ويقيموا وكلاء على بساتينهم ومزارعهم ، وأن المنافقين أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض ، ويعدونهم بالنصر ، فتشجعوا وعصوا ، فحاصروهم

النبي صلى الله عليه وسلم وضيق عليهم الحصار ، وأمر بقطع بعض نخيلهم إرغاماً وإرهاقاً ، ولم يف المنافقون بما وعدوا ، فاستولى عليهم الرعب واليأس ، ورضوا بالجلاء بشروط أشد من الأولى بسبب تمردهم ، وهي تسليم سلاحهم ، وتنازلهم عن بساتينهم وقراهم الزراعية ، وأخذ منقولاتهم فحسب ، وقد ذهب بعض زعمائهم إلى خير وجلا بعضهم إلى بلاد الشام .

والروايات منسجمة مع ما احتوته الآيات من صور . وإن كان ثمة شيء يزداد فهو المدى الواسع الذي ينطوي في الآية ٤ إذ يصح أن يقال إن محاولة بني النضير اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت سبباً مباشراً ، وإنه كان منهم قبل ذلك مواقف مشاقة مؤذية ومزعجة كثيرة طفح بها الكيل وحق عليهم من أجلها التنكيل .

ولقد كان قبل هذا الحادث أن أمر النبي بقتل أحد شعرائهم وزعمائهم وطواغيتهم . كعب بن الأشرف ، لما كان منه هجو فاحش وكيد شديد للنبي والمسلمين كما جاء في كتب السيرة ، ولقد روي فيما روي أن كعباً ورهطاً من بني النضير اتصوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبي والمسلمين على رغم ما كان بينهم وبين بني النضير من عهد وسلام . وهذا وذاك مما يتسق مع مدى الآية ، ويدعم ما قلناه من أن محاولة الاغتيال إنما كانت النقطة التي ملأت الكأس .

وهكذا يبدو أن هذا التنكيل أيضاً إنما كان ردّاً على غدر وخيانة ومشاقة تجاوز فيها اليهود نطاق الكلام إلى التآمر على المسلمين وكيانهم ، ثم على حياة النبي صلى الله عليه وسلم وهو في محلتهم^(١) ..

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

وثالثاً : القضاء على بني قريظة :

واسم هؤلاء أيضاً لم يرد في القرآن بصراحة ، وإنما أشير إلى موقفهم والتنكيل بهم

(١) انظر تفصيل وقعة بني النضير في ابن سعد ج ٣ ص ٩٨ - ١٠٠ وابن هشام ج ٣ ص ١٩٩ - ٢١٣ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٢٣ - ٢٢٩ .

إشارة اتفق جمهور المفسرين والرواة على أنهم المقصودون بها وذلك في آيات الأحزاب هذه :

« وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ... »
٢٦ - ٢٧

وهاتان الآيتان هما من سلسلة احتوت بعض مشاهد وأحداث واقعة الخندق والأحزاب . وهي صريحة الدلالة بأن اليهود قد ظاهروا الكفار الغزاة جهرة على المسلمين، فاستحقوا التنكيل الشديد الذي نالهم .

ولقد نقلنا في مناسبة قريبة من هذا الفصل أيضاً آيات الأحزاب ١٠ - ١٢ التي احتوت وصفاً للحالة الخطيرة التي واجهها المسلمون من زحف جيش أحزاب الكفار الجرار على المدينة وإحداقه بها ، وما كان من جرأة المنافقين على المجاهرة بتكذيب وعد الله ورسوله بهذه الوسيلة ، وفيما يلي تنمة لهذه الآيات فيها تنمة لموقف المنافقين الجريء المشبط الذي يكاد ينم عن مؤامرة خفية محبوكة الأطراف بين اليهود وأحزاب الكفار والمنافقين للقضاء على الكيان الإسلامي قضاءً ساحقاً كما ترى فيها :

« وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلْبَثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْنُوءًا . قُلْ إِنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هُمْ أَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ النَّبَأَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ »

يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْحَافِرُ
سَلَقُوا بِالسِّنَةِ حَدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أَوْ السَّيِّئِ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ
يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُونَهُ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ
مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ...»

٢٠ - ١٣

مما يجعل التنكيل عملاً لا معدى عنه ، على أن يكون متناسباً مع شدة الخطورة
التي أحدثت بالمسلمين ؛ وإذا لاحظنا أن مظاهرة اليهود للغزاة كانت نتيجة للحلف الذي
وفد اليهود إلى مكة لعقده بقصد القضاء المبرم على النبي والمسلمين ، واغتناماً لفرصة ماحل
بهم من ضعف بعد وقعة أحد على ما ذكرناه في المبحث السابق - بدا بعد مدى الموقف
اليهودي وخطورته ، وشدة نكايته نيته المبيتة ، ووضح الحق في صحة تبرير التنكيل
الواقع ، وسفه المفرضين في غمز النبي به لأنه جاء قاسياً لا هوادة فيه .

هذا ؛ وفي الروايات الواردة في كتب السيرة والتفسير ما يكمّل الصورة ويتسق مع
مدى الآيات اتساقاً غير يسير ، إذ يستفاد منها^(١) :

(١) أن وفداً من زعماء اليهود ذهب إلى مكة بعد وقعة بني النضير فحرضوا زعماءها
على غزو المدينة واستئصال شأفة النبي والمسلمين قبل أن يتفاقم أمرهم ، وأعلنوا تضامنهم
معه ، وأقسموا على ذلك عند أصنام المشركين في فناء الكعبة ، وهو ما تضمنت
الإشارة إليه آية النساء ٥١ التي نقلناها قبل .

و (٢) أن الوفد ذهب كذلك إلى قبائل غطفان وقيس وغيلان وحرصها على مثل
ذلك ، ومنها بخيرات المدينة ، وأعلن تضامن اليهود معها ، وأخبرها بما تم الاتفاق عليه مع
زعماء مكة ، فأجابوهم كذلك وتحالفوا معهم .

(١) انظر تفصيل وقعة بني قريظة في ابن سعد ج ٣ ص ١٠٨ - ١٢١ وابن هشام ج ٣ ص ٢٣٥ -
٣١٢ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٤٥ - ٢٥٤ .

(٣) أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغه تغير نية بني قريظة وتبنيهم الغدر حال وصول جيش الأحزاب ، فأرسل زعيم الأوس والخزرج إلى محلتهم - وكانت وراء بيوت عرب المدينة - لينظر : أحق ما بلغهم عنهم ، وطلب منهما ألا يجهرأ به إن كان حقا ، وأن يلجأ إليه لثلا يفتا في أعضاء الناس ، وأنهما أتياهم فوجداهم على أخبث ما بلغهم ، ونالوا من رسول الله ، وقالوا من هو رسول الله ، وإنه لا عهد بيننا وبين محمد ولا غقد ، وأن سعد بن معاذ زعيم الأوس شاتمهم - وكان حليفهم - فشتموه ، وأن سعد ابن عباد زعيم الخزرج قال له : دع عنك مشاتمهم فما بيننا وبينهم أربى من المشامة .

(٤) أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر مؤذنا فأذن في الناس في صبيحة اليوم الذي ارتد الأحزاب في ليله عن المدينة بناء على وحي من الله : أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة ! وأن النبي حاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله الرعب في قلوبهم ، فزلوا على حكم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وأن جماعة من الأوس تشفعوا فيهم عند النبي لأنهم حلفاؤهم وطلبوا الاكتفاء بإجلالهم كما فعل بمن سبقهم ، فجعل الحكم في أمرهم لزعم الأوس سعد بن معاذ ، وأن هذا حكم بقتل الرجال وسبي النساء والأطفال وتقسيم الأموال ، قائلا لمن طلب الرفق بهم من جماعته : أن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لأثم ! فأمر النبي بتنفيذ الحكم .

ونبه إلى أن عبارة « ظاهروهم » تلهم أنه بدا من اليهود في أثناء حصار الأحزاب للمدينة أعمال مؤذية للمسلمين ، أو بالأحرى أعمال تمت إلى الحرب ، تضرر المسلمون منها وأثارت في نفوسهم السخط فوق ما أثاره موقف الغدر والخيانة فيهم من خوف وزاد من شدة الخطر على ما أشرنا إليه قبل قليل ؛ وليس من ريب في أن التشكيل الشديد يمت بسبب وثيق إلى هذه الظروف كلها ؛ لا سيما أن هذا قد كان منهم دون أن يعتبروا بما كان من إجلاء بني قينقاع وبني النضير أولا ، وبسعي وجد في إيقاد نار الحرب بغية القضاء المبرم على المسلمين ثانيا ؛ فلا غرو أن كان عقابهم أشد صرامة من عقاب من سبقهم ، لأن جريمتهم أشد أثرا ، وأبعد مدى .

أما عبارة « وأرضاً لم تطئوها » الواردة في الآية ٢٧ فقد قال المفسرون إنها أرض خيبر، وإن الجملة بشرى سابقة لفتحها، غير أن الذي تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر لنا أنها أرض لبني قريظة بعيدة عن مساكنهم، آلت إلى المسلمين دون حرب أو حصار، ونتيجة للمصير الذي صار إليه أصحابها.

الصورة الخامسة

ورابعا: فتح خيبر والقرى اليهودية الأخرى:

وهذه الوقائع أيضاً لم تذكر في القرآن بصراحة، بل لم يرد عنها بيان شاف وإنما أشير إليها إشارات خاطفة فسرتها الروايات؛ فمن ^(١) هذه الإشارة آية في سورة الفتح وهي هذه:

« سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّنْ تَدْبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ... »

١٥

إذا قال جمهور المفسرين والرواة إن هذه المغامم هي مغنم خيبر؛ وقد ذكرت الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستصحب أحداً معه إلى خيبر من تخلف عن صحبته في رحلة زيارة الكعبة التي انتهت إلى صلح الحديبية، بناء على هذه الآية التي نزلت قبيل الوقعة التي كانت بعد قليل من رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية. وصيغة حكاية حال المتخلفين وأقوالهم تدل على أن النصر في رحلة خيبر مما لم يكن يتحمل ريباً، كما أن الآية تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيت القيام بهذه الرحلة عقب إبرام صلح

(١) تفصيل وقائع خيبر وما وراءها في ابن سعد ج ٣ ص ١٥١ - ١٦٣ وابن هشام ج ٣ ص ٣٧٨ - ٤١٢ وروايات السيرة تذكر خبر قتل أبي رافع بن أبي الحقيق الضري أحد زعماء اليهود في خيبر قبل غزوة خيبر لأنه كان يتآمر مع غطفان وغيرهم من مشركي العرب على غزو المدينة. فندب النبي له عبد الله بن عقيّل مع نفر من المسلمين فذهبوا إليه وتمسكوا من قتله انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٣٤.

الحديبية ، وبشر المسلمين الذين معه بها ؛ ومن هذه الإشارات آيات أخرى في سورة الفتح أيضا ، وهي هذه :

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَعَدَ كُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَآخَرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا . . . »

٢١ - ١٨

وقد فسر جمهور المفسرين « الفتح القريب » بفتح خير والمغانم الكثيرة بمغانمها ؛ وهذا متسق مع ما قالوه أيضا في الآية السابقة ، كما أن الصيغة تؤكد ما استلهمناه منها ؛ وتعبير « وعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم » مقصود به على الأرجح ما تم في الحديبية من صلح ، وعدم وقوع قتال بين المسلمين وأهل مكة .

ولعله يتضمن إشارة إلى أن فتح خير قد تسرأ أكثر بعد هذا الصلح .

ومع أن من المفسرين من فسر جملة « وآخري لم تقدرُوا عليها قد أحاط الله بها » بفتح مكة أو فتح الأقطار التي فتحها المسلمون بعد ، فإن صيغة الآية تلهم أنها في صدد وقائع حاضرة مؤكدة تمامها ، وتسوغ الترجيح بأنها تعني ما تم فتحه بسهولة ويسر من قرى اليهود بعد فتح خير ، مثل وادي القرى وتيماء وفدك .

ويستفاد من الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم سار بالمسلمين إلى خير بعد صلح الحديبية بنحو شهرين ، وأنه كان في خير حصون كثيرة وقوية استغرق فتحها نحو شهر ونيف ، وأن اليهود قاوموا مقاومة عنيفة ، وكان بعض الجهد والمشقة على المسلمين في الرحلة ، وأنه لما تم الفتح صارت جميع المزارع والأموال إلى المسلمين غنيمة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أبقى من أراد من اليهود ليتولى رعاية البساتين مقابل نصف الغلة بعد تجريد

من السلاح ، وأجلى الخطرين منهم ، وأنه انصرف عن خير إلى وادي القرى ، وكان فيها كتلك حصون عدة ، وقاوم اليهود فيها بعض المقاومة ، غير أن أمرهم صار إلى ما صار إليه أمر أهل خير ، وقد دب الرعب في يهود فدك والجرباء وتيماء فأرسلوا رسلهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم يصالحونه على نصف أملاكهم ، ويعاهدونه على المسالمة والصدقة ^(١) .

وليس في القرآن إشارة إلى سبب مباشر أو غير مباشر لغزوة خير ، كما أنه لم يرد في الروايات ذكر صريح لمثل هذا السبب ؛ وهذا ما جعل بعض المستشرقين يقول إنها لم تكن إلا رغبة من النبي صلى الله عليه وسلم في مكافأة أهل الحديبية وتطيب نفوسهم ، وبرر قوله بما احتوته الآيات من بشرى المغانم لهم .

على أن الروايات ذكرت مبررات عديدة غير مباشرة . منها أن أبا رافع بن أبي الحقيق النضري أحد زعماء اليهود الذين استقروا في خير بعد جلاء بني النضير عن المدينة كان يتآمر مع غطفان ومن حولهم من المشركين ضد المسلمين مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم ينتدب إليه من يقتله . ومنها أن حبيبا بن أخطب النضري الذي تزعم يهود خير ووصف بأنه ملكهم كان على رأس الوفد اليهودي الذي ذهب إلى مكة وحرص قريشاً على غزو المدينة ثم ذهب إلى غطفان وغيرها وحرصها كذلك وكان زحف قريش وأحزابها على المدينة في السنة الخامسة الذي عرف بوقعة الخندق والأحزاب نتيجة لذلك . ومنها أن هذا الزعم هو الذي أغرى يهود بني قريظة بنقض عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين حينما زحفت قريش والأحزاب على المدينة حيث يبدو من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما زحف على خير بناء على مبررات قوية متساوقة مع تلقينات القرآن التي لم تكن تسمح بالمبادرة إلى قتال إلا للمقاولة أو الدفاع أو بسبب الغدر والخيانة والتي

(١) خبر وادي القرى وفدك وتيماء والجرباء في فتوح البلدان للبلاذري ص ٤١ - ٤٢ وابن سعد ج

لا يمكن أن يماري أحد فيه إنصاف ومنطق سليم في أن النبي صلى الله عليه وسلم يقدم على مناقضتها .

ولقد كانت هذه المبررات قائمة قبل رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة بقصد الزيارة وهي الرحلة التي انتهت إلى صلح الحديبية بين النبي وقريش . فيكون القول إن الزحف على خيبر كان لمكافأة الذين رافقوه في هذه الرحلة في غير محله . وكل ما يمكن أن يكون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مبيتاً في نفسه فكرة الزحف وأنه أخبر بعض أصحابه به وأنه كان يؤجله إلى فرصة أكثر ملائمة لأنه لم يكن يرى هناك خطراً عاجلاً . فلما أبرم الصلح مع قريش وأمن به الوقوع بين نارين رأى أن الفرصة المنشودة قد سنحت فقام بالغزوة لإتمام خضد شوكة اليهود في الحجاز ، وتصفية الموقف معهم ، وأمن جانبهم نهائياً ؛ ولقد تساهل في معاملة يهود هذه القرى كما جاء في الروايات التي استأنسنا بها ، وهذا يدل على أن الهدف الذي رمى إليه هو خضد شوكتهم ، وأمن جانبهم فحسب ؛ وواضح أن هذا يظل في نطاق الضرورة وإزالة الضرر كما قررناه في مطلع الفصل .

ولقد كان لليهود قرى أخرى أقرب إلى بلاد الشام منها إلى المدينة مثل أزرع ومتنا وبني جنبه وبني عريض وبني غاويا ، فلما سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في السنة التاسعة على ما سوف يرد في مبحث النصارى سارع زعماء هذه القرى إلى إعلان خضوعهم وولائهم للنبي صلى الله عليه وسلم وتعهدوا بالمسالمة والنصح وأداء الجزية فقبل منهم وعاهدهم .

ولقد ظل المزارعون اليهود في خيبر والقرى الأخرى كما ظل نفر من اليهود في المدينة إلى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأجلاهم عن الحجاز . وقد روى في صدد ذلك أنه قال إنا صالحنا أهل خيبر على أن نخرجهم متى أردنا وأنهم عدوا على ابنه عبد الله

وألقوه من فوق بيت وشدغوا يديه كما عدوا على أنصاري معه فكان ذلك سبباً مباشراً لإجلاتهم . ولقد روت أم المؤمنين عائشة أنه كان من آخر وصايا النبي صلى الله عليه وسلم حين حضر أجله (لا يترك بجزيرة العرب دينان) فكان فيما فعله عمر رضي الله عنه تنفيذ لهذه الوصية الشريفة حال ما وقع المبرر^(١)

(١) هذه الأخبار في كتاب فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٩ - ٤١ و ٦٧ و ٧٣ وابن سعد ج ٢ ص ٥٢ - ٥٦ و كتاب الخراج لأبي يوسف ٢٩ و كتاب الأموال للإمام أبي عبيد ٩٩ وابن هشام ج ٤ ص ٣٤٥ .

المبحث الخامس

الاستثناءات القرآنية بشأن المؤمنين والمعتدين من اليهود

مدى الاستثناءات القرآنية ودلالاتها - قلة مستثناة بسبب التزامها وصايا الله وميثاقه - حملة القرآن على الأكثر والكثير ودلالاتها - صور من سورتي البقرة والمائدة لإخلاص فريق من اليهود وعملهم الصالح بصورة عامة - صور من سورتي آل عمران والنساء لإيمان فريق منهم بنبوة النبي والتنزيل القرآني وإخلاصهم - دلالات هذه الصور - العبرة البالغة في تسجيل القرآن للمحسن لإحسانه .

إلى جانب ما أوردناه من آيات تتعلق بمواقف اليهود وجحودهم ودسائسهم ومؤامراتهم وعدائهم والتفكيك بهم ، والتي تلهم أنها شاملة لأكثرتهم الساحقة في الحجاز وخاصة في المدينة ، نجد آيات أو فقرات من آيات تضمنت استثناء لبعضهم من تلك المواقف ، وتنوياً بسلامة مواقفهم واعتدالهم واقتصادهم ، ومنها ما تضمن إشارة إلى إيمانهم وإخلاصهم ؛ مما يدل من جهة على أن فئة من اليهود - وفيها فريق من العلماء - قد استطاعوا أن يفلتوا من المؤثرات المتنوعة العنصرية والإقتصادية والنفسية والأنانية التي خضع لها اليهود ، فلم يسمهم إلا أن يروا أعلام النبوة واضحة جلية ، فصدقوا وآمنوا بالنبي والتنزيل القرآني ، ولم يشتروا الضلال بالهدى وبييعوا دينهم وعلمهم بالعرض الدنيوي البخس ، دون مبالاة بما عليه قومهم ، وبما يمكن أن يلقوه منهم من جفاء وسخط ، واضطهاد وتكذيب ؛ وعلى أن فئة أخرى لم تندفع ولم تتورط في العداء والكيد ؛ ومن جهة أخرى على أن الدعوة النبوية قد قوبلت باستجابة حرة لا إكراه فيها من بعض اليهود في العهد المسدي ، بل بحسن إقبال قد يؤدي إلى أذى المقبلين كما كان في العهد المكي مما شرحناه في مبحث سابق ؛ وعلى أن مواقف الكيد والدس والجحود والتآمر إنما كانت لأسباب لا تمت إلى الحق والإنصاف

بل إلى هوى الأخبار والربانيين والزعماء ، وأغراضهم ، وتأثرهم بالمؤثرات الدنيوية ، والجليلة الخلقية ، وتأثيرهم في العامة ، وسوقهم وراءهم في الطريق التي ساروا فيها كما كان شأن أكثر أهل مكة زعماء وعامة أيضا ؛ وهذا وذاك يدعم ما قلناه غير مرة من أنه لم تكن هناك أي فكرة مضادة لليهود منذ البدء كعنصر لليهودية كدين ، وأن كل ما هناك هو دعوة الناس جميعا إلى الله وإلى مكارم الأخلاق ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، من دون ما إكراه ولا سيطرة ؛ مما اتسق القرآن المكي والقرآن المدني فيه ، وقد أوردنا في المباحث السابقة آيات عدة مكية ومدنية فيها التأييد الوافي لذلك ؛ وإليك الآن الآيات الاستثنائية الواردة :

الصَّوْرَةُ الْأُولَى

١ - في سورة البقرة الآية التالية :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ . . . »

٨٣

ومع أن الكلام قد ربط الآباء بالأبناء فإن الفقرة الاستثنائية جاءت بضمير المخاطب القريب ولا تتضمن دلالة على أن الفريق المستثنى قد آمن بالنبي ؛ غير أنها تتضمن على أي حال دلالة على أنه كان في عهد النبي فريق قليل منهم بقي الله ويخلص لوصاياه ويقف عند حدودها ، وبالتالي لا ينحرف عن الحق ولا ينساق مع الهوى .

٢ - ومن هذا الباب الآيات التالية في سورة المائدة :

١ - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُصُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا

٥٩

وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَسِقُونَ ...

٢ — وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَنْهَارِ وَالْعُدُوانِ وَأَكْثَرُهُمُ السُّخْتِ

٦٢

لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ...

٣ — وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا

مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ...

٦٦

٤ — تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ

٨٠

سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَلِيدُونَ ...

وقد جاءت هذه الآيات في سياق يدل على أنها في حق اليهود^(١) ، وعبارات

« أ أكثركم » و « كثيرًا منهم » و « كثير منهم » تدل - على الأقل - على أن هناك

فريقًا قليلًا لم يتورط فيما تورطت فيه الكثرة من الدس والكيد وعمل

السوء والفساد . وهذا المعنى بارز بروزاً أكثر في جملة « منهم أمة مقتصدة » ، كما

هو ظاهر .

٣ - وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« لَيْسُوا سَوَاءً مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ

وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ

١١٣ - ١١٥

يُكْفَرُوا وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ... »

وقد جاءت الآيات عقب آيات تضمنت حملة على اليهود ، لأنها ذكرت أوصافهم^(٢) ؛

ولذلك نرجح أن الاستثناء لفريق منهم ، وروح الآيات تلهم أنهم ممن آمنوا

(٢) اقرأ الآيات ١١٠ - ١١١

(١) اقرأ آيات المائدة ٦٠ - ٦٦ و ٧٨ .

بالنبوة الحمديّة ، كما أن أقوال المفسرين والرواة تؤيد ذلك ؛ وعلى كل حال فإن التنويه القوي الذي تضمنته ، والوصف الرائع الذي وصفته به ، يسوغ القول أنهم كانوا على درجة عالية من الإخلاص لله ، والاستغراق في عبادته ، والسير في طريق الخير والعمل الصالح ، وبالتالي وقفوا من مواقف قومهم الجحودية والمؤذية موقف المنقبض ، بل المنكر ، وحاولوا جهدهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير والإصلاح .

٤ - وفي السورة نفسها أيضا الآية التالية :

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِثَأْتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ... »

١٩٩

والآية قد جاءت بعد فصل سابق تناول اليهود بحملة شديدة ^(١) مما يجعل من المحتمل كثيرا أن يكون موضوع الآية فريقا من اليهود ؛ وهي صريحة الدلالة على إيمانه بالنبوة الحمديّة والتنزيل القرآني ؛ ويستلهم من روحها ومما سبقها في السياق أنها بسبيل طمأنة المسلمين : فإذا كان أكثر اليهود قد وقف موقف الجحود والتعجيز والأذى والتآمر ، وكتمان العلم ، فإن هذا منهم منبعث عن الهوى والنية الخبيثة ، لأن من حسنت نيته منهم قد آمن بالحق ، وتمسك به ، ولم يبيع دينه وعلمه بالثمن البخس .

٥ - ومن هذا الباب آية جاءت في سورة النساء وهي هذه :

« لَٰكِنَّ الرُّسُلُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ... »

١٦٢

وقد جاءت الآية عقب حملة شديدة وصريحة على اليهود ؛ ولذلك فإن الاستثناء الذي احتوته هو لفريق منهم حتما . ويلفت النظر إلى وصفها إياهم بالراسخين في العلم ، وصراحتها بأنهم آمنوا بالنبوة المحمدية والتنزيل القرآني . ولما كانت آيات عدة حملت على الأخبار والربانيين وأولى العلم من اليهود لكتهم الحق وتدليسهم بالتوراة وحلف الأيمان ، وإلباسهم الحق بالباطل ، ويبيعهم دينهم وعلمهم بأعراض الدنيا ، فإن في الآية دليلا واضحا على أن فريقا من علماء اليهود قد أبى عليه علمه ودينه أن يندمج فيما تورط به سائرهم فينكر أعلام النبوة ، ويكابر في صدق الدعوة النبوية والتنزيل القرآني ، فأمن بهما ، ولم يعبا بموقف قومه وزملائه .

هذا ؛ ومن الحق أن ننبه في ختام البحث على ما في هذه الاستثناءات القرآنية من عبرة بالغة ، ومثل رائع لتسجيل الحسنة لصاحبها ، والتنويه بالحسن لإحسانه ، وذكر الفضل لذويه ، مما يظل مصدر تلقين قرآني جليل الشأن ويدحض حجة المفرضين .

فصل في النصارى في العهد المديني تمهيد

في السور المدنية آيات كثيرة في النصارى وعقائدهم ، وما كان بينهم من خلاف ونزاع ، وفي عيسى عليه السلام وأمه والحواريين ؛ وقد جاء بعضها بأسلوب محبب وثناء جميل ، وفي بعضها تحذير وتنبيه وتنديد ، وفي بعضها جدل ومناظرة ، وحكاية صدّ وكيد ، وفي بعضها شيء من العنف وأمر بالقتال ، واستنفار إليه ، ومشاهد رحلة بسبيله .

ومعنى هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لقي في العهد المديني نصارى ودعاهم واحتك بهم ، وأن بعضهم أظهر روحاً طيبة وتلقى الدعوة بالإقبال ، وأن بعضهم تردد أو نأى أو جادل وكابر ، وأن بعضهم قد صدر منه ما تجاوز حد الجدل والمكابرة إلى البغي والعدوان .

والآيات في النصارى وعقائدهم ومواقفهم في القرآن المديني أكثر وأصرح منها في القرآن المكي ؛ بل إن هذا القرآن - إذا استثنينا آيات سورة مريم والزخرف التي هي تقريرية والتي كانت الإشارة فيها إلى انحراف النصارى في عقيدة المسيح والتنديد به بأسلوب عام وغير عنيف - لم يذكر أهل الكتاب المعاصرين بصورة عامة ، ومنهم النصارى ، إلا بالخير ، على ما ذكرناه في فصل أهل الكتاب في العهد المكي .

وهذا الفرق يلهم أن دائرة الاتصال بين النبي صلى الله عليه وسلم والنصارى في العهد المديني كانت أوسع منها في ذلك العهد ، كما يلهم أن المؤثرات التي كان يخضع لها النصارى الذين لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم واحتك بهم أكثر تنوعاً ، وأن الذين لقيهم في العهد المكي كانوا أكثر تجرداً عن الهوى والرغبات المادية ، وأكثر استعداداً بالتبعية للاستجابة إلى الدعوة والاندماج فيها .

وليس في القرآن ما يمكن أن يستند إليه في بيان كيفية وظروف ذلك الاتصال والاحتكاك . وهناك بيت من الشعر مروي من مرثية لحسان بن ثابت رضي الله عنه رثى بها النبي صلى الله عليه وسلم وهو :

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد^(١)

حيث يفيد هذا إن صح أنه كان في المدينة فريق من النصارى ظل على دينه إلى ما بعد وفاة النبي « ﷺ » . وهناك رواية تذكر أنه كان في المدينة جالية من النصارى تسكن في مكان يقال له سوق النبط^(٢) .

أما بالنسبة لمن هم من غير المدينة فقد ذكرت الروايات خبر وفود بعض النصارى إلى المدينة من اليمن والحبشة . ومنهم من جادل وتمسك بنصرانيته ومنهم من أذعن وصدق بالقرآن وبالنبي ما يمكن أن يكون نتيجة لانتشار صيت النبي « ﷺ » وأخباره في العهد المدني أكثر منه في العهد المكي ، كما ذكرت خبر إرسال النبي صلى الله عليه وسلم كتباً ورسلاً إلى بعض الملوك والأمراء النصارى وخبر اتصالات كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وسكان مشارف الشام الذين كان أكثرهم أو كثير منهم من نصارى العرب الحضر منهم والبدو وأخبار سرايا جهادية إليهم وأخبار إسلام بعض زعمائهم وقبائلهم . وفي سورة التوبة فصل طويل في ظروف غزوة تبوك التي سميت في القرآن بيوم العسرة والتي كانت ضد أولئك السكان بسبب ما بدا منهم من عدوان ، وفي هذا مصداق التنوع الذي ذكرناه آنفاً .

وسنعرض صور النصارى في هذا العهد على حسب ما يلهم تصنيف الآيات فيهم

كما يلي :

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام جواد على ج ٦ ص ٢٠٨ .

(٢) عزوا إلى ديوان حسان الذي نشره هرشفلد . ونزبه على أن ابن هشام أورد مرثية حسان بروي البيت وقافيته وليس فيها هذا البيت .

- ١ - مدى ما ورد في القرآن عن حالتهم والتنديد بهم .
 - ٢ - مواقفهم من الدعوة النبوية .
 - ٣ - مواقفهم الحجاجية .
 - ٤ - الصدام بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .
- وسيكون كل موضوع من هذه المواضع في مبحث خاص كما فعلنا في
الفصول السابقة .
-

المبحث الأول

حالة النصارى في العهد النبوى
والتنديد بهم في القرآن

مدى الآيات الواردة وملهماتهما بصورة عامة - صورة من سورة البقرة عن نزاعهم وخلافاتهم - صورة أخرى من سورة من المائدة - إنذارهم في سورة المائدة بوجوب تطبيق أحكامهم على التوراة ودلالته - صورة من سورة الحديد عن صفاتهم بصورة عامة مع استدراك انحراف كثير منهم - مدى دعوة المسلمين في سورة الصف بالتأسي في الحوارين . التنديد بعقيدتهم في بنوة المسيح في سورة المائدة ومداه . التنديد بعقيدتهم في سورة التوبة ومداه .

الصورة الأولى

إن الآيات الواردة في حالتهم مطلقة من جهة ، وتمزج بين حاضرمهم وماضيهم من جهة أخرى ، وفيها بعض الصور الأخلاقية كما فيها إشارة إلى ما قام بينهم من خلاف ونزاع ؛ أما الآيات التنديدية فهي مصبوبة في الدرجة الأولى على عقيدتهم في المسيح وأمه ، ومذكورة لما كان من دعوة المسيح الصادقة إلى الله وانحرافهم عنها ، وهي تمزج كذلك بين حاضرمهم وماضيهم .

وننبه إلى أمر مهم في هذا الصدد ؛ وهو أن الآيات الواردة في حالة النصارى والتنديد بهم مع ما في بعضها من عنف فإنه لا يمكن أن تنعقد أية نسبة بينها وبين ما جاء في حق اليهود ؛ هذا إلى أن هناك آيات تحتوي ثناء محببا عليهم وعلى أخلاقهم ومواقفهم . تلهم صيغتها أن ما احتوته هو الحالة العامة التي كانوا عليها ، في حين أن عكس هذا ينطبق على اليهود ؛ أي أن الآيات التي تضمنت حملات شديدة عليهم ، ووصفت سوء أخلاقهم ومواقفهم وصفا قارعا ، تمثل الحالة العامة التي كانوا عليها ، وكل ما في الأمر أن القرآن استثنى فريقا قليلا من ذلك .

والمبحث يتناول موضوعين يتميز بعضهما عن بعض تميزاً ما : الأول فيما ورد من الآيات عن حالتهم ، والثاني فيما ورد في التنديد بهم ؛ وسنورد كلا منهما لحدته .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

فأولاً ما ورد عن حالتهم ومداه :

١ - في سورة البقرة الآية التالية :

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . . . »

٢٥٣

ففي هذه الآية وصف لواقع حال أهل الكتاب من لدن رسالة عيسى عليه السلام خاصة ، وما آل إليه أمرهم من خلاف ونزاع ؛ وهذا الوصف يشمل اليهود والنصارى ؛ ومما لا يكاد يحتمل تردداً أنه وصف لحالة كل من الفريقين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يشاهدها الناس ومنهم العرب غير الكتابيين . ولقد كان يقع في ظروف البعثة النبوية وقبلها بقليل قتال ، وثورات بين النصارى والإسرائيليين في بلاد الشام نتيجة لما كان من نزاع وعداء بينهم ، ولما كانت فيه البلاد من اضطراب سياسي ، إذ كان يتداول الحكم فيها الروم والفرس فيتقوى النصارى بالأولين كما يتقوى الإسرائيليون بالآخرين ، وهلم جرا ؛ كما أنه كان كل من اليهود والنصارى مختلفين فيها بينهم ، ومنقسمين فرقاً ومذاهب ، وقد كان يصل الأمر بين النصارى خاصة قبيل البعثة النبوية وفي ظروفها إلى الثورات والاضطهادات الدامية ، مما ذكرته الآثار التاريخية المعبرة

والمستندة إلى الوثائق القديمة^(١) ؛ ومما لا ريب فيه أن هذه الحالة مما كان له أثر إيجابي في استعلاء الموقف النبوي والدعوة النبوية في الكتابيين وغير الكتابيين على السواء ، كما أن هذه الحالة تفسر بعض حكم الله في البعثة الحمّدية التي استهدفت إنهاء النزاع والخلاف بين الكتابيين ، وحلّ مشاكلهم المذهبية والذهنية ، وجمعهم تحت راية القرآن مع غيرهم ؛ مما احتوته آيات عدة منها هذه الآيات :

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ... »

١٥ - ١٦ المائدة

٢ - وفي سورة المائدة الآية التالية :

« وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَى أَخَذْنَا مِنْهُمُ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ... »

١٤

وقد احتوت تقريراً مطلقاً عن انحراف النصارى عن بعض عهود الله ووصاياه ، فأدى بهم الانحراف إلى الشقاق والتنازع ، والعداء والبغضاء ؛ وروح الآية وظروف نزولها لا تدع مجالاً للتردد في أن هذا التقرير يتضمن وصف حالتهم حينما كان ينزل القرآن . ولقد جاءت الآيات ١٥ - ١٦ التي أثبتناها آنفاً بعد هذه الآية مباشرة متضمنة إيدان أهل الكتاب ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بكتاب من الله يهدي إلى الحق وسبيل السلام ، ويخرج من اتبعه من الظلمات إلى النور ؛ فورود الآيتين المذكورتين عقب هذه الآية يؤيد أن التقرير الذي تضمنته يشمل حالة النصارى حينما ينزل القرآن من جهة ، ويؤكد

(١) اقرأ كتاب تاريخ التبشير الإسلامي لأرنولد توماس والمجلدين ٣ و ٤ من تاريخ سورية للدبس وتاريخ فتح العرب لمصر لبتلر مثلاً .

ما قلناه قبل قليل من حكمة ربانية في البعثة المحمدية ؛ إذ استهدفت دعوة النصارى واليهود إلى الانضواء إلى الحق والنور اللذين جاء بهما النبي ، والخلاص مما هم فيه من خلاف وانحراف .

٣ - وفي سورة المائدة أيضا الآيات التالية :

« وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ... »
٤٦ - ٤٧

ولقد جاءت الآيات استطراداً في سلسلة تضمنت خبر موقف لليهود في التقاضي عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع أنها تنطوي على تقرير عام فإن الأخيرة خاصة تلهم أنها احتوت إنذاراً ربانياً للنصارى المعاصرين بالسير وفق الإنجيل في أحكامهم ، وتلميحاً إلى أن بعضهم لا يفعل ذلك ، ثم إن الآيتين معاً تحتويان تقريراً تشريعياً لما يجب على المسلمين أن يحترموه إزاء النصارى ، وهو إقرارهم في القضاء على أحكام الإنجيل دون حرج ، على شرط ألا ينحرفوا عنها ؛ وهذا التقرير مطلق بحيث يشمل النصارى الذين كانوا يعاصرون النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً بطبيعة الحال .

٤ - وفي سورة الحديد الآية التالية :

« ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ... »
٢٧

وقد تضمنت تنويهاً محبباً وشاملاً بما جعله الله في قلوب أتباع عيسى عليه السلام من رأفة ورحمة ، وبما كان منهم من جنوح إلى الرهبانية ابتغاء رضوان الله أقرهم الله

عليها ، كما تضمنت استدراكا لذلك التنويه العام وهو عدم رعايتهم لأحكام الرهبانية حق الرعاية ، وانحراف كثير منهم عن جادة الحق والهدى ؛ ومع إطلاق الكلام في الآية فإن روحها تلهم أن ما فيها من وصف كله أو بعضه يشمل حالة النصارى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

٥ - وفي سورة الصف الآية التالية :

« يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأْتَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ... »

١٤

والآية بسبيل دعوة المسلمين إلى الاقتداء بالحواريين في تأييدهم عيسى ونصرهم له ، وقد احتوى مطلع السورة حملة على بعض المسلمين لأنهم يقولون ما لا يفعلون في صدد الجهاد في سبيل الله ونصر نبيه ؛ وبذلك اتسقت المناسبة بين هذه الآية وذلك المطلع ؛ على أن هذه الدعوة من جهة ما ، والقصة التي سقت بسبيلها ، تنطويان على ثناء الله على الحواريين ، وإيجاب احترام ذكراهم ومواقفهم على المسلمين أيضا . وفي هذا تدعيم للمودة وحسن الصلات بين المسلمين والنصارى في عهد النبي على ما نبهنا إليه في مناسبة قريبة .

وهذا المعنى مندمج في آيات من سلسلة طويلة في آل عمران ذكر فيها الحواريون كما ترى .

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ... »

٥٢ - ٥٣

وهو مندمج كذلك في آية أخرى في سورة المائدة كما ترى :

« وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْخَوَارِجِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرِسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ
بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ... »

١١١

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ

وثانيا : مما ورد في التنديد بهم ومداه :

١ - في سورة المائدة هذه الآيات :

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ... »

١٧

والآية تحتوي تقريراً تنديدياً ومطلقاً بكفر القائلين بالوهية المسيح ، وطبيعي أن
هذا التقرير التنديدي يشمل النصارى المعاصرين للنبي والقائلين بهذه الألوهية ؛ ولقد
جاءت هذه الآية عقب الآيات ١٥ - ١٦ التي نقلناها قبل قليل ، والتي وجهت إلى
أهل الكتاب تهيب بهم إلى اتباع الحق والنور والكتاب المبين الذي جاء به النبي ؛
وهكذا تكون هذه الآية متصلة بهاتين الآيتين ؛ وكأنما تقول للنصارى - والنصارى
المعاصرون للنبي هم المخاطبون الأولون بطبيعة الحال - إن القائلين بالوهية المسيح
قد كفروا بالله وإن عليهم أن يرعوا وينضوا إلى ما جاء به النبي من الهدى والنور
وما قرره القرآن المنزل عليه من الحق .

٢ - وفي السورة نفسها الآيات التالية .

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ
يَبْنِي إِسْرَآءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ

ثَلَاثَةً وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . . . »

٧٢ - ٧٦

والتنديد في هذه الآيات أقوى ، كما أن شموله للنصارى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم أصرح ، كما هو واضح من صيغتها ومضمونها ؛ والآية الأخيرة تلهم أنها نزلت معقبة على مشهد حجاج مواجه بين النبي صلى الله عليه وسلم وفريق من النصارى ، مما سنعود إلى الكلام عنه في مبحث آخر من هذا الفصل .

٣ - وفي السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

« وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ... »

١١٦ - ١١٧

والآيات حكاية حال لمشهد أخروي ؛ غير أن احتواءها سؤالا استنكاريا لعيسى عليه السلام عما يعتقده النصارى بالوهيته والوهية أمه ، وحكاية انفصله من ذلك ، ينطويان على تنديد بعقائد النصارى يدخل في شموله المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى إخماد وإنذار لهم ورد عليهم أيضا .

٤ - وفي سورة التوبة الآيات التالية :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أُنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا
أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ... »
٣٠ - ٣١

وواضح أن الآيات تنطوي على التنديد بمقيدة بنوة المسيح وألوهيته ؛ وقد احتوت
تنديداً فيه صورة من الصور التي كان عليها عامة النصارى ، وذلك في طاعتهم لرهبانهم
طاعة عمياء ، واتخاذهم وإياهم أرباباً أيضاً ؛ وصيغة الآيات ومضمونها يلهمان أن ما احتوته
من تنديد وصورة يشمل النصارى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

المبحث الثاني

دعوة النصارى ومواقفهم إزاءها

دعوة النصارى في القرآن المدني - تنوع مواقفهم من الدعوة وتعليله -
صورة رائعة لإيمان بعضهم وفيهم القسيسون والرهبان - ترجيح كون
الصورة لبعض وفودهم ومداهم ودلالاتها - إشارات قليلة أخرى إلى إيمان
بعضهم - التعليق القرآني لمواقف الذين جحدوا منهم - تعليق قلة الآيات
المدنية التي تشير إلى إيمانهم .

الصورة الأولى

إن آيات المائدة ١٥ - ١٦ التي نقلناها في المبحث السابق قد احتوت دعوة إلى
أهل الكتاب ، وبطبيعة الحال قد شملت اليهود والنصارى ؛ ثم جاء بعدها الآية ١٧
التي نقلناها كذلك ؛ قد وصفت الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم بالكفر ،
ووجهت إليهم سؤالاً استنكارياً ؛ وورود هذه الآية عقب تلك الآيتين يلهم بقوة
أن النصارى قد اختصوا نوعاً ما بالدعوة في هذا المقام ؛ ثم جاءت بعدها
الآية التالية :

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ
أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ... »

١٩

وفيها عود على ما بدأت به الآيتان ١٥ - ١٦ بأسلوب آخر ، إذ احتوت تقرير أن
رسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قد شملت أهل الكتاب الذين منهم النصارى
كما هو واضح ؛ وفيها في الوقت نفسه الهدف الذي نبهنا إليه في المبحث السابق وحكمة
من حكم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وشمولها لأهل الكتاب ، ليكون لهم فيه بشير
ونذير بعد ما مر عليهم فترة انحرفوا فيها عن الأسس التي احتوتها كتبهم وأوغلوا في

الخلاف والشقاق ؛ على أن في سورة النساء آيات فيها دعوة مماثلة ، واختصاص النصراني فيها واضح ، وهي :

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ... »

١٧١ - ١٧٣

إذ تهيب بالنصارى المعاصرين إلى الارعواء والانهاء عما هم فيه من باطل لا يتسق مع عظمة الله وصفاته الكاملة ، وتقرر أن عيسى عليه السلام والملائكة المقربين لا يمكن أن يستنكفوا عن عبادة الله ، وأن ما ينسبونه إلى المسيح إنما هو افتراء عليه ؛ وقد تضمنت الآية الأولى دعوتهم بصراحة إلى الإيمان بالله ورسوله ؛ هذا إلى أن هناك آيات عدة وردت في المحاجة معهم سنوردها في مبحثها الخاص ، وقد احتوت دعوتهم إلى الإيمان بالنبى والتنزيل القرآني ، إلى الآيات التنديدية التي أوردناها في المبحث السابق واحتوت دعوتهم ضمناً وصراحة أيضاً .

الصورة الثانية

أما مواقفهم إزاء الدعوة فهي متفاوتة ؛ إذ كان منهم المستجيب القبل أحسن إقبال ، ومنهم المنقبض المتمسك بما هو عليه ، بل المجادل المشاق الصاد عن سبيل الله ، وهو تفاوت طبيعي ، لأن الذين لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم من النصراني أو اتصل بهم في

العهد المدني فئات متنوعة متباينة ، فيهم البدو والحضر ، والنسك والزهاد المتجردون عن أعراض الدنيا الراغبون في الله وحقائقه ، وفيهم الأمراء وأصحاب المركز والجاه والمطامع ، ممن يخضعون على الأكثر لموثرات الدنيا وأعراضها ، كما أن فيهم عوام سدجا يتبعون رؤساءهم ويطيعونهم طاعة عمياء .

ولقد احتوت آيات من سورة المائدة وصفاً محبباً للنصارى بصورة عامة ، ومشهداً رائعاً واقعياً من مشاهد استجابة فريق منهم إلى الدعوة والإيمان بالنبي والتنزيل القرآني كما ترى فيما يلي :

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْطِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ . فَأَنْتَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ... »

٨٦ - ٨٢

ولقد تعددت الروايات في المشهد الذي وصفته الآيات ؛ فمنها ما ذكر أنه مشهد نجاشي الحبشة ورجال الدين النصارى الأحباش حينما تلا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه سورة مريم في مجلسه إبان الهجرة ؛ ومنها ما ذكر أنه مشهد وفد حبشي أرسله النجاشي أو جاء مع المهاجرين العائدين ، ومنها ما ذكر أنه مشهد لبعض وفود نصرانية جاءت من الشام أو نجران اليمن .

ومن الصعب الجزم بإحدى هذه الروايات ؛ غير أن الوصف كما قلنا وصف مشهد

واقعي ، وروحه تلهم أنه في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، والفقرة الأولى من الآية الأولى تلهم أن الآيات نزلت في وقت كان العداء فيه مشتدا بين المسلمين واليهود ، وبالتالي في وقت كان اليهود فيه ما يزالون في المدينة على شيء من القوة ؛ وهذا لا يمكن أن يكون إلا قبل أواسط العهد المدني التي تم فيها إقصاؤهم عن المدينة ، وبالتالي قبل رجوع المهاجرين من الحبشة الذي لم تختلف الروايات في أنه كان بعد صلح الحديبية . والروايات ، وروح آيات آل عمران التي احتوت تعقياً على مجاس المناظرة الذي انعقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ووفد نصارى نجران ، بل نصها ، يسوغ الجزم بأن الوفد رجع دون أن يؤمن ؛ وعلى هذا فالوفد الذي كان منه ذلك المشهد إما أن يكون حبشياً أرسله النجاشي للقاء النبي صلى الله عليه وسلم والسماع منه بعد أن عرف عنه ماعرف من المهاجرين ، وإما أن يكون قد جاء من أطراف الجزيرة الشمالية حيث كانت الديانة النصرانية هي السائدة ؛ وكلا الاحتمالين ممكن ومعقول ، وإن كنا نرجح الثاني ، ونرجح أن يكون الوافدون ممن يفهمون العربية ، فهذا التأثير الشديد يرجح أن يكون من أسلوب القرآن وروحانيته وصدق لهجته ، مما يدركه العارف بالعربية ويتأثر به أكثر .

وهكذا يمكن أن يقال إن أخبار النبي صلى الله عليه وسلم قد انتشرت إلى خارج الجزيرة ، فأثارت الأفكار ، واسترعت الأسماع ، وجعلت بعض رهبان النصارى وقسيسهم ، وبتعبير آخر علماءهم الذين يستطيعون الحجاج والجدل ووزن الأقوال ويرغبون في معرفة وقائع الأمور وحقائقها ، والوقوف عليها بأنفسهم - يشدون الرحال إلى المدينة ، كما فعل بعضهم في العهد المكي على ما ذكرناه في حينه ، ليروا هذا النبي ويسمعوا منه ، وليحاجوه ويجادلوه ؛ وإن منهم من أخذ بما رأى وسمع ، ولس القوة والحق والروحانية ، والتطابق مع جوهر ما جاء به الرسل ، فصدق وآمن ، وكان منه هذا المشهد الرائع . وخطورة هذا المشهد - وما كان من أمثال في العهد المكي مما انطوت إليه الإشارة في عدة آيات نكية وخاصة آيات الإسراء ١٠٧ - ١٠٩ عظيمة جدا من جهة سير الدعوة وأثرها كما هو واضح ؛ إذ جاء شهادة عيان قوية صادقة على

ما كان لروحانية القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم والدعوة من أثر نافذ فيمن كان يسمعها بقلبه وعقله ، وكان رائده الحق والهدى من النصارى ، وفي مقدمتهم رؤساء دينهم .

والآية الأخيرة من آيات المائدة تتضمن إنذارا للذين كفروا وكذبوا بآيات الله ، فمن المحتمل أن تكون الآية مطلقة عامة وبسبيل التهديد بهؤلاء مع ما ظهر من أعلام النبوة وروحانية القرآن وأثرها في رؤساء الدين النصراني ، كما أن من المحتمل أن تكون قد قصدت الذين كفروا وكذبوا من النصارى خاصة ، لهذا القصد نفسه ؛ وقد يكون هذا أوجه بمناسبة موضوع الآيات نفسها .

الصورة الثالثة

وليس في القرآن المدني آيات أخرى فيها مثل الصراحة التي احتوتها آيات المائدة عن إيمان النصارى وتصديقهم ، غير أن ثمة إشارتين في بعض الآيات يحتمل أن تكونا قد عنتا ذلك ؛ منها ما احتوته الفقرة الأخيرة من آية سورة الحديد التي نقلناها في المبحث السابق ، إذ تشير على ما ترجمه إلى الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من أتباع عيسى عليه السلام ، وإلى الذين لم يؤمنوا منهم وظلوا فاسقين ، أي منحرفين عن جادة الحق والصواب ؛ لأن أول الآية قد احتوى إشارة إلى الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ؛ ويلاحظ في وصف الفاسقين تعبير « كثير منهم » ؛ ولا ندرى أي معنى هذا أن كثيرا من الذين لقوا النبي ظلوا فاسقين ، أو أنه يعني وصف النصارى عامة ؟ ونميل إلى هذا أكثر ، لأن كل ما يمكن أن يستفاد من الروايات أن النصارى الذين لقيهم النبي في المدينة قليلون جدا ، قد لا يتجاوز عددهم مئات قليلة ؛ وسورة الحديد نزلت بعد الفتح المكي على ما يستفاد من بعض نصوصها ؛ وهذا الظرف قد كان ظرف استنفار المسلمين إلى غزوة تبوك ، وبعبارة أخرى إلى قتال أهل منطقة كثير منهم نصارى ، بسبب ما كان منهم من بغي وعدوان ؛ فليس من المستبعد أن يكون ذلك الوصف قد عني هؤلاء بصورة خاصة .

ومنها ما احتوته آية في سورة البقرة ننقلها مع آية قبلها للاتصال الوثيق بينهما :

« وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ... »

١٢٠ - ١٢١

والآيتان وإن جاءتا في سلسلة طويلة في حق اليهود جاء ذكر النصارى فيهما استطراداً على الأرجح كما قلنا في مناسبة سابقة؛ فإن ما حكى عن النصارى في الآية الأولى لا بد أن يكون حكاية لموقف جحودي وحجاجي وقفه بعضهم ، وهذا يجعل الاحتمال وارداً بأن تعبير « الذين آتيناهم الكتاب » في الآية الثانية قد عني النصارى كما عني اليهود ؛ وقد احتوت هذه الآية استدراكاً لما جاء في الآية الأولى بشأن موقف المكابرين من الفريقين ، وتقريراً بأن منهم من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فالذين فتح الله بصائرهم ، وآتاهم فهم الكتاب منهم ، يتلونه حق التلاوة ، ويفهمونه حق الفهم ، فيؤمنون بالنبي والقرآن لما يجدوه من التطابق بين ما جاء به وما عندهم ؛ أما الذين كفروا منهم فهم الذين عميت بصائرهم فلا يتدبرون آياته ، ولا يفهمونها حق الفهم ، وهكذا تكون الآية قد أشارت كما قلنا إلى الذين آمنوا بالنبي من النصارى ، إلى ما فيها من تعليل قوي بليغ لموقف الكافرين به . ولقد احتوت آيات في سورة التوبة تعليلاً لموقفهم أقوى وأصرح كما ترى فيها :

« اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُبَيِّنَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ

لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ
الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . . . »

٣١ - ٣٤

وفي سورة آل عمران آيات تذكر إيمان فريق من أهل الكتاب وهي :

١ — لَيَسْأَلُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَامَتْهُ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ
الْيَلِّ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ
فَلَن يَكْفُرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ... »

١١٣ - ١١٥

٢ — وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ
إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بَيِّاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ... »

١٩٩

والجموعة الأولى جاءت بعد حملة تنديدية ضد اليهود . بحيث يمكن أن تكون قد
أرادت استثناء فريق منهم كانوا متقين صالحين كما يمكن أن تكون قصدت التنويه
بفريق من النصارى كانوا كذلك تقريراً لكون موقف أهل الكتاب لم يكن
دائماً سلبياً .

أما الآية ١٩٩ فهي عامة يمكن أن تكون عنت فريقاً من اليهود أو فريقاً من
النصارى أو الذين آمنوا من كل من الفريقين ممن أخبرت بإسلامهم الآيات الأخرى .
وقلة الآيات المدنية التي تشير إلى إيمان النصارى بالنبي والقرآن ، يمكن أن تعلل
بأن الذين لقوا النبي في المدينة كانوا قليلين ، فلم تكرر مشاهد إيمانهم بحيث تذكر في
القرآن كثيراً ، ولقد قلنا في مناسبة قريبة إن ما جاء فيهم في القرآن المدني وخاصة في آيات
المائدة ٨٢ - ٨٥ والحديد ٢٧ من الثناء المحبب ، قد جاء بأسلوب مطلق وتعميمي ،
ويكاد يوحي بأنه يشملهم كافة ؛ وقد ينطوي هذا على الإشارة إلى أن أكثر الذين لقوا

النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة قد آمنوا به وصدقوا التنزيل القرآني ؛ كما يحمل على القول إن الحملة عليهم التي وردت في آيات التوبة التي نقلناها آنفاً وفي غيرها مما نقلناه قبل وما سنقله بعد ، قد عنت بعض الوفود التي ظلت على جحودها ومكابرتها ، وعنت كذلك أولئك الذين وقفوا موقف البغي وأمر النبي والمسلمون بقتالهم من سكان مشارف الشام على ما سوف نشرحه في مبحثه الخاص .

على أن روايات السيرة في الكتب القديمة المعتبرة سجلت وقائع إسلام فئات عديدة من النصراني في مناسبات متنوعة . فرأينا عرضها موجزة فيما يلي إكالا للصورة القرآنية العامة .

١ - إن تلك الروايات^(١) متفقة على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل كتباً ورسلاً إلى ملوك الفرس والروم والحبشة والقبط وغسان . وكان رسوله إلى قيصر الروم الذي كان وقت إرساله في بلاد الشام دحية الكلبي وإلى كسرى الفرس عبد الله بن حذافة السهمي وإلى نجاشي الحبشة عمرو بن أمية الضمري وإلى المقوقس ملك الإسكندرية - وهذا وصف ابن هشام - حاطب بن أبي بلتعة . وإلى أبي شمر الفسائي وجبله بن الأيهم الفسائي شجاع بن وهب الأسدي . وإلى ملك بصرة الحارث بن عمر .

ومما ذكرته الروايات أن كسرى مزق الكتاب وأرسل إلى عامله في اليمين باذان يأمره بإرسال من يستطلع خبر النبي فبعث هذا برجلين فقال لهما النبي : أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كسرى . فلما رجعا أخبرا باذان بما قال النبي وتحقق باذان من صحة الخبر فأسلم هو والأبناء أي أبناء الفرس في اليمين . وأن المقوقس أخذ كتاب النبي فجعله في حق من عاج وأرسل إلى النبي يخبره أنه أكرم رسوله وبعث إليه مجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وكسوة وبغلة لركوبه وأنه يعلم أن نبياً بقي وكان يظن أنه يخرج بالشام ولم يزد على

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٩ - ٣٠ وابن هشام ج ٤ ص ٢٧٨ - ٢٨٠ وكتاب الأموال للإمام أبي عبيد

ص ٢٠ - ٢٤ ، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٨٨ - ٢٩٤ .

ذلك . وقد تسرى النبي صلى الله عليه وسلم بإحدى الجاريتين وهي مارية أم إبراهيم رضي الله عنها . وأن النجاشي وضع كتاب النبي على عينيه ونزل عن سريره وجلس على الأرض تواضعاً ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال : لو كنت أستطيع أن آتبه لأتبعه . وأن جبلة بن الأيهم ملك غسان أسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله وأهدى له هدية . وأن حاجباً رومياً اسمه مري لأبي شمر الغساني استوضح من الرسول صفة النبي ثم أعلن إيمانه وتصديقه . وأن عامل قيصر الروم على عمان من أرض البلقاء فروة بن عمر الجذامي أسلم وكتب إلى رسول الله بإسلامه وأهدى له هدية . وكل الذين ذكرت إسلامهم من هؤلاء هم نصارى كما هو معلوم .

ونستطرد إلى القول إن بعض المستشرقين ومنهم كاتيباني ينكرون خبر رسائل ورسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك الكبار . وقد حاولوا تأييد إنكارهم بما وجدوه في الروايات من اختلاف في النصوص والتواريخ والأيام والأسماء . بزعم أنه ليس في القرآن نص صريح بعموم رسالة النبي وأن في القرآن نصاً صريحاً بأنه أنزل عربياً لينذر أم القرى ومن حولها . وأن النبي لم يكن في ظروف تسمح له بالتفكير في خارج الجزيرة أو تجعله يجرؤ على إرسال رسل ورسائل إلى أكبر ملوك الأرض إذ ذاك .

وفي هذه الأقوال والمزاعم أخطاء ومفارقات فظيعة . فالاختلاف في النصوص والأسماء لا يمكن أن يعد سوغاً لإنكار الخبر . لأن مثل ذلك يمكن أن يقع في سياق كل حادث . والحادث لم يدون إلا بعد مدة ما . وظل خلالها متداولاً على الألسنة يزيد الرواة في تفصيله وينقصون ويبدلون ويغيرون . ولقد ورد الخبر في أقدم ما وصل إلينا من كتب كتبت في القرن الثاني والثالث وروى مؤلفوها الخبر عن راو فراو إلى أحد أصحاب رسول الله . وفي النصوص تقارب كبير مع اختلاف الرواة مما يمكن أن يكون فيه تأييد للخبر . وفي القرآن المسي والمدني آيات صريحة بعموم الرسالة الحمديّة للناس كافة وللعالمين كما أن فيه آيات وجهت فيها الدعوة إلى اليهود والنصارى بصراحة . وما ورد في القرآن

من آيات تأمر بإنذار أم القرى وما حولها أو تذكر أن الله أنزل القرآن عربياً لإنذار أم القرى وما حولها يعقل بسبب كون العرب الحجازيين أول من خوطبوا بالدعوة وليس من تناقض بين هذا وبين عموم الرسالة الثابتة بالنصوص القطعية القرآنية . وإذا كان النبي بذل جهوده الأولى في العهد المبكي وقسم من العهد المدني في نشر الدعوة وتوطيد سلطانها في الحجاز خاصة والعرب عامة فإن هذا طبيعي جداً ولا يعقل غير ذلك .

وزمن إرسال الرسل والرسائل المروي يدل على صحة الحادث، حيث كان ذلك بعد صلح الحديبية حيث قامت حالة الهدنة بين المسلمين وأشد أعدائهم قريش وأحزابها وقبل ذلك كان قد تمكنوا من إجلاء اليهود عن المدينة ثم خضدوا بعد ذلك الصلح مباشرة شوكة اليهود في خير ووادي القرى . فكان كل هذا من الأسباب الحافزة على توسيع نطاق الدعوة إلى سائر أنحاء الجزيرة وخارجها . فليس والحالة هذه في الحادث ارتجال يجعل خبره منكراً وموضوعاً كما هو واضح . وفي سورة المائدة آية ذات مغزى خاص في هذا الصدد وهي :

« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . . . »^(١)

٦٧

وقد جاءت هذه الآية عقب آيات طلب فيها من أهل الكتاب أن يقيموا

(١) إن مفسري الشيعة (انظر تفسير الطوسي مثلاً) ورواتهم ومؤلفهم يؤولون الآية بأنها أمر رباني للنبي بأن يبلغ الناس ما أمر بتبليغه من وصاية علي بن أبي طالب وخلافته من بعده وأن النبي أعلن ذلك في موقف له عند غدير ضم في طريق عودته من مكة إلى المدينة بعد فتح مكة أو بعد حجة الوداع . وهذا من غرائب ما كثر من هذا الباب من تفسيراتهم ورواياتهم . والتهافت في هذا ظاهر ولا يوجد بين هذا وبين الآية وسياقها أية مناسبة بعيدة أو قريبة . وقد فندها الإمام ابن تيمية تفنيداً بليغاً (انظر المنتقى من منهاج السنة ص ٤٢٢ وبعدها) .

التوراة والإنجيل وما أنزل إلى النبي من الله حتى يسعدوا ويفتح الله لهم بركات كل شيء وهي :

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ... »

٦٥ - ٦٦

والفصل الأول من سورة المائدة يدل دلالة قوية على أنه نزل بعد صلح الحديبية . ولعل تلك الآية كانت نقطة الانطلاق في هذا المجال . ولقد أرسل النبي رسله وكتبه إلى أمراء العرب وزعمائهم وقبائلهم في الحضر والبدو في جزيرة العرب . فمن المنطقي جدا أن يرسل رسله وكتبه لإبلاغها لمن هم خارج الجزيرة من ملوك وأمراء أيضا .

ولقد كانت أحداث منبثقة عن هذا الحادث روتها الروايات في سياق آخر مثل سلب دحية الكلبي رسول رسول الله إلى قيصر من قبل بعض بني جذام ترتب عليه توجيه سرية لقتالهم بقيادة زيد بن حارثة . ومثل قتل رسول رسول الله الحارث بن عمر إلى ملك بصرة من قبل عامل مؤتة الفسائي عمرو بن شرحيل ترتب عليه توجيه سرية إلى مؤتة للانتقام بقيادة زيد بن حارثة أيضا . والحادثان وقعا في السنة السادسة وبعد حادث إرسال النبي رسله وكتبه . ولم ينكر المستشرقون واحدا من الحادثين . ثم مثل حادث قدوم مارية وأختها من مصر هدية من المقوقس فتحظى النبي مارية وأولدها إبراهيم . والحادث أيضا في نفس السنة . أما القول إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليجرؤ على إرسال رسله ورسائله للملوك الأرض الكبار فهو هراء بالنسبة إلى صاحب دعوة مؤمن بدعوته أعمق الإيمان ومستغرق فيها أشد الاستغراق ومعتقد بوجود نشرها في مشارق الأرض ومغاربها وإبلاغها لجميع البشر تنفيذاً لأمر ربه القرآني أقوى الاعتقاد . وقد رأى علماء اليهود الراسخين في العلم قد آمنوا بها ورأى النصارى الذين هم

في الحجاز قد آمنوا بها ورأى وفود النصارى الذين فيهم القسيسون والرهبان قد آمنوا بها وقد فاضت عيوسهم بالدموع مما عرفوا فيها من الحق على ما ذكرته الآيات القرآنية العديدة التي أوردنا نصوصها سابقا فضلا عما كان من شهادتهم بأن رسالة النبي حق وصدق وأن القرآن منزل من عند الله ومن فرحهم به على ما ذكرته كذلك الآيات العديدة الأخرى . فليس هناك أي محل لاستغراب هذا الحادث وإنكاره والمكابرة فيه . وإرسال النبي كتباً ورسلاً إلى ملوك وأمراء العرب في الجزيرة يقيني ، وكان له آثار يقينية . والمستشرقون الذين يكابرون في إرسال النبي كتباً ورسلاً إلى الملوك الكبار لا يكابرون في ذلك ، وليس من فرق في نظر صاحب الدعوة المؤمن بها وليس غريباً . بل وإنه لمن المعقول أن يفكر النبي في جعل رسله وكتبه شاملة لملوك العرب والعجم جميعاً . هذا إلى أنه لا يبدو أن هناك أية ضرورة دينية أو سياسية أو قبلية أو حزبية تحمل أحداً في القرن الأول أو القرن الثاني للهجرة على خلق هذا الخبر وروايته وتدوينه .

٢ - روى ابن سعد ^(١) نص كتاب أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأكيدر ملك دومة الجندل يفيد أنه اعتنق الدين الإسلامي . وكان نصرانياً .

٣ - وروى المؤلف نفسه ^(٢) خبر إسلام الأصبع بن عمرو الكلبي زعيم قبيلة بني كلب في منطقة دومة الجندل وناس كثيرين من قبيلته على يد عبد الرحمن بن عوف . وكانوا نصارى . وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة .

٤ - وروى ابن هشام خبر إسلام عدي بن حاتم الطائي ورافع بن أبي رافع الطائي . وكانوا نصرانيين ^(٣) .

٥ - وروى ابن سعد خبر إسلام رفاعه الجذامي وكان نصرانياً ^(٤) .

(٢) ج ٣ ص ١٣٣

(١) ج ٢ ص ٥٤

(٣) ج ٤ ص ٢٤٦ - ٢٥٤ و ٢٩٩ (٤) ج ٣ ص ١٣١

- ٦ - وروى المؤلف نفسه خبر إسلام الجارود من بني القيس الذي كان في جملة وفدهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان نصرانياً^(١).
- ٧ - وروى المؤلف نفسه خبر وفادة وفود من تغلب وغسان وبهراء وبلي وعذرة ممن كانوا نازلين في مشارف الشام . وكان منهم من يدين بالنصرانية . ولما تم الفتح العربي الإسلامي في زمن الخلفاء الراشدين أقبل النصارى في بلاد الشام والعراق وجزيرة الفرات ومصر وشمال أفريقيا سواء منهم العرب الصرحاء أم الذين هم من أنسال الموجات العربية القديمة على اعتناق الإسلام فلم يكذب يمضي بضعة أجيال حتى صار دين أكثرتهم الساحقة .

المُبْحَثُ الثالث

مواقف النصارى الحجاجية

المواقف الحجاجية مع النصارى في القرآن ومدادها - مقايضة بينها وبين مواقف اليهود - أهم المواقف الحجاجية مناظرة وفد نجران - تعليق وبيان وخلاصة مآذكرته الروايات في صدها - ترجيح انعقاد جلسات متعددة لها - الفصول الواردة في صدها في سورة آل عمران - تعليقات وتحليلات في صدد الصور والمشاهد التي جرت في هذه الجلسات مستلهمة من الفصول القرآنية - تعليق على بعض الروايات في صدد حادث المباهلة بالذات - دلالة وفادة وفد نجران - صور حجاجية محتملة من سورة البقرة وتحليلات للآيات التي تلهمها - صورة حجاجية محتملة من سورة النساء - صورة حجاجية محتملة من سورة المائدة - دس اليهود للنصارى في الموقف الحجاجي الذي تلهمه آيات هذه السورة .

الصُّورَةُ الأولى

في القرآن المدني بعض الفصول والمقاطع القرآنية التي تدل على أنه كان ينعتقد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض النصارى مجالس مناظرة وحجاج حول الدعوة الإسلامية وأسسها ، والعقيدة النصرانية في السيد المسيح عليه السلام وغلو النصارى فيها ؛ غير أنها قليلة إذا ما قيسَتْ بما احتواه هذا القرآن من الفصول الكثيرة الطويلة في مواقف اليهود الحجاجية ، مما يتسق مع ظروف الفريقين في العهد المدني ، من قلة النصارى الذين لقيهم النبي ، وقلة المستقرين منهم في المدينة ، وما كان يتحلى به النصارى بصورة عامة من دماثة وبعد عن العنف واللجاج ، كما تلهمه الآيات القرآنية التي أوردنا بعضها ؛ في حين كان اليهود جالية كبيرة مستقرة ، لها مصالح متنوعة ، ولها كيان قوي متشعب الجذور والتوغل في حياة المجتمع العربي ، ولها طابع خاص وجبلة متوارثة في التفكير والحياة والمعيشة والأخلاق ، على ما فصلناه في فصلهم الخاص استلھاماً من القرآن .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

وأهم هذه المواقف أو المجالس ما كان بين النبي صلى الله عليه وسلم ووفد من نصارى نجران اليمن ؛ والاسم لم يرد في القرآن صراحة ، ولكن الروايات التي لا اختلاف في جوهرها مجمعة على ذلك ، وعلى أن الفصل الطويل الذي شغل حيزاً كبيراً من القسم الأول من سورة آل عمران هو في صدد ذلك .

ويستفاد من الروايات أن هذا الوفد كان مؤلفاً من ستين شخصياً ، منهم أربعة عشر من أشrafهم ، وثلاثة من كبار رجال دينهم ؛ فاجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم في مسجده وعليهم الخبرات ، وجرت بينهم مناظرة كان أهم مواضيعها ولادة عيسى عليه السلام وصاته بالله ورسالته ، وقد جادلوه مستشهدين بما قرره من أن عيسى عليه السلام كلمة الله وروحه ، ورد عليهم مندداً بتأويلاتهم التي لا تتسق مع جوهر الأمر ومبدأ التوحيد المطلق الذي قرره القرآن ودعا إليه ؛ ولكنهم لم يقتنعوا ، وظلوا يدعون أنهم على الحق ؛ فطلبهم بأمر الله القرآن إلى المباهلة ، أي أن يدعو ويدعواهم بأن تكون لعنة الله على الكاذبين ؛ فلم يجيبوا الطلب ووادعوه وانصرفوا^(١) .

(١) لا يذكر ابن هشام الذي انفرد في تفصيل خبر قدوم هذا الوفد والمناظرة (ج ٢ ص ٢٠٤ - ٢١٦) والذي ذكر أن الشطر الأول من سورة آل عمران قد نزل في صدهما تاريخ قدوم هذا الوفد والشطر الثاني من سورة آل عمران هو في صدد وقعة أحد التي كانت في السنة الهجرية الثالثة . وقد يقتضي تقديم الشطر المروي نزوله في صدد الوفد على الشطر الذي نزل في صدد هذه الوقعة أن يكون قدوم هذا الوفد قبل هذه الوقعة . غير أن حالة العداء الشديد التي كانت بين مكة والمدينة تجعلنا نستبعد قدوم هذا الوفد في هذا الظرف . ومع أن سياق ابن هشام عن هذا الوفد ورد في كتابه قبل سياق وقعة بدر - وهذا غريب - فإنه ذكر قبله بعض أعمال لليهود من جعلها تحريضهم قريشاً وغطفان على غزو المدينة ونقض بني قريظة للعهد مع المسلمين . وهذا وذلك إنما وقع في السنة الهجرية الخامسة ؛ ومهما يكن من أمر فالذي نميل إليه هو أن قدوم الوفد كان بعد صلح الحديبية أي في أواخر السنة الهجرية السادسة . حيث وقفت حالة الحرب بين مكة والمدينة . والله أعلم . وما رواه ابن هشام في صدد المناظرة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى المباهلة قالوا له : يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه . فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأيهم فقالوا له : يا عبد المسيح ماذا ترى فقال والله يامعشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً نبي مرسل . ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم (يعني حقيقة أمر عيسى) . ولقد علمتم أنه مالا عن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم . وإنه للاستئصال =

وليس من السهل بطبيعة الحال الجزم بأن هذا الفصل الطويل القرآني قد نزل قبل المناظرة أو بعدها ، ولكن روح آياته قد تلهم أن المناظرة لم تكن في جلسة واحدة ، وأن بعض أقسام الفصل نزل عقب الجلسة الأولى ، كما أن بعضها نزل عقب الجلسة الأخيرة وقبل انصراف الوفد إلى أهله ؛ وما لا يحتمل شكاً أن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وحججه كانت في نطاق ما احتواه الفصل على كل حال ، ولهذا فإن الفصل قد انطوى على مشاهد جلسات المناظرة وما دار فيها ، وخاصة حجج النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله .

ومما نكاد نجزم به أن جلسات المناظرة كانت حاشدة ، إذ شهدها أعضاء الوفد ، وشهدا فريق كبير من المسلمين أو كبارهم ؛ ولعل بعض اليهود كانوا من شهودها ؛ وفي بعض الآيات ما قد يلهم أنهم حاولوا أن يتدخلوا أو يدسوا ؛ وإليك الآن مقتطفات من الفصل القرآني الذي استلهمنا أنه في صدد هذه المناظرة :

== منكم إن فعلتم . فإن كنتم قد أبيتم إلا لاف دينكم والإقامة على ما أتم عليكم من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم . فأتوا رسول الله فقالوا يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا ولكن ابعت معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضاء فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح (ص ٢١٥ - ٢١٦) . ولقد روى الإمام أبو يوسف في كتاب الخراج (ص ٤٠) والبلاذري في فتوح البلدان (ص ٧٠ - ٧١) وابن سعد في الطبقات (ج ٢ ص ٥٣ - ٥٤) نص كتاب كتبه رسول الله لنصارى نجران رتب عليهم فيه (ألف حلة في السنة ومثوى رسل النبي شهراً فدونه وثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً عارية إذا كان كيد بالين . وجعل لهم جوار رسول الله وذمته على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدتهم وغيرهم وبعثهم . لا يفتن أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانته ولا واقف من وقفايته على ما تحت أيديهم من قليل ولا كثير . وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية . ولا يعشرون ولا يحشرون ولا يبطأ أرضهم جيش . من سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين . ومن أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة . ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر . ولهم على ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي أبداً حتى يأتي أمر الله ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مكلفين شيئاً بظلم . شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بني نصر والأقرع بن حابس الحنظلي والمغيرة وكتب) . وللتوفيق بين النهاية التي انتهت بها رواية ابن هشام وبين هذا الخبر بمكة أن يقال إن نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم مرتين . مرة قبل الفتح المكي فتناظروا معه وانصرفوا . ومرة بعد الفتح . وكان النبي قد قوي دعوة وسلاطناً وسير بعض سراياه إلى اليمن (انظر ابن سعد ج ٣ ص ٢٢٢ - ٢٢٣) فقدموا عليه وطلبوا منه عهد صلح وأمان فأجابهم إلى ما طلبوا . وفي نص كتاب العهد وأسماء الشهود دلائل قاطعة على ذلك .

١ — السَّم . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ . مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُخَكِّمُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ...

٨ - ١

٢ — زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَلِيلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ . قُلْ أُوذِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَالِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ . شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بِصِرِّ الْعِبَادِ . إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِثَابِتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . أَلَمْ تَرَ
إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ
بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا
النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ...

٢٤ - ١٤

٣ — إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ .
ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ
لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ
رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا
مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ
وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ إِنِّي لَأَكِلُ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ
مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ
ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ
اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ .
قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ
يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ
إِلَّا رَمْزًا وَآذَكَرُ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ . وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ
يَمْرِئُمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَمْرِئُمُ اقْنِطِي

لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ
وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُبْلِقُونَ أَقْلَمَهُمْ أُهْمُهمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
يَخْتَصِمُونَ . إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّرِينَ . وَيُكَلِّمُ
النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ
يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ . وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ . وَرَسُولًا إِلَى
بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ
كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
وَأُخْرِئُ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ
لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ
الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .
وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ . إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ
وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَخَذَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَاثْمًا
الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . وَأَمَّا
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ... ٣٤ - ٥٧

٤ — ذَٰلِكَ نَقُودُهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأَيْتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ . إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . . .

٥٨ - ٦٤

٥ — يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حُجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ . . .

٦٥ - ٦٨

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ

فَالآيَةُ ١٥ مِنَ الْمَجْمُوعَةِ الثَّانِيَةِ فِيهَا خُطَابٌ لِّخَاطِبِينَ قَرِيبِينَ ، ثُمَّ يَعْقِبُهَا تَقْرِيرٌ عَنْ حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَمَعْنَاهُ ، وَالآيَةُ ٢٥ تَخَاطَبُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَدَدِ مَحَاجَّةِ الَّذِينَ يَحَاجُّونَهُ فِي اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ ، وَالآيَةُ ٢٣ مِنْهَا تَنْدَدُ بِفَرِيقٍ مِنَ الْكِتَابِيِّينَ دَعَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى تَحْكِيمِ كِتَابِ اللَّهِ فَأَبَوْا ، وَالآيَاتُ ٦٠ وَ ٦٤ مِنَ الْمَجْمُوعَةِ الرَّابِعَةِ ، وَآيَاتُ الْمَجْمُوعَةِ الْخَامِسَةِ ، مُوجَّهَةٌ إِلَى كِتَابِيِّينَ مُوَاجِهَةٌ وَعَلَى سَبِيلِ الْمَجَادَلَةِ وَالتَّحْدِي ؛ فَكُلُّ هَٰذَا

يلهم بقوة صحة وقوع المناظرة التي أجمعت الروايات على ذكرها .
ومما ذكرته الروايات أن الوفد أراد أن يتخاص بأسلوب جدلي ، فقال للنبي : ألسنت
تقول بأن عيسى روح الله وكلمته ؟ قال : بلى ؛ فقال الوفد : هذا حسبنا . والمجموعة الأولى
احتوت - على ما يتبادر لنا - رداً وتفنيداً لما عمدوا إليه من حجة ، وبالتالي تؤيد صحة
الرواية ، فقد احتوت الآية ٧ منها تقرير أن الله هو الذي يصور الناس في الأرحام كيف
يشاء ، واعتبرت الآية ٨ سؤالهم مغالطة ، فردت عليهم مفندة ؛ إذ قررت أن هناك آيات
محكمات هن أم الكتاب وفيها جوهر الدعوة وأسسها التي لا تتحمل تأويلاً ، وهناك
آيات متشابهة للتمثيل والتقريب ، فلا يتمسك بهذه ويتجاهل تلك ، أو يريد أن ينقض
تلك بهذه على تأويل خاطئ . إلا من في قلبه زيغ ولم يكن رائده الحق وإنما يقصد
المكابرة والتمحك ، أمّا المؤمنون الراسخون في العلم فلا يمكن أن يتورطوا في ذلك ، وإنما
قولهم في صدد الآيات المتشابهة : آمنا به كل من عند ربنا ، ولا بد أن يكون النبي صلى
الله عليه وسلم قد شرح ذلك بالآيات والأمثال ، وأورد الآيات القرآنية المحكمة التي تقرر
وحدة الله وحدة لا شائبة فيها بحيث لا يجوز في حقه أبوة ولا بنوة ولا تعدد ولا تجزؤ
ولا انفصال ، وقال إنه إذا جاء في القرآن أن عيسى كلمة الله ومن روحه فإنما أريد بذلك
التقريب والتمثيل والتنويه بالمعجزة الربانية التي تمت بولادته بلا أب ، فلا يصح أن يحاول
بهذا نقض تلك الآيات المحكمة . ومن الجدير بالتنبيه أن المجموعة الرابعة احتوت تمثيلاً
لخلقة عيسى عليه السلام بآدم ، وفي الآيات المسكية ذكر أن الله نفخ في آدم وفي الإنسان
من روحه فصار حياً^(١) فيحتمل أن تكون هذه الآيات قد أوردت في معرض المجادلة ؛
ويبدو أن المناظرين جادلوا في القرآن وأنكروا نزوله من عند الله وقالوا إنهم لا يتقيدون
به ، فجاءت الآيات الأولى من المجموعة الأولى تنوّه بكتب الله ثم تقرر أن الله قد أنزل
القرآن مثلها ، فليس هو بدعا ، وإن فيه لفرقاً بين الحق والباطل فيجب أن يؤمن به

(١) اقرأ آيات الحجر ٢٩ والسجدة ٧ - ٨ مثلاً .

من آمن بكتب الله السابقة ، وإن الذين لا يؤمنون به سيكونون موضع انتقام الله وعذابه .

وعلى هذا فمن السائع أن يقال إن المجموعة الأولى قد نزلت بعد جلسة ما ، أو بعد الجلسة الأولى ، ردا على ما كان منهم من إنكار للقرآن ، ثم تنفيذاً للمغالطة التي عمدوا إليها ؛ كما أن من السائع أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد رد عليهم في نطاق هذه الحجج ثم نزلت الآيات مرددة أو مؤيدة له ، ولهذا نطائر عدة في القرآن نبهنا إليها في مناسبات سابقة .

ويلمح خلال آيات المجموعة الأولى وملهماتها - إذا صح شرحنا وتوجيهنا - تناقض للمناظرين ، أو أسلوب من أساليب المناظرة والجدل ، فقد أنكروا القرآن ثم أخذوا يحاجون النبي صلى الله عليه وسلم فيما قرره بشأن عيسى عليه السلام وأنه كلمته أو روحه أو من روحه ؛ ولعلمهم قالوا كما يقول المناطقة أو المتناظرون : لنسلم جدلاً بالقرآن ، فالقرآن يقول كذا وكذا ، وفي هذا صورة بارزة وطريفة من صور المشهد على ماهو المتبادر .

وفي المجموعة الثانية خطاب موجه إلى مخاطبين حاضرين ، وخطاب آخر موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صدد المحاجين ، وهذا ما جعلنا نستلهم أنها هي أيضاً في صدد المناظرة ، وقد احتوت تدعياً للنقطة التي جرى الحجاج فيها ، والتي انطوت على الإشارة إليها المجموعة الأولى ، فوحدانية الله أمر محكم لا يتحمل أي كلام ، والله وملائكته وأولو العلم يشهدون على هذا ويشهدون بما اتصف به من القيومية الدائمة بالحق والقسط ، والطاعة والانقياد . والإسلام لله هو الدين الحق الواجب على الناس . وحجاج الكتائبين ولجاجهم في الأمور المحكمة ليس من الدين ، وإنما هو مظهر من مظاهر اختلافهم في التأويل وتجاوزهم فيه حدود العقل إلى البغي والغلو ، ومن لم يطع وينفذ ويرعو عن البغي فعند الله حسابه ، ثم نقل الكلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم : فإذا ظل المناظرون في لجاجهم بعد سطوع الحجة البالغة فليعلن عن نفسه وعن تابعه ، إسلامهم لله ، وليكتف

بدعوة الناس كتابيين وأمينين إلى مثل ذلك ، وليكل إلى الله أمر من يتولى ويعرض منهم .

ولقد تكون بعض آيات المجموعة محل تساؤل عما إذا كانت ذات صلة بالمناظرة ، وذلك بسبب أن ما احتوته مما وصف به اليهود في آيات أخرى ، ونعني الآيات الأربع الأخيرة من المجموعة الثانية أي الآيات (٢١ - ٢٤) ، غير أن انسجامها مع السياق من جهة ، وبعض مضامينها وخاصة الآية ٢٣ من جهة أخرى ، جعلانا نميل إلى القول بصلتها بالمناظرة ، وورود الصفات التي فيها حق اليهود لا يمنع - فيما يتبادر لنا - أن يوصف بها فريق من النصارى وقفوا موقف اللدد والمكابرة ؛ على أن مما يرد على البال أيضاً أن النبي قد دعا المناظرين إلى تحكيم كتاب الله وآياته فتدخل اليهود ودسوا حتى جعلوهم يأبون .

وقد يكون في الآية الأولى من المجموعة الثانية تأييد لما ذكرته الروايات من أن الوفد جاء وعليه الخبرات الديباجية الموشاة ، وعلى هيئة أثارت دهشة المسلمين ، إذ أشارت إلى طبيعة البشر في انهماكهم في حب الدنيا وزينتها مع أن ما عند الله أعظم وأبقى للمؤمنين المستغفرين الصابرين الصادقين القانتين الخ .

وعلى كل حال فإنه يتبادر لنا أن كل آيات المجموعة الثانية أو جلها متصلة بالمناظرة ، وأنها نزلت بعد جلسة مامن جلساتها وقبل انتهائها ، ومما لا ريب فيه أن النبي قد تلاها في الجلسة التالية ، أو أدار حديثه في نطاقها مقرراً ومنمداً وداعياً إلى تحكيم كتاب الله ثم داعياً إلى الإسلام والانقياد لله .

أما المجموعة الثالثة فهي - على ما هو المتبادر الواضح - في صدد موضوع المناظرة بالذات ، أو أهم مواضعها ، وهو خلقه عيسى عليه السلام ورسالته ، وتقرير قرآني لما هو الحق فيه ، وقد احتوى تمهيدات مثل تقرير نذر أم مريم ما في بطنها لخدمة الله ، وتقبل الله لها في خدمته بقبول حسن ، ورعايته لها رعاية عظيمة ، وذلك بسبيل تقرير طهارتها وانقطاعها لله وتأهلها للمعجزة الربانية ، ومن هذه التمهيدات قصة ولادة يحيى عليه السلام

وما فيها من إعجاز ، وذلك بسبيل تقرير أن ذلك لم يقتض أن يكون يحى إلهاً أو جزءاً من إله .

وقد احتوى الفصل تقرير أمر واقع هو أن خلقه عيسى معجزة ربانية ليس غير ، وتقرير أمر رسالته وحكاية ما كان من دعوته الناس إلى عبادة الله وحده ، وما كان من نسبته ما ظهر على يده من خوارق إلى الله ، وتقرير استجابة الحواريين لدعوته في حياته على وجهها الصحيح المحكي ، وأن الاختلاف فيه وفيها إنما كان بعد توفيه .

ولقد علقنا في فصل الكتابيين من قسم العهد المكي تعليقات كافية في سياق فصل سورة مريم تفنينا عن الزيادة هنا ، وفي هذه المجموعة عود على بدء اقتضته حكمة التنزيل تؤكد وتأييداً ، ويلاحظ بعض الفروق بين ما جاء في فصل سورة مريم وما جاء في هذه المجموعة ، مما يحمل على القول أن هناك من أدوار الحديث على بعض جزئيات من سيرة السيد المسيح وأمه ورسالته وخوارقه وموقف الحواريين منه ، أو سأل عن ذلك ، فاحتوت الآيات ما فيه البيان مما لم يرد في فصل سورة مريم .

وليس من الممكن الجزم بأن آيات هذه المجموعة نزلت قبل المناظرة ، أو بعدها ، أو خلالها ؛ والحالات الثلاث واردة الاحتمال على تفاوت في قوته ؛ ولعل أوجه الاحتمالات أن تكون نزلت بعد جلسة من جلسات المناظرة دار الحديث فيها حول الموضوع مبدئياً ، فتليت في الجلسة التالية كتقرير قرآني رباني فيه ، ونرجح أنها نزلت بعد نزول المجموعتين الأوليين ، إذ يتبادر لنا أنه دار في الجلسة الأولى بحث حول ولادة عيسى عليه السلام ، فتلا النبي صلى الله عليه وسلم الآيات المكية فيها ، فجادلوه على ما ذكرناه قبل قليل ، ففند أقوالهم في نطاق ما جاء في المجموعتين ؛ ثم نزلتا بعد الجلسة فتلاهما ، ثم نزلت المجموعة الثالثة بعد هذه أيضاً فتلاهما في الجلسة التي تلتها .

ونرجح أن المجموعة الرابعة نزلت هي والمجموعة الثالثة في آن واحد ؛ وتلهم أن

المناظرة قد انتهت بها ؛ إذ احتوت تقريراً وتعقيباً وتحدياً ودعوة ختامية ؛ فخلقة عيسى ليست أعظم من خلقة آدم ، وهي مما يعترف به المناظرون ؛ ولم يعد ثمة إمكان للمراء لمن يريد الحق ؛ فإذا أصر المناظرون في لجاجهم بعد هذا فلم يبق ما يقال لهم إلا تحديهم بأن يجتمع الطرفان ومعهم من يعززون من أبنائهم ونسائهم ، فيطلب الجميع من الله أن يجعل لعنته وسخطه وغضبه على الكاذبين منهم وإلا أن يدعو النبي الكتابيين المناظرين إلى كلمة سواء بينهم وبينه ، فيعلنوا معاً أنهم لا يعبدون إلا الله ، ولا يشركون به شيئاً ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دونه ؛ فإن لم يعلنوها معه فليعلنها هو باسمه واسم أتباعه ، وليشهدهم على أنهم مسلمون لله وحده لا شريك له ، ولا رب غيره .

ومما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تلا عليهم هذه الآيات القوية النافذة أو خاطبهم بما في نطاقها ، وأنه دعاهم إلى ما أمر بأن يدعون إليه ، وأعلن ما أمر أن يعلنه في المشهد الحافل ؛ ومضمون الآيات وروحها يلهمان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في موقف القوي المطمئن بقوة موقفه وصحة دعواه ، والمستعلي على مناظره بالحجة الدامغة ، والصميمية العميقة ، والتحدي المفحم ، والدعوة التي لا يردّها إلا الممتري .

ولقد ورد في صدد آية المباحلة (٦٠) رواية متصلة بالمشهد . مفادها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصبح دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم وغدا بهم لبياهل القوم . ويتمسك الشيعة كثيراً بهذه الرواية ويسوقونها للتدليل على أن كلمة (نساءنا) لا تعني زوجات النبي (صلى الله عليه وسلم) لأنه لم يدع أحداً من زوجاته وإنما دعا فاطمة فقط . وإن كلمة (أنفسنا) تعني علياً لأن الإنسان لا يدعو نفسه وما دام أن النبي دعا علياً فإن الكلمة تعنيه ^(١) ! وهذا التفسير عجيب مناقض للمعقول والمنقول بل والنصوص القرآنية . وابن هشام الذي انفرد بتفصيل خبر المناظرة بين النبي ووفد نجران لم يذكر ذلك . بل لم يذكر

(١) انظر تفسير الآية في تفسير الطوسي .

أن النبي استعد للمباهلة . وأسلوب الآية لا يقتضي ذلك . وهو أسلوب تحد وإخغام .
وقد ألحقنا المجموعة الخامسة بمجموعات المناظرة بسبب احتوائها لفظي « الإنجيل »
و « نصرانيا » إذ رأينا من المحتمل أن يكون موضوع ملة إبراهيم قد أثير في جلسات المناظرة ،
وأن المناظرين النصرى ادعوا أن ملتهم وملة إبراهيم سواء ، فنزلت الآيات تردد ذلك
وترد عليه ، على أننا لا نتشدد في الاحتمال ؛ لأن ذكر النصرى في موضوع ملة إبراهيم قد
ورد أيضاً في سلسلة حجاجية مع اليهود خاصة ؛ مما جعلنا نقول إن ذكرهم قد جاء من
قبيل الاستطراد .

وعلى كل حال فالمجموعات القرآنية التي نقلناها مع الروايات الواردة في صدها والتي
استأنسنا بها ، سمحت لنا باقتباس صور عدة لمشاهد حادث يمكن أن يعد من أعظم أحداث
السيرة والدعوة في العهد المدني ، ومن أشدها إثارة للدهشة ، وبعثاً للاهتمام بما كان من
وفرة عدد الوفد ، وهيئته ، ومجالس المناظرة الحاشدة التي انعقدت بينه وبين النبي صلى الله
عليه وسلم كما هو المتبادر ، مما يدل على أن شأن النبي واسمه ظلاً يتجاوزان أفق الحجاز
ويلفتان أنظار الملل الأخرى ، ويسترعيان أسماعها ، ويبعثان في نفوس رجالها رغبة إلى
الاستصلاح والاستماع والاستيثاق ؛ وعلى أن دار الهجرة النبوية صارت مما يشد إليه
الرحال بقصد العلم والمعرفة والمناظرة والمحاجة .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

وهناك آيات في سور البقرة والنساء والمائدة من المحتمل كثيراً أن تكون نزلت
في صدد مواقف حجاجية مواجهة بين النبي صلى الله عليه وسلم وفريق من
النصرى أيضاً :

١ - فقد جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ
بُرْهَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ

عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ...»

١١١ - ١١٣

وهي تحكي أقوالاً لليهود والنصارى في آن واحد . والآيات من سلسلة طويلة في حق اليهود ، ومن المحتمل أن يكون ذكر النصارى جاء فيها من قبيل التعميم والاستطراد ، غير أن مما لا يحتمل أن يكون اليهود قالوا (كونوا نصارى تهتدوا) ، وأنه لا بد أن يكون هذا القول قد صدر من نصارى في موقف ما ؛ وفي القول رد حجاجي على دعوة موجهة إلى القائلين كما هو واضح ، فيه تبجح وفيه استكبار .

والآية الثالثة جديرة بالتعليق ؛ إذ تحكي حكاية قول كل فريق ورأيه في الآخر ؛ وصدور هذا القول من كل منهما في حق الآخر مما لا يحتمل شكاً ؛ فهو متردد على ألسنتهم أبداً : أمس واليوم وغداً ، والراجح أنه صدر من كل فريق في غياب الآخر بسبيل دعواه أنه هو وحده على الحق وأنه لن يدخل الجنة إلا من هو على ملته ! والآية قرينة قوية على صدور القول الأول أيضاً فعلاً أمام النبي صلى الله عليه وسلم في موقف مواجه . ولا ريب في أنه كان لموقف ورأى كل فريق في الآخر أثر إيجابي فيما كان من استعلاء الموقف النبوي والدعوة النبوية ، في نفوس العرب والكتابيين على السواء ؛ وأن يكون من أسباب تبرم بعض علماء الكتابيين من نصارى ويهود ، وإقدامهم على التفلت من المؤثرات المتنوعة ، واستجابتهم إلى الدعوة النبوية دون مبالاة ببني قومهم وملتهم ؛ لاسيما أن الخلاف بين الكتابيين ما كان موضوع بحث وعجب وسخرية عند العرب على ما ذكرناه في مناسبات سابقة .

٢ - وقد جاء في سورة البقرة أيضاً الآيات التالية :

« وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ أُتِيبَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ

وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ
وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ...»
١٢٠ - ١٢١

والآيات تحكي موقف كل من النصارى واليهود من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهي من سلسلة طويلة في حق اليهود في الوقت نفسه ، مما يجعل من المحتمل كثيراً أن يكون ذكر النصارى فيها قد ورد من قبيل التعميم والاستطراد ، غير أن ما لا يحتمل شكاً أنها حكاية واقع حال كل منهما فعلاً ؛ ولا بد أن تكون قد تكشفت للنبي صلى الله عليه وسلم بالاحتكاك والمواقف الحجاجية المواجهة ؛ وفي الآية الثانية تدعيم لذلك إذ تأمر النبي بأن يقول لهم إن هدى الله هو الهدى الحق .

٣ - وقد جاء في سورة النساء الآيات التالية :

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ...»
١٧١ - ١٧٣

والآيات موجهة إلى النصارى كما هو واضح ، وبأسلوب مزج فيه الحجاج والنهي ولدعوة والتنديد والإنذار معاً ، والصيغة تلهم أنها تخاطب فريقاً يسمع أو من الممكن أن يسمع مواجهة ، وما لا يحتمل شكاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تلا عليه الآيات في موقف حجاجي مواجه .

٤ - وقد جاء في سورة المائدة الآيات التالية :

« قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ . لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ... »

٨٠ - ٧٧

وهذه الآيات قد جاءت عقب الآيات (٧٢ - ٧٦) التي قررت كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وأنه ثالث ثلاثة ، ونددت بهم ودعتهم إلى التوبة والاستغفار ، وقررت حقيقة ما دعا إليه المسيح صلى الله عليه وسلم وأنه ليس إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل ، وقرعتهم على عبادتهم ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعاً من دون الله ، والتي نقلناها في مبحث سابق من الفصل ، والتي يجب أن تعد جزءاً من هذه الآيات وما احتوته من موقف حجاجي وتنديدي ، ومضمونها يدل بحزم على أن النصارى هم موضوع الخطاب ؛ ومما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وجه الآيات إلى فريق نصراني لقيه في موقف مواجه .

ويلفت النظر خاصة إلى الآية ٧٧ التي تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بنهي هذا الفريق عن اتباع أهواء القوم الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً من غيرهم وما زالوا ضالين عن سواء السبيل ؛ إذ هي تسوغ لنا القول بحزم إن المقصود هم اليهود ؛ وقد أكدت هذه الآية التالية لها إذ ذكرت بني إسرائيل بصراحة وما كان من لعنة داود وعيسى لهم بسبب ما ارتكسوا فيه من المنكرات وعدم نهبي أحد منهم أحداً عنها ؛ وقد أشارت الآية الأخيرة إلى واقع حالهم الحاضر ، إذ لا يتورعون عن تولى الكافرين للمشركين مع ما يدعونه من التوحيد وما ينتسبون إليه من كتاب الله وأنبيائه كحجة مننظمة أريد بها التدليل على ارتكاسهم في الضلالة وتضامنهم مع المشركين بقصد

الدس على دعوة الله ، والصد عن سبيلها ، وإضلال الناس عنها . ويبدو أن فريقاً من اليهود حاولوا صد الفريق النصراني عن الإسلام ، وتثييته على ما هو عليه من كفر صريح ؛ فكان هذا النهي وهذا التقريع ، وكانت هذه الإشارة إلى توليهم المشركين ليكون فيها عبرة الفريق النصراني ، ورادع عن الاستماع إليهم . وفي كل هذا صور من المشهد الحجاجي الذي انطوت عليه السلسلة كما هو المتبادر ؛ والآية ٧٩ قصدت تقوية العظة وداعي العبرة والروع الموجه للفريق النصراني ؛ فعيسى عليه السلام قد لعن اليهود لما ارتكسوا فيه من المنكرات ، وداود عليه السلام - جده لأمه - قد لعنهم من قبله ؛ وفي هذا ما يجب أن يكون رادعاً وعبرة للفريق النصراني ، وصارفاً عن الاستماع إلى دسهم ووساوسهم .

وفي هذا أسلوب بديع من الجدل المحكم والحجة البالغة بالنسبة للموقف الذي طرفه نصارى كما هو واضح أيضاً .

المبحث الرابع

الصدام مع النصارى

حالة النصارى في المدينة وأخلاقهم لم تكن تتحمل صداماً - مدى النهي القرآني عن اتخاذهم أولياء - اختلاف الحالة بالنسبة لنصارى مشارف الشام - ماذكرته الروايات من أخبار عدوان قبائل هذه المشارف وسرايا النبي إليها - آيات التوبة بقتال الكتائبين وترجيح نزولها بين يدي غزوة تبوك - آيات التوبة بالاستنفار إلى غزوة تبوك - مدى الآيات - تعليقات وتحليلات حولها - ماثلهم من سبق بغى سكان المشارف وسبق الصدام الذي روته الروايات - خلاصة الروايات عن ظروف وأحداث غزوة تبوك - مقاطع من سورة التوبة تحتوي صوراً ومشاهد من حركة الاستعداد للغزوة وتأليفها - إشارة إلى ما يتبعها من جيش أسامة ثم جيوش الفتح وصلتها بها - مغزى هذه الغزوة ومداها - تنفيذ لمزاعم بعض المستشرقين فيها .

الصورة الأولى

لم يكن في المدينة جالية ذات شأن وكيان يمكن أن يقع بينها وبين النبي والمسلمين صدام ، وأن يصدر منها مواقف عملية مؤذية وخطرة كما كانت شأن اليهود ، هذا إلى أن الآيات القرآنية المدنية لم تحتو حملات عنيفة قاسية عليهم ، بل وصفتهم بأوصاف محبة إطلاقاً ، مما يلهم أن الذين لقيهم النبي منهم في المدينة كانوا دمني الأخلاق ليني الجانب ، غير جانحين إلى عنف وكيد ؛ وهذا ما جعلنا نرجح في مناسبة سابقة أن موضوع آيات المائدة ٥١ - ٥٢ و ٥٧ - ٥٨ التي نهى فيها المسلمون عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، هم اليهود مباشرة ، وأن ذكر النصارى في الآية ٥١ قد جاء استطرادياً ومعللاً بالتعليل الذي احتوته الآيات ٥٧ - ٥٨ ليكون تلقيناً قرآنياً مستمر المدى ؛ وترجيحنا مستلهم مما احتوته الآية ٥٢ من نعي على المنافقين أن يتمسكوا بأوليائهم خشية الدوائر ؛ واليهود هم الذين كان بينهم وبين المنافقين ولاء متصل بما قبل الهجرة ، ومحتج به .

الصورة الثانية

أما بالنسبة إلى الخارج فالأمر مختلف . حيث كان غالب سكان مشارف الشام نصارى تابعين لنفوذ دولة الروم البيزناسية التي كانت عاصمتها (القسطنطينية) وقد ذكرت الروايات سلسلة من الوقائع التي فيها عدوان أو محاولة عدوان من بعضهم والتي جعلت النبي صلى الله عليه وسلم يقابلهم على ذلك .

من ذلك غزوة خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رأسها في أوائل السنة الخامسة للهجرة بما بلغه من تجمع جموع في منطقة دومة الجندل التي كانت تبعد عن المدينة خمس عشرة ليلة وعن دمشق خمس ليال للدنو من المدينة وعدوانهم على القوافل وقد بلغ المنطقة وبث فيها سراياه . وهرب الناس من وجهه . فعاد دون أن يصطدم مع أحد^(١) .

ومن ذلك سرية سيرها بقيادة زيد بن حارثة في السنة السادسة إلى حسمي ؛ لأن جماعة من بني جذام اعتدوا على دحية الكلبي رسول رسول الله إلى قيصر فشلهوه في طريق عودته من الشام . وقد أغار زيد عليهم . فقتل وسبي وغنم منهم^(٢) .

ومن ذلك سرية سيرها بقيادة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل ولم تذكر الروايات سبب مباشراً . والراجح أنها لنفس السبب الذي خرج به النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ذكرت الرواية أن النبي عم عبد الرحمن بيده وقال له (اغز باسم الله وفي سبيل الله من كفر بالله ولا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً . وقد سار فدعا بني كلب إلى الإسلام فأسلم زعيمهم الأصبع بن عمرو وأسلم معه ناس كثير من قومه وتزوج ابنته . وصالح من لم يسلم منهم على الجزية^(٣) .

ومن ذلك سرية سيرها النبي بقيادة كعب بن عمير إلى ذات أطلاق من أرض

(٢) ص ١٠٣ .

(١) ابن سعد . ج ٣ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٣) نفس المصدر ص ١٣٢ .

الشام للدعوة . فدعوا من وجدوه فرشقوهم بالنبال وقتلوا معظمهم^(١) .

ومن ذلك سرية سيرها بقيادة زيد بن حارثة إلى مؤتة في اللقاء لأن عاملها شرحبيل النساني قتل الحارث بن عمير رسول رسول الله إلى ملك بصرى . وكانت السرية جيشاً مؤلفاً من ثلاثة آلاف . وقد اشتبكوا بالجموع التي جمعها شرحبيل من بهراء ووائل وبكر ولحم وجذام وكان قتال شديد وقتل قائد السرية ثم استلم القيادة جعفر بن أبي طالب فقتل فاستلمها عبد الله بن رواحة فقتل فاستلمها خالد بن الوليد وتمكن من الانسحاب بمن بقي من المسلمين^(٢) .

ومن ذلك سرية سيرها بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل لما بلغه من تجمع جموع قضاة بقصد الدنو من المدينة . فوطيء بلادهم ودوخها وهرب أهلها منه^(٣) .

وهكذا يكون الصدام المسلح بين النبي والمسلمين من جهة وسكان مشارف الشام الذين كانت غالبيتهم نصرانية من جهة أخرى قد بدأ منذ أوائل النصف الثاني من العهد المدني واستمر .

وليس في القرآن إشارة صريحة إلى ذلك ؛ غير أن في سورة التوبة آيات تأمر بقتال الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، وتذكر أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله ، وأن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يصدون عن سبيل الله ، وهي هذه :

« قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَافِرُونَ . وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ »

ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلْنَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . . . »

٣٤ - ٢٩

والآية الأولى تشريعية ، والأخرى تنطوي على حكمة التشريع بالإضافة إلى ما في الأولى من هذه الحكمة . وقد يدخل في الآيات اليهود والنصارى معاً ؛ غير أن الآيات قد نزلت بعد الفتح المكي على ما يلهمه ترتيبها حيث وضعت بعد الآية التي تحظر على المشركين الدخول إلى المسجد الحرام . ولم يكن قد بقي في الحجاز يهود أقوياء يجب قتالهم . وقد جاء بعدها بقليل آيات تستنفر المسلمين إلى القتال في سبيل الله وتندد بالمتشاكسين عن ذلك ، وأجمعت الروايات على أنها في صدد الاستنصار إلى غزوة تبوك التي هي من مشارف الشام والتي كان غالب سكان منطقتها نصارى .

وقد احتوت وصفا يلهم بقوة أنه وصف لها كما ترى فيما يلي :

« يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّا قَتَلْنَاكُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا أَتَيْنِي إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ

إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْدِيكُمُ اللَّهُ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ...»^(١)

٤٢ - ٣٨

فهذه الآيات وتلك والحالة هذه تنطوي على إشارات قرآنية إلى الصدام بين النبي والمسلمين من جهة ، والنصارى من جهة أخرى .

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ

ومع أن كثيراً من المفسرين قد صرفوا الأوصاف الثلاثة المذكورة في الآية الأولى إلى أن كفر الكتائبين برسالة النبي والدين الذي أتى به سبب مطلق ، وقالوا إنه موجب التشريع ، فإن هناك ما يحمل على التوقف في التسليم بذلك ؛ لأنه يقتضي أن يكون المسلمون مأمورين بمقاتلة كل كتابي إطلاقاً إذا جحد رسالة النبي ، مع أن الآية قد احتوت حرف التبويض « من » الذي لا شك في أنه يعترض ذلك القول الإطلاقي ، ويسوغ صرف الأوصاف المذكورة إلى حالات أوسع تناولا ، ويجعل أمر القتال منوطاً بأسباب أخرى ؛ فعدم تحريم ما حرم الله ورسوله ، وعدم الدينونة بدين الحق ، يتسعان لمعان كثيرة أخرى مثل العدوان على القوافل وإخافتها وسلب أموالها ، مما هو مناقض لكل حق ودين ، ومما كان حالة واقعة عند نزول الآيات والاستنفار إلى غزوة تبوك ، ومثل عدم تقيدهم بقيود الحق والعدل في معاملة الناس وفي أموالهم ودمائهم وحراباتهم المتنوعة مما يأمر به دين الله وأنبيائه ، ويزجر عنه خوف الله واليوم الآخر ، ومما يصح أن يكون تعليلاً مستمراً لحكمة التشريع التي انطوت في الآية الأولى ؛ وقد

(١) الآية الأخيرة هي التي احتوت وصف الرحلة بأنها بعيدة الشقة غير يسيرة النال .

يدعم هذا ما ورد في الآيات التي تلت هذه الآية من إرادتهم إطفاء نور الله ، وصد كثير من رهبانهم الناس عن سبيل الله ، مما يعني وقوفهم في وجه الدعوة وحريتها ونشرها والاستجابة لها ، ومما كان في الغالب حالة واقعة ، ويصح أن يكون كذلك تعليلاً مستمراً لحكمة التشريع أيضاً ؛ ومعلوم أن هذا كان من الأسباب التشريعية لقتال المشركين ؛ هذا إلى أن قولهم ذاك ينقض المبدأ القرآني الحكم في آية الممتحنة ٨ خاصة وفي البقرة ٢٩ - ٤١ و ١٩٠ - ١٩٤ والنساء ٩٠ - ٩١ وغيرها ، من أن الجهاد الإسلامي دفاعي ورد لبني وعدوان سابقين يشملان الطعن في الدين والفتنة عنه والوقوف في وجه حرية الدعوة إليه وممارسة شعائره ؛ فضلاً عن مناقضته كذلك لما هوثبت من النهي النبوي عن قتال غير المحاربين من الكتائب كالرهبان والشيوخ والنساء والأطفال ؛ إذ ينطوي فيه ألا يكون عدم إسلام إنسان ما سبباً لقتاله ؛ وعلى هذا كله فإننا نقرر بشيء من الجزم أن الآيات قد نزلت في قتال الكتائب الذين ييسدو منهم بني وعدوان ، حتى تخضع شوكتهم ويؤمن بغيرهم وعدوانهم بالخضوع التام ، ودفع الجزية للسلطان الإسلامي ؛ وهو ما يتسق مع المبادئ والتقريرات القرآنية بوجه عام . وما دام الأمر كذلك فإن من الممكن القول بجزم أيضاً إن غزوة تبوك التي استنفر إليها بالآيات التي أوردناها آنفاً والتي نزلت تلك الآيات بين يديها قد كانت غزوة مقابلة على عدوان وبني سابقين ؛ وهذا يؤيد ما ذكرته الروايات بوجه عام من قيام حالة الحرب بين المسلمين وسكان مشارف الشام نتيجة لعدوان وبني كان هؤلاء السكان بادئين بهما . وهو ما ذكرته الروايات وأوردنا خبره في مطلع البحث .

ونقول بالمناسبة وبسبب ما رددته بعض المفرضين عن سير وأغراض الجهاد في الإسلام : إن تقرير مبدأ الصلح مع المحاربين الكتائبين^(١) على الجزية قد انطوى على تبرير غاية

(١) من السنة النبوية والراشدية الثابتة أن الجزية أخذت من غير الكتائبين أيضاً مثل المجوس وعبد الكواكب وعلى هذا تكون السنة قد فسرت الآية بحيث يفهم منها أن ذكر أهل الكتاب لا يعني إقصار الجزية عليهم وإنما خصوا بالذكر لأنهم موضوع مباشر حاضر .

الحرب الإسلامية الدفاعية ، وأن نشر الإسلام لم يكن هدفا رئيسيا للقتال أو من أهدافه أو نتائجه ، وإنما هو لخصد شوكة العدو الباغي بشكل من أشكال البغي على ما ذكرناه قبل قليل ؛ ومما لا ريب فيه أن قادة الفتح الإسلامي الأول والخلفاء الراشدين بنوع خاص قد التزموا هذا بكل دقة وإخلاص .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

وغزوة تبوك هذه كانت في السنة الهجرية التاسعة على ما ذكرته الروايات التي لا خلاف في جوهرها ، أي بعد فتح مكة بسنة ، وهي آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ومن أهمها مدى ومعنى وكثرة عدد وبعـد شقة ، إن لم نقل أهمها . ومما ورد عن أسبابها المباشرة أن النبي قد بلغه تجمع جموع كثيرة على حدود الشام تريد غزو الحجاز ردا على حملة مؤتة ، كما ورد أن قبائل العرب في هذه الحدود تجرأت أكثر من ذي قبل على القوافل بعد ما كان من عاقبة حملة مؤتة الحزنة ما كان ؛ فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يجمع أكبر عدد ممكن من المسلمين ويخرج بهم إلى هذه الحدود إرهابا للعدو ؛ فاستنفر الناس واستعانهم بالمال ، ولم يزل بهم محرضا مرغبا ومنذرا منددا حتى تمكن من جمع جيش عظيم بلغ ثلاثين ألفا ونيفا بين مشاة وركبان ، وحتى تمكن من جمع عدة وافرة من السلاح والخيـل والإبل والماشية والطعام والثياب ، بالرغم مما كان من شدة الحر من جهة وعسر الوقت من جهة أخرى ، حتى سمى الجيش بجيش العسرة .

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بجيشه العظيم في شهر رجب فوصل تبوك بعد عشرين يوما وعسكر فيها ولم يتعدها . وقد أرسل منها سراياه مستطاعة ومنذرة . منها سرية إلى دومة الجندل بقيادة خالد بن الوليد . وقد تمكن من أسر ملكها الأكيدر . وأخذ فدية منه ثم استصحبه معه إلى النبي الذي كان رجع إلى المدينة فأسلم على يده . وكتب له كتاب عهد . وقدم على النبي وهو في تبوك يوحنا بن روبة ملك

الأيلة وتعهد بأداء الجزية وأخذ من النبي كتاب عهد . وجاء إلى لقاء النبي يهود بني جنبه وبني عاديا وبني العريض ومدن أذرح والجربا ومقنا فوجدوه قد عاد إلى المدينة فلتحقوا به إليها وأعلنوا له خضوعهم وتعهدوا بأداء الجزية وأخذوا منه كتب عهد وأمان^(١) .

وهكذا يصح أن يقال إنه كان لهذه الحملة نتائج عظيمة المدى حيث تم بها الدعوة الإسلامية الإحاطة بجميع جزيرة العرب إلى تخوم الشام ودخول كل ذلك تحت راية الإسلام وسلطان النبي وحكمه . وإرهاب سكان مشارف الشام الذين تكررت أنباء تجمعهم وتضامنهم مع الروم وحوادث اعتدائهم . وكانت إلى ذلك تمهيداً للخطوات التاريخية الخالدة التي خطاها خلفاء النبي وتم فيها ما تم من فتح باهر وسلطان عزيز وأعلام منشورة في ربوع الأرض المختلفة .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

ولقد جاء في سورة التوبة مقاطع عدة حول هذه الغزوة دون ذكر اسمها ، عدا المقطعين اللذين نقلناها سابقا ونوردها فيما يلي لأن فيهما بعض الصور والمشهد في صدد تأليف الحملة :

١ — عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ . لَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَلَكُمْ^(٢) يَبْغُوا نَفْسَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ

(١) تفصيل غزوة تبوك في ابن سعد ج ٣ ص ٢١٨ - ٢٢١ وابن هشام ج ٤ ص ١٦٩ - ١٩٤

(٢) لسعوا سعياً حثيثاً بينكم بالإفساد والفتنة .

حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ . وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا تَنْفِتْنِي
أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ... (١)

٤٩ - ٤٣

٢ — قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ
يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ . قُلْ
أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ . وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ
تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ
كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ ...

٥٤ - ٥٢

٣ — فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا
يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَإِنْ
رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن
تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ .
وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ . وَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا
فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ . وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ
وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقُعْدَةِ .
رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ...

٨٧ - ٨١

٤ — وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ (٢) مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى

(١) تقرأ مع هذه الآيات الآيات السابقة لها ، والتي نقلناها قبل ، وهي الآيات ٣٨ - ٤٢ لأنها سلسلة واحدة .

(٢) أي المعتذرون .

الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . يَسْتَأْذِنُونَ إِيَّاكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى عِلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ...

٩٠ - ٩٤

٥ - لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ...

١١٧ - ١١٨

٦ - مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ...

١٢٠

وبعض مضامين المقاطع يلهم بقوة أن بعضها نزل في أثناء الرحلة ، بقصد تسليية النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ويستلهم منها أن الاستنفار إلى الغزوة كان في موسم الصيف واشتداد الحر ، كما كان في وقت ضيق وشدة ؛ وأن السفارة قد صعبت على فريق من المسلمين المحلصين فضلا عن المنافقين ، وقوبلت بشيء من الفتور والتشاقل حتى

اقتضت الحكمة التشديد في الحث والإنذار ، وقد استجاب المخلصون وفيهم من صعبت عليه السفارة ، بادي ذي بدء ، ولم يتخلف من سكان المدينة إلا ثلاثة ؛ أما المنافقون ، لا سيما أغنياؤهم ورؤساؤهم ، فقد اعتذروا للنبي بأعذار كاذبة ، وواهية ، واستأذنوه بالتخلف بعد أن حاولوا تثبيط عزائم الناس بحجة الحر وأخفقوا ، فأذن لهم ؛ ومع العتاب الحبيب الذي عوتب به في الآيات على الإذن لهم ، والذي إنما كان بقصد فضح كذبهم ، يبدو من الآيات أنه كان هناك مبررات لهذا الإذن ، إذ أريد منه تفادي دسهم وكيدهم بين المسلمين ، في أثناء الرحلة ، لا سيما وبينهم وبين كثير من المسلمين روابط القرى والمصلحة والألفة ؛ وقد أراد بعضهم أن يساعد بماله دون نفسه فلم يقبل منهم ذلك زيادة في النبذ والإهمال ؛ وقد استنفر النبي صلى الله عليه وسلم البدو المسلمين أيضاً ، فسارع فريق منهم إلى الاعتذار ؛ والاستئذان في التخلف ، كما تخلف آخرون بدون اعتذار ولا استئذان ، مع قدرة هؤلاء وأولئك ؛ وقد كان لبعضهم مع ذلك موقف رائع جداً ، وكانوا فقراء ، فجاؤوا إلى النبي يعرضون أنفسهم ، ويطلبون معونته على الرحلة ، فلما قال لهم إنه ليس في إمكانه معونتهم تولوا باكين حزناً على حرمانهم من الاشتراك في الجهاد النبوي ؛ ومشهد المتخلفين الثلاثة رائع حقاً هو أيضاً ، إذ يستفاد من الآية ١١٨ وما ورد في صدها من روايات أنهم من المخلصين ، وأن تخلفهم كان كسلاً ، وأنه لما عادت الحملة قوبلوا من النبي صلى الله عليه وسلم والمجاهدين بالإهمال والمقاطعة حتى قاطعهم نساؤهم ، وظلوا مقاطعين نحو أربعين يوماً لا يكلمهم أحد ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، فلجأوا إلى الله يستغفرون ويعلنون توبتهم فتاب عليهم .

وعلى ضوء الآيات الأخرى يتبادر أن الآية ١٢٠ هي عتاب وحث بالنسبة للمستقبل ، وأن المعقول أن يكون فيها كلمة مقدرة ، لتكون الجملة الأولى هكذا « ما كان لأحد من أهل المدينة ... » وبذلك يزول ما توهمه من تخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إطلاقاً ، مع تقرير الآيات بصراحة اشتراك جميع المخلصين القادرين من أهل المدينة عدا الثلاثة

ومع ورود حرف التبويض في الآية ٩٠ التي تحكي اعتذار الأعراب ، وما في ذلك من دلالة على أن منهم من اشترك ولم يتخلف .

وتخلف الأعراب والمنافقين الذي حكته آيات سورة التوبة والحملات الشديدة عليهم بسببه قد يوم أن العدد المروي لجيش تبوك الذي زحف به النبي صلى الله عليه وسلم على رأسه مبالغ فيه كثيراً . ولقد جاء في سيرة ابن هشام هذه العبارة (إن عبد الله بن أبي كبير المنافقين ضرب أسفله أسكر النبي صلى الله عليه وسلم وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين فلما سار رسول الله تخلف عنه فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب ^(١)) فتمسك بها المستشرق كياتاني وأخذ يعظم من شأن وعدد المنافقين ويشكك في عدد الجيش المروي . غير أن هذا وذاك في غير محلهما . فالآيات القرآنية صريحة بأن المتخلفين من الأعراب والمنافقين كانوا من الأغنياء وأولى الطول . وهؤلاء دائماً محدودو العدد . وعبارة ابن هشام تحمل الشك الصريح في المدى . وقد روي في الوقت نفسه أن عدد المتخلفين من المنافقين كان بضعة وثمانين رجلاً ^(٢) . وفي سورة التوبة آيات تحكي ما كان من شدة خوف المنافقين واعتذارهم وتزلفهم وأيمانهم ما فيه الدلالة القوية على ما صار إليه شأنهم من ضعف وعددهم من قلة كما ترى فيما يلي :

١ — وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَفْرَاتٍ أَوْ مَدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ . . .

٥٧ - ٥٦

٢ — يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ . يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي

قُلُوبِهِمْ قُلْ أَسْتَهِزُّوْا إِنَّا لِلّٰهِ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّٰهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعْدِبُ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ...

٦٦ - ٦٢

٣ — يَخْلِفُونَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا يَفْعَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللّٰهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ...

٧٤

وذكر تخلف الثلاثة من المخلصين دليل على أنه لم يتخلف من مساهمي المدينة المخلصين القادرين غيرهم ؛ وإذا لوحظ أن المدينة قد اكتظت بالنازحين من مكة وغيرها بعد الفتح ، بدا احتمال وفرة المشتركين من سكانها وفرة كبيرة ، قويا جداً كما هو المتبادر . وقد نهينا إلى أن الأعراب المعتذرين والمتخلفين ليسوا هم جميع الأعراب ، بدليل حرف التبويض ؛ ونضيف إلى هذا أنه ورد في سلسلة الحملة على هؤلاء آية ثني على المخلصين منهم كما ترى :

«وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا لِلَّهِ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَّاتِ الرَّسُولِ إِلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...»

٩٩

مما يصح أن يكون قرينة أخرى على اشتراك هذا الفريق المخلص الذي نرجح أنه كان وافر العدد ، إذا ما ذكرنا أنه اشترك منهم عدد كبير في الفتح المكي ، وأنهم أو أن غالياتهم العظمى لم تندمج في فتنة الردة ، بل كانوا في فصائل قمعها على ما ذكرته الروايات : ولقد انطوى في الآية (٩٢) من سورة التوبة مشهد رائع حكى ما كان من

بكاء وحزن الذين لم تتيسر لهم أسباب الاشتراك في الحملة من الأعراب حيث يدل هذا على ما كان من حرص الفريق المخلص من الأعراب على الاشتراك في الحملة وشدة رغبتهم فيه .

وفي سورة التوبة آية متصلة بمشاهد الإعداد للحملة جديرة بالتنويه وهي هذه :

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . »

٧٩

والآية تتضمن تنديداً بالمنافقين لأنهم كانوا يلزمون المتبرعين من المخلصين بالصدقات . فيقولون عن من يتبرع من القادرين إنه يبتغي الحمد والزهو . وعن من يتبرع من الفقراء الذين كانوا يتبرعون بقليل حسب جهدهم إن الله لغني عن تبرعهم . والروايات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب من المسلمين أن يتبرع كل منهم بما يستطيع لغزوة تبوك وحث على ذلك مرة بعد مرة بسبب كثرة ما تحتاج إليه من وسائل ودواب ومؤونة وما كان يحيق في ظرفها من شدة وعسرة ، فاستجابوا وأخذوا يتبرعون كل بما قدر عليه . ومنهم من تبرع بمبالغ كبيرة مثل عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي روي في الأحاديث الصحيحة في صدره روايتان : واحدة تذكر أنه أتى بألف دينار فنثرها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ يقلبها ويقول : ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم وواحدة تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم حث على التبرع لجيش العسرة فقام عثمان فأعلن تبرعه بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ثم كرر النبي حثه فقام فأعلن تبرعه بمائتي بعير بأحلاسها وأقتابها فبلغ تبرعه ثلاثمائة بعير^(١) .

(١) روى الحديثين الترمذي . وليس هناك ما يمكن الاستناد إليه للقول : إن الألف دينار هي قيمة الثلاثمائة بعير أم أن عثمان رضي الله عنه تبرع بتلك وهذه معاً .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

هذا ؛ ومما تجدر الإشارة إليه أن الروايات قد ذكرت دون خلاف - حتى ليكاد يصح أن يقال إن ما ذكرته يقينى - أن النبي صلى الله عليه وسلم جهز قبيل وفاته جيشاً بقيادة أسامة رضي الله عنه بقصد تسييره إلى مشارف الشام ، وبتعبير أدق : إلى البلقاء ، وأنه كان فى هذا الجيش كثير من كبار الصحابة وفى مقدمتهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم مات قبل سيره ، فسيره خليفته الأول رغم ما كان يحيط به وبالإسلام من مشاكل وأخطار ، حرصاً على تنفيذ خطة رسول الله ، مما يمكن أن يلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد الانتفاع بما تم له من توطيد هيبة الإسلام فى مشارف الشام ، وتمهيد السبيل لحرية الدعوة بإخضاع أمراء تلك المشارف فى غزوة تبوك ، فجهز هذا الجيش ليصل إلى أبواب الشام - البلقاء - ويوطد هذه الهيبة ويمهد هذه السبيل أيضاً ، وانتداب كبار الصحابة فى الجيش ذو مغزى عظيم فى هذا الصدد كما هو المتبادر . ولقد ذهب هذا الجيش بدون أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لمشاغلها الجديدة العظمى بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عاد ؛ ولم يكد ينتهي أبو بكر رضي الله عنه من إخماد فتنة الردة حتى جهز الجيوش وعهد بقيادتها إلى قواد معروفين ، وسيرها فى الوجهة التى سير فيها النبي صلى الله عليه وسلم حملة مؤتة أولاً ، ثم سير حملة أسامة ، فكان لها ما كان من الفتوحات الباهرة وتوطيد سلطان الإسلام ونشر رايته فى بلاد الشام نتيجة لذلك .

فغزوة تبوك والحالة هذه - وإن كانت امتداداً لحالة الحرب التى بدأت منذ السنة الهجرية السادسة - لا نعدو الحق إذا قلنا أنها كانت تهدف فوق ذلك - وقد حشد لها ذلك الحشد العظيم وتبعها جيش أسامة رضي الله عنه ثم جيوش الفتح - إلى أن تكون عنواناً لما بلغه الإسلام فى الجزيرة تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم من قوة وسعة وانتشار يراه سكان مشارف الشام فيرهبون ويقفون عند حدهم ، وقارعاً لأسماع

من ورأئها بالنبي ودعوته العظمى ؛ بل لعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إنها كانت كما قلنا آنفاً تمهيداً للخطوات التاريخية الخالدة التي خطاها خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم وتم بها ما تم من فتح باهر ، وسلطان عزيز ، وأعلام منشورة في ربوع الأرض ؛ بالرغم مما يحول لبعض المستشرقين^(١) من تقليل شأنها وأغراضها وتقاؤها ، ومن زعمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يخطر بباله أن يمد دعوته إلى أفق خارج جزيرة العرب ، وإنكارهم رسالات النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الأرض ، وقولهم إن الروايات والأخبار والأقوال مما حمل على السيرة النبوية حملاً .

فالأوامر القرآنية بتبليغ الرسالة للناس والكتابين متكررة ، والآية ٦٧ من المائدة خاصة ، وقد نقلناها في مناسبة سابقة ، قوية جداً في حث النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ؛ وقد دان الحجاز كله تقريباً بدوه وحضره بالإسلام ، بل أخذت وفود الأنحاء القاصية من الجزيرة تفد إلى المدينة وتدين به قبيل السفر إلى تبوك ، وسرايا النبي صلى الله عليه وسلم قد تكررت ، وقرعت إحداها أبواب الشام قبل ذلك ، فليس هناك ما لا يتسق مع منطق الحوادث والظروف والتوجيهات القرآنية ويبرر مزاعم المستشرقين .

(١) المستشرق كايتاني في كتابه تاريخ الإسلام .

فصل في الجهاد ووقائعه تمهيد

آيات الجهاد مدنية - ليس في القرآن المكي إلا نواة - تعليل ذلك -
حدود التشريع الجهادي في القرآن - كثرة آيات الجهاد ودلالاتها - الآيات
الجهادية نوعان : دعوة ووقائع - أسلوب ومدى كل منها - روعة الأسلوب
وأثره - الوقائع الجهادية وطبيعتها - شمول الدعوة للجهاد بالمال - الجهاد
الإسلامي قام على التطوع - الجهاد الإسلامي استهدف الدفاع ورد العدوان
وضمانة حرية الدعوة واستجابتها فقط - قطعية التزام النبي هذا الهدف في
التطبيق - مباحث الفصل .

الصورة الأولى

إذا استثنينا آيات سورة الشورى هذه :

« وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا
فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ
فَأُولَئِكَ مَاعْلَمُهُمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
الْأُمُورِ . . . »

٣٩ - ٤٣

لا نجد في القرآن المكي شيئاً عن الجهاد والدعوة إليه وواجب الدفاع عن الإسلام
والمسلمين بالقوة ؛ على أن هذه الآيات ليست في الحقيقة دعوة ، وإنما هي في معرض
وصف أخلاق المسلمين التي منها الانتصار من البغي ، وعدم الحرج عليهم في دفع العدوان
بمثله ؛ وعلى هذا فكل ما يمكن أن يقال فيها إنها تواة لمبدأ الجهاد الإسلامي الذي هو
دفاع ورد بني وعدوان فحسب ، جاءت بأسلوب الوصف والحث والتنويه والوعظ ،
كما هو شأن أسلوب القرآن المكي في صدد المبادئ الإسلامية .

وبناء على هذا فإنه يصح أن يقرر أن جميع الآيات القرآنية الواردة في الجهاد تشريعاً ودعوة ووقائع هي مدنية ، وهذا طبيعي ؛ فإن المسلمين قبل الهجرة لم يكونوا من حيث العدد والقوة في الموقف الذي يساعدهم على قتال حتى لدفع الظلم والأذى ، فقد كانوا في مكة يتحملون الأذى صابرين محتسبين ، وما فتئت الآيات المكية تحثهم على الصبر والدفع بالتي هي أحسن مع الوعد بالنصر في النهاية ، واضطر كثير منهم إلى الهجرة إلقاء للفتنة عن دينهم ، وفراراً بدمهم ، على ما مر تفصيله في بحوث سابقة . وإذا كان بعض الأقوياء من المسلمين حاولوا أحياناً مقابلة العدوان والإساءة بمثلهما مما استلهمناه من بعض الآيات في مبحث محنة الأذى والفتنة ، فإنما كان ذلك محاولات شخصية وفردية .

فلما بايع الأوس والخزرج النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، ثم على الدفاع ، وتمت الهجرة النبوية ، تبدل الموقف ، وأصبح النبي صلى الله عليه وسلم في عاصمة مستقلة ومحيط قائم بذاته مستغن عن غيره ، للإسلام فيه صوت قوى ، وشيوع غير ضيق ؛ وحينئذ كانت الخطوة الجديدة إلى مقابلة مشركي مكة على ما كان منهم من ظلم وبغي ظلالا مستمرين في الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام ، وأذى وفتنة لمن لم يستطع الإفلات من المستضعفين المسلمين على ما ذكرناه كذلك في المبحث المذكور آنفاً .

الصَّوْرَةُ الثَّانِيَّةُ

وتتمثل هذه الخطوة بثلاثة حدود . الأول في آيات سورة الحج التي تعلن أن الله يدافع عن الذين آمنوا وأن المسلمين الذين يقاتلون هم في موقف المظلوم وأنه أذن لهم بالدفاع والانتصار وأن الله قادر على نصرهم وهذا نصها :

« إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ

لَهَدَمْتُ صَوَامِعُ وَبَيْعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَّجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ
اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ . . .»

٣٨ - ٤١

والثاني في آيتين في سورتي البقرة والأنفال متقاربتين نصاً تأمران بقتال المشركين
البادئين بالعدوان والظلم إلى أن ينتهوا عن عدوانهم وتصبح حرية الدعوة مضمونة ويكون
الدين كله لله ، كما ترى في إحداها هذه :

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ^(١) وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ
إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . . . »

البقرة ١٩٣

والثالث في آيات النساء والتوبة والمنتحنة التي تأمر بعدم قتال المسلمين والحياديين
والمعاهدين ، وباحترام عهد المعاهدين ما احتراموه ، وبقتال الناكثين والغادرين والطاعنين
بالدين والذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ولا يؤمنون بالله
واليوم الآخر ، وتشجع على البر بالمسلمين ، وهي هذه :

١ — إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ
صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ
فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ آغَازَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَّمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ
لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا . . .

النساء ٩٠

٢ — إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ
أَحَدًا فَأَتَمُّوْا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . . . التوبة - ٤

(١) إن بعض المفسرين قال : إن كلمة « فتنة » بمعنى شرك ، وإن الأمر في الآيتين بقتال المشركين إلى
ألا يبقى شرك . وفي القرآن نصوص تخالف هذا من الجهة اللغوية ومن الجهة التشريعية ، كما أن في
السيرة النبوية ما يخالفه مما سيرد في هذا الفصل بعد .

٣ — كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُّوْا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُونَ . اُشْتَرَوْا بِبَايَةِ اللَّهِ مِمَّا قَلِيلًا فَوَسَدُوا
عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ
فِي الدِّينِ وَنُقُصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ
وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . أَلَا
تُقَتِّلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ... التوبة ٧ - ١٣

٤ — قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ
يَدٍ وَهُمْ صَغِيرُونَ ...

٥ — لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ
دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ
الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ...

المتحنة ٨ - ٩

ولفت النظر إلى أن هذه الآيات مما نزل في مختلف أدوار التنزيل ، أي في أوائل
وأواسط وأواخر العهد المدني وأن بعضها متنسق مع بعض في الروح والحكم والمدى ، مما
يصح أن يقال معه إنها مبادئ أو حدود محكمة .

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ

والآيات القرآنية في موضوع الجهاد قد شغلت من حيث كثرتها حيزاً كبيراً يكاد يبلغ نصف القرآن المدني ؛ وفي هذا دلالة على أن هذا الموضوع كان من أهم أدوار السيرة النبوية في العهد المدني ، أو أهمها .

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم محوطاً من جهة باليهود ، ولهم الحصون والقرى والمزارع والمال والعدة ، والمركز القوى المتغلغل في حياة العرب ؛ وكان من جهة ثانية على عداء شديد مع أهل مكة بقيادة زعمائها الأقوياء ، وكان العرب الآخرون من جهة ثالثة ينظرون إلى هؤلاء وأولئك فيرون أن النبي ما يزال ضعيفاً منعزلاً مع مسلمي الأوس والخزرج ومهاجري مكة القليلين ، فكان منهم من يقف موقف المتربص ، ومنهم من يقف موقف المناوي ومنهم من يجرؤ على الغدر والخيانة ليتقرب بإثمه إلى مشركي مكة أو يهود المدينة ، وكل هذا كان يستدعي الحرب والدفاع والتأديب والتنكيل والبعوث والسرايا والغزوات بصورة مستمرة ؛ ويكفيك أن تعلم مثلاً أن عدد الغزوات والسرايا والبعوث قد بلغ خمساً وستين ، قاد النبي صلى الله عليه وسلم منها بنفسه سبعاً وعشرين ، وكل ذلك في نحو عشر سنين - لتقدر خطورة الدور الذي كان للجهاد في هذا العهد ، وتفهم حكمة شغل موضوعه ذلك الحيز الكبير من القرآن .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

والآيات في هذا الموضوع على نوعين : نوع تضمن دعوة عامة إلى الجهاد بالنفس والمال ، وحث عليه وتثبيت وترغيب فيه ، وتنويه بالمستجيبين ؛ وتنديد بالملكشين والقاعدين ؛ وقد تضمنت آيات هذا النوع مبادئ عامة في الجهاد وأهدافه والاستعداد له ، جلية الشأن مستمرة التلقين والمدى والإلهام في كل نزاع بين المبادئ القويمة والفاسدة ، وفي كل صراع بين الحق والباطل ، والضعيف والقوي ، والحرية والاستعباد ؛

وتضمنت كذلك صوراً لمواقف المسلمين من الدعوة إلى الجهاد ، وما كان من أزمات حادة في سبيل ذلك ، ونوع ثانٍ أشير فيه إلى وقائع الجهاد النبوي البارزة وما كان فيها ؛ ومن الجدير بالتنبيه أن آيات النوع الثاني قد نزلت بعد الوقائع ، مما يسوغ القول إن الوقائع قد كانت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ورأيه ، وبدون وحي قرآني كما هو شأن أكثر أحداث السيرة النبوية ، وإنها جاءت مؤيدة لكل ما صدر من النبي تقريباً ، وفيها ما يلهم أن ما كان إنما كان بإلهام رباني ، كما أنها لم تكن قصصاً عن الوقائع وسيرها ونتائجها ، بل كانت بمثابة تعقيبات عليها قصد بها التشريع أو التنبيه أو التنويه أو التنديد أو الطمأنة أو التسكين أو الوعظ الخ مما اقتضته ظروف كل واقعة وسيرها ؛ بل إن هذه النواحي هي البارزة فيها أكثر من مشاهد الوقائع وسيرها ؛ وقد تضمنت مثل النوع الأول مبادئ عامة في الجهاد أيضاً ؛ وإنه ليصح أن يقال إن ما جاء في القرآن من الإشارات إلى وقائع لم يقصد به غير هذه النواحي ، ولعل هذا مما يفسر السكوت عن وقائع جهادية مهمة روتها الروايات حتى كانت يقينا مثل غزوات مؤتة والين وفتح الطائف ، ويفسر الاكتفاء كذلك بالإشارات الخاطفة الغامضة إلى وقائع مهمة أخرى مثل فتح مكة وخيبر والقرى اليهودية الأخرى ، وماتم في أثناء غزوة تبوك من شؤون .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

وكل من يتمعن في الآيات القرآنية من كلا النوعين يقف حالا على المعجزة القرآنية الخالدة فيما يجده ، أولاً : من تلك المبادئ العامة التي تركزت فيها كل مبادئ الحق والعدل والرأفة والتسامح مع القدرة ، وثانياً : من الأسلوب الأخاذ ، والحيوية الرائعة ، والإشراق الباهر وبما يمكن أن يوجبه من الإيمان النافذ المستولي ، والذي من شأنه أن يأخذ بالمرء صاعداً به إلى ما فوق مستوى المادة ، وأن يشعره بقوة الإيمان العميق الفياض الذي تمتلئ به النفس وتسعد فيه ، وهي بسبيل نصرته الحق والحرية والمبادئ السامية ،

مهما أحاط بصاحبها من شظف وحرمان وتعب وبؤس واستهدف له من مخاطر ومصاعب وموارد هلاك وفناء .

وليس من ريب في أن هذا هو ما حصل في نفوس السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وسجل الله رضاه عنهم ورضاءهم عنه في القرآن ، فجعلهم - وهم الفئة القليلة المحوطة بالخصوم الأقوياء بالعدة والعدد والمكر والدسائس والتي في صفوفها أناس ضعفاء أو منافقون ومرضى قلوب - ينتصرون في جزيرة العرب أولا ، ثم يخرجون بعد ذلك إلى الدنيا لا يملكون إلا هذا الإيمان ، وما يوحيه من طمأنينة بنيل إحدى الحسنين : النصر أو الشهادة ، وما يبثه من قوة زاخرة في النفس ، واستهانة بالموت في سبيل المثل الأعلى الذي تشبعت به قلوبهم ، فيضربون ضرباتهم الجبارة ، ويأتون بالمعجز الخارق ، ويسيطرون على السكون ، فتبقى آثار ذلك كله على مدى الدهر قوية وهاجة النور ، داوية الصوت ساطعة النور .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

وفي النوع الأول فرض الجهاد على المسلمين فرضا ، وعبر عن ذلك بأنه كتب عليهم « كتب عليكم القتال » كما استعمل نفس التعبير في فرض الصيام ؛ وبذلك توطد الجهاد في الإسلام كركن من أركانه إذا لم يقم به المسلمون حينما تدعو الحاجة إليه وقعوا في الإنثم ضمن المبادئ العامة التي وضعت له ، وفي نطاق الحدود التي رسمت له في الآيات القرآنية .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

ووقائع الجهاد التي أشير إليها في القرآن قد انحصرت في وقائع كبرى وقعت بين جمهرة من المسلمين وجمهرة من المشركين أو اليهود ؛ منها ما أشير إليه باسمه وهو وقعتان : بدر وحنين ، ومنها ما أشير إليه بدون تسمية وأجمعت الروايات على توضيحها وهو

وقائع أحد والخندق ويهود بني قينقاع والنضير وقريظة وخيبر والحديبية وفتح مكة وتبوك ؛ منها ما بسطت مشاهدته بسطاً ما ، ومنها ما أشير إليه إشارات خاطفة على حسب ما اقتضته حكمة التنزيل وأهدافها .

وهذه الوقائع وما تخللها من غزوات وسرايا وبعوث صغيرة وكبيرة لم تكن أهميتها على حسب خطورة سير الحرب فيها وعدد المقاتلين والقتلى والجرحى والأسرى والغنائم ، إذ كان جلها في الحقيقة موضعياً قليل الخطورة من هذه الناحية ؛ وإنما كانت أهميتها من حيث أنها مظهر عملي للصراع الهائل الذي كان بين التوحيد والشرك ، والإيمان بالرسالة النبوية وجحودها ، والحرية والصد والعدوان ، وهو الصراع الذي انتهى بانتصار حرية الدعوة ودخول الناس في دين الله أفواجا .

الصورة الثامنة

ولم تقتصر الدعوة القرآنية إلى الجهاد على الناحية البدنية والحرية ، بل تناولت الناحية المالية أيضاً ، فالمال عصب الحرب ، وليس من الميسور الاضطلاع بأعبائها المتنوعة إلا بالمال ؛ بل إن الأرواح التي توهب للجهاد وتقدم ضحية فيه أيسر وجوداً وأسرع استجابة إليه ؛ وقد كان من هذا مثل رائع حكته إحدى آيات سورة التوبة :

« وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ... »

٩٢

فكان من الطبيعي والحالة هذه أن تتضمن الآيات دعوة إلى الإنفاق في سبيل الله وحضاً عليه ؛ ولقد تخلل آيات الجهاد نفسها كثير من مثل تلك الآيات المناسبة والملازمة التامتين ، وأطلق تعبير الجهاد على الجهاد البدني والمالي معاً ، بل قدم الثاني بالذكر في كل موضع ذكر فيه الاثنان تنوياً بخطورته ؛ ولا تكاد تقرأ مجموعة من الآيات في صدد الجهاد والاستعداد له إلا ووجدتها في سياق واحد مع آيات الحث على الإنفاق

في سبيل الله ، بأسلوب قوي نافذ ومستول من شأنه أن يملأ النفس الطيبة الحسنة إيماناً ورضاء وإقداماً ، ويجعلها تخرج عن ما لها طائفة مختارة . ولقد تخللت الآيات حملات لاذعة ، ووعيد قاصم بأسلوب قوي رهيب على البخلاء الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، والأغنياء الذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ؛ وقد كادت هذه الحملات أحياناً تكون رعداً وبرقاً ومطراً من نار محرقة وعذاب شديد تقشعر الجلود لسماعها ، كما أن أكثر آيات النفاق والمنافقين الواردة في صدد الجهاد والتي نقلناها سابقاً وردت متخللة في أثناء الإشارات إلى الجهاد ؛ فإن جبن المنافقين وقبض أيديهم ، وتهربهم وتثبيطهم ، وتخلفهم واعتذارهم إنما كان بسبب هذه المناسبة ، وقد رأيت ما كانوا هدفاله من حملات لاذعة .

الصورة التاسعة

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى نقطتين :

الأولى : إن الحث على الجهاد بالمال والنفس ، وعذر الذين لا يجدون ما ينفقون من الفقراء ؛ والحملة على القادرين إذا ما تهربوا وشحوا ، يسوغ القول إن السلطان الإسلامي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قد وصل إلى درجة تجهيز الحملات ، وتموين المجاهدين بالسلاح والمال والمعدات الأخرى ، وإن الجهاد كان يقوم على التطوع والتبرع بدافع الإيمان والرغبة في التقرب إلى الله وطاعة الرسول ، وكان المجاهدون هم الذين يجهزون أنفسهم بالسلاح والركائب والزاد ؛ وكل ما في الأمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفق من الفيء والغنائم والصدقات - الزكاة - في هذا السبيل ، ويساعد الفقراء على التجهيز بقدر ما كان نصيب بيت المال يتسع له ، على كثرة ما كان يطلب منه من ناحية ، وقلة الوارد من ناحية أخرى .

وهذا يفسر لنا حكمة تقسيم غنائم الحرب على خمسة أقسام ؛ قسم يخص لبيت المال وينفق منه على الطبقات المحتاجة وفي سبيل الله ، والأقسام أو الأخماس الأربعة توزع على

المجاهدين ، كما تفسر لنا حكمة حصر النبي ، أي ما يدخل في حوزة النبي دون قتال ، في الطبقات المحتاجة وسبيل الله كذلك .

أما النقطة الثانية فهي أن الجهاد لم يستهدف بصورة رئيسية إجبار الناس على الإسلام ؛ فمن ناحية التعاليم القرآنية قامت الدعوة على مبدأين (١) الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال فيها بالتي هي أحسن (٢) عدم الإكراه في الدين ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها .

والآيات التي تضمنت تقرير هذين المبدأين كثيرة جداً ، أوردنا وشرحنا كثيراً منها فيما سبق ، وسنورد جملة منها في مباحث هذا الفصل ؛ ونكتفي بإيراد ما يلي هنا :

١ — لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ...

البقرة ٢٥٦

٢ — قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْخُلُقُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ...

يونس ١٠٨

٣ — ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ...

النحل ١٢٥

وأما من ناحية سير الجهاد ووقائعه فقد كانت ضمن المبادئ القرآنية ؛ فكل سرية أو بعث أو غزوة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت رداً على عدوان وانتقاماً منه ، أو دفعاً لأذى ، أو تنكيلاً بناكث أو غادر ، أو تأديباً لبغاة أشرار ،

أو ثأرا لدم إسلامي أهدر ، أو ضمانا لحرية الدعوة والاستجابة للمهددين أو المعطلتين
بغياً وعدواناً .

ولا يمكن أن يكون قد وقع من النبي صلى الله عليه وسلم نقض للمبادئ التي قررها
القرآن وبلغها النبي بطبيعة الحال ، والتي استمرت تترى في الآيات القرآنية في مختلف
أدوار السيرة النبوية في عهدها إلى آخرها ؛ ولقد وقع مرة أن حصل سوء تفاهم بين
قائد إحدى السرايا وبعض العرب الذين أظهروا الإسلام أو المسالمة ، فظن القائد
أنما كان ذلك خدعة فلم يقبل منهم وقتل بعضهم وغنم ماشيتهم ، فغضب النبي أشد
الغضب ، ولم يلبث أن أوحى بآية قوية رائعة فيها عتاب على عدم قبول ظواهر الناس
كما ترى فيها :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ
أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ
كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ... »

النساء ٩٤

ولقد كان بعض جماعات من المشركين يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعاهدهم
على المسالمة وحسن المعاملة والتعايش السلمي فيجيبهم إلى طلبهم ويعقد معهم عهداً
ومواثيق . فشددت الآيات بالوفاء لهم ماداموا محافظين على عهدهم غير غادرين به ولا
خمازين فيه . ولقد كان بعض جماعات من المشركين يلتزمون الحياد في الحرب التي تنشب
بين المسلمين وقومهم فنبه القرآن إلى أنه لا سبيل عليهم مما تضمنته الآيات التي أوردناها
آنفاً . ولم يرد في الروايات خبر وثيق بأن النبي صلى الله عليه وسلم رفض طلب صلح أو
عهد أمان من أعداء محاربين ، كما أنه لم يرد خبر بأنه قاتل أناساً مسلمين وحياديين دون
سبب مبرر بدا منهم ، مما هو متسق مع المبادئ والتلقينات القرآنية التي لا شك في أنه
أشد المسلمين وأصدقهم تمسكاً بها ، والتزاماً لها .

الصُّورَةُ الْعَاشِرَةُ

وعلى ما تقدم سنصنف الآيات على حسب النوعين اللذين أشرنا إليهما ، وسيكون
الفصل والحالة هذه مؤلفا من مبحثين :

الأول : الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس ، ومواقف المسلمين منها .

الثاني : الوقائع الجهادية وسيرها ونتائجها .

المبحث الأول

الدعوة إلى الجهاد ومواقف المسلمين منها

الطريقة في استعراض الآيات - آيات سورة الحج . مداها - مبادئ وأوامر
وصور جهادية من سورة البقرة - سلسلة في الحث على الإنفاق في سبيل الله
ومبادئه وما فيها من صور - مبادئ وصور من سورة النساء - من سورة
المائدة - من سورة الأنفال - من سورة براءة - من سورة محمد - مبادئ
فيما يقع من قتال بين المسلمين من سورة الحجرات - مبادئ وصور من سورة
الحديد في موضوع الإنفاق في سبيل الله - مبادئ وصور من سورة المتحنة
ومن سورة الصف .

الصورة الأولى

إن آيات الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس متصلة بسياق واحد على الأكثر، ولذلك
فإننا سنورد الآيات متسلسلة على حسب ترتيب السور المدنية في المصحف، ونشرح مداها
وما تنطوي عليه من مبادئ بدون تفريق؛ ونريد أن نستثني من هذا الترتيب آيات
سورة الحج ٣٨ - ٤١ التي أشرنا إليها قبل قليل؛ فإن هذه الآيات هي أولى الآيات التي
نزلت في مبادئ الجهاد على ما ذهب إليه الجمهور وما يلهمه مضمونها وصيغتها، وقد
تضمنت مبدأ أساسيا من مبادئ الجهاد، كما أن السورة مما اختلف في مكيتها ومدنيته
وإن كان المتفق عليه أن الآيات مدنية .

والآيات صريحة الدلالة على اعتبار المسلمين في موقف المظلوم المبغي عليه، وتقرير
حتمهم على الانتصار والدفاع؛ وهذا هو أحد الحدود الأساسية للجهاد في الإسلام كما أشرنا
إلى ذلك في التمهيد؛ وجميع الآيات الجهادية ظلت في نطاق هذا الحد كما أنه لا ريب في أن
النبي صلى الله عليه وسلم التزمه بدقة تامة .

ويلفت النظر في الآيات إلى نقطتين جليأتني الشأن والتلقين المستمر، أولاهما تعليل

المبدأ وهو حق المبني عليه بالدفاع ، وأن دفاع الناس عن أنفسهم وحريتهم ونضالهم في سبيل دفع الأذى عنهم هو من السنن القويمة التي لا بد منها في حياة البشر والاجتماع ، وضمانه الحريات الدينية وغير الدينية ؛ وثانيتها تقرير أن تمكين المسلمين المبني عليهم في الأرض ، ونصرهم على ظالمهم والمعتدين عليهم ، من شأنهما تيسير إقامة حكمهم الصالح على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ينطوي فيه جماع صفات هذا الحكم وضروراته .

وإليك الآن الآيات الأخرى المتصلة بهذا المبحث متسلسلة كما قلنا على حسب ترتيب سورها :

الصَّوْرَةُ الثَّانِيَّةُ

(١) في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ . وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ . . »

١٥٧ - ١٥٤

وقد احتوت إعدادا للمسلمين لما يمكن أن يصابوا به من خسائر وآلام ، وحثهم على الصبر والتحمل وتبشيرهم بالعاقبة ، وطمأنتهم بأن الذين يقتلون في سبيل الله أحياء مكرمون عند الله .

والآيات تلهم أنها نزلت عقب حادث صدام بين فريق من المسلمين وآخر من الكفار ، وأن بعض المسلمين قد استشهد فيه ، وأنه كان لذلك أثر مريع إلى حد ما في نفوس بعضهم أو ذويهم فاقترضت الحكمة نزول الآيات تستهدف ما قرناه

من أهداف متصلة بمعنى الدعوة للجهاد والإعداد له ، بهذا الأسلوب القوي النافذ إلى أعماق النفس .

(٢) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَأَقْتُلُوهُمْ^(١) حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنْ أَتَاهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَتَاهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ^(٢) فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . . »

١٩٥ - ١٩٠

وقد احتوت أمراً للمسلمين بقتال الذين يقاتلونهم من الكفار ، وباعتبار ما كان من هؤلاء من فتنة المسلمين وأذيتهم واضطرابهم إلى الخروج من وطنهم بدءاً بالعداء يبرر للمسلمين قتالهم ، وقد نهت عن قتالهم عند المسجد الحرام ، أو في الشهر الحرام إلا إذا بدأوهم بذلك ، إذ يصبح من حقهم المكافحة بالمثل ، كذلك احتوت حثاً على الإنفاق في سبيل الله ، وتحذيراً من البخل الذي يؤدي حتماً إلى الخطر والتهلكة بإهمال الاستعداد لمقابلة البغي والعدوان .

وهذه المجموعة وإن كانت تحمل من حيث سبب نزولها المباشر طابعا محليا لأن المقصود فيها قتال مشركي مكة ، فإنها يصح أن تعتبر ثاني مجموعة احتوت مبادئ عامة

(١) الضمير راجع إلى « الذين يقاتلونكم » .

(٢) القصاص بمعنى الانتقام أو المكافحة بالمثل ، والآية تعني أن للمسلمين أن يقابلوا العدوان بمثله ، وفي الشهر الحرام إذا وقع عليهم في الشهر الحرام .

في الجهاد الإسلامي جليلة الشأن مستمرة التلقين ، وما نزل من الآيات بعدها ظل ينزل في نطاقها باستثناء تطور قليل في مبدأ القتال في الشهر الحرام والمسجد الحرام على ما سوف نشرحه بعد قليل . كما لا يمكن أن يكون محل شك وممارسة أن النبي التزمه بكل دقة أيضا .

ويلفت النظر خاصة إلى نقطتين مهمتين في الآيات : أولا هما اقتصار أمر القتال على الذين يقاتلون المسلمين وعدم العدوان ، ومعنى هذا أن المسالم والحيادي والذين لا يبدو منهم أي موقف مؤذ لا يصح قتالهم ، كما لا يصح للمسلمين أن يبدأوا أحداً بعداء أو عدوان ؛ وثانيتهما الحث على الإنفاق وعدم التعرض للخطر بالبخل ، وينطوي في هذا احتمال امتناع العدو عن العداء والقتال في حال ما إذا كان المسلمون يقظين مستعدين لكل طارئ ، وتقرير أن القتال ليس أصلاً وإنما هو ضرورة يحسن أن تدفع بأيسر الأسباب وهو الاستعداد .

(٣) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... »

وهذه المجموعة مثل سابقها تحمل طابعا محليا من حيث سبب نزولها المباشر ، غير

أنها تتضمن مبادئ عظيمة دائمة الإلهام والتلقين في الجهاد الإسلامي ، فالقتال غير محبب للنفس ولكنه ضرورة لا مندوحة عنها للدفاع ، ومن أجل هذا كتب على المسلمين ، أي فرض عليهم كركن من أركان الإسلام مع علم الله بكرههم له ؛ والحرية الدينية فوق كل شيء ، والاضطهاد الديني أشد من القتال ، وهو سبب شرعي لإقدام المسلمين على الجهاد ، وكل ما قد يكون مقدسا من التقاليد هين في سبيل ضمان تلك الحرية وقمع هذا الاضطهاد ؛ والذين يستهينون بحرمة المقدسات فيضطهدون غيرهم . ويحولون بينه وبين حربته الدينية ، ويفتنونه عن دينه في ظل هذه المقدسات ، يقابلون على عدوانهم وبغيهم دون أن يسمح لهم بالاحتماء بهذه المقدسات ، ولقد كان هذا مما بدا من مشركي مكة في الشهر الحرام والمسجد الحرام ، فلا خير على المسلمين في مقابلتهم على بغيهم فيهما أيضا .

وهذه الفقرة الأخيرة هي التي عيناها بالتطور القليل الذي نبهنا إليه في الفقرة السابقة ؛ إذ نهت آيات المجموعة السابقة عن قتال المشركين عند المسجد الحرام وفي الشهر الحرام إلا إذا بدأهم بذلك ، ومع ذلك فمضمون الآيات يلهيهم أن المشركين بما كان منهم من بغي وأذى ضد المسلمين في العهد المكي دون أن يرعوا حرمة البيت الحرام والشهر الحرام ، قد اعتبروا بادئين بذلك .

ومما هو جدير بالتنبيه في صدد هذه المجموعة وسابقتها ، ومجموعة سورة الحج ، أن كلا منهما قد احتوى تعليلا قويا ورائعا لما تضمنته من حث ودعوة وإذن ، شأنها في هذا شأن كثير من المجموعات القرآنية التي احتوت أمرا ونهيا وتشريعا ، بل ترغيبا وترهيبا .

كذلك نبه إلى أن المجموعات الثلاث تلهيهم أنها نزلت بمناسبة اشتباكات بين المشركين والمهاجرين المسلمين ، وأثير حول بعضها ضجة ، مما سوف نعود إليه في مبحث الوقائع .

(٤) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .. »

٢٤٤ - ٢٤٥

وقد احتوت حثا على القتال والإنفاق في سبيل الله ؛ ولقد أعقبها سلسلة من الآيات ٢٤٦ - ٢٥١ فيها قصة ما كان من بني إسرائيل من بعد موسى ، ورغبتهم في قيام ملك يقاتلون تحت لوائه انتصارا مما يقع عليهم من عدوان ، ثم ما كان من تردد أكثرهم وجبنهم ، وثبات فئة قليلة منهم وانتصارها على جالوت وجنوده تحت لواء طالوت^(١) ، وانتهت بتبرير الحرب الدفاعية وأنها مانعة لاستئراء البغي والفساد في الأرض ؛ وكل هذا قد يلهم أن الدعوة إلى الجهاد بالنفس والمال كانت تقتضي ضرب الأمثال وإيراد القصص ، ليكون من ذلك حافز للمسلمين عامة والمخلصين خاصة ، وزاجر للمترددين والمقترين ، ويتبادر لنا أنه ينطوي في هذا صورة لموقف بدا من بعض المسلمين إزاء الدعوة إلى الجهاد مما تكررت الإشارة إليه بصراحة أكثر في آيات أخرى .

الصورة الثالثة

(٥) وفي السورة نفسها سلسلة رائعة في الحث على الإنفاق في سبيل الله وهي هذه :

« مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ

(١) جالوت تعريب جليات ، وطالوت تعريب شاؤول .

يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ
وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مَّا
كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْثَرَهَا
ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ
لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْيَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ
الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاهُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ
مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ
بِتَّآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ
وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يُؤْتِي
الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو
الْأَلْبَابِ . وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
أَنْصَارٍ . إِن تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ
تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْلَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ . الَّذِينَ

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ...»

٢٦١ - ٢٧٤

وفي هذه السلسلة كذلك تلقينات ومبادئ عامة مستمرة المدى ، إلى ما فيها من إلهام لسبب نزولها المباشر الذي ينطوي فيه صور عدة للمسلمين إزاء الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله ؛ إذ تدعم ما قلناه من أن الجهاد إنما كان يقوم على التطوع والتبرع ، كما تلهم أنه كان فريق من المسلمين ينفق بالليل والنهار سرا وعلانية استجابة للدعوة وابتغاء لمرضاة الله على حين كان فريق منهم يتناقل في الاستجابة ، ويرفق ما ينفقه بالمن وسوء الأدب في القول ، وفريق آخر يرض بأجود غلته ولا يتصدق إلا بالارديء منها ؛ وكذلك تلهم أنه كان هناك فريق فرغ نفسه للجهاد في سبيل الله وانقطع عن الضرب في الأرض واكتساب الرزق فمسته الحاجة والفقر ولكنه مع ذلك تعفف عن سؤال الناس ؛ أما المبادئ والتلقينات العامة التي احتوتها فهي إيجاب الإنفاق في سبيل الله دون من ولا أذى في القول ولا مراعاة للناس ، والإنفاق من الفلات الجيدة دون الرديئة ، وتفضيل إخفاء الصدقات التي تعطى للفقراء على إعلانها ، وإيجاب القيام بأود الفقراء الذين يتفرغون للخدمة في سبيل الله ويمنعهم ذلك عن التكسب ولو تعففوا عن السؤال والكشف عن عوزهم .

والآية ٢٧٢ خاصة تلفت النظر في المبدأ الذي احتوته تلقينا والصورة التي تلهم أنها منطوية فيها واقعا ؛ فمساعدة الفقراء واجبة لذاتها دون أي اعتبار ، ولا يصح لامرئ أن يمسك يده عنها ولو كان المحتاج على غير رأيه وملته وطريقته أو كان بينه وبينه ضغينة أو شئناك ؛ وهذا مبدأ رائع من حيث المعنى الإنساني المجرد عن أي ملاسة ؛ ويبدو أن بعض المسلمين كانوا يمسكون أيديهم عن مثل هؤلاء فوردت الآية في السلسلة لتكون مرشدة إلى أفضل الطرق وأكرم الخلال^(١) ، ولتقرر أن المسلم إنما يفعل الخير لنفسه

(١) بما ذكره المفسرون والرواة أن الآية نزلت بمناسبة تردد بعض المسلمين في التصديق على الفقراء من ذوي قرباهم من المشركين أو الكتائبين بقصد إرغامهم على الإسلام .

وابتغاء وجه الله ، والله يعلم نيته ويمجزيه عليه .

الصَّوْرَةُ الرَّابِعَةُ

(٦) وفي سورة النساء الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا . وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِسَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا . فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْخَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا . الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ... »

٧٦ - ٧١

وفي الآيات صورة لموقف فريق من المسلمين - نرجح أنه ليس من المنافقين - كان ينجح إلى التثبيط والتشاغل والترصد ، وصورة أخرى أشرنا إليها من قبل وهي صورة المستضعفين من المسلمين الذين لم يتمكنوا من الهجرة من مكة وظلوا تحت بدوهم الأقوياء واضطهادهم ، وكانوا شاعرين بشدة وطأة الاضطهاد ، ويدعون الله أن يخلصهم ؛ وقد احتوت الآيات حثا للمسلمين على النفرة إلى القتال في سبيل الله ثم في سبيل إنقاذ هؤلاء المستضعفين الذين ينتظرون فرج الله ، وتنديدا بالذين يستنقلون الدعوة إلى هذا وذلك ، وتهويناً لأمر المشركين الذين إنما يقاتلون في سبيل الباطل والشیطان على حين

يدعي المسلمون إلى القتال في سبيل الله ، والله قوي عزيز والشيطان ذليل ضعيف ؛ وروح الآيات تلهم أن الاستنفار إنما هو لقتال أعداء محاربين من جهة وصادين عن سبيل الله ومضطهدين للمستضعفين من جهة أخرى ؛ والأرجح أن هؤلاء المستضعفين كانوا يرسلون بأخبارهم إلى النبي وإخوانهم في المدينة ويستغيثون ، فيزيد هذا في اهتمام النبي والمخلصين في اتخاذ الوسائل التي من شأنها إرغام مشركي مكة على الارعواء وعدم الاسترسال في البني والأذى .

والآيات إلى هذه الأسباب المتصلة بالواقع من عهد السيرة النبوية احتوت مبادئ مستمرة الإلهام والتلقين ؛ سواء في إيجاب الاستجابة إلى دعوة قتال الأعداء دون توان أو تناقل ، أو في إيجاب العمل على تخليص المضطهدين من المسلمين وإنقاذهم ودفع الأذى والاضطهاد عنهم ؛ وفي الآيات تشجيع نافذ على الإقدام على الجهاد ، من شأنه أن يدفع بالمؤمن إلى تقبل كل تضحية فيه راضياً مطمئناً ، وأن يبعث الطمأنينة في قلبه بنصر الله وتأيده .

(٧) وفي سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ... »

وقد احتوت إشارة إلى حادث شرحناه في مبحث محنة الأذى في العهد المكي ،

وتنديداً بالذين استنقلوا تعجيل صدور الأمر الرباني بالقتال خائفين من العواقب الدنيوية . وروح الآيات من جهة والسياق الذي سبقها والسياق الذي لحق بها مما يسوغ القول إن الموقف الذي تضمنته موقف فريق من المنافقين أو مرضى القلوب . وفي الآيات على كل حال تلقين مستمر المدى في الحث على الجهاد وعدم التردد في الاستجابة إلى دواعيه وعدم الخشية من الموت والعواقب ما دام في سبيل الله .

(٨) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَزَّ كَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَانْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا . وَذُؤَا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَهُمْ حَصْرٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا . سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أَرَزَّ كَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا . . . »

٩١ - ٨٨

وقد احتوت الآيتان الأوليان إشارة إلى ما كان من انقسام رأى المخلصين في أمر المنافقين والموقف الحاسم الصارم الذي يجب أن يقفوه منهم إذا لم يخلصوا ويتضامنوا معهم قلباً وقالباً وبخاصة في الجهاد الذي عبر عنه بعبارة (حتى يهاجروا في سبيل الله) . أما الآيتان الأخريان فقد احتوتا صوراً لمواقف غير المسلمين من النبي والمسلمين ، إذ تلهمان أنه كان هناك أربع حالات لغير المسلمين إزاء المسلمين : حالة حرب وعداء ، وحالة ميثاق

صلح وسلام ، وحالة رغبة اعتزال فريق منهم حرب المسلمين مع قومهم ووقوفهم موقف الحياد والمسالمة ، وحالة فريق مخادع يريد ألا يغضب قومه المحاربين ولا المسلمين حتى يأمن الفريقين معاً ؛ وقد احتوتا تقرير ما يجب على المسلمين إزاء كل حالة من الحالات ؛ فالجهد للمحارب ، والوفاء للمعاهد ، والسلم للمسلم ، وعدم الطمأنينة للمخادع إلا إذا اعتزل القتال وجنح إلى السلم على وجه يدعو إلى الطمأنينة ، وقتاله إذا لم يفعل واعتباره عدواً محارباً ؛ والروعة والحق وبعد المدى في هذا التقرير قوية مشرقة ؛ وفي الآيات مبادئ جليلة محكمة ظلت هي الناظم في المهد النبوي لحركة الجهاد وأهدافه .

(٩) وفي الآية (٩٤) التي نقلناها في التمهيد من سورة النساء مبدأ جليل من مبادئ الجهاد الإسلامي فيه رد مفحم على من يزعم أن هذا الجهاد إنما كان وسيلة للغنائم ؛ وفيه أمر بقبول الظواهر من الناس دون تشدد ، بحيث يقبل السلام والإسلام من كل من يعلنه ، ويكف عنه ؛ وهو من المبادئ المحكمة المستمرة التلقين ؛ وهذا بالإضافة إلى ما فيها من صورة واقعية من صور الجهاد ، وتصرف بعض المسلمين فيها تصرفاً اقتضت الحكمة التشديد في النهي عنه وحظره ، حتى لا يشوب الجهاد الإسلامي شائبة لا تلائم أهدافه ودواعيه .

(١٠) وفي السورة نفسها هذه الآية :

« لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . . . »

وقد احتوت تمييزاً للمجاهدين على القاعدين بسبيل الحث على الجهاد ، واحتوت صورة لما كان عليه الأمر عند نزولها ، وهو اعتبار الجهاد فضيلة أو فرض كفاية لا يجب على جميع المسلمين ، والتساهل في قبول أعذار المعتذرين عنه ، ثم كون الجهاد قائماً على التطوع

والترغيب والترهيب ؛ ولما كان هناك آيات كثيرة فيها حملات شديدة على المتخلفين والقاعدين والمثبطين والمتناقلين والمعتذرين ، وفيها أوامر حاسمة بالقتال والجهاد ، فإنه يصح أن يقال إن هذه الآية من أول منازل من آيات الجهاد ، وإن الآيات التي أشرنا إليها قد كانت بمثابة نسخ أو تعديل لها .

(١١) وفي السورة نفسها الآية التالية أيضاً :

« وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَالًا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . . . » ١٠٤

وقد احتوت حثا على الاستمرار في مجاهدة العدو ، بأسلوب قوي التلقين دائم المدى ؛ فإذا كانت الحرب مريرة فهي كذلك على المسلمين كما هي على أعدائهم ، مع الفارق العظيم بالنسبة للمسلمين الذين يقاتلون في سبيل الحق والحرية وإعلاء كلمة الله ، ونفوسهم مطمئنة بحسن المعاقبة مهما كانت ؛ والآية تلهم أن فريقاً من المسلمين كان يشعر عند نزولها بمرارة الحرب وآلامها ، فاقتضت الحكمة الإيحاء بها لتكون معالجة نفسية لهذا الشعور .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

(١٢) وفي سورة المائدة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ . . . »

وقد جاءت هذه الآيات عقب آيات شرحناها في فصل المنافقين ووصف ما كان من استمسكهم بولائهم لليهود خشية الدوائر فيما يزعمون ؛ وهي بمثابة تعقيب على موقف المنافقين ؛ كما احتوت تصويراً قويا لعلاقة الجهاد بالإيمان ، وحثا بليغا عليه ، وتقريراً بأن التأخرين عنه ، الذين يخافون الناس والعواقب ، يوشك أن يكونوا في عداد المرتدين ؛ ويبدو من خلالها صورتان واقعتان : أولاها تضامن المحلصين مع النبي في الجهاد إذ عدوا حزب الله ، وطلب من عامة المسلمين التآسي بهم ، وتوليهم دون غيرهم ؛ وتلهم ثانيتهما وجود فريق من المسلمين لا يستجيب إلى دعوة الجهاد استجابة حسنة ، محتجا بأعذار لا تتسق مع الإيمان والإسلام الصحيح .

(١٣) وفي سورة الأنفال الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ . لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ . وَقَتْلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَوْا إِنَّ اللَّهَ مُوَلِّكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ... »

٤٠ - ٣٦

ولقد نزلت سورة الأنفال عقب انتصار المسلمين في بدر الكبرى ، فتكون هذه الآيات تعقيباً على ذلك الانتصار ؛ وقد انطوى فيها صورة ما لاستعلاء المسلمين وشعورهم بالهزة بعد ذلك الانتصار ، كما احتوت عرض الصلح والتوبة على الكفار ، والانهاء من موقفهم العدائي والجحودي ؛ ولهذا العرض بعد ذلك الانتصار معناه الرائع القوي كما هو واضح ، سواء من ناحية الشعور بالهزة أو من ناحية الرغبة في الحلم عند القدرة ،

أو من ناحية الاستفادة من فرصة انكسار الكفار ؛ وقد احتوت الآية (٣٩) تقريراً لحسد رئيسي من حدود الجهاد في الإسلام ، وهو قتال الأعداء المحاربين إلى أن تزول قدرتهم على الفتنة والصدّ عن سبيل الله ، أو ينتهوا عن موقفهم العدائي الباغي . ومع خصوصية نزول الآيات المباشرة فإن ما احتوته من تقارير مما يدخل في سلك المبادئ الجهادية المستمرة التلقين ، وخاصة هدف الجهاد الذي هو رد البغي ووقفه عند حد تضمن به حرية الدعوة ، والتساهل مع من ينجح إلى الارعواء والانهاء من موقف العداء والبغي .

الصّورة السادسة

(١٤) وفي سورة الأنفال الآيات التالية أيضا :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَنْفِقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّذْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَالَهُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ . وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ . وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . . . »

٥٥ - ٦١

إذ احتوت تعليماً لما يجب أن يكون مع الناكثين للعهد ومع من يخشى غدره وخيائته من المعاهدين ؛ فالناكثون يجب أن يحاربوا ، ومن يخشى غدره وخيائته يجب أن يحذر ويقابل بالمثل ، ومع ذلك فإن جنح أولئك أو هؤلاء إلى السلم فيجب أن ينجح إليها معهم أيضا ، ومما يجب على كل حال أن يستعد للعدو بكل وسائل الاستعداد دون ما تهاون أو بخل ، ففي هذا إرهاب للعدو المعروف والعدو المأكر الذي لا تعرف حقيقة أمره قد يغني عن الاشتباك .

وفي كل هذا مبادئ جلية للجهاد الإسلامي وأهدافه متسقة مع ما نبهنا إليه من أن هذا الجهاد هو دفاع ومقاولة ، وتنكيل بغادر أو ناكث أو خائن ، وإرهاب للعدو ، وأن الأصل فيه أن يكون بقدر ما تدعو الضرورة وحسب .

والآيات في أصلها وسبب نزولها المباشر تتضمن - كما هو المستلهم من مضمونها وروحها - صوراً لواقع الحال في العهد النبوي المدني فوق ما تتضمنه من مبادئ وتلقينات جلية مستمرة المدى ، إذ تلهم أنه كان ثمة كفار معاهدون لم يتورعوا عن نقض عهدهم مرة بعد مرة ، معاهدون تخشى خيانتهم ، وكما كان هناك أعداء متكتمون يتربصون الدوائر بالمسلمين زيادة على الأعداء العلنيين ؛ وهكذا تبدو صورة لما كان يحقد بالنبي والدعوة والمسلمين من أخطار ومكايد ، وما كانت الحاجة والحكمة تفضيان به من اتخاذ الوسائل والاستعداد والحذر والإقدام في سبيل دفع تلك الأخطار وإحباط هذه المكاييد . ولقد ذكرنا في فصل اليهود أن بعض هذه الصور متصلة بمواقف اليهود في المدينة ، فنكتفي هنا بالإشارة إلى ذلك .

(١٥) وفي سورة الأنفال أيضا الآيات التالية :

١ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
الْأُذْبَارَ . وَمَنْ يُولُوهُمْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى
فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ...

١٥ - ١٦

٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ فِتْنَةً فَانْتَبِهُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ
تَفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ
اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ...

٤٥ - ٤٦

وقد احتوى الأولى تشديداً بعدم التولي والفرار من المعركة حينما يتلاقى المسلمون مع الكفار الأعداء ، إلا إذا كان هذا بسبب تدبير حربي ، كما احتوت الأخرى حثاً للمسلمين

على الثبات أمام الأعداء وذكر الله ؛ إذ تمتليّ به نفوسهم قوة وطمأنينة ، وأمرأ بالطاعة لله ورسوله ، وعدم التنازع لأن فيه الفشل والهزيمة . ومضمون الآيات وروحها يلهمان - على ما يتبادر - أنها نزلت أو نزل بعضها بمناسبة أخطاء أو مواقف خطيرة أو غير مستحبة بدت من بعض المسلمين في ظروف الواقعة ، ولكن الله سلم فلم تكن ذات تأثير كبير في المعركة ونتيجتها ، فاقترضت حكمة التنزيل إنزالها لتكون معقبة ومنبهة للمسلمين السامعين من جهة ، وتلقينا مستمر المدى للمسلمين في كل آن ومكان من جهة أخرى .

(١٦) وفي سورة الأنفال أيضاً الآيات التالية :

« يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . أَلَسَنَ خَفَفَ اللَّهُ عَنكُم وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .. » ٦٤ - ٦٦

وقد احتوت الآيتان الأولى والثانية أمراً للنبي بحث المسلمين على القتال ، وطمأننة لقلبه بكفاية من معه من المسلمين المخلصين ، وبشرى لهم باستطاعتهم أن يغلبوا عشرة أمثالهم من الكفار لأنهم يستمدون دونهم من إيمانهم واطمئنانهم بحسن العاقبة على كل حال القوة والصبر والإقدام ، أما الآية الثالثة فيبدو أنها نزلت بعد الثانية بمدة ما ، وقد روي أن المسلمين خشوا أن تكون الآية الثانية تفرض عليهم مقابلة عشرة أمثال عددهم وعدم التولي والفرار من أمامهم ، فنزلت بالتخفيف .

والآيات مما نزل عقب وقعة بدر ، مثل معظم آيات السورة ، وقد تلهم أن ما احتوته إنما هو ترديد لما كان من سير وقعة بدر ونتيجتها الباهرة ، إذ ثبت مع النبي المسلمون المخلصون من المهاجرين والأنصار وانسحب المنافقون ، وإذ قابلوا ثلاثة أمثالهم عدداً من كفار قريش ونصروا عليهم .

(١٧) وفي السورة نفسها الآية التالية أيضاً :

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا أَمَّا لَكُمْ مِنْ وَلِيِّهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... » ٧٢

وهي تؤكد واقع الأمر من تبادل الولاء والنصر وإيجابهما بين الأنصار والمهاجرين دون الذين لم يهاجروا من المسلمين ، وتحتوى صورة أخرى من صور واقع الحال ، وهي وجود مسلمين متخلفين في دار الكفر عن الهجرة واللحاق بدار الإسلام في المدينة ، وكان تخلفهم بإرادتهم . وقد احتوت الآية تعليماً للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار للموقف الذي يجب أن يقفوه منهم ؛ فليس عليهم أي واجب من ولاء أو تضامن مع المتخلفين في الشؤون العادية ، ما دام تخلفهم قد كان بإرادتهم وارتضوا لأنفسهم الانفراد في دار الكفر ، لأن هذا الواجب إنما هو بين المسلمين الذين جمعت بينهم وحدة الدار والجهاد ، وحفزهم إخلاصهم لدينهم إلى ترك دار الكفر ولو خسروا أموالهم ونأوا عن وطنهم وذوي أرحامهم ، أما إذا وقع على المتخلفين اضطهاد بسبب دينهم ، واستغاثوا بهم ، فعليهم أن يسرعوا إلى نجاتهم إذا لم يكن بينهم وبين المستنصر عليهم ميثاق وعهد ! ومع أن من المحتمل أن يكون هذا التعليم قد استهدف حمل المتخلفين على الإسراع في الهجرة ، فإن مافيه تشديداً على احترام العهود والمواثيق بالغ الروعة ، يدل على ما كان يستهدفه التنزيل القرآني من ذلك الاحترام وترسيخه في نفوس المسلمين ؛ ولا يماري إلا مكابر في أن النبي والمسلمين قد التزموا ذلك بكل دقة . وإطلاق الآية يجعل ما تضمنته من التعليم مستمر التلقين ببالح روعته وعظيم مداه وهدفه كما هو واضح .

الصورة السابعة

(١٨) في سورة التوبة الآيات التالية .

« بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ . فَمَيْحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ . وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... »

٥ - ١

ومعظم فصول سورة التوبة مما نزل في أواخر العهد المدني ؛ وهذه الآيات تلهم أنها مما نزل بعد الفتح المكي بـمدة ما ؛ واستثناء المشركين المعاهدين الذين يظلون أوفياء لعهدهم دون ما كيد ولا نقض من البراءة ، والأمر بالوفاء معهم إلى مدتهم ، قرينة حاسمة على أن المقصود من البراءة المشركون المعاهدون الذين لم يفوا بمهودهم ، ونكثوا أو ظهر منهم ختل وتلاعب فيها ؛ كما أنه قرينة حاسمة على أن الآية الأخيرة هي بصدد هؤلاء لحسب ؛ وليس معنى هذا أن مدى الأمر الذي احتوته لا يتناول المشركين المحاربين ، فإن الاستمرار في قتال هؤلاء غرض أصيل لا يحتاج إلى أمر جديد بطبيعة الحال ؛ وهكذا يبدو من خلال الآيات أنه كان بعد الفتح المكي مشركون معاهدون موفون بعهدهم ، ومشركون معاهدون ناكثون فيها ، زيادة على المشركين المحاربين .

والآيات قد احتوت مبادئ بالنسبة للمشركين المعاهدين الموفين والغادرين ؛ فالغادرون يقاتلون باستمرار إلى أن يتوبوا ويرعوا ويسلموا ، والموفون يوفى معهم إلى مدتهم ؛ وحينئذ إما أن يتجدد العهد معهم أو يعودوا إلى الموقف الذي كانوا عليه قبل العهد وهو موقف المحارب المعتدي ؛ وما لا ريب فيه أن هؤلاء هم على بينة من هذا

الأمر ، وأنهم يعرفون أن الميثاق القائم بينهم وبين المسلمين إنما هو ميثاق هدنة سلم وصلاح موقوتة الأجل ؛ ومما لا ريب فيه أن هذه المبادئ هي التي كانت ناناظماً للموقف بين المسلمين والمعاهدين ، كما أنها غدت تشريعاً مستمر المدى .

ولقد يرد سؤال عما إذا كان مبدأ قتال المشركين المحاربين أو المعاهدين الناكثين منهم إلى أن يسلموا لم يأت ناسخاً أو معدلاً للمبادئ والتقارير القرآنية السابقة من أنه لا إكراه في الدين ، ومن أن غاية الجهاد هي ردبغي المشركين وعدوانهم إلى أن ينتهوا عن موقفهم وتتوطد حرية الدعوة والمسلمين ؟

ومع أن عبارة الآية الرابعة قد تتحمل هذا المدى فإن المتبادر من روح ومضمون الآيات جميعاً أنها لم تلغ مبدأ التعاهد ، فضلاً عن أنها لم تلغ مبدأ عدم قتال المسلمين والحياديين وغير المحاربين ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فما دامت الحرب مع المشركين قد كانت في أصلها رداً على عدوان ، ومقابلة على بغي وصد وأذى ، وما دام استئنافها مع المعاهدين الناكثين إنما كان بسبب هذا النكث الذي يتضمن معنى العدوان والبغي أيضاً - فليس مما يتحمل نقداً أو ممارسة أن يسكون المسلمون في الخيار بحيث لا يقبلون منهم عهداً ، أو بالأحرى بحيث لا يطمئنون إلى عهد جديد منهم ، ولا يرون ضماناً إلا إسلامهم وانتهاءهم من موقف المحارب المناوئ والخائن المتربص . وفي آيات أخرى قريبة من هذه الآيات سنوردها بعد تدعيم قوي لما نقول .

ولقد قلنا إن الآيات تلهم أنها نزلت بعد الفتح المكي ، استلهاماً من الآية الثالثة التي تلهم أن البراءة أو الأذان قد أذيع يوم الحج الأكبر ، وطبعاً لا يمكن أن يكون هذا إلا إذا كان المسلمون هم أصحاب الأمر في الحج . وقد أيدت الروايات هذا ، وذكرت أن البراءة أذيعت في السنة التاسعة التي تولى فيها إمارة الحج أبو بكر الصديق رضي الله عنه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وفي هذا وتؤيده الآيات صورة من العهد ، إذ يبان منها ما صار إليه الإسلام من قوة ونفوذ بعد الفتح . وفيها إلى ذلك

صورة لقوة وصدق المبادئ القرآنية إذ استمر القرآن يحث على الوفاء من ناحية ، ويشجع على التوبة ويعد بالعفو عما سلف من ناحية مع ما صار للمسلمين من قوة بأس ، وعزة جانب ، وشيوع سلطان وكلمة ؛ وفيها أيضاً صورة ثالثة وهي أن المعاهدين الذين ظلوا أوفياء والمعاهدين الناكثين من المشركين هم غير أهل مكة الذين خضعوا لسلطان الإسلام ودانوا به عقب الفتح ؛ وقد روت الروايات أسماء قبائل من العرب في منطقة مكة .

وهذا إلى جانب مشركين كانوا ما يزالون محاربين .

ولما كانت الآيات قد نزلت كما قلنا في أواخر العهد المدني أو قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بنحو عام فقد صح أن يقال إن حرمة الأشهر الحرم وتحريم القتال فيها قد ظلّا من المبادئ القرآنية المسكورة : وكل ما صار من أمر هو تحليل القتال فيها ضمن الرخصة والضرورة اللتين ذكرتا في آيات البقرة ١٩٤ و ٢١٧ على ما شرحناه في مطلع هذا المبحث .

(١٩) وفي سورة التوبة الآية التالية أيضاً :

« وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ... »

٦

وهي تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإجارة من يريد أن يأتي إليه ويسمع منه ، ويأعاده إلى مأمنه سالماً ؛ وقد روي أن بعض المشركين الذين كانوا يودون الوفاة على النبي صلى الله عليه وسلم تخوفوا من البراءة التي أذيعت يوم الحج الأكبر وذكروا ذلك لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فنقله إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية ؛ وليس في الرواية ما لا يتسق مع مدى الآية ؛ وهكذا يكون قد انطوى في الآية صورة لما صار إليه أمر المسلمين من قوة وعزة وهيبة ، ولما صار ينبثق في نفوس العرب

من رغبة في الوفاة على النبي صلى الله عليه وسلم والاستماع إليه بعد أن انهدم الستار الكثيف بينهم وبينه بالفتح المكي .

(٢٠) وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ . اشْتَرَوْا بِثَابِتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَسَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنْهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتَخَوْنَهُمْ فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ... »

١٦ - ٧

وفي هذه الآيات تدعيم لما قررناه قبل قليل ، وتنظيم للوقف الذي وجب على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن يقفوه من المشركين المعاهدين ؛ فالذين لا يبدو منهم للعهد إخلاص خالص من كل شائبة كيد وغدر ، هم في الحقيقة أعداء للمسلمين ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم خداعاً ، وهم المعتدون والصادون في الأصل عن

سبيل الله ، ولا يمكن أن يكونوا موضع ثقة واطمئنان إلا إذا تابوا عن شركهم وغدرهم وأسلموا وقامت أخوة الدين بينهم وبين المسلمين . وفي الآيات صور لواقع الحال إذ تلهم أنه كان هناك معاهدون مريبون في تصرفاتهم ، ومعاهدون من منطقة المسجد الحرام لم يبد منهم أمارات نكث صريحة فأوجبت الآيات الوفاء لهم ما داموا موفين بالعهد للمسلمين ، أما إذا نكثوا وعادوا إلى بغيتهم وصدهم فقد وجب عدم التواني في قتالهم لا سيما أنهم كانوا أعداء محاربين للمسلمين قبل العهد ، وهم الذين بدا منهم ما بدا من بني وصد واضطرار النبي إلى الخروج . . .

وجملة (وهو بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة) في الآيات قد تلهم بقوة أنها نزلت قبل الفتح المكي وأن المقصود منها أهل مكة ومن دخل في صلحهم في عهد الحديبية كما تلهم أنهم وإن لم تبد منهم أمارات نكث فإن ذلك مما هو متوقع منهم . هذا في حين أن الآيات الأولى من السورة صريحة بأنها نزلت بعد الفتح المكي . وهكذا نكون أمام مجموعتين من الآيات كل منهما مستقلة عن الأخرى في ظرف النزول ولكنهما تحتويان صوراً متشابهة وتماثلان في المدي والتلقين بحيث يصح أن يقال إنه كان قبل الفتح معاهدون من المشركين مريبون ، ومعاهدون متظاهرون بالوفاء ؛ وإنه كان بعد الفتح أيضاً مثل ذلك ؛ وقد جاء التنظيم القرآني واحداً لكلا العهدين ، وهو الوفاء للموفين ، والتنكيل بالناكثين والمريبين ، والحض على قتال الناكثين قوي ، وفيه معالجة روحية امتزجت بشيء من العتاب والإنذار ، وينطوي في هذا صورة من صور موقف المسلمين من الدعوة إلى القتال ، إذ تلهم صيغة الآيات ١٣ - ١٦ أن بعض المسلمين كانوا يترددون في الاستجابة إلى داعي الجهاد ويتخوفون عواقبه ، ولعل هذا مما يقوي ما أشرنا إليه من أن أهل مكة هم المقصودون ، وأنه كان يتوقع منهم نكث صريح للعهد القائم بينهم وبين المسلمين . وسنورد بعد هذا آيات تقوي هذا الاستنتاج أيضاً .

(٢١) وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ... »

٢٣ - ٢٤

والتبادر أن النهي الشديد الوارد في الآيات موجه إلى المهاجرين ، وأن الآيات نزلت قبيل الفتح المكي ؛ ويمكن أن تلهم أنها نزلت في ظروف أخذت تبدو فيها أمارات النكت بصلح الحديبية صريحة من أهل مكة ومن دخل في صلحهم ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يتهيأ لغزو مكة ويدعو إليه ؛ وفي هذا تدعيم للاستنتاج الذي استنتجناه في آخر الفقرة السابقة .

والآيات تدلنا من جهة أخرى على أن بعض المسلمين المهاجرين كانوا يقاسون أزمات نفسية في اضطرابهم إلى الوقوف من ذوي قرباهم موقف العداء ، وأن بعضهم كان رغم إخلاصه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الاستشعار بصلة الرحم برغم ما في ذلك من ضرر للمصلحة العامة ، وأن بعضهم كان يفعل ذلك محافظة على ماله من مصالح مادية في مكة ؛ ولعل هذا مما يفسر لنا سبب شدة الآيات ، ليكون الأمر محسوماً ومأمون الخطر ، لا سيما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على أهبة غزو مكة . وفي الآيات صورة لواقع الحال قبل الفتح ؛ إذ كان لبعض المهاجرين أقارب ذوو رحم قريبة كآباء وإخوان أو ما في مثابهم من أعمام وأخوال وبني أعمام وبني أخوال ما يزالون كفاراً في مكة مندمجين مع أهلها في موقف العداء من النبي والمسلمين الذين منهم المهاجرون الذين بينهم وبينهم مثل هذه القرية .

(٢٢) وفي سورة التوبة أيضاً الآية التالية :

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِندَهُمْ عَقْدٌ عَلَيْهِمْ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ... »

١١١

وقد احتوت تقرير مبدأ إسلامي جهادي رائع وعام من الناحية الإيمانية ، وهو أنه حينما يؤمن المسلم يكون كأنه باع نفسه وماله لله ، وأن الله يكون اشترى ذلك منه بالجنة ؛ وبمعنى آخر : إن المؤمن لا يكون مؤمناً حقاً إلا إذا أقدم بنفس طيبة على الجهاد بماله ونفسه حينما تدعو مصلحة الإسلام والمسلمين . وقد احتوت الآية طمانة عظيمة للمسلمين ليقدموا على إجابة داعي الجهاد بكليتهم .

ولقد نزلت الآية في ظروف غزوة تبوك وحين أوبة الحملة من الرحلة إلى المدينة كما يستلهم من سياقها ، وقد يكون في هذه الظروف ما اقتضت الحكمة معها نزولها للتنويه بجيش المؤمنين الجرار الذي اشترك في الحملة وإقدامهم وحسن استجابتهم ، ولهذا صلة بمشاهد السيرة النبوية الجهادية كما هو واضح .

(٢٣) وفي السورة نفسها كذلك الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ . مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا نَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... »

١٢١ - ١١٩

وهذه الآيات مثل الآية السابقة نزلت في ظروف غزوة تبوك وحين أوبة الحملة من الرحلة إلى المدينة ؛ وقد احتوت عتاباً ما للذين تخلفوا أو حدثهم أنفسهم بالتخلف عن الحملة من مخلصي المسلمين من سكان المدينة والأعراب ، لما في ذلك من دلالة عدم التضامن والوهن لقوة الإسلام ؛ كما احتوت حثاً لعامة المسلمين على تقوى الله والتضامن مع الطبقة الأولى من المؤمنين الصادقين الذين تضامنوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الحملة وتجهيزها بكليتهم ؛ وفي هذا وذاك صلة بمشاهد السيرة النبوية الجهادية كما هو واضح ، فوق ما في الآيتين من تلقين مستمر المدى بعدم تخلف المسلمين في أي وقت عن الاستجابة إلى داعي الجهاد ضد أعدائهم ، وبوجوب تضامنهم مع دعاة الجهاد منهم ، وبيت الطمانينة فيهم .

(٢٤) وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ . . . »

١٢٢

وقد احتوت الآية مبدأ من مبادئ الجهاد الإسلامي وصورة لواقع الحال في العهد النبوي ؛ والمبدأ هو أن نطاق النفرة إلى الجهاد ينبغي أن يكون على حسب الضرورة ؛ وأنه ليس من الضروري أن ينفر إليه جميع المسلمين بل يكفي أن يشترك فيه جميع فئاتهم ومناطقهم بفصائل أو فرق بقدر ما تقتضيه تلك الضرورة ؛ أما الصورة فهي بسبيل تأكيد أن الجهاد في العهد النبوي كان تطوعياً وليس إلزامياً . ولعل المبدأ مما سوغ للعلماء أن يقولوا إن الجهاد فرض كفاية ، إذا اشترك فيه فريق سقط عن الباقي ، وإن لم يبق به أحد أتم السكل ؛ غير أننا نرى أن يزداد إلى هذا وجوب الاشتراك بقدر ما تقتضيه المصلحة والضرورة ، لا مجرد الاشتراك ؛ إذ يكون هذا غير مجز وإذن لا يرتفع الإنهم عن القاعدين .

والآية مما نزل عقب الأوبة من غزوة تبوك على ما يلهمه سياقها السابق ولقد روي في صدها أن المسلمين بعد أن سمعوا التقرير القرآني الشديد في حق المتخلفين والمعتذرين القاعدين اعتزموا تجنب ذلك ، وأخذوا يسارعون إلى استجابة الدعوة بفض النظر عما كان لهم من أعذار وأسباب مانعة مشروعة ، فكان في ذلك مشقة كبرى خفتها عنهم الآية . ومضمون الآية مما يلهم صحة الرواية ، ولعل هذا كان منهم حينما استنفر النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزو البلقاء وأخذ يجهز من أجل ذلك جيش أسامة بعد عودته بقليل من تبوك ؛ وهكذا تكون الآية قد احتوت أيضا صورة لرد فعل التقرير القرآني في عامة المسلمين .

(٢٥) وفي السورة نفسها الآية التالية أيضا :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ

١٢٣

غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ... »

وقد قيل في صدها إنها نزلت مبكرة ثم نسخت بفقرة « وقاتلوا المشركين كافة » الواردة في الآية ٣٦ من سورة التوبة . ويبدو هذا القول غريباً ؛ ولعل الأمثل أن تكون قد جاءت عقب الآية السابقة لتقرير مبدأ آخر من مبادئ الجهاد الإسلامي من الناحية التنظيمية ، وهو عدم توزيع المسلمين قواهم ، ومقاتلة الأقرب فالأقرب إليهم من الكفار وعدم الهوادة معهم ، أو مقاتلة كل صقع إسلامي من في منطقته منهم ؛ وإن كنا نرجح الأول . والمبادئ القرآنية والنبوية المحكمة التي نوهنا بها قبل تسوغ القول إن المقصود من جملة (الذين يلونكم من الكفار) الأعداء منهم وليس قتال كل كافر حيادياً كان أم معاهداً أم مسلماً أم عاجزاً .

وعلى كل حال فإن الوقائع الجهادية النبوية قد سارت على الأسلوب الأول الذي استلهمنا أن الآية قد أشارت إليه ، إذ كان يقاتل الأقرب فالأقرب من أعداء الإسلام البغاة والمعتدين ، فلا يشتغل بأناس حتى يكون آمناً أو فارغاً من غيرهم ، وهذا

ما كان في غزوتي خيبر وتبوك ، ووقائع بني قينقاع والنضير وبني قريظة ، مما مر تفصيله ، وما كان في غيرها مما سوف نلم به بعد ، وحكمة هذه الخطة في غنى عن التعليق ، ولعل في هذا ما يقوي استلزامنا من الآية .

الصورة الثامنة

(٢٦) وفي سورة محمد التي تسمى أيضا سورة القتال الآيات التالية :

« الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبُطْلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ . فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ . يَسَاءُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ... »

٧ - ١

وقد احتوت الآيات حثا قوي الأسلوب على الجهاد ، والشدة في القتال مع الكفار إذا ما صار اللقاء بينهم في المعركة والإيمان فيهم ؛ وتعبير « وصدوا عن سبيل الله » و « إذا لقيتم » قرينتان حاسمتان على أن الحث ليس على قتال الكفار إطلاقاً ، بل على قتال الذين صدوا عن سبيل الله واضطهدوا الناس ومنعوه عن الإسلام منهم ، والذين كانت حالة الحرب قائمة بينهم وبين المسلمين . وقد احتوت تقريراً لمبدأ تشريعي للأسرى كان من دون ريب ناظماً لتصرف النبي فيهم ، فضلاً عن أنه ناظم تشريعي عام ؛ إذ جعل أمر الأسرى للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن تنتهي المعركة ، فإما أن يسرحهم عفواً ومنا

بدون فداء ، وإما أن يستوفي منهم الفدية ويسرحهم ؛ ومما يلفت النظر أنه ليس في هذا المبدأ استرقاق للأسرى مع أن بعض الروايات ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى استرقاق سبي هوازن ، وأنه استرق سبي بني قريظة وباعه حيث يكون عمل النبي صلى الله عليه وسلم تشريعاً تفسيرياً لما سكنت عنه الآية وهو مصير الذين لا يرى السلطان الإسلامي مصلحة في إطلاق سراحهم بدون فداء ولا يفتدون أنفسهم .

وققرة « ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضهم ببعض » تلهم أنه كان يحيك في نفوس بعض المسلمين أمنية ، وهي أن يسحق الله الكفار البقاء دون ما حاجة إلى اشتباك المسلمين معهم في حرب يتحملون آلامها وشدائدها ؛ فردت الآية معللة بأن الاشتباك إنما هو اختبار لهم ، وفي هذا على كل حال صورة طريقة لحالة واقعية إزاء الجهاد والدعوة إليه .

(٢٧) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

- ١ — وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوًا
أَخْبَارَكُمْ ... ٣١
- ٢ — فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُكُمْ
أَعْمَلَكُمْ ... ٣٥

وقد احتوت الأولى تقريراً بأن الحرب مع الكفار هي ابتلاء للمسلمين ليميز منهم المجاهدون والصابرون عن غيرهم ؛ وهذا التقرير مشابه لما قررته الفقرة التي نوهنا بها آنفاً ، ودال على أن التردد الذي كان يحيك في نفوس بعض المسلمين ظل يبدو أثره ، فاقتضت الحكمة تأكيد التعليل للطمأنينة .

وقد احتوت الآية الثانية نهياً للمسلمين عن الضعف والتواني في الجهاد والجنوح إلى السلم إيثاراً للعافية ، وقد يلهم هذا أنه كان يبدو على فريق من المسلمين - ولعله الفريق الذي تضمنت الآية الأولى والفقرة التي نبهنا إليها الإشارة إليه - توان

في الاستجابة إلى داعي الجهاد ، ورغبة في مسائلة الكفار ، وأسلوب الآيات يدل على أن هذا الفريق ليس من المنافقين ، فاحتوت تحذيراً ونهياً رقيقين ، وحفزاً وتثبيتاً نافذين ، وهما في الوقت نفسه مستمرا التلقين والإلهام في الظروف والمواقف المماثلة .

(٢٨) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ . إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ^(١) تَبَخَّلُوا وَلا يُخْرِجْ أَصْفَنَكُمْ . هَآتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا بَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ... »

٣٦ - ٣٨

والآيات تستهدف تهوينا للمادة وتنديداً بالبخل والبخلاء ، وتقريراً بأن البخل إنما يضر صاحبه ، وحثاً ضمئياً على الإنفاق في سبيل الله ؛ وهي إلى ما فيها من تلقين قوي مستمر المدى تتضمن كما يتبادر ما يلهم أنه كان يبدو من فريق من المسلمين شح وقبض يد ، وتردد في الاستجابة السريعة السمحة إلى دعوة الجهاد بالمال ؛ ويبدو أن هذا مما كان متمكناً وكثير الشيوع بحيث اقتضت الحكمة أن تكون الآيات بالأسلوب الإنذاري الشديد الذي جاءت به .

الصُّورَةُ التَّاسِعَةُ

(٢٩) وفي سورة الحجرات الآيات التالية :

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَقِّتْلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا

(١) فيشدد عليكم في التكليف .

بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا
بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ...

٩ - ١٠

والآيات ليست في صدد الجهاد الإسلامي ضد الأعداء ، غير أنها احتوت مبدأ
جليلا في تنظيم الموقف بين المسلمين في حالة اقتتال فريق مع آخر منهم ، مما يلهم أنها
نزلت في ظرف حادثة واقعية من مثل ذلك ، وهذا ما يجعل المناسبة قائمة لإيرادها
في هذا المبحث .

ولقد احتوت الآيتان تعليما تام الأركان رائع المدى بشأن ما يقوم من نزاع وقاتل
بين فريقين مسلمين ، موجهاً إلى فريق ثالث ليس طرفا في النزاع ، وموجبا عليه ألا
يقف منه موقف الساكت المتفرج ، بل يسارع إلى فضه وإقامة الصلح والسلام بين المسلمين ،
وإحقاق الحق لأهله بدون محاباة ، ونصرة المظلوم المبغى عليه بالسلاح إذا لم يرتدع الظالم
ويقف عند الحق والعدل وحدود الله .

ومما روي أن الآيتين نزلتا بمناسبة نزاع بين عائلتين متصاهرتين انتهى إلى الاقتتال ،
وهو ما تلهمه الآيتان ، وفيه صورة متصلة بمشاهد وقائع المسلمين في أثناء السيرة النبوية ،
غير أن أسلوبهما المطلق التشريعي يجعل ما احتوتاه مما يتسع لأمر أعظم وأعم ؛
ولقد يكون من ملهمات تطبيقيهما احتمال قيام حكومات إسلامية عدة ، ووجوب قيام
الأخوة والتضامن والاتحاد بينهما ، وإقامة العلاقات بينها على أساس العدل والحق
والأخوة ، فإذا ما نشب خلاف وقاتل بين حكومتين منها وجب على سائرهما التدخل لحل
المشكل على ذلك الأساس ، والتضامن في فرض قبول الحق على المبطل ولو أدى
ذلك إلى قتاله . وإذا لاحظنا أن مثل هذا النظام هو أسمى الأمانى التي يتوق إلى
تحقيقها العالم ويرى أن السلام والحق لا يتوطدان إلا بها ؛ بدالنا ما فيه من
جلالة وروعة وخطورة .

الصُّورَةُ الْعَاشِرَةُ

(٣٠) وفي سورة الحديد الآيات التالية :

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مَنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ . . . »

١١ - ١٠

ويبدو من خلال الآيات أنها نزلت بعد الفتح المكي ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد وسع دعوته إلى الإنفاق والجهاد حتى يتمكن من التنكيل بأعداء المسلمين وتوطيد السبيل إلى نشر كلمة الله على أوسع ما يكون بعد أن زال العائق المهم وهو مكة ، كما يبدو أيضاً صورة واقعية لفريق من المسلمين لم يستجيبوا استجابة سمجة وكافية للدعوة ، ولم يعطوا إلا القليل محتجين بالزهيد الذي كان ينفقه المسلمون قبل الفتح ؛ فاقترضت الحكمة الإيحاء بها منددة معاتبة ، ومبينة للفرق العظيم بين ما قبل الفتح وبعده ، منوّهة بفضل الذين استجابوا إلى دعوة الجهاد بالنفس والمال قبله مهما كان نطاق ذلك ، وحافزة لهم اللاحقين . وهكذا تكون الآيات قد احتوت - بالإضافة إلى ما احتوته مما ذكرناه - مبدأ مستمر التلقين بأفضلية للمقدمين في الأزمات واشتداد الأخطار .

(٣١) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

١ - إِنَّ الْمُؤْذِقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَعَّفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ...

١٩ - ١٨

٢ - سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ

إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لَّكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . . .

٢٤ - ٢١

ويلمح خلال الآيات صورة واقعية لفريق أمسك يده عن الإنفاق ، ودعا غيره إلى ذلك ، كما تلمح صورة واقعية أخرى لحادث استشهاد أولياد أليم أصاب بعض المسلمين ، واقتضت الحكمة تسكين ذويه من جهة والحيلولة دون جعل هذا الحادث وسيلة للشح أو الانقباض عن الجهاد بالمال والنفس من جهة أخرى ؛ ولقد تخلل الآيات آية فيها تمثيل للحياة الدنيا بالزرع الذي ينبت بعد المطر ثم لا يلبث أن يحف ويغدو هشيما ، وأنها لا يصح لعاقل أن يفتر بها ويركن إليها بل يسارع إلى ابتغاء رضا الله وما عنده من الفضل والمغفرة ؛ وفي كل هذا معالجة نفسية لذلك الحادث وآثاره على ما هو المتبادر ؛ وطبيعي أن فيما احتوته الآيات من التنويه بالتصدقين والشهداء ، والحلمة على البخلاء والمحرضين على البخل ، والمختالين المتفاخرين كذبا وغرورا ، هو - بالإضافة إلى ما توحى به من أهداف متصلة بمشاهد وظروف السيرة - غرض مستمر التلقين والإلهام .

ويلاحظ تشابه موضوع الآيات التي أوردناها في الفقرة السابقة من السورة وهذه الآيات ، مما يمكن أن يلهم أن الصورة التي اقتبسناها لم تكن ضيقة النطاق .

الصُّورَةُ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ

(٣٢) وفي سورة الممتحنة هذه الآيات :

١ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْخَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ

سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَشَقُّوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَسْطُوْا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ . لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْضَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . . .

٣ - ١

٢ - عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . لَا يَنْهَى اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ أَنْ تَبْرَأَهُمْ وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . . .

٩ - ٧

والآيات الأولى احتوت نهياً شديداً عن اتخاذ الأعداء أولياء ومبادلتهم المودة ولو كانوا ذوي أرحام وقربى لما في ذلك من خطر على كيان المسلمين ومصالحهم ، وتذكيراً بما كان من هؤلاء الأعداء من بغى وعدوان وكفر وصد وأذى ؛ ومع أن المروي أن الآيات نزلت بمناسبة أن أحد المسلمين أرسل رسالة إلى زعيم مكّي ينذره باستعداد النبي صلى الله عليه وسلم لغزو مكة ، ومع احتمال صحة الرواية ، فإن الآيات تلهم أن العتاب المرير الذي احتوته أوسع شمولاً ، وأن موقف المودة الذي وقفه بعض المهاجرين نحو أقاربهم من مشركي مكة أكثر من أن يكون حادثاً فردياً ، كما أنها تحتوي دلالة على ما كان يثور في نفوسهم من أزمات لا يضطربهم إلى قتال أولئك الأقارب ؛ والرواية لا تذكر أن المسلم أرسل الرسالة إلى أقاربه ، بل إلى زعيم مشرك ليصطنع لديه يداً يحقق بها لنفسه منفعة شخصية ، في حين أن الآيات تذكر الأرحام والأولاد مما يدعم صحة استلزامها المذكور . ولقد تكرر النهي بأساليب متنوعة أوردنا بعضها في الفقرة (٢١) مما يدل على تكرار المواقف والأزمات ، ويدعم ما استلزمناه من سعة الشمول

وأن الحادث ليس فرديا ، بحيث اقتضت الحكمة تكرار النهي لمعالجة موقف خطر وخطير في آن واحد ؛ ومع خصوصية المناسبة التي نزلت فيها الآيات ففيها من دون ريب تلقين مستمر المدى ، ومبدأ من المبادئ الجهادية وغير الجهادية ، وهو عدم جواز اتخاذ المسلمين أعداءهم أولياء أو مبادلتهم المودة ، لاسيما الذين بادءوهم بالعداء ، واستمروا يتربصون بهم الدوائر ، ويريدون لهم السوء ولا يألون جهداً في الكيد لهم في كل فرصة وموقف .

والآيات الأخرى احتوت تحديد النهي المشدد في الآيات الأولى ، وحصره فيمن يقاتل المسلمين في الدين ويظهر عليهم ، وأباحت بل حثت على البر بمن يقف منهم موقف المسألة ويكف عنهم يد الأذى والكيد ولا يظهر عليهم أعداءهم ؛ والآية (٧) خاصة تلهم صحة ما ذكرناه مما كان يعتلج في نفوس بعض المهاجرين من أزمات ، وتستهدف - فيما هو المتبادر - تهدئتها ، إذ تطمئنهم باحتمال انقلاب أولئك الأعداء أصدقاء وتبدل العداء بالمودة ؛ والآية (٨) قد استهدفت حل المشكلة حلا ما زيادة في التوسعة والتهدئة وذلك بإباحة البر والقسط للمسلم الحسن النية وتقوية الحجة على الضارين المؤذنين . وهكذا يبدو واضحاً أن الآيات متصلة بمشاهد السيرة النبوية ، ومعالجة الحالات النفسية وغير النفسية التي كانت تبدو في ظروفها . ومع خصوصية الآيات ففيها من دون ريب تلقين مستمر المدى ، ومبدأ محكم جليل من المبادئ التنظيمية للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين ، يظل خالد الروعة على مر الدهر .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةُ

(٣٣) وفي سورة الصف الآيات التالية :

١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنِينَ مَرصُوصِينَ . . .

٢ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلَّكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تَنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَىٰ
تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى
اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَّا طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ
طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ . . .

١٤ - ١٠

فالآيات الأولى تتضمن صورة لموقف بعض المسلمين في عدم تأييدهم قولهم بالفعل
في الجهاد ، وعدم استجابتهم للدعوة إليه والتضامن فيه استجابة شافية ، كما أنها
تلهم أن هذا الموقف قد أثار أزمة شديدة في نفس النبي والمخلصين ؛ بل إن الإطلاق
فيها ليلهم أن هذا الموقف لم يكن حادثاً فردياً بل كان مما يتكرر حدوثه ، الأمر الذي
يلهم ما تكرر من الآيات المنيعة حيناً والحائلة حيناً ، مما أوردناه في بعض فقرات
هذا البحث .

والآيات الأخرى احتوت عوداً على بدء في الحث على الجهاد بأسلوب آخر فيه قوة
وفيه بشرى وليس فيه ذلك العتاب المرير ، وفيه كذلك تمثيل بموقف الحواريين من
عيسى عليه السلام ، حفزاً لهم المسلمين ودعوة للتأسي بهم ، وقد يبدو أن ما انطوى في
الآيات الأولى من صورة قد كانت شديدة الأثر بحيث اقتضت الحكمة العودة إلى الموضوع
بهذا الأسلوب في السورة نفسها .

والآية (١٣) وإن تكن تعد بالنصر والفتح ، مما اتخذته بعض المفرضين وسيلة إلى

القول بأن الغنيمة كانت هدفاً من أهداف الجهاد النبوي والإسلامي ، فإن مما يجدر التنبيه إليه أن هذا الوعد لم يكن هو الرئيسي في الآيات ، وإنما جاء تالياً ؛ على أن النصر والفتح لا يمتنان الفنائم أو الغنائم فحسب كما هو واضح فوق أن هذا مما يتسق مع طبائع الأمور وحقائق الأشياء ، وليس فيه ما يتحمل غمراً ولا نقداً ما دام داعي الجهاد هو رد البغي والدفاع ، وتوطيد حرية الدعوة والدين .

المبحث الثاني

في الوقائع الجهادية

طريقة استعراض الآيات والصور - صور من سورة البقرة للاشتباكات الجهادية الأولى بين المشركين والمهاجرين - صورة قرآنية لوقعة بدر وظروفها ونتائجها - خلاصة الروايات عنها - تعليقات متنوعة - صورة قرآنية لوقعة أحد وظروفها ونتائجها - خلاصة الروايات عنها - تعليقات متنوعة - تعليق على ترتيب سورتي الحشر والأحزاب - صورة قرآنية لوقعة الخندق وأثرها ونتائجها - خلاصة الروايات عنها - تعليقات متنوعة - صورة قرآنية لوقعة الحديبية وظروفها ونتائجها - خلاصة الروايات عنها - تعليقات متنوعة - صور قرآنية لأحداث متصلة بصلح الحديبية - الإشارات القرآنية الغامضة في القرآن إلى فتح مكة - خلاصة الروايات عنه - تعليقات متنوعة - صورة قرآنية ليوم حنين - خلاصة الروايات عنه - مدى حظر دخول المسجد الحرام على المشركين الوارد في القرآن وصلته بإسلام أهل الطائف - صورة قرآنية لسلاح الشعر في الجهاد .

الصورة الأولى

سنستعرض في هذا المبحث الفصول القرآنية التي تنطوي - على حسب ما تبادر لنا وذكره الرواة المفسرون - على وقائع جهادية . سواء منها المهم والثانوي ، على حسب ترتيب وقوع هذه الوقائع الذي تواترت الروايات عنه وأيدته روايات ترتيب النزول أيضاً . وقد رأينا أن نكمل الصور القرآنية لكل وقعة ذكرت في القرآن بإسهاب أو اقتضاب أو إشارة ، بالروايات الواردة عنها في كتب السيرة والتفسير ، مع إبداء ما يعن من ملاحظات في صدد ذلك .

الصورة الثانية

(١) في سورة الحج هذه الآية :

« أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ... »

وهي تلهم أن المسلمين كانوا يقاتلون فأذن الله لهم بالدفاع ووعدهم بالنصر . وأكث الرواة على أن هذه الآية مع الآية التي قبلها والآيتين اللتين بعدها أول ما نزل في العهد المدني في صدد الجهاد . فيكون فيها أولى إشارة إلى واقعة جهادية في وقت مبكر من هذا العهد ؛ لأن جملة (يقاتلون) لا يمكن أن تحمل إلا على ذلك فيما هو المتبادر .

(٢) وفي سورة البقرة هذه الآيات :

« وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ . وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ... »

١٥٤ - ١٥٦

وهي تلهم أن بعض المسلمين استشهدوا في سبيل الله فهدفت إلى تسلية ذويهم وإيدان المسلمين بأنهم سوف يتعرضون لمختلف أنواع البلاء في سبيل الله . والمتبادر أن هذا الاستشهاد قد كان نتيجة عدوان أو اشتباك مع العدو . وسورة البقرة من أوائل ما نزل من القرآن في العهد المدني . فيكون في الآيات كذلك إشارة أولية إلى واقعة جهادية في وقت مبكر من العهد المدني كذلك .

(٣) وفي سورة البقرة هذه الآيات :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنْ أَتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى

عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ . . . »

١٩٠ - ١٩٤

والآيات تأمر المسلمين بقتال من يقاتلهم في حدود معينة . وهي ذات صلة بهذا المبحث
من حيث أنها تفيد أنه كان هناك من يقاتل المسلمين منذ وقت مبكر من العهد المدني .
(٤) وفي نفس السورة هذه الآيات :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْقِتْنَةُ
أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ
مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . . . »

٢١٧ - ٢١٨

والآيات تلهم أن اشتبا كآ وقع في الشهر الحرام بين فريق من المسلمين وفريق من
المشركين فأثار المشركون ضجة حول ذلك وزعموا أنه خرق لتقليد الأشهر الحرم المقدس .
ويبدو أن الضجة أثرت في بعض المسلمين وجعلتهم يتساءلون هذه الأسئلة التي رددتها
الآيات . وقد ردت الآيات على الضجة رداً مفجأ فيه تبرير لما وقع وثناء وتنويه عن
المجاهدين المسلمين .

ولقد روى رواية السيرة^(١) خبر بضع حوادث جهادية في شكل سرايا سيرها النبي
صلى الله عليه وسلم في بحر الشهور السبعة عشر التي أعقبت الهجرة وسبقت وقعة بدر
المشهورة . منها واحدة بقيادة حمزة عم النبي . وثانية بقيادة عبيدة بن الحارث بن عبد
المطلب بن عم النبي . وثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص . ورابعة بقيادة عبد الله بن جحش

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٤٣ - ٤٩ وابن هشام ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٤٣ .

رضي الله عنهم وذلك بالإضافة إلى غزوتين خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رأسهما واحدة إلى الأبواء وثانية إلى الأبواء. وهذه الغزوات والسرايا كانت تخرج على ما ذكرته الروايات لاعتراض قوافل قريش . وكانت هذه القوافل تنجو فلم يقع قتال بين المسلمين وقريش باستثناء سرية عبد الله بن جحش حيث وقع بينها وبين المشركين اشتباك في مكان يعرف ببطن نخلة . وكانت في الشهر السابع عشر للهجرة . وقد قتل المسلمون واحداً من المشركين وأسروا اثنين وغنموا القافلة . وجميع المجاهدين في هذه الغزوات والسرايا كانوا من المهاجرين . وآيات البقرة ٢١٧ - ٢١٨ نزلت في صدد هذا الاشتباك الذي اشتبه في وقوعه في شهر رجب المحرم . وآية البقرة (٢١٨) تؤيد ما روي من أن المجاهدين في هذه السرايا والغزوات كانوا من المهاجرين فقط كما هو المتبادر من نصها . وقد عللت الروايات أن عهد الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم كان للدفاع والحماية في دارهم وكان الثأر بين المهاجرين والمشركين فقط لسابق ما سلف منهم ضدهم فلم يندب النبي صلى الله عليه وسلم لها إلا المهاجرين . وهو تعليل وجيه .

وواضح من الروايات أن هذه الغزوات والسرايا كانت حركات هجومية من المهاجرين ضد قريش . هذا في حين أننا نقرأ جملة (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) في آية الحج (٣٩) وجملة (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) في آية البقرة (١٩٠) وجملة (وما يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) في آية البقرة (٢١٧) وجملة (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء) في آية البقرة (١٥٤) . وكل هذا يفيد أن المشركين كانوا يقاتلون المسلمين وأن من المسلمين من استشهد في القتال . فنحن نسجل هذا لأن نصوص الآيات تفيده وإن لم نطلع في الروايات على ما يوضحه .

الصورة الثالثة

(٥) وسورة الأنفال - التي يجيء ترتيبها في النزول بعد سورة البقرة - احتوت فصلاً أجمع المفسرون والرواة على أنها في صدد وقعة بدر الكبرى ، واسم هذه الوقعة قد

ورد في الآية التالية من سورة آل عمران - التي يجيء ترتيب نزولها بعد الأنفال - على سبيل التذكير بنصر الله فيها ، والتسلية عما كان من آلام وقعة أحد على المسلمين :

١ — وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ...

١٢٣

أما فصول سورة الأنفال فهي هذه :

١ — يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ...

٤ - ١

٢ — كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ . إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ

الْأَعْنَاقِ وَأُضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . ذَلِكَ لَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ...

١٤ - ٥

٣ — فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . ذَلِكَ لَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ . إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ...

١٩ - ١٧

٤ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْأَبْكُمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَثَاوَلَكُمُ وَيَدَّكُمْ بَنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ...

٢٨ - ٢٠

٥ — إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ . لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي

جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنِ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَآقَدَ سَلَفٍ وَإِنْ
يَمُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ . وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ
كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ . وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ
خُصَّهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ
ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ . إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ
وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خِلَافَ لَكُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ
مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ يُرِيكُمُ
اللَّهُ فِي مَنَامِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَفَرَّقْتُمْ فِي الْأُمُورِ وَلَكِنْ
اللَّهُ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَغْنَيْنِكُمْ قَلِيلًا
وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَغْنِيهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ...

٤٤ - ٣٦

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقَيْتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ
وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ . فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ
نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ
اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

٤٩ - ٤٥

٧ - مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُبْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ
الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ
فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا
يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِنْ يُرِيدُوا
خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَدِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى
يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ...

٧٢ - ٦٧

وهذه الفصول قد نزلت بعد الواقعة ، والمتبادر المستلهم من أسلوبها ومضامينها أنها
نزلت بقصد تنبيه المسلمين إلى ما كان من تأييد الله لهم وعدم إمكان انتصارهم لولا
ذلك وإيجاب الرضاء عليهم بقسمة الغنائم ، أو بتعبير أدق بفرز الخمس منها ، وإطاعة
الله ورسوله وعدم التنازع والشقاق ، والتذكير بموقف المنافقين ، وتأيد ما فعله
النبي صلى الله عليه وسلم في الأسرى ، مع العتاب عليه لأنه خلاف الأولى ؛ ومع ذلك
فإن من الممكن أن تقتبس منها صورة كاملة إلى حد ما لأسباب الواقعة وسيرها ونتائجها ،
نرسمها كما يلي :

١ - إن الله قد ألهم نبيه الخروج إلى العدو فندب المسلمين إلى ذلك ، ممنيا إياهم
بأن تكون لهم الغلبة على الطائفة غير ذات القوة التي أجمع المفسرون والرواة على أنها
قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام .

- ٢ - لقد لبى الدعوة المهاجرون والأنصار معا .
- ٣ - لم يتحقق الأمل بقاء القافلة ، ووجد المسلمون أنفسهم أمام الحملة المستعدة للحرب والتي جاءت لإنقاذ القافلة بناء على استصراخ قائدها ، والمجهزة بالعدة والعدد ، والتي تفوقهم كثيرا في هذا وذاك .
- ٤ - لقد كان رأي النبي صلى الله عليه وسلم وقد خرج ملهما إلى العدو أن يناجز الحملة ، فكان هذا موضع أخذ ورد ؛ وقد جادل بعض المسلمين النبي في هذا الرأي معتبرين أنفسهم كأنما يساقون إلى الموت من جراء لقاء عدو أكثر عددا وأقوى عدة ؛ غير أنه لم يكن للجدل محل لأن الحرب أصبحت واجبا لا محيص عنه بعد أن علم كل فريق بالآخر .
- ٥ - إن كلا من الفريقين نزل في منطقة واحدة على غير ميعاد ، إذ كان المسلمون في طرف الوادي الأدنى والمشركون في طرفه الأعلى ، حتى أصبح تجنب الحرب غير ممكن بحال .
- ٦ - إن المشركين قبل أن يلقوا المسلمين كانوا يستشعرون القوة والبطر ، وقد أنفقوا لتجهيز الحملة طائل الأموال ، وذهبوا قبل السفر إلى آلهتهم واستفتحوها ، أي طلبوا منها النصر والفتح على النبي وصحبه .
- ٧ - إن المسلمين والمشركين معا قد قدر كل منهم خصمه أقل عددا مما هو ، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى المشركين في منامه كذلك أقل مما هم ، فكان هذا من أسباب إقدام كل من الفريقين على المناجزة .
- ٨ - إن النبي صلى الله عليه وسلم حينما احتدمت المعركة أخذ يستغيث الله فألهم أنه عمده بألف من الملائكة بقصد البشرى والتثبيت .
- ٩ - لقد كان في ظروف المعركة بعض مظاهر تأييدية للمسلمين طمأنتهم بأن الله معهم ؛ فقد كانوا تعبين قلقين فلم يقدرُوا أن يناموا مع شدة حاجتهم إلى النوم ، فألقى الله في قلوبهم الطمأنينة وغشاهم النعاس فناموا واستراحوا ؛ وكانت حاجتهم ماسة إلى المطر فأمطروا وقضوا بذلك حاجاتهم .

١٠ - إنه كان ثمة خلاف ونزاع بين المسلمين في صدد قسمة غنائم الوقعة ، وإنه بدا من بعضهم شيء من التردد في قبول وتنفيذ واستماع أقوال ومقترحات النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن هذا أوشك أن يجر إلى الفتنة .

١١ - إن النبي صلى الله عليه وسلم أوعز بعدم الإثخان الشديد في العدو وأسر من يمكن أسره دون قتله منهم ، وإنه رأى بعد المعركة أن يطلق سراح الأسرى مقابل الفدية على أن يأخذ منهم عهداً بعدم خيانتهم أو حربه أو الكيد له مرة أخرى ، وإن الآيات بحق الأسرى قد نزلت قبل إطلاق سراحهم معاتبة على هذا الرأي الذي هو خلاف الأولى ، ومجيزة له مع ذلك ، وأمره النبي بوعظ الأسرى وترغيبهم وإنذارهم . وطبيعي أنه نفذ أمر الله ووحيه .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

والروايات ^(١) المعتبرة تنسق إجمالاً مع الصورة التي أمكن اقتباسها من الآيات مع بعض تفصيل نلخصه كما يلي :

علم النبي صلى الله عليه وسلم أن قافلة تجارية لقريش آتية من الشام ، وليس معها حامية كافية ؛ فندب المسلمين للخروج لعل الله يهبها لهم ؛ فخرجوا خليطاً من المهاجرين والأنصار ؛ وفي الطريق عرفوا أن القافلة نجت ، وأن حملة قوية آتية من مكة ، فاقترح بعضهم العودة وعدم الاشتباك لأنهم إنما خرجوا للقافلة ، غير أن فريقاً آخر من المسلمين أبدوا استعدادهم للاشتباك ؛ وبعد التشاور تم الرأي على ذلك ؛ ومما ذكرته الروايات أن النبي لم يعزم على الدخول في المعركة إلا بعد أن أعلن زعماء الأنصار رضاهم واستعدادهم للدخول فيها ، إذ طلب أن يشير عليه الناس حتى فهم الأنصار أنه يعينهم ، فقال له زعماءهم : امض يا رسول الله لما أمرك الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت البحر بنا لخضناه . وذلك لأنه لم ير له حقاً عليهم في الحرب خارج المدينة ، لأنهم إنما وعدوه

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٥٠ - ٦٩ وابن هشام ج ٢ ص ٢٤٣ - ٤٢١ .

بالحماية والدفاع عنه في دارهم ، وقد اطمأن بعض المشركين بنجاة القافلة فاقترحوا العودة ، فأبى بعض صناديدهم إلا البقاء على ماء بدر يشربون ويطربون ، ابتهاجاً من جهة وإظهاراً لقوتهم من جهة أخرى ؛ وقد اشتبك المسلمون مع المشركين وكانوا يبلغون ثلاثة أمثالهم ، فثبت الله المسلمين وشملتهم عنايته وروحانيته ، واستفرقوا حتى رأوا الملائكة تقاتل معهم ، وأخذوا يتحدثون بذلك ، وصبروا واستماتوا حتى تم لهم النصر ، وقتل في المعركة نحو سبعين من المشركين فيهم عدد غير يسير من الصناديد الذين قادوا حملة المشاقة والمعارضة في مكة ، كما أسر نحو هذا العدد : فيهم عم النبي العباس وبعض أقاربه ، وقد نصب للنبي عريش لمشاهدة سير المعركة ، فكان يضرع فيه إلى الله ليؤتية النصر بشدة واهتياج ، هاتفاً لربه بقوله : « اللهم إذا غلبت هذه الفئة فلن تعبد في هذه الأرض » ؛ وقد اختلف المسلمون بعد المعركة في شأن توزيع الغنائم ، فمنهم من رأى أن توزع على الذين حاربوا ، ومنهم من رأى أن توزع على من حضر المعركة حارب أو لم يحارب ، كما كان اختلاف بشأن أسلاب القتلى ونسبة التوزيع بين الركبان والمشاة - ومما ذكرته الروايات أيضاً أن زعماء مكة تخوفوا من بني كنانة أن يأتوهم من خلفهم إذا هم خرجوا ، فتمثل إبليس لهم بصورة زعيم بني كنانة وقال لهم إني جار لكم فلا تخشوا من قومي بأساً ؛ وأن النبي شاور أصحابه في شأن الأسرى فمنهم من ارتأى قتلهم لإرهاب أهل مكة - وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من هؤلاء - ومنهم من جنح إلى الرفق وأخذ الفداء - وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه من هؤلاء - فأخذ النبي برأيه ؛ ثم نزل القرآن بالعتاب حتى بدا الخوف على النبي وصاحبه وبكوا لما كان منهم من خلاف الأولى الذي في علم الله المغيب عنهم .

وإذا كان ثمة شيء من التعليق على الروايات التي قلنا أنها تنسق إجمالاً مع الآيات فهو أن الصورة القرآنية أقوى وضوحاً وحيوية من الروايات ؛ وأن الآيات تلهم أن الخلاف في صدد الغنائم إنما كان على فرز الخمس أكثر منه على طريقة التوزيع ومقداره ،

لأن الكلام فيها مصبوب على ذلك ، وأكثر ما جاء في صدد نصر الله وتأييده قد استهدف تشريع الخمس ، وإيجاب قبوله والرضا به .

ويلمح من الفصول ومن الآيات ٥٥ - ٦٣ التي نقلناها في مبحث التنكيل باليهود والآيات ٦٥ - ٦٩ التي نقلناها في مبحث الدعوة إلى الجهاد ، ما كان للانتصار من أثر في استعلاء الإسلام ، وشعور المسلمين بالعزة والقوة والتأييد الرباني الذي غلبت به فئة قليلة فئة كبيرة ، والرغبة في اعتبار الفرصة سانحة لدعوة الكفار الذين كانت الضربة عليهم قاصمة إلى الانتهاء من موقفهم الجحودي والعدائي ، وللتنكيل بالناس كثرين والخائفين ، وهم يهود بني قينقاع ، على ما ذكرناه في مبحث التنكيل .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

ونريد أن ننبه إلى بعض نقاط تلهمها الآيات والروايات التي تتسق معها ؛ فإني يتبادر لنا أن تردد بعض المسلمين في الاشتباك مع القرشيين ، ورغبة النبي صلى الله عليه وسلم في الاستماع إلى رأي الأنصار في ذلك - ينطوي على ما كان مقدراً للنضال بين مشركي مكة والمسلمين في المدينة - وخاصة أهلها الذين لم يكن قد قام بينهم وبين أهل مكة عداً صريح - أن ينتهي إليه من مظهر عنيف بهذا الاشتباك أخذت تبدو آثاره الخطيرة فيما كان من اشتداد أحقاد المكيين وتحفزهم للانتقام لدمهم وهيبتهم ، وفيما كان بعد ذلك من غزوهم المدينة أولاً وثانياً بحشود عظيمة أزعجت المسلمين أيما إزعاج وأوشكت أن تكون كارثة على الإسلام ،

ومما لا نرتاب فيه من الناحية الثانية أن النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه المحلصين وخاصة كبار المهاجرين منهم قد رأوا في احتمال انتصارهم على المكيين فوائد عظيمة بعيدة المدى ، سواء فيما يكون من إزعاجهم بتهديد طريق تجارتهم وهي من دعائم كياناتهم القوية ؛ أو فيما يكون لهزيمتهم من أثر عظيم من ناحية إضعاف هيبة مكة ونفوذها على العرب ، ومن ناحية تعالى قوة الإسلام ، وانفساح المجال لانتشار الدعوة الإسلامية

بالتبعية ، فكان هذا مما جعلهم يقدمون ، لا سيما أن وعد الله قد تكرر لهم بلسان القرآن بالنصر والتأييد ، وكانوا يؤمنون أعمق الإيمان بتحقيق الله وعده لهم ، ولعل في الآيات ٧ - ٨ و ١٣ - ١٦ ما يقوي هذا التقرير .

ولقد أحدث اشتراك أهل المدينة في المعركة تطوراً عظيماً وحاسماً في موقف كل من المدينتين الكبيرتين تجاه الأخرى ، وكان بدءاً لعهد عدااء صريح وقوي بين الأوس والخزرج من ناحية ، والمكيين من ناحية أخرى لم يكن له سابقة ؛ وهو ما حسب هؤلاء حسابه وعواقبه حينما أزمعوا اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم وعدم تمكينه من الإفلات من أيديهم والهجرة إلى يثرب على ما نبهنا إليه في مناسبة سابقة ؛ كما أنه أحدث تطوراً بارزاً في التضامن القوي الدموي - بعد الديني - بين المهاجرين والأنصار ؛ وهو ما استهدفت الآية (٧٢) تقريره على ما هو المتبادر ، بحيث اعتبرت الولاء بينهم أمراً راهناً وموطداً دون المؤمنين الذين لم يهاجروا .

وكذلك كان تشريع خمس الغنائم ذا خطورة عظيمة ، من ناحية أنه أول تشريع قرآني مالي رسمي غير الزكاة توطد به بيت المال في الإسلام ؛ وتيسر به تحقيق مادعا إليه القرآن من مساعدة الطبقات المحتاجة والإنفاق في سبيل مصالح المسلمين العامة بأسلوب رسمي غير قائم على التبرع ولا ريب في أن توطيد بيت المال في العهد المدني ، وتعيين حق ثابت له يتسلمه وينفق منه أمر عظيم المدى .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

ولأجل الترتيب التاريخي في ذكر الوقائع الجهادية نذكر بما مر في فصل اليهود مما استدللنا عليه من بعض آيات سورة الأنفال وغيرها من ظروف ونتائج وقعة بني قينقاع ، ومن أنها قد وقعت بعد مدة قليلة من وقعة بدر ، وكان لهذه الوقعة أثر مافي ظروف وقوعها أيضاً .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

(٦) وسورة آل عمران التي يجيء ترتيبها في النزول بعد سورة الأنفال احتوت فصولاً عدة أشير فيها إلى حوادث وقعة حربية بين المسلمين والمشركين دارت فيها الدائرة إلى حد ما على الأولين ؛ وهذه الوقعة لم يرد اسمها في القرآن ، ولكن الروايات أجمعت على أنها وقعة أحد ، حتى ليعدها يقينا . وأحد : جبل مشرف على المدينة ؛ وقد كان المشركون أهل مكة قد جاؤوا ينتقمون لهزيمتهم ودمهم وكرامتهم في وقعة بدر .

وإليك أولا الفصول القرآنية :

١ — وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .
 إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَحَلَّى اللَّهُ فُلَيْتَوْ كُلِّ الْمُؤْمِنُونَ .
 وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ يَقُولُ
 لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ كُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ .
 بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُبَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ
 الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ
 وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . لِيَقْطَعَ طَرَقًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ
 يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ . لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ
 فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ...

١٢١ - ١٢٨

٢ — قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُكْذِبِينَ . هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا
 وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ
 وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ
 وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ . أَمْ

حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ . وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ . وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ . وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَتَأْتِيهِمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ . سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَهُمْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبَشَإِ مَشْوَى الظَّالِمِينَ . وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنِ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَارِكُمْ فَأَتَيْتُكُم عَمَّا بَيْنَكُمْ لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَاعَسًا يَفْشَى طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا مَاتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ

الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَمَّا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ . بَلَايَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِلَّهِ تُمْشَرُونَ . فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ . إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَكَلَى اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَفْلُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ...

١٦١ - ١٣٧

٣ — لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أُنِّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا تَحْسَبَنَّ

الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاَهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا
 آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ
 عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا
 مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
 فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ
 يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَاكُمُ الشَّيْطَانُ
 يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ
 يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي
 الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا
 وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكُمُ لَئِيْلٌ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا لَكُمْ
 لَهُمْ لِيَزَادُوا إِيمَانًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ
 عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ
 يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ
 عَظِيمٌ ...

١٦٤ - ١٧٩

الصُّورَةُ الثَّامِنَةُ

ويصدق ما قلناه في صدد فصول سورة الأنفال على هذه الفصول من حيث أنها
 نزلت بعد انتهاء المعركة ؛ وقد استهدفت في الدرجة الأولى طمأنة المسلمين وتسليتهم عما
 حل بهم من أثرها ، وعتابا على ما كان من بعضهم في ظروفها ، وتقريع المنافقين على
 مواقفهم فيها ، والتنويه بالخلصين لما بدا منهم من حسن الاستجابة ، وتوجيهات
 للنبي صلى الله عليه وسلم في مداراة المسلمين الخ . . . ومع ذلك فإن من الممكن أن

يقتبس منها كذلك صورة كاملة إلى حد ما لسير المعركة ونتائجها نرسمها كما يلي :

١ - إن المعركة وقعت قرب المدينة ، إذ غدا النبي صلى الله عليه وسلم من أهله لاختيار مكان صالح للقتال ؛ وقد كانت في طرف الجبل الثاني ، إذ أن المسلمين حينما انهزموا أخذوا يصعدون حتى يبلغوا الذروة لينفحدوا منها إلى المدينة .

٢ - إن المهاجرين والأنصار قد اشتركوا في المعركة .

٣ - إن فريقا من المنافقين أيضا قد خرج مع من خرج من المؤمنين ، كما أن فريقا آخر ظل قاعداً ولم يخرج وحاول تثبيط من يتصل به من المسلمين .

٤ - لقد دار جدل ووقع خلاف على الخطة التي يجب السير عليها . وكان زعماء المنافقين في جانب الذين رأوا غير ماتم تنفيذه برأي النبي وموافقة أكثر المسلمين ، أو بالأحرى ذوي الرأي منهم .

٥ - إن فريقاً من المسلمين كانوا تحمسوا للقاء العدو حينما علموا بقدومه ، وأخذوا يتحدثون الموت ، ويبعدون استعدادهم للقاءه .

٦ - إن المنافقين الذين خرجوا مع المسلمين انسحبوا قبل نشوب المعركة بحجة أنهم لا يعتقدون بنشوبها .

٧ - إن فريقين من المخلصين - والمقصود على الراجح بطنان أو طائفتان من بطنين - داخلهم شيء من الوهن وكادوا ينسحبون ولكن الله ثبتهم .

٨ - لما دارت المعركة كان النصر في بدئها للمسلمين ، إذ أخذوا يشخنون في أعدائهم ويرون ما يحبون من النصر والغلبة ، وكادوا يكسبون المعركة ؛ وقد كان فريق من المسلمين قد أمروا أن يكونوا في موقف خاص فلما رأوا النصر يكاد يتم للمسلمين اقترح بعضهم ترك المكان واللاحاق بالمسلمين لمشاركتهم في الغنائم خشية أن تؤخذ من دونهم ، ألا ينالوا من النبي حقهم فيها ؛ وخالف ذلك البعض الآخر مفضلين التمسك بطاعة النبي فيما أمر ورضاء الله حتى انشقوا وتنازعوا ، ثم فارق الذين اقترحوا ترك المكان مكانهم

فاختل التدبير الحربي ، ولم يلبث أن تغير الموقف واقلبت الحرب على المسلمين بسبب ذلك ، ودب الذعر فيهم وانهزموا صاعدين في الجبل لا يلوون على شيء .

٩ - إنه شاع أثناء المعركة - أو بالأحرى في أثناء بلبلة الهزيمة - أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل فكانت الشائعة سببا في اشتداد الذعر والهزيمة .

١٠ - إن النبي صلى الله عليه وسلم ظل ثابتا في الميدان يدعو الناس إليه ؛ وقد استجاب له فريق من المخلصين وأمكن بذلك تغطية الموقف وتلافي الهزيمة التامة .

١١ - لقد استشهد من المسلمين فريق وأصيب بجراح فريق .

١٢ - إنه كان للمنافقين بعد المعركة موقف كيد شديد استهدفوا به فيما استهدفوا إثارة غيظ المسلمين على النبي صلى الله عليه وسلم والذين تضامنوا معه من المخلصين ، وتحقيق شيء مما استهدفوه إذ اندمج بعض هؤلاء معهم في العتب واللوم والقول بأنه ليس لنا من الأمر من شيء ولو أخذ برأينا لما وقع علينا ما وقع وقتلنا في الميدان ؛ وقد حاول بعض المنافقين تثبيط بني قومه في بدء الأمر ؛ ثم أخذوا يهتفون قائلين إن إخوانهم لو أطاعوهم ماقتلوا حيث قتلوا .

١٣ - لقد داخل المسلمين شيء كثير من الحزن والجزع والألم على ما وقع لهم ، وعلى من استشهد منهم ، حتى لقد اندمج بعضهم في تهوئش المنافقين ودسهم ، وكاد بعضهم يستجيب إلى دعوة دعا إليها الكافرون كما يستلهم من الآية ١٤٩ وإن لم تعين ماهية الدعوة ؛ وأكثر الفصول تدور على هذا المظهر ، بل إنه ليصح أن يقال إنها نزلت في صده لتسلي المسلمين ، وتبث فيهم الطمأنينة والسكينة ، وتبشرهم وتعظمهم وتقرر أن ما كان إنما كان بأيديهم فقد نصرهم الله وأراهم ما يحبون ، ولكنهم فشلوا وتنازعوا وعصوا فابتلاهم بما بُلوا به ليعتبروا وليتعظوا ، وإن ما وقع عليهم هو نصف ما أصابوا به عدوهم ؛ ولتنوّه بالثابتين المخلصين ، ولتندد بالمنافين وتفضحهم ، وتبشر المسلمين بحسن العاقبة ، وخسران الكفار في النهاية مهما ظهر عكس ذلك الخ . . والآية ١٥٨

تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قابل هذه الأزمات النفسية بصدر رحب ، وجأش رابط ، وأن هذا أدى إلى تخفيف هذه الأزمات شيئاً ما .

١٤ - إنه نعى للنبي أن المشركين يهيمون بالسكرة عليهم ثانية فندب الناس فاستجاب إليه المخلصون بالرغم مما أصابهم من آلام وتعب وجراح ، وإن بعض الناس حاولوا تخويفهم الأعداء فجاءت محاولتهم بعكس ما أرادوا إذ ازدادوا إيماناً واعتماداً على الله وساروا مع النبي صلى الله عليه وسلم أو لبثوا ينتظرون كرة العدو ، ولكنه لم يفعل فعادوا دون أن يمسهم سوء .

الصورة التاسعة

والروايات^(١) متسقة إجمالاً كذلك مع الآيات إلا بعض تفصيل نلخصه فيما يلي :
حينما بلغ النبي خبر عزم المسلمين على غزو المدينة استشار المسلمين المخلصين وغير المخلصين - المنافقين - في الموقف ، فأشار الأكثر بالتحصن في المدينة ، والاستعداد لقتال العدو إذا هاجمهم في عقر بيوتهم ، فإما أن يحجم فيرتد وإما أن يفعل والنصر لصاحب الدار على ما تعودوا ؛ وقد جنح النبي إلى هذا الرأي في بادئ الأمر ؛ غير أن فريقاً من المسلمين - وتذكر الروايات أنه من الشباب الذين لم يشتركوا في بدر وسمعوا من أخبارها ما ألهم حماسهم لنيل نصر مماثل ينالون به ثناء الله ورضاءه ، والفخر والاستعلام - أخذوا يتحمسون ويبدون استعدادهم للموت ، واستعظامهم وقوف المسلمين هذا الموقف الدفاعي البحت الذي يكشف عن خوف ووهن ، ويلحون بالخروج ومقابلة العدو خارج الجدران ، إلى أن مال النبي إلى ذلك ، فدخل بيته ولبس عدة قتاله وندب الناس إلى الخروج وفي وجهه شيء من الاستكراه ؛ وقد ندم الملحون على إلحاحهم وأعادوا الأمر إلى النبي فأذنهم أنه لا يصح لنبي لبس عدة حربه أن يخاعها قبل أن يقاتل ، وأكد نداءه للخروج ، فخرجوا في نحو ألف ، وكان عدد الغزاة نحو ثلاثة آلاف ؛ وقد أعلن عبد الله بن أبي أنه قرر

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٧٨ - ٩٠ وابن هشام ج ٣ ص ١٦٠ .

الانسحاب فانسحب معه نحو الثلث ؛ وقد أثر هذا ببطين من بطون الخزرج حتى هـا أن ينسحبوا ثم عادا وثبتا ؛ وقد أمر النبي فريق الرماة باحتلال مكان عال من وراء الميدان ، ورشق العدو بالنبل وحماية ظهر إخوانهم ، وشدد عليهم بعدم مزايلة مكانهم في أي حال ، ثم دارت رحى القتال فوق الرعب في قلوب المشركين ، ولاحت أمارات الهزيمة عليهم ؛ ورأى الرماة ذلك فوسوس الشيطان لهم بالنزول للغنيمة ، والخوف من احتجازها دونهم ففعلوا ؛ ولما رأى قائد فرسان المشركين خلو مكان الرماة اغتم الفرصة فدار بخيله من وراء المسلمين وفاجأهم فاضطربوا وذعروا ثم انهزموا لا يلوون على شيء ونال النبي عدة جروح وسقط في حفرة وظن الناس أنه قتل فازداد المسلمون ذعرا وبلبلة وذهب عدد غير يسير من المسلمين شهداء ، وقد ثبت النبي صلى الله عليه وسلم في الميدان وحوله بعض المخلصين ، وأرسل يهتف بالمنهزمين ليطمئنوا ويعودوا ، وأخذ بعض الثابتين والعائدين يستमितون في الدفاع عنه ، وألقى الله الأمن في قلوبهم والخوف في قلوب أعدائهم الذين اكتفوا بما كان وقفلوا راجعين دون التحام آخر ، هاتفين : إن هذا اليوم بيوم بدر ، متواعدين بالهتاف المتبادل على موعد آخر . ومما روي أن المكين ندموا على ترك المسلمين وقد أئمنوا فيهم ، وهموا بالكرة ، ودرى بذلك النبي فندب الناس إلى الخروج ثانية ، فاستجاب المخلصون مع ما هم فيه من جراح وبلاء ومع ما نقل إليهم من قبل بعض القادمين المتواطئين مع العدو من أخبار التجمع ؛ وقد وصل المسلمون إلى مكان يقال له حمراء الأسد فلم يجدوا عدواً لأن المكين لم ينفذوا عزمهم وظلوا في طر يقهم إلى مكة ؛ ومما روي أن بعض المنافقين طلبوا من عبد الله بن أبي زعيمهم أن يتصل بأبي سفيان ويأخذ للمدينة منها أماناً ، وأن الذين تدمروا التذمر الذي حكته الآية ١٥٤ كانوا من المنافقين فقط ؛ ولقد عاتب النبي النبالة على مزايلتهم مكانهم وقال لهم : بل ظنتم أننا نستأثر بالغنائم فلا نقسم لكم فيها .

الصُّورَةُ الْعَاشِرَةُ

وإذا كان لنا تعليق على الروايات فهو أن الصورة القرآنية أقوى حيوية ووضوحاً منها ، وأن الآيات ١٥٤ - ١٦١ تلهم أن الذين حكي تدميرهم في الآية ١٥٤ ليسوا منافقين أو على الأقل ليسوا منافقين فقط ، وأن بعض المسلمين من الطبقة الثانية قد اشتركوا في هذا التدمير متأثرين بشدة الضربة النازلة ؛ وأن هذا التدمير من فريق قليل يلهم أن الخروج إلى مقابلة العدو لم يكن من رأي أقلية وبتأثير حماسة الشبان ، والذي نرجحه إن لم نقل نجزم به أن النبي استشار مختلف الزعماء من الأنصار والمهاجرين والمنافقين ، وأن الخروج قد تم بموافقة أكثر المخلصين من الأنصار والمهاجرين ولا يمنع هذا أن يكون فريق من الشبان بل وغير الشبان قد تحمسوا وتحذوا الموت حينما دروا بقدوم المكيين لغزو المدينة ، لا سيما أن نصر بدر وتأبيدات الله التي شهدها ما تزال ماثلة لأعينهم وماثلة لقلوبهم وأسماعهم ، فكان هذا مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يعتزم الخروج ، وليس من الممتنع أن يكون بعض الزعماء من الطبقة الثانية قد ارتأوا مع المنافقين البقاء وراء الجدران فلم ير النبي أن يأخذ برأيهم ؛ فكان هذا مما غاظهم وغازب المنافقين خاصة فجعل بعضهم لا ينضم إلى الحملة وبعضهم ينسحب منها ، ثم جعلهم يثيرون وساوس المسلمين الذين آلمتهم عواقب المعركة شديد الألم .

وأسلوب الآيات المطمئنة المبشرة واللائمة والمسكنة والواعظة رائع قوي ، من شأنه أن يكون معالجة شافية لكل الحالات التي نشأت من ظروف الواقعة وسيرها ونتائجها ، كما أنه يدل على شدة ما كان من وقع النتائج على مختلف فئات المسلمين أيضاً . وفي استنكار ما كان من هزيمة أو زيادة فوضى بسبب شائعة قتل النبي ، مدى باهر جدا في بث القوة والعزيمة والإقدام في نفوس المسلمين ، وفي تلقينهم أن واجب الاستمرار في الدفاع عن الإسلام ونشره ورفع شأنه واجب عام لا يجوز أن يقعدهم عنه أو يجعلهم يقصرون فيه أي حادث حتى قتل النبي صلى الله عليه وسلم أو موته فهما أمران طبيعيان ومنتظران ،

لأن النبي ليس إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل .

وفكرة غزو المكين للمدينة تدل على أن المسلمين كانوا ما يزالون في حالة ضعف وقلة ، وعلى أن هذا مما كان يعرفه المكين حق المعرفة ، فضلا عن دلالتها على تفوق مكة على المدينة في القوة والبأس بصورة عامة . وإذا صحت رواية أن عدد الغزاة كان ثلاثة آلاف ظهر هذا الضعف واضحا أكثر ، كما أن تفكير بعض الزعماء بعدم الخروج للقاء الغزاة ، والدفاع من وراء الجدر والبيوت يؤيد هذا على ماهو المتبادر .

وموقف المنافقين في ظرف الواقعة تمرداً وتخلفاً وانسحاباً وتأثيراً وتهويشاً وتظاهراً على غير ما يليق ، يدل على أنهم كانوا أقوياء إلى حد ما ، وكانوا مستشعرين بقوتهم كما كان المسلمون مستشعرين بذلك أيضاً . والآيات ١٥٤ - ١٦١ على ترجيح أن المتذمرين مزيج من مخلصين ومنافقين تلهم أن الحكمة اقتضت مسaire الموقف ومدارة المنافقين ، ولا ريب في أنه ينطوى في هذا ما يدعم ما قررناه آنفاً .

الصُّورَةُ الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ

(٧) وفي ترتيب النزول تأتي سورة الأحزاب بعد آل عمران ، وفيها إشارات إلى وقعة الخندق ، مشاهدتها ونتائجها . غير أن الجمع عليه أن وقعة بني النضير التي أشير إليها في سورة الحشر قد وقعت قبل وقعة الخندق ووقعة بني قريظة التي كانت عقبها ، في حين أن هذه السورة تتأخر في ترتيب النزول المروي كثيراً عن الأحزاب ؛ وعلى هذا فإما أن يكون مطلع سورة الأحزاب وبعض فصولها قد نزل بعد سورة آل عمران فجعل ترتيبها بعدها من أجل ذلك ، وإما ألا يكون ترتيبها المروي صحيحاً ؛ ولما كان التثكيل ببني قريظة الذي أشير إليه في سورة الأحزاب شديداً ، ويلهم أنه كان كذلك لأسباب منها عدم اتعاظ اليهود بما كان من عاقبة جماعتهم الأولى ؛ ولما كان هذا التثكيل قد وقع متأخراً ، وكان الجمع عليه أن إجلاء بني النضير قد وقع قبله ، وأن اليهود ذهبوا بعده إلى

مكة ليعقدوا حلفاً مع زعمائها ضد النبي والمسلمين ، وظاهروا جيوش الأحزاب حينما زحفت على المدينة بقضها وقضيضها - فإن من المعقول أن تكون آيات الحشر التي أشارت إلى وقعة بني النضير قد نزلت قبل سورة الأحزاب ، أو على الأقل قبل آيات وقعتي الخندق وبني قريظة .

ولقد بسطنا أسباب وقعة بني النضير وظروفها ونتائجها في فصل اليهود فلا نعود إليها ثانية ، ونكتفي بالإشارة إليها ليلم التسلسل في حلقات الوقائع الجهادية القرآنية على حسب وقوعها .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةُ

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا . قُلْ لَّن يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُنْتَعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ

كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَئْذِنُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا . وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا . وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْمُرُونَ بِفَرِيقًا . وَأَوْزَنَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدَرَبَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْهَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا . . .

٢٧ - ٩

وليس في الآيات ذكر للخندق الذي أجمعت الروايات على أن النبي والمسلمين قد حفروه حول المدينة ، والذي سميت الوقعة به أيضاً . وقد سميت كذلك بوقعة الأحزاب بسبب ذكر القرآن هذه الكلمة ، ولأن الغزاة مجموعة قبائل متحالفة متحزبة ؛ والآيات بسبيل ذكر ما كان من حالة الجزع التي استولت على عامة المسلمين ، ومواقف الدس والتشبيط التي بدت من المنافقين ، والخيانة التي كانت من اليهود ، والتنويه بموقف النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصين ، والتنبيه على ما كان من تثبيت الله ونصره ورد الغزاة بغيبظهم خائبين ، وتمكين المسلمين من اليهود الخائضين لهم بسبيل سرد مشاهد الوقعة ؛ ومع ذلك فإن من الممكن اقتباس صورة لهذه المشاهد كما يلي :

- ١ - إن المشركين قد تجمعوا بجموع كثيرة ، مؤلفة من مختلف القبائل المتحالفة وزحفوا على المدينة حتى أحرقوا بها من فوقها ومن أسفل منها .
- ٢ - إن اليهود في المدينة قد ظاهروا الغزاة على المسلمين .
- ٣ - إن جمهور المسلمين قد كربوا كرباً عظيماً حتى زابت أبصارهم ، وبلغت قلوبهم الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً من الجزع والخوف ، حتى لقد داخل بعضهم الريب في تأييد الله ونصره .
- ٤ - إن المؤمنين الخالصين قد سلموا أمرهم لله وازدادوا إيماناً به واعتماداً عليه ، وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصبروا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ولم يبدلوا موقفهم من الإيمان بالنصر والتأييد ، والتضامن مع النبي والالتفاف حوله .
- ٥ - إن المنافقين ومرضى القلوب أظهروا جزعاً شديداً ، واستغلوا الفرصة لإطالة ألسنتهم بالدس والتثبيط وسوء الأدب ، فقالوا إن الله ورسوله لم يعدهم إلا غروراً ، وهتف بعضهم بأهل المدينة ليرجعوا إلى بيوتهم بحجة أنها مكشوفة للعدو مع كذب ذلك ، وكان قصدهم الفرار في حين أنهم عاهدوا الله ورسوله على عدم الفرار ، وأخذوا يترقبون الحالة ، ويتوقعون الشر بالمسلمين ، حتى أنهم لم يصدقوا حينما قيل لهم إن الغزاة قد ارتدوا عن المدينة خائبين .
- ٦ - إن إهابة المنافقين بأهل المدينة للرجوع إلى بيوتهم وعدم البقاء في المقام الذي اتخذوه تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عسكر بالمسلمين بعيداً بعداً ما عن البيوت .
- ٧ - إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أظهر في هذه الواقعة ما أظهره في غيرها من رباطة الجأش وقوة الأعصاب والنشاط مما كان العامل الأكبر في العاقبة المحمودة التي تمت في ارتداد الغزوة دون أن ينالوا خيراً ، ومما كان أسوة للمؤمنين الخالصين ، وباعث طمأنينة لعامة المسلمين .

٨ - إن الله قد أرسل عاصفة من الريح أزعجت الغزاة أشد إزعاج ، وأوقع في قلوبهم الرعب فيئسوا من نيل وطهرهم ، وارتدوا خائبين ، ولم يقع اشتباك بينهم وبين المسلمين .

الصورة الثالثة عشرة

وفي الروايات^(١) المروية عن هذه الواقعة بعض تفصيل نلخصه كما يلي :

كان زحف الأحزاب نتيجة لتحريض وفد يهودي لزعماء مكة وقبائل غطفان وقيس وغيلان ، وتحالفهم معهم ، وكان عدد الغزاة نحو عشرة آلاف ، وكان زحفهم في السنة الهجرية الخامسة . ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بخبر استعداد الأحزاب للغزو تشاور مع المسلمين ، فاتفق الرأي على المراقبة حول المدينة وعدم الابتعاد عنها كما كان في وقعة أحد ، وتقرر بإشارة من سلمان الفارسي رضي الله عنه حفر خندق حول القسم المكشوف من المدينة ، وتم حفره قبل وصول الغزاة ، وعسكر المسلمون من ورائه ، وكان عددهم ثلاثة آلاف ؛ وقد كان الخندق حائلا دون التشابك ؛ وظل الغزاة عشرين يوماً يحاصرون المدينة ، ولم يقع إلا حوادث قتال وبراز فردية ، وإلا تراشق بالنبال حينما بعد آخر ، ولم يصب إلا أفراد من الطرفين ؛ ثم أتى شخص من غطفان اسمه نعيم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه أنه مسلم يكتم إيمانه واستأمره فيما يقوم به من خدمة ، فأمره بالتخذيل والتثبيط ، فسعى بين اليهود وقريش حتى أوجد الشك والفتور في كل فريق نحو الآخر ، ففترت العزيمة عن المناجزة والاستمرار ، وثار في هذه الأثناء زوبعة شديدة أزعجت الغزاة أيما إزعاج فاشتد فيهم السأم والفتور ، ولم يلبث أبو سفيان قائد قريش أن أعلن أنه مرتحل فتبعه الناس وارتحلوا .

والروايات غير متناقضة مع الآيات إجمالاً ، والمتبادر أن ما جرى في وقعة أحد هو

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٠٨ - ١١٦ وابن هشام ج ٣ ص ٢٢٩ - ٢٥٤ .

الذي حمل النبي والمسلمين على البقاء قرب المدينة ، ويبدو أن الحملة على المنافقين عقب وقعة أحد جعلتهم يعتذرون ويعاهدون النبي صلى الله عليه وسلم على التضامن معه ومع المسلمين في موقف آخر ، فخرجوا وعسكروا معهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتفكروا من نحيبتهم وخبتهم ، ومع أن من المحتمل جداً أن يكون لتحريض الوفد اليهودي أثر في حركة الأحزاب فالذي يتبادر لنا أن المسكين اعتقدوا أن ضربة أحد أثرت في المسلمين تأثيراً كبيراً ، ورأوا أن في الإمكان استئصال شأفة النبي وحركته بزحف كبير يتضامنون فيه مع أحزابهم ومع من بقي من اليهود في المدينة ، فأقدموا على تدبير الأمر حتى جاء على هذا الشكل الرهيب .

ووصف الآيات ما كان من اضطراب المسلمين الشديد يدل على أن اعتقاد المسكين بتحقيق هدفهم المذكور لم يكن واهياً ؛ لا سيما أن المسلمين كانوا ما يزالون قليلين وضعفاء ، وقوة أعدائهم المحيطين بهم تفوقهم كثيراً ، وبينهم مخامرون ، وبين ظهرانيهم خائنون . ولعل الحملة الشديدة اللاذعة التي حملتها الآيات على المنافقين ، وما كان من عدم الهوادة في التنكيل ببني قريظة ، متصلاً بهذا الموقف العصيب الذي واجهه المسلمون وواجهته الحركة الإسلامية ؛ ولذلك نرى من الحق أن يعتبر ارتداد الأحزاب عن المدينة نصراً ربانياً عظيماً ، بل من أعظم ما تم للنبي ودعوته من نصر وتوفيق ؛ ومما لا يرتاب فيه أنه كان ذا أثر كبير فيما تم من تعالى الإسلام ، وانتشار قوته ودعوته فيما بعد ، وأنه كان لهذا الارتداد أثر سلبي وإيجابي في آن واحد ؛ إذ جعل العرب المتربصين والأعداء والمنافقين في المدينة يرون في هذه النتيجة دلالة النصر الرباني والقوة المعنوية العظيمة ؛ فيقف الأعداء عند حدهم ، ويكف المنافقون عن موقفهم أو علوئهم ، ويبدل المتربصون موقفهم من التربص إلى الإقبال . ومن حقائق وقائع السيرة النبوية أن الدعوة الإسلامية والقوة الإسلامية قد أخذتا بعد هذه الواقعة وبعد التنكيل ببني قريظة ، وخضد شوكة اليهود في المدينة نهائياً بالازدياد ، وأن قوة المنافقين قد أخذت بالضعف والتضاؤل ،

وأن المكيين لم يفكروا في متابعة عدوانهم وزحفهم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى في نفسه القوة وفي الميدان مجالا في السنة التالية من هذه الواقعة على اعتزام زيارة الكعبة ، وأن المكيين قد رأوا فيه هذه القوة ، فجنحوا إلى مسالته وعقدوا معه صلح الحديبية على ما سوف نذكره بعد ؛ وكل هذا مما يدعم ما قلناه من أثر هذا النصر العظيم السلمي والإيجابي .

ولقد بسطنا الكلام على وقعة بني قريظة وتفكيكهم في فصل اليهود ، وهي الواقعة التي أشير إليها في آيات الأحزاب ٢٥ - ٢٧ ، والتي تأتي في حلقة الوقائع الجهادية القرآنية بعد وقعة الخندق ، فنكتفي بالإشارة إلى ذلك .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةُ

٨ - وفي سورة الفتح آيات احتوت إشارات إلى حدث عظيم من أحداث العهد المدني يسلكه كتاب السيرة في سلك الأحداث الجهادية بسبب ما كان فيه من مشاهد تمت إلى هذه الأحداث ، وهو صلح الحديبية .

وهذه هي آيات سورة الفتح :

١ - إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا . هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا . وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِأَنَّ اللَّهَ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ...

٢ — إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا .
سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنَ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا . وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا . . .

١٠ - ١٣

٣ — لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَعَدَ كُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ...

١٨ - ٢٠

٤ — وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ لِّيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا . لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ

اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ...

٢٨ - ٢٤

وسورة الفتح أو معظم آياتها على الأقل نزل بعد الصلح ، كما هو شأن الفصول القرآنية في الوقائع الجهادية ، واستهدفت على ما تلهم مضامينها وأسلوبها التوسكين والتنوية ، والتنديد والتذكير برحمة الله وعنايته بالمسلمين ، تعقيبا على ما كان من توتر بين المسلمين بسبب نتائجها ؛ ومن الممكن اقتباس الصورة الآتية عنها :

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةُ

١ - إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أنه دخل مع المسلمين المسجد الحرام آمنين ، وأدوا الزيارة ، وتحلوا من الإحرام بحلق الشعر أو تقصيره على حسب تقاليد الزيارة والحج ؛ فاعتبرها إلهاما من الله ، وأعلن للمسلمين عزمه على الخروج إلى الزيارة ، وندب المسلمين من أهل المدينة والأعراب للخروج معه .

٢ - وقد استجاب كثيرون إلى الدعوة ، وتحلف فريق من الأعراب عنها ظنا أن النبي صلى الله عليه وسلم سيلقى مقاومة وحربا وأنه لا قبل له بأهل مكة وقد لا يرجع هو ومن معه إلى أهلهم أبداً .

٣ - ولما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى قرب مكة (بطن مكة) تصدى له المكيون ، وأنذروه بالتوقف ، وصدوه عن الزيارة ، وصدوا الهدي الذي ساقه المسلمون ليقربوه إلى الله عن الوصول إلى المكان الذي تقرب فيه الأضاحي .

٤ - ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما كان من المكيين اعتزم هو أيضا أن يقف موقفاً قويا ، فدعا من معه من المسلمين إلى مبايعته على الثبات والتضامن ، فأقبلوا على البيعة تحت شجرة كان يأوي إلى ظلها ، وبدأت أمارات ما في قلوبهم من الإيمان والعزيمة على نصرته النبي على وجوههم .

٥ - ولقد كانت جولة حربية ما ظفر فيها المسلمون ، ثم شاعت حكمة الله أن يكف أيدي الفريقين بعضهما عن بعض .

٦ - وقد تمسك المكيون ببعض الأمور التي رأوها من مقتضيات الكرامة والحمة ، فقابل النبي ذلك - بإلهام الله - بالتساهل والسكينة لما رآه في الموقف من الفتح العظيم .

٧ - إن روح الآيات وبعض نصوصها تلهم أن بعض المسلمين قد استعظموا ما كان من تساهل النبي مع الكفار ورضائه بعدم الزيارة التي ألهمها في منامه فورا ؛ إذ احتوت كما أشرنا طمأنة وتسكينا ؛ فكررت وصف ما تم بالفتح العظيم والفتح المبين والفتح القريب ، وكررت ذكر ما كان من إنزال الله السكينة على رسوله والمؤمنين للفوز بهذا الفتح ، وأكدت أن الله مصدق الرؤيا التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن المسلمين سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ، وأنه أعلم منهم بما يكون ، وأن الذي كان إنما كان بأمره وتديره وحكمته ، ولصالح المسلمين العاجل والآجل ، وأنه قد كبت به المنافقين والمشركين الذين ظنوا بالله ظن السوء ، وأن المؤمنين المصدقين بالله ورسوله سيكون لهم من عفو الله ونعيمه ما فيه الفوز العظيم .

٨ - وسين الاستقبال فيما كان متوقعا من اعتذار المتخلفين يدل على أن هذه الآيات - أو بالأحرى جل آيات السورة إن لم يكن كلها - قد نزلت عقب الواقعة ، وفي طريق العودة إلى المدينة ، بقصد الطمأنة والتسكين ، كما هو المتبادر . وهو ما ذكرته الروايات .

الصَّوْرَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ

ولقد احتوت الروايات^(١) بعض تفصيل نلخصه فيما يلي :

إن خروج النبي والمسلمين إلى هذه الزيارة كان في أواخر السنة السادسة من الهجرة

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٩ - ١٥٠ وابن هشام ج ٣ ص ٣٥٥ - ٣٧٧ .

وفي أشهر حجها ، وإن عدد الذين خرجوا كان نحو ألف وأربعمائة ، وإن النبي حينما وصل إلى مكان اسمه «ذو الحليفة» أحرم وأمر المسلمين بالإحرام ، وأشعر الهدي وقلده^(١) وقد كانت أخبار سيره وصلت إلى مكة ، فهاج زعماؤها وتعاهدوا على منعه على أي حال ؛ وجاء الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستشار أصحابه فأشاروا بالمضي فيما ألهم الله ، فإذا صدمتهم قريش قاتلوهم ؛ وتقدم الركب حتى إذا وصل الحديبية - وهي قرية أو بئر على نحو مرحلة من مكة - بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستلهم من هذا وجوب التوقف وقال : والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة فيها تعظيم حرمة الله وفيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها ؛ وجاءه رئيس بني خزاعة وكان مناصحاً للنبي مع قومه ، فأخبره أن قريشاً وأحلافهم قد اعتزموا صده على كل حال ، فأرسله يخبرهم أنه إنما جاء للزيارة ولم يجي للقتال ، وأنه يدعوهم إلى التهادن والسماح له بالزيارة ، والتخلى بينه وبين العرب ، فإن هلك كفوا مؤثنته ، وإن أظهره الله كانوا في الخيار ، وينذرهم إذا هم أمعنوا في العناد وإرادة البغي بالقتال حتى تفرد سالفته^(٢) ولينفذن الله أمره ؛ فذهب الرجل وأبلغ الرسالة ، وكان زعيم ثقيفي حاضراً ، فنصحهم بقبول ما يقترحه النبي صلى الله عليه وسلم ، وتكرر النصح من زعماء آخرين تحققوا أن النبي إنما جاء زائراً ومعه هديه ، ورأوا في صده وقتاله بغياً ، وخاصة في الأشهر الحرم ومنطقة المسجد الحرام ؛ وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم من جانبه عثمان بن عفان رضي الله عنه ليخبر الناس برغبته عن القتال ، ورغبته في الزيارة وحسب ؛ فأبطأ في العودة وشاع أن قريشاً حبسته أو قتلتها ؛ فدعا المسلمين إلى البيعة على الثبات والاستماتة إذا ما أصرت قريش على موقفها الباغي ، وتمت البيعة تحت شجرة ، وسميت ببيعة الشجرة ، ولم يلبث عثمان أن رجع ؛ ورأت قريش أن ترسل سهيل بن عمرو إلى النبي صلى الله عليه وسلم للتفاوض على عقد هدنة ، مزوداً بشروط عسيرة ، مثل تأجيل الزيارة إلى العام القابل ، وإعادة من يأتي النبي صلى الله

(١) أشعره : جرحه وأسأل دمه . وقلده : وضع في عنقه القلادة ، وهذا وذاك تعظيم لقربان الله .

(٢) حتى يقتل .

عليه وسلم مسلماً من مكة على رغم أهله ، وعدم إعادة من يلتحق بمكة من المسلمين مرتداً . وقبل النبي صلى الله عليه وسلم الشروط بعد مفاوضات وجذب ودفع ، واتفق على أن تكون مدة الهدنة عشر سنين ؛ وكتب بذلك عهد ختمه النبي بخاتمه ووقعه سهيل عن قريش ، وحينئذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذبح الهدي وحلق الشعر أو تقصيره والتحلل من الإحرام ، ثم نادى بالعودة . وقد روي فيما روي أن بعض فرسان قريش حاولوا أخذ المسلمين على غرة قبل التراضي على الهدنة ، فدرى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل من كمن في طريقهم ، وأمكن أسر بعضهم ثم من عليهم وأطلقهم . كذلك روي أن أبا جندل ابن سهيل بن عمرو - وكان مسلماً وكان أبوه يعذبه ليفتنه ويمنعه عن الهجرة - جاء فاراً يرسف بأغلالة حينما درى أن النبي والمسلمين في الحديبية ، وكان التراضي قد تم على الشروط ، فاحترم النبي صلى الله عليه وسلم عهده ، وردّ أبا جندل إلى أبيه حينما أصر هذا على استرداده . ولقد ثقلت شروط الهدنة على فريق من المسلمين ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وصعب عليهم خاصة الرجوع بدون زيارة ، حتى إن منهم من كاد يزبغ ، لأن رؤيا النبي حق ، وقد دعوا إلى الخروج بإلهامها الذي اعتبره النبي إلهاماً من الله ، وراجعوه وحاوروه ، ومنهم من تباطأ في تنفيذ أمره في نحر الهدي والتحلل من الإحرام ؛ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أعلمهم أنه إنما يسير بإلهام الله ، وثبت قلوبهم حتى عاودتهم الطمأنينة ؛ ولم تلبث أن نزلت سورة الفتح مؤيدة لما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، ومسكنة لنفوس المسلمين ؛ ومما رواه البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد ما كان منه من تألم وتحمس سار إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم فكلّمه فلم يجبه ، ثم كلّمه فلم يجبه ، فقال لنفسه : شككت أم عمر ! نزلت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فلا يجيبك ؛ ثم تقدم أمام الناس وخشي أن ينزل فيه قرآن ، وأنه ما لبث أن سمع منادياً يدعوه ، فقال في نفسه : لقد وقع ما خشيت ، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له : لقد أنزلت علىّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ سورة الفتح . وكذلك مما روي أن بعض المسلمين قال : ما هذا بفتح ، فبلغ ذلك النبي صلى

الله عليه وسلم ، فقال : بئس الكلام هذا ، بل إنه أعظم الفتوح ، رضي المشركون أن أن يدفعوكم بالراح ، ويسألوكم القضية^(١) ، ويرغبوا إليكم بالأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا .

وليس في هذا الملخص مالا يتسق مع الآيات كما هو المتبادر . ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق ، بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده أو بالأحرى من أعظمها : فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتها وكيانها ، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها ، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبمجد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأقتهم . وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلل لضعفهم وقتلهم إزاء الغزاة ؛ ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقدوة ، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثير . وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرّون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة ، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون ، بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح وبعد مداه .

ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي صلى الله عليه وسلم فيما فعل ، وأيده فيه القرآن ، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه ؛ إذ قووا في عيون القبائل ، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار ، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوّاً وشأنهم ضآلة ، وإذا صار العرب يفدون على النبي صلى الله عليه وسلم من أنحاء قاصية ، وإذا تمكن من خضد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المنتشرة على طريق الشام ، وإذا فرغ باله فأرسل رسله إلى ملوك الأرض في مختلف أطراف الجزيرة وخارجها يحملون كتبه المبشرة بالإسلام والداعية إليه .

(١) التقاضي والتفاوض بدلا من الصد والبغي السابقين .

وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها . وكان في ذلك النهاية الحاسمة إذ جاء نصر الله وفتحه ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

وهذا التطور في حالة مكة والمكيين من القوة والهجوم والتفوق والإيفال في البغي والرغبة في الاستئصال تجاه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والمدينة ، إلى شيء من الضعف ، وجنوح إلى المسالمة معه ، والاعتراف به ندّا - لافلت للنظر من دون ريب ؛ وما يخطر على البال أنه قد طرأ طارئ ما مادي أو معنوي ، سياسي أو حربي ، أو شقاق فيما بينهم لسبب من الأسباب أو هن من تضامنهم وصلابتهم فكان هذا الموقف الذي عاد منه على الإسلام فتح عظيم كان له تلك الآثار الخطيرة المتنوعة . ولقد روي أن أحد بني بكر الذين دخلوا في عهد مكة حينما عقد صلح الحديبية وخير أعراب مكة في الالتحاق بعهد أحد الفريقين اعتدى على أحد بني خزاعة الذين دخلوا في عهد المسلمين فقتله ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم اعتبر هذا نقضاً للصلح ، وأن قريشاً أوفدت أبا سفيان إلى المدينة لتوثيق عقد الصلح القائم فأبى النبي صلى الله عليه وسلم عليه ذلك ؛ فهذه الرواية إذا صحت - ونحن نميل إلى صحتها لأن غزو مكة الذي وقع بعد سنتين من الصلح من جانب النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يكون وقع إلا بسبب نقض من الجانب الآخر - تدعم ماقررناه من أسباب تبدل حال مكة والمكيين المحتملة كما هو ظاهر .

على أن هذا لا يعني فيما يتبادر لنا أن يكون لارتداد الأحزاب عن المدينة - ذلك الارتداد الحاسر الذي زلزل ثقتهم في قدرتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولخضد شوكة يهود المدينة نهائياً ، ولضالة شأن مناقبيها ، ولازدياد إقبال الناس على الإسلام وتعاليه بعد هذا وذاك - آثار إيجابية في هذا التطور أيضاً .

الصّورة السابعة عشرة

هذا ؛ ولقد جاء في سورتي الممتحنة والمائدة بعض آيات لها صلة بصالح الحديبية رأينا إيرادها والتعليق عليها لأن فيها بعض مشاهد من السيرة متصلة بهذا الحادث العظيم . وإليك أولاً آية الممتحنة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجَّرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ
بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ
يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَّا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمُ
مَّا أَنفَقْتُمْ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . . . »

١٠

والآية تلهم مع الاستئناس بالروايات المتسقة إجمالاً معها أن بعض المؤمنات اللاتي لم
يستطعن أن يهاجرن إلى المدينة قبل الصلح اغتنمن فرصته فهاجرن خلسة ، وأن ذويهن
جاؤوا يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصلح ، فنزلت الآية تنهى عن إعادتهن ، وتأمّر
بالتعويض على أزواجهن ؛ ولقد تعددت الأقوال في حقيقة نص وثيقة الصلح ، ومنها أنه
كان مطلقاً وبصيغة التذكير ، فرأى المكيون أنه شامل للرجال والنساء معاً فجاءوا يطالبون
بالإعادة ، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يشمل النساء فنزلت الآية حاسمة للأمر ؛
وهذا هو المعقول ، لأنه لو كان هناك مفهوم صريح لكان للأمر حكم أو موقف آخر ،
إذ يكون في عدم الإعادة نقض للعهد ، وهذا غير ممكن الصدور من النبي صلى الله عليه
وسلم وغير متسق مع المبادئ القرآنية ؛ بل لقد حض القرآن على احترام عقد الحديبية
بالبذات في آيات المائدة التي سنوردها بعد ؛ وآيات سورة التوبة ١ - ١٦ التي منها ما نزل
قبل فتح مكة ومنها ما نزل بعد قد شددت على الوفاء بالعهد ما دام المعاهدون أوفياء له ،

كما أن منها ما يلهم أن النقص إنما وقع من الجانب الآخر فكان ما كان من اعتزام النبي غزو مكة ؛ هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى إن المشركين ما كانوا يقبلون ذلك ، ولو كان لا اعتبروا الهدنة منقوضة ، وحملوا تبعة النقص على النبي ، والمعروف أن نقض الهدنة كان من الجانب الآخر ، وأن النبي هو الذي اعتبرها منقوضة من جانبهم ؛ ولعل حكم الآية بالتعويض على أزواج المسلمات المهاجرات مما اقتضته الحكمة لإرضاء معاهد يرى له شبهة من الحق ، وللتدليل على حسن النية في احترام الصلح من جانب النبي أيضا ؛ ولم يرد في الروايات أن أزواج المهاجرات وذويهن قد رفضوا هذا الحل ؛ ولعل من السائع أن يقال بالإضافة إلى ما قلناه أن التطور الذي نبهنا عليه في حالة مكة والمكيين قد جعل المكيين لا يتشددون في أمر ليس فيه مخالفة لنص صريح أيضا .

ومما يلفت النظر أن الآية جعلت الحقوق متبادلة بين المسلمين والمشركين في مطالبة الأزواج المسلمين تعويضا عن نسائهم اللاتي تحلفن عنهم ولو كن كوافر ، وفي مطالبة الأزواج المشركين تعويضا عن نسائهم اللاتي أسلمن والتحقن بالمسلمين ؛ ففي هذا صور عما صار بين المسلمين والمشركين من ظروف عهدية وسلمية مستمرة ومحترمة من الطرفين .

أما آيات المائدة فهي هذه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنْ أَلَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَفِعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِيمِ وَالْتَقَوُا وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْعُدُوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . . . »

وقد روى المفسرون في صدد الآية الثانية أن زعيما من بني بكر جاء مستظلمًا فلقي النبي صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، ثم قفل لاستشارة قومه ، وصادف خارج المدينة مواشي فنهبا ، وأنه خرج بعد مدة ما مع بعض قومه إلى الحج وكانت طريقهم قريبة من المدينة ، فأراد بعض المسلمين أن يثأروا منهم فنزلت الآية بالنهي ؛ كذلك روي أن بعض المسلمين ظلوا ناقلين على المكيين صدمهم إياهم عن زيارة الكعبة حينما خرجوا إليها ، وكانوا يهيمون باغتنام ما يسنح لهم من الفرص لإلحاق الأذى بهم ، ومن جملة ذلك صد الحجاج عن مكة .

ومهما يكن من أمر الروايات فإن مضمون الآية الثانية يلهم حدوث بعض تصرفات أو همّ ببعض تصرفات من جانب بعض المسلمين فيها إخلال بجرمة الحج وتقاليده ، ومنع للحجاج بقصد إلحاق الضرر بأناس بينهم وبينهم عداوة أو بغضاء ، حتى إن الآية عدت ذلك تعاونًا على الإثم والعدوان ، وأنذرت الذين يتضامنون فيه بعقاب الله الشديد ؛ وجملة « يتتغون فضلا من ربهم ورضوانا » تلهم أن الحجاج الذين نهى المسلمون عن التعرض لهم مسلمون أيضا ، وفي ذلك نقض للرواية التي أوردها المفسرون ؛ وهذا يسوغ القول إن بعض المسلمين عطلوا آخرين منهم عن الحج بقصد إلحاق الأذى بأهل مكة الذين كان الحج والحجاج من أعظم موارد ودعائم حياتهم الاقتصادية .

ولما كانت سورة المائدة تأتي في ترتيب النزول بعد سورة الفتح ، ولما كان الراجح أن هذا الترتيب بسبب مطلع السورة في الدرجة الأولى ، لأن في السورة مجموعات يرجح أنها نزلت قبل سورة الفتح - فإن من غير المستبعد أن تكون كلمة « العقود » الواردة في الآية الأولى قد عنت عقد صلح الحديبية ، إذ اعتبرت تعرض المسلمين لصد الحجاج عن الحج وإخلال حرمة الأشهر الحرم وتقاليدهم الحج الأخرى نقضًا له ، لأن فيه أذى بالمعاهدين فوق ما فيه من إخلال بجرمات وتقاليدهم مقدسة أقرها القرآن من حيث المبدأ ؛ وكأن الآية أرادت أن تقول إن سفك دم الصيد في الأشهر الحرم هو محرم فكيف بغيره ؟ وكيف بنقض العقود ؟

نقول هذا مع علمنا أن بعض المفسرين قالوا إن كلمة « العقود » قد عنت ما دخل المسلمون فيه من عهود مع الله في احترام حرمانه وتعظيم شعائره باعتنائهم الإسلام ديناً ؛ وقد رأينا في هذا القول شيئاً من التكلف يظهر حينما ننعم النظر في الآيتين معاً وهما مرتبطتان موضوعاً ونزولاً أيضاً ؛ على أننا لو سلمنا بما قالوه فالآية الثانية على الأقل صريحة الدلالة على همّ بعض المسلمين بالتعاون على الإخلال بتلك الحرمات والشعائر اندفاعاً بفكرة إلحاق الأذى بمن يحقدون عليهم ويضربون لهم العداء ، وهم أهل مكة على الأغلب ، لأن الحجاج إنما يؤمون البيت الذي فيها ؛ وفي هذا صورة من صور العهد المدني تدل على تأصل العداء ، وعلى ما حفز هذا العداء المسلمين إليه من الوقوف هذا الموقف الذي اقتضت الحكمة النهي عنه بهذا الأسلوب الزجري الشديد توطيداً لحرمات الله وشعائره ، وللحرية الدينية مهما كان الباعث والحافز ؛ وفي هذا من الروعة وبعد المدى ما هو ظاهر ؛ وقد كان من دون ريب ناظماً لتصرفات المسلمين في العهد النبوي ، كما أنه مستمر التلقين والإيحاء فيما بعده من عهود .

الصّورة الثامنة عشرة

٩ - وللتسلسل التاريخي نذكر أن من الأحداث الجهادية المهمة التي ورد ذكرها في القرآن فتح خيبر وغيرها من القرى اليهودية ، إذ احتوت آيات من سورة الفتح إشارات إلى ذلك ، وقد وقع هذا بعد صلح الحديبية بمدة قصيرة . ولقد بسطنا الكلام عن هذه الواقعة وظروفها ونتائجها في فصل اليهود ، فنكتفي بالإشارة إليها .

الصّورة التاسعة عشرة

١٠ - ويذكر رواية السيرة زيارة النبي صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون للكعبة في السنة السابعة في سلسلة الوقائع الجهادية من حيث أنها كانت على ما هو المتبادر نتيجة لصلح الحديبية ووفاق له . ويذكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في هذه السنة على رأس أصحابه الذين كانوا معه في الرحلة الأولى من الأحياء مع بعض مسلمين انضموا

إليه . وأنه ساق ستين بدنة (إبلاً) وأن قریشاً أخلت مكة لهم وخرجت إلى رؤوس الجبال وأن المسلمين دخلوا مكة وهم متوشحون بالسيوف . وأن بعض المشركين اصطفوا عند دار الندوة لينظروا إليهم فاضطبع النبي بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال : (رحم الله امرأاً أراهم اليوم من نفسه قوة) ثم استلم الركن وأخذ يطوف حول الكعبة مهرولاً وأصحابه وراءه يهرولون مثله . ثم طافوا كذلك بين الصفا والمروة . ثم نحروا هديهم . ودخل النبي إلى الكعبة فلبث فيها وقتاً ثم خرج وأمر المؤذن فأذن للظهر على ظهرها ثم صلى بالناس عندها . وما يروى أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه كان يمسك بزمام ناقه النبي حينما دخل مكة فأخذ ينشد مرتجزاً :

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير مع رسوله
نحن ضربناكم على تأويله كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الحليل عن حليله
يارب إني مؤمن بقبيله

فهمت عمر بن الخطاب : أيهن يا ابن رواحة . فقال النبي : إني أسمع يا عمر ثم قال لابن رواحة بل قل (لا إله إلا الله وحده . نصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده) فقالها فرددها المسلمون معه . وأقام النبي والمسلمون في مكة ثلاثة أيام ثم جاءه سهيل بن عمرو . وحويطب بن عبد العزى فقالا له لقد انقضى أجلك فأخرج عنا . فأمر منادياً فنادى (لا يمسين بها أحد من المسلمين) ثم خرج حتى نزل سرف فبات فيها حتى تنام الناس ثم أديج عائداً إلى المدينة^(١) .

وظاهر أن هذه الزيارة كانت مظهر آخر من مظاهر ما وصل إليه شأن النبي من قوة وعزة أمام قریش وأمام سائر العرب .

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ٤٢٤ - ٤٢٧ وابن سعد ج ٣ ص ١٦٧ - ١٦٩ .

الضَّوْرَةُ العِشْرُونَ

١١ - والمناسبة سانحة للتساؤل عن أمر متصل بالسيرة النبوية وهو ما إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون قبل الهجرة والمسلمون بعد الهجرة كانوا يؤدون طقوس الحج . فقد أوجب القرآن هذه الطقوس على المسلمين في آيات نزلت على ما هو المتبادر قبل الرحلة النبوية . وكانت هذه الرحلة تنفيذاً لها . ومن الآيات في هذا الصدد آيات سورة البقرة هذه :

١ — إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ ^(١) فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ... ١٥٨

٢ — وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا آمَنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ... ١٩٦ - ١٩٧

وآيات سورة آل عمران هذه :

« قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوَّلَ

(١) العمرة هي زيارة الكعبة والطواف حولها ، ويصح أن يؤديها المسلم لوحدها في غير وقت الحج . وهذا ما فعله النبي والمسلمون في رحلتهم التي هي موضوع البحث . والعمرة في هذه الحالة ليست هي الحج المفروض على المسلم . فالحج المفروض على المسلم هو الوقوف في عرفة يوم التاسع من ذي الحجة والطواف حول الكعبة قبل هذا اليوم وبعده في أوقات الحج المعينة .

بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةً مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ
مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ أُسْتَطَاعَ إِلَيْهِ
سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ... »

٩٧ - ٩٥

وجواباً عن السؤال نقول إنه بالنسبة إلى العهد المكي ليس في القرآن ولا في
الروايات ما يثبت ذلك أو ينفيه بصراحة .

ولقد قال بعض المفسرين في سياق تفسير آية (فصل لربك وانحر) في سورة الكوثر
المكية إن النحر هو نحر الأضحية عقب الطواف حول الكعبة . فإذا صح هذا ففيه
إشارة إلى أن النبي وأصحابه كانوا يقومون ببعض مناسك الحج وهم في مكة . وفي سورة
الحج آيات فيها بيانات وتعليمات في مناسك الحج وتقرير بأنه من تقاليد ملة إبراهيم عليه
السلام كما ترى في هذه الآيات منها :

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي
لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى
كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي
أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَارَزَقِهِمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ فِي
الْفَقِيرِ . ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ . ذَلِكَ وَمَنْ
يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ . حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ
وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي
مَكَانٍ سَحِيقٍ . ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ... »

٣٣ - ٢٦

وسورة الحج من المختلف في مكيتها ومدنيتها ، ونحن نرجح أن معظمها مكي ومن

جملة ذلك هذه الآيات . بحيث يمكن القول إن صح ترجيحنا أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يؤدون مناسك الحج في الحدود التي رسمها الله لهم قبل الهجرة . حتى لو لم يصح ترجيحنا فإننا نميل إلى ترجيح كونهم كانوا يقومون بكثير من المناسك مع تجنب مظاهر الشرك والوثنية . ولا سيما أن مكة في موسم الحج تكون آمنة مزدهمة بالوافدين . وهي فرصة لا يعقل أن النبي يفوتها بالإضافة إلى عبادة الله بأداء هذه المناسك له خاصة . ولقد كان بعض الزعماء الذين يرون دعوة النبي هدى لا يتابعونه ولا يشجعونه خوفاً من أنها قد تذهب بتقاليد الحج وامتيازات أهل مكة في ظلها على ما حكته عنهم آية سورة القصص هذه :

« وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُخَاطِفُ مِنْ أَزْوَاجِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... »

٥٧

ولقد طمئنتهم الآية . ولا بد من أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يفوته ما في مشاركته مع أصحابه في مناسك الحج من معنى التطمين أيضاً بالإضافة إلى ما فيها من عبادة الله ومن فرصة الدعوة إلى سبيله .

أما بالنسبة إلى ما بعد الهجرة وقبل الرحلة النبوية فإن آيات سورتي البقرة وآل عمران تسوغ القول إن من المسلمين من كان ييسر له الذهاب إلى مكة فيذهب فيحج في وقت الحج أو يعتمر بدون حج في غير وقت الحج . وفي سورة البقرة آيات فيها حكاية لنوعين من دعاء الناس بعد قضاء مناسك الحج ، أحدهما دعاء المؤمنين بالله واليوم الآخر أي المسلمين ، وثانيهما دعاء غير المؤمنين على الأرجح ، وفيها تأييد آخر لذلك وهي هذه :

« فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ . وَمِنْهُمْ مَّنْ

يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ...
٢٠٠ - ٢٠٢

وفي آية من الآيات الأولى من سورة المائدة التي يرجح أنها نزلت عقب صلح الحديبية نهى للمسلمين عن صد أمين البيت الحرام نكابة بأعدائهم أهل مكة . وعبرة الآية تسوغ بقوة القول إن هؤلاء كانوا مسلمين . وهذا يعني أن من المسلمين من كان يذهب إلى الحج إذا وجد الفرصة سانحة ميسرة كما ترى فيها :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَدْتَفُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... »
٢

الصُّورَةُ الْوَاحِدَةُ وَالْعَشْرُونَ

١٢ - وبعد صلح الحديبية بسنتين تم الفتح المكي . وعلى خطورة هذا الفتح وجلالة شأنه فإنه لم يرد عنه في القرآن إلا إشارات خاطفة وغامضة أوضحتها الروايات إيضاحاً ما . ففي سورة التوبة هذه الآيات :

« كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُونَ . أَشْتَرَوْا بِثَابِتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَنَهُمُ يَنْتَهُونَ . أَلَا تُقَاتِلُونَ »

قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ. أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخَشَّوْنَهُمْ
قَالَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ
وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ
عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ ... »

١٦ - ٨

ومضمونها يلهم أنها نزلت قبيل فتح مكة وفي صدد الحث والاستنفار إلى غزوها
كما يلهم أن ذلك قد كان بسبب نكث بدا من جانب أهل مكة المعاهدين .
وفي السورة نفسها هذه الآيات :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ إِنْ كَانَ
ءِآبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ
كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ... »

٢٤ - ٢٣

ومضمونها يلهم أنها نزلت كذلك قبيل الفتح حتى لا يتأثر المهاجرون بروابط الرحم
والقربى والمصلحة المادية التي كانت تربط كثيراً منهم بأهل مكة .

وفي سورة المتحنة هذه الآيات :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ
بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ
بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءً

السَّيْلِ . إِنْ يَنْقُضُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِأَلْسُوٍّ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ . لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ...»

١ - ٣

وقد أجمع المفسرون ورواة السيرة على أنها نزلت قبيل فتح مكة وفي مناسبة إرسال أحد المسلمين رسالة إلى قريش يخبرهم بها بعزم النبي صلى الله عليه وسلم على غزوهم حماية لأهله وعشيرته في مكة . وقد احتوت حثاً وتحريضاً ونهيّاً عن موالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين . وتنبيهاً على أن الأرحام والأولاد لن تغني عن المسلمين شيئاً مما ينطوي فيه التحريض والإعداد .

أما ملخص ما ذكرته الروايات عن هذا الفتح^(١) فهو أنه قد تم في الثلث الأخير من شهر رمضان من السنة الهجرية الثامنة ، وأن السبب المباشر له نقض قبيلة بني بكر التي كانت داخلية في عهد قريش وقتل أحد أفرادها شخصاً من بني خزاعة التي كانت داخلية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وتشجيع بعض القرشيين البكرين في موقفهم ، وقد ذهب الخزاعيون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه بما وقع عليهم من بغي واستنصروه ؛ وقد شعر أبو سفيان بخطورة الحادث فسارع إلى المدينة للاعتذار منه ، وتوثيق العهد القائم بين المسلمين المكيين ؛ ولقد أخفق أبو سفيان في مهمته ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يستفز المسلمين ، وتم له حشد عظيم بلغ عدده عشرة آلاف من مهاجرين وأنصار وأعراب ، وسار به نحو مكة ؛ ودرى المكيون فاستنفروا حلفاءهم ولكن معظم هؤلاء الحلفاء وخاصة هوازن وثقيف ، تأخر في مسيره ، ولم ينضم إلى القرشيين إلا بنو بكر من الأعراب وأحايش مكة ، وهم الغرباء النازلون في ضواحي مكة والمختلطون من شتى القبائل والأجناس ؛ وقد رأى القرشيون أن لا طاقة لهم بالمقاومة ، فاستسلموا للنبي صلى الله عليه وسلم وحكمه ، ولم يقع إلا اشتباك جزئي في ناحية من أنحاء

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٨١ - ١٩٨ وابن هشام ج ٤ ص ٣ - ٦٤

مكة ، ومع فريق من الجيش دخل منها وفقاً لخطّة سير الجيش ، وأسفر عنه بعض القتلى ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم أمراً بالكف عن القتال حالما بلغه الخبر . وقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم عقب دخول مكة فأعلن العفو عن أهلها ؛ وقد طهر ساحة الكعبة وداخلها من الأصنام ، وأقبل الناس على مبايعته على الإسلام حتى عم وظهر فيها دين الله وكلمته ، ثم ولى فتى من أحد بيوتات مكة غير البارزة واليا عليها وقفل راجعاً . ومما جاء في خطبته :

« لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أودم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سداة البيت وسقاية الحاج . يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب . يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، يا معشر قريش ، ماترون أني فاعل بكم ؟ فأجابوا : خيراً ؛ أخ كريم وابن أخ كريم ! فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين . ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد من بعدي ، وإنما حلت لي ساعة من نهار هي ساعتى هذه . »

ومما روي أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم أخذ أبا سفيان إليه وهو معسكر على مرحلة من مكة يتهيأ للدخول مع جيشه فأسلم على يديه ، وكرمه النبي فأذن أن من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن ، كما أنه آذن أن من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

كذلك مما روي أن الأنصار أخذوا يتساءلون عما إذا كان النبي وقد نصره الله على قريش ، ويسر له فتح مكة ، يعود ثانية إلى المدينة أو يبقى في مكة ويتخذها مقره ؟ فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، لجمع زعماءهم وقال لهم : « معاذ الله ! الحيا محياكم والمات م ماتكم » .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ وَالْعَشْرُونَ

ونص سورة النصر الرائع يغني عن التعليق على ما كان من آثار الفتح الباهرة ، إذ انهدم السد الذي كان بين الإسلام وسائر العرب فتدفق سيل وفودهم - بعد انهدامه - على النبي صلى الله عليه وسلم من كل صوب ، حتى ليقال إن النبي لم يمت حتى دانت الجزيرة إجمالاً للإسلام ، وكان في ذلك تحقيق البشرى القرآنية بإظهار الإسلام على الدين كله التي احتوتها آية سورة الفتح هذه (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ٢٧) ولم يمض على نزولها إلا سنتان . ولقد كان من آثار الفتح العظيم ، تلك الغزوة الكبرى التي سار النبي صلى الله عليه وسلم على رأسها إلى تبوك بنحو ثلاثين ألفاً ، والتي تكشف عن رؤيته إمكاننا لدفع الإسلام إلى الآفاق البعيدة وتوطيد حرية الدعوة إليه على ما ذكرناه في فصل النصارى .

وغزو النبي صلى الله عليه وسلم لمكة بعشرة آلاف مقاتل هو في ذاته دليل على ما وصل إليه أمر الإسلام والمسلمين من قوة وتعال وشيوع ، كما أن نزول المسكين على حكم النبي صلى الله عليه وسلم دون محاولة دفاعية دليل على ما امتلأت نفوسهم به من هيبة المسلمين والرهبة منهم ، هذا إلى ما نبهنا إليه قبل قليل من احتمال طرؤه ما بدل حالهم من قوة إلى ضعف ، ومن تضامن إلى تخاذل ، ومن صلابة إلى جنوح للمسالمة والمسايرة . وقدم أبي سفيان لتوثيق العهد إذا صح - وهو مالا نستبعده بعد ما ارتضت قريش الاعتراف بالنبي ندأً وعقد صلح معه - دليل على هذا وذاك . ومما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد أدرك الموقف فاستغله أحسن استغلال .

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعَشْرُونَ

(١٣) وفي سورة التوبة آيات تشير إلى يوم حنين ، وهو أحد وقائع الجهاد النبوي . ومن الجدير بالذكر أنها الواقعة الوحيدة التي ذكر اسمها في الآيات الواردة عنها . وقد جعلنا الكلام عنها عقب الكلام على فتح مكة لأنها وقعت عقب الفتح . وهذه الآيات أولاً :

« لَقَدْ نَصَرَ كُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُذْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَقُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ... »

٢٧ - ٢٥

والآيات وردت في معرض تذكير المسلمين بتأييد الله لهم ، وحثهم على الاعتماد عليه ، والاستجابة للنبي في دعوته إلى الجهاد . والصورة التي يمكن اقتباسها منها هي هذه :

١ - إن عدد المسلمين في هذا اليوم الجهادي كان كثيراً حتى أنهم ازدهوا به .

٢ - إن المسلمين مع ذلك اضطربوا حين اشتبا بهم بالعدو ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، ولم يلبثوا أن انهزموا .

٣ - إن الله ثبت النبي صلى الله عليه وسلم والخلصين من المؤمنين في الميدان وأيدهم بروحه ونصره ، فلم يلبث الموقف أن انقلب إلى مصلحة المسلمين وتمت الهزيمة على الكفار .

٤ - إن فريقاً من المحاربين قد ترشح لعفو الله وتوبته أو قد نالها فعلاً فاندمج في الإسلام والمسلمين .

أما ما جاء في الروايات^(١) عن هذه الواقعة فيمكن تلخيصه كما يلي :

بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مكة أن قبائل هوازن قد احتشدت بوادي حنين ، فاعتزم أن يسير إليها ، فسار بجمع كبير يتراوح على حسب الروايات بين عشرة وستة عشر ألفاً فيهم كثير من قريش الذين أسلموا ؛ وكان عدد المحتشدين من هوازن أربعة آلاف ؛ ولما اشتبك الفريقان بدا من المسلمين شيء من الاستهتار بالعدو لقلته وكثرتهم ، غير أن نبالة هوازن المهرة رشقوهم بمدار من السهام فلم يلبثوا أن اضطربوا

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٢٠٠ - ٢٠٨ وابن هشام ج ٤ ص ٦٥ - ١٢١

واختل توازنهم وولى أكثرهم الأدبار خلا النبي صلى الله عليه وسلم وبضع مئات من المحلصين ، وقد أخذ منادي النبي يهتف بالناس ويدعوهم إليه ، فلم يلبث المسلمون أن عادوا إلى رشدهم وكروا ثانية فانهزم مقاتلو هوازن تاركين نساءهم وذرايرهم ومواشيهم غنيمة للمسلمين ؛ ثم أرسلوا وفداً يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم إسلامهم ويطلب رد سبيهم وماشيتهم ، فاستشار النبي المسلمين من جهة ، وخير رجال هوازن بين السبي والماشية من جهة ؛ وقد تم الأمر على رد السبي وتوزيع الماشية ، ودينونة هوازن بالإسلام . وقد وزع النبي أكثر الماشية على المسلمين المستجدين من زعماء مكة والقبائل قبل أن يعود ، تألفاً لقلوبهم . وقد ذكرت الروايات فيما ذكرت موقفاً رائعاً بين النبي والأنصار في صدد هذا التوزيع ؛ فقد وجد بعض هؤلاء في أنفسهم حينما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم قد وزع الغنائم على المستجدين ولم يعط الأنصار منها شيئاً ، وبلغ ذلك النبي فجمعهم وخطبهم قائلاً : يا معشر الأنصار ! ما قاله بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها على في أنفسكم ! ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ فقالوا : بل الله ورسوله أمن وأفضل . فقال لهم : أما والله لو شئتم لقاتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ؛ يا معشر الأنصار ! أوجدتم في نفوسكم بلعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليساموا وولكلكم لإسلامكم ؟ ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأة من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم وهتفوا قائلين : رضينا برسول الله قسماً وحظاً .

والمبتدأ أن سير النبي صلى الله عليه وسلم إلى هوازن إنما كان بسبب احتشادها في وادي حنين في طريقها إلى مكة انتصاراً لها على المسلمين ؛ وبكلمة أخرى : إن موقف العداء المباشر قد بدأ منها فضلاً عن موقفها العدائي السابق للمسلمين فيما كان من

تضامنها مع قريش في حملة الأحزاب . ومن روح الآيات وفحوى الروايات يبدو أنه كان لهذه القبائل حيز عظيم من حيث القوة والعدد ، وطبيعي أن يكون لانتصار المسلمين عليهم ، ودينوتهم بالإسلام بعد ذلك أثر في ازدياد قوة الإسلام وشيوعه وتعالیه في منطقة مكة .

الصّورة الرابعة والعشرون

(٣) وفي روايات السيرة حادث مهم متصل بالحركات الجهادية وهو فتح مدينة الطائف وإسلام أهلها الذين كانت غالبيتهم العظمى من ثقيف . وعلى خطورة هذا الحادث لم تقتض حكمة التنزيل أن يشار إليه في القرآن . وقد رأينا أن نلم به حتى تتم سلسلة الوقائع الجهادية .

وملخص ما جاء في الروايات^(١) أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن انتهى من حرب هوازن في يوم حنين زحف على الطائف وحاصرها لأن أهلها كانوا حلفاء قريش . وسارعوا إلى نصرتهم مثل هوازن حينما جاء النبي لفتح مكة . ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق فقفلوا راجعين وتحصنوا وراء أسوار مدينتهم . ومنهم من حارب المسلمين مع هوازن يوم حنين وقتل بعضهم فيه . وقد حاصرها النبي نحو عشرين يوماً . وجرى تراشق بالنبال وقتل من المسلمين جماعة . ثم رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يفك الحصار ويعود إلى المدينة .

ولقد كانت رحلة تبوك الكبرى بعد ذلك بقليل مما يسوغ القول إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير خطراً من ترك الطائف إلى فرصة أخرى ، ورأى العودة والتعجيل برحلة تبوك ففعل ذلك ، لاسيما أن الطائف وسكانها قد غدوا شبه منعزلين في وسط

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٢٠٠ - ٢٠٢ وج ٢ ص ٧٦ - ٧٨ وابن هشام ج ٤ ص ٧٩ - ٨٠ و ١٢٢ - ١٣٠ و ١٩٤ - ٢٠٠

دان أكثره بالإسلام بدينونة مكة وهوازن والقبائل الأخرى المحيطة بمكة بالإسلام ، وكان بين بعض الذين لم يدينوا به وبين النبي صلى الله عليه وسلم موافق صلح وسلام على ما ألهته آيات سورة التوبة الأولى .

ولقد جاء في سورة التوبة الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... »

٢٨

والآية في صدد تحديد علاقة المشركين التقليدية بالمسجد الحرام ومنطقته المحرمة في ظل الإسلام ، لأنها نزلت بعد فتح مكة كما يلهمه مضمونها ؛ وقد احتوت دلالة على توطد سلطان الإسلام وشموله في مكة ، وما صار إليه من قوة وعزة جانب ، غير أنها إلى هذا انطوت على معنى من معاني إعلان المقاطعة وسد الأبواب في وجه من بقي على شركه بعد الفتح ؛ ولعل أهل الطائف هم المقصودون في الدرجة الأولى بهذا ، لأنهم أهم من بقي على شركه من سكان الحجاز . ولقد ذكرت الروايات أنهم بعد بضعة أشهر من فك الحصار عنهم أخذوا يفكرون في طريقة التفاهم مع النبي ، وجاء منهم من فاوضه فعلا ، ثم انتهى الأمر إلى دينونتهم بالإسلام على يد وفد منهم جاء إلى المدينة مبايعا النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وهذا مما قد يدعم ما قلناه من أنهم كانوا هم المقصودين بالدرجة الأولى من المقاطعة التي انطوت في الآية ؛ فلعلهم أسرعوا إلى الاتصال بالنبي حينما أعلن تحريم دخول المشركين للمسجد الحرام ومنطقة مكة يوم الحج الأكبر الذي أعلنت فيه البراءة من المشركين المعاهدين الذين بدا منهم اختل أو النكث على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ، أو حينما سمعوا العزم على إعلان ذلك ، لأنهم رأوا فيه ضربة قاضية عليهم ماديا ومعنويا فلم يروا مناصا من المسارعة إلى الخروج من المأزق الحرج ؛ وطبيعي أن ترجيحنا أن أهل الطائف هم المقصودون في الدرجة الأولى من المقاطعة لا يعني ألا يكون قد قصد بها سائر من بقي على شركه .

وواضح أنه لا يرد أي معنى من معاني مصادرة الحرية الدينية في هذه المقاطعة والخطر ، لأن البيت الحرام قد أصبح طاهرا من مظاهر الشرك ، وأصبحت تقاليد الحج مثل ذلك ، وصار تحت السلطان الإسلامي ؛ وليس من المعقول أن يسمح للمشركين بممارسة تقاليد الوثنية فيه ، عدا ماله من الحق الطبيعي في سد بابه على أعدائه السياسيين والدينيين .

الصّورة الخامسة والعشرون

وفي صيف السنة التاسعة استنفر النبي المسلمين إلى غزوة تبوك التي بسطنا ظروفها ونتائجها في فصل النصارى ، والتي نزلت فصول عدة من سورة التوبة في صددتها ؛ فنكتفي بهذه الإشارة إليها هنا لإتمام التسلسل التاريخي للوقائع الجهادية التي ذكرت في القرآن .

هذا ؛ ونريد أن نشير إلى آية مدنية في سورة الشعراء لما ينطوي فيها من صورة جهادية طريفة ؛ وهي الآية الأخيرة منها :

« إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ... »
٢٢٧

وقد جاءت بعد آيات مكية فيها حملة لاذعة على الشعراء ، وهي هذه :

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ . وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ... »
٢٢٢ - ٢٢٦

وطابع الآية المدني لا يتحمل شكاً ؛ فالمسلمون إنما استطاعوا أن ينتصروا لأنفسهم في العهد المدني ، وحكمة وضعها من السورة المكية واضحة ، والاستثناء هو للشعراء المسلمين كما يبدو واضحاً كذلك حينما يقرأ ما قبل الآية .

أما الصورة التي تنطوي فيها فهي أن شعراء المسلمين المخلصين كانوا ينتصرون

للمسلمين بشعرهم ممن كان يبدؤهم بالظلم والبغي ، أي أن شعراء الكفار كانوا يحاربون النبي والمسلمين بسلاح الشعر ، وكان شعراء المسلمين يقابلونهم بالمثل ، وهذا مما أيده الروايات المتواترة ، ومما هو طبيعي ؛ لأن الشعر كان جزءاً مهماً من حياة المجتمع العربي وسلاحاً من أسلحته في ذلك العهد .

ويلفت النظر خاصة إلى روعة اتساق استعمال شعراء المسلمين لهذا السلاح مع المبدأ الجهادي العام وهو الدفاع والمقاولة .

فصل في التشريع القرآني وصلته بالسيرة النبوية تمهيد

صلة التشريع القرآني بالسيرة النبوية ومشاهدها - مدنية التشريع ومداهها .
تعلييل مدنية التشريع . مباحث هذا الفصل .

الصورة الأولى

للتشريع القرآني صلة قوية بالسيرة النبوية لا تحتاج إلى بيان مسهب ؛ فإن جل الآيات والفصول التشريعية إن لم نقل كلها قد نزلت إجابة عن أسئلة واستفتاءات ، أو بمناسبة حوادث ووقائع وظروف متصلة بالسيرة النبوية ومواقف وتصرفات المسلمين وغير المسلمين في أثنائها ؛ فكانت من جهة حلا لمشاكل وشئون ومسائل واقعية ، ومن جهة تشريعا مستمر الحكم والتلقين والمدى ، وبعبارة أخرى : إن التشريع القرآني يشتمل على صور من السيرة النبوية والعهد النبوي ، والمجتمع الإسلامي فيه .

وفي التشريع القرآني بعض التطورات ؛ نعني أن هناك أحكاما أو أوامر ونواهي أبكر من أحكام وأوامر ونواهي ، وأن من المتأخر ما جاء ناسخا أو معدلا للمتقدم على حسب ما اقتضته الحكمة من مراعاة الظروف أو التطابق معها سلبا وإيجابا ، وتحفيقا وتشديدا ، وضيقا وسعة ؛ وينطوي في هذا كذلك صور مثل تلك كما هو المتبادر .

الصورة الثانية

وإذا استثنينا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وركني الصلاة والزكاة ، استطعنا أن نقول : إن التشريع القرآني مدني ؛ مع التنبيه إلى نقطة هامة وهي

أننا لا نقصد بالتشريع المبادئ المتنوعة التعبدية وغير التعبدية التي تضمنتها الدعوة القرآنية ، وإنما نقصد ما فيه من قواعد وحدود للشئون السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعائلية ، بل الواجبات التعبدية أحياناً ؛ ذلك لأن جل المبادئ الإيمانية والتعبدية والأخلاقية والاجتماعية ، بل الاقتصادية والسياسية التي يصح أن يقال : إن التشريع القرآني بالمفهوم الذي نبهنا إليه ، وباستثناءات قليلة قد تناوّلها - قد وردت في القرآن المكي ، خلافاً لما يتوهم بعض المسلمين ، ويحلو للمستشرقين والمغرضين أن يكرروه بسبيل غمز النبي صلى الله عليه وسلم بالتبدل من نبي إلى سلطان .

وهكذا يصح أن يقال : إن التشريع القرآني المدني صورة تطورية إلى حد ما للمبادئ القرآنية المكية في شكل قواعد وحدود . وفي هذا أيضاً دليل آخر على صلة التشريع بالسيرة النبوية كما هو واضح .

الصورة الثالثة

وطبيعة كل من العهدين المكي والمدني توضح علة مدنية التشريع ومكية المبادئ العامة ؛ فالعهد المكي هو عهد دعوة كما كان عهد قلة وضعف ومحنة للمسلمين ، والمقتضى لهذا هو عرض المبادئ المتنوعة للدعوة عرضاً قوياً ، وهو ما امتاز به الأسلوب المكي على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ؛ كما أن حالة المسلمين لم تكن لتستدعي تشريعاً وتقييداً لأن مثل هذا إنما يكون في حالة الاستقرار وقيام بنیان رسمي ، في حين صار العهد المدني عهد طمأنينة واستقرار وكثرة مؤلفة من مختلف الفئات ، وقد توطد فيه للإسلام كيان سياسي واجتماعي ، هذا إلى أنه لم يكن ثمة محل لتكرار ما جاء في القرآن المكي من المبادئ - لأن القرآن كل لا يتجزأ من حيث شموله ووجوب الإيمان والأخذ به - إلا بالقدر الذي اقتضته حكمة التنزيل .

ومن الجدير بالتنبيه أن مالا يوجد في القرآن المكي من شئون اختص بها العهد المدني كالجهاد ، قد جاء عنه الكلام في القرآن المدني بأسلوب قوي رائع من

جهة ومحتويا مبادئ عامة فيه من جهة أخرى ؛ كما يتضح من إنعام النظر في آياته التي استعرضناها في الفصل السابق . وبهذا تتسق حكمة التنزيل وأسلوبه اتساقا بديعاً .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

والفصول التشريعية في القرآن المدني كثيرة ومتنوعة ، منها ما يتصل بالجهاد ، ومنها ما يتصل بالموقف الذي يجب أن يوقف من المنافقين وغير المسلمين في مختلف الحالات ، ومنها ما يتعلق بالواجبات التعبدية ، ومنها ما يتصل بالشئون السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعائلية والقضائية .

ولقد استعرضنا الآيات الواردة في الجهاد والمنافقين والكتائبين في الفصول الخاصة بهم ، ونهنا إلى ما فيها من مبادئ وتشريعات ، ولهذا فإننا لا نعود إلى الكلام عنها في هذا الفصل إلا بالقدر الذي تمس الحاجة إليه مما يتصل بالشئون الأخرى تدعيها أو توضيحاً .

وعلى هذا فإن مباحث هذا الفصل هي ما يلي :

- ١ - التشريع التعبدي .
- ٢ - التشريع السياسي .
- ٣ - التشريع الاجتماعي .
- ٤ - التشريع الاقتصادي .
- ٥ - التشريع العائلي والآداب السلوكية البيتية .

وسيكون الكلام غير مسهب في هذه المباحث ، لأن المقصد الرئيسي من الفصل هو استعراض صور السيرة النبوية من هذه الناحية فحسب ، ولنا كتاب مفصل في تعاليم القرآن يصدر بعد هذا إن شاء الله ، ضمنه بحوثاً مستفيضة في هذه الشئون ^(١) .

(١) هذا الكتاب صدر في القاهرة بالتزام دار لإحياء الكتب العربية سنة ١٣٧٦ - ١٩٥٦ بعنوان « الدستور القرآني في شؤون الحياة » .

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى أمر في صدد هذا الفصل ؛ فإن كثيرا من الآيات التي استعرضناها قد أوردت في فصول سابقة ، وقد نبهنا في تلك الفصول إلى الصور التي انطوت عليها ، غير أننا لم نر هذا مغنيا عن هذا الفصل ، حيث أردنا أن نرسم فيه صورة متسلسلة للتشريع القرآني وتطوره بصورة خاصة ، ودون غيره من ملابسات ، مما رأينا فائدة كبيرة له لإتمام الصورة القرآنية للسيرة النبوية الشريفة .

المبحث الأول

التشريع التعبدي

تذكير فرض الصلاة وممارستها - ليس في القرآن تحديد لكيفيات وأوقات وإنما كان هذا بتشريع نبوي - آيات التطهر للصلاة ومداها - ترجيح ممارسة الوضوء مبكراً بتشريع نبوي - تطهير الثياب - آيات صلاة الخوف ومداها - قصر الصلاة في السفر مطلقاً بتشريع نبوي - آيات صلاة الجمعة ومداها وما فيها من صور - إقامة الجمعة قبلها بتشريع نبوي - الأذان بتشريع نبوي - بدء القبلة بتشريع نبوي - آيات الصوم وتذكير فرضه - تعليق على القول بالناسخ والمنسوخ فيها - بعض الصور والمناسبات التشريعية - الحج وترجيح مدنية تشريعه في القرآن - الآيات الواردة في الحج ومناسكه - إقرار مناسك الحج السابقة ومداها وحكمته - صور وتطورات تلهمها الآيات في صدد الحج - ممارسة المسلمين الحج في العهد المكي - وفي العهد المدني .

الصورة الأولى

الصلاة ومُتعلقاتها:

إذا استثنينا صلاتي الجمعة والخوف ، والطهارة والقبلة المتصلتين بالصلاة : فإننا لا نجد في القرآن المدني تشريعاً للصلاة . والمتبادر أن هذا كذلك لأن الصلاة قد مورست منذ بدء النبوة بدليل الآيات التي جاءت عقب الآيات الخمس الأولى من سورة العلق أولى آيات القرآن نزولاً على ما عليه الجمهور وهي :

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى . عَبْدًا إِذَا صَلَّى ... » ٩ - ١٠

حيث تفيد أن شخصاً طاغية حاول منع النبي صلى الله عليه وسلم من صلاته التي أخذ يصليها منذ بدء نبوته . ثم أصبحت واقعية مستمرة . وقد ذكرت بهذا المدى في آيات مكية عديدة مبكرة في النزول كما ترى في هذه الآيات مثلاً :

١ - قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ... الأعلى ١٤ - ١٥

٢ — وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ... طه ١٣٢

٣ — أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ... الإسراء ٧٨

وفي مطلع سورة البقرة - وهو أول آيات العهد المدني أو من أولها - تنويه بالمسلمين الذين يقيمون الصلاة ، مما يدل على ما قلناه من أنها عملية قائمة مستمرة :

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ... » ٣

هذا مع التنبيه إلى أنه لم يرد في القرآن مكيه ومدنيه تحديد لكيفية الصلاة وعدد ركعاتها وأوقاتها ، وكل ما ذكر فيه حالات القيام والركوع والسجود . وقد حاول بعض المفسرين أن يستخرجوا أوقاتها من بعض الآيات مثل آية الإسراء التي نقلناها آنفاً ، ولكنهم على كل حال لم يقولوا إن القرآن احتواها بصراحة وضبط .

فالصلاة والحالة هذه قد فرضت أوقاتاً وكيفيات بالعمل والتعليم النبوي ، ومع أن هناك روايات تذكر أن أوقاتها الخمسة قد فرضت ليلة الإسراء ، أي حول منتصف العهد المكي على ما يرجح وقت هذا الحادث ، فإنه ليس مما يحتمل شكا أن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين كانوا يمارسون الصلاة الإسلامية منذ فجر البعثة ؛ وكل ما يمكن أن يحتمل أن تكون السنة النبوية قد ثبتت لها أوقاتاً وعدداً وكيفيات بعد هذا الفجر ، ولا نستبعد إن لم نقل نرجح أن يكون هذا قد جرى على مراحل وليس دفعة واحدة .

وهدف تعدد الصلاة الإسلامية هو - فوق أنه واجب المؤمن بعبادة الله وأدائه بعض حقه من الشكر على آلائه - موالاة إيقاظ ضمير المسلم بذكر الله وتهذيب نفسه وتنقية روحه ومنعه من مقارفة ما نهى الله عنه من الآثام والمنكرات . وفي القرآن آيات تتضمن هذا ، منها هذه الآية :

« أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ... »
العنكبوت ٤٥

وعلى حاجة الإنسان الدائمة إلى ذلك ؛ فإننا لا نشك في أنه كان عظيم الأثر في تهذيب وتنقية المجتمع الإسلامي الناشئ الذي كان جل أفراده يدينون بالشرك ويرتكسون في أعمال وعادات وطقوس جاهلية .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

أما التطهر للصلاة فقد ورد تشريعه في موضعين من القرآن المدني كما ترى فيما يلي :

١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ^(١) صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ...

النساء ٤٣

٢ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنْبًا فَأَطْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ...

المائدة ٦

والآية الثانية أوضح من الناحية التشريعية كما هو ظاهر . وقد روى المفسرون

(١) أصل المعنى : اقصدا أو اختاروا بقعة طاهرة من الأرض فامسحوا بغيرها ووجوهكم وأيديكم ، ثم صارت كلمة التيمم التي هي بمعنى القصد والتوجه اصطلاحاً إسلامياً .

والرواة أن التيمم قد رخص به في طريق العودة من إحدى الغزوات حيث أدرك المسلمين وقت صلاة ولم يتيسر لهم ماء للوضوء ؛ وفي هذا صورة واقعية من صور السيرة ، وواضح أنه أريد بالرخصة تلقين أهمية الاستعداد للصلاة في أوقاتها بالتطهر ولو بما يقوم مقامه رمزياً .

ومع أن هناك روايات ذكرت أن النبي والمسلمين كانوا يتطهرون بالماء من الحدث الأصغر الناقض للوضوء ومن الحدث الأكبر وهو الجنابة قبل الدخول في الصلاة منذ العهد المبكي ، فإن روح الآيات ومضمونها يلهمان أن هذا التطهر لم يكن مرعياً رعاية تامة ، فاقترضت الحكمة التنبيه والتشريع مرة بعد أخرى . والذي نرجحه أن هذا الإهمال أو عدم الرعاية إنما كان يقع من المستجدين في الإسلام وخاصة من الأعراب .

على أن التشريع في آية المائدة لا يحتوي تفصيل الكيفيات الذي تكفلت به السنن المروية على اختلاف فيها ؛ وقد يكون هذا محل بحث ؛ فإن آية المائدة مما نزل متأخراً ، وعلى كل حال بعد آية النساء ، والتطهر للصلاة مما كان قديماً ؛ فاكتماء القرآن بما حددته آية المائدة ، وما في الروايات في السنن من خلاف ، ثم ما هناك من اجتهاد فقهي بأن الأركان الأربعة المذكورة في الآية مجزية - قد يدل على أن هذا هو الأصل الذي كان جارياً منذ البدء ، وأن السنن المروية لم تكن مستمرة دون انقطاع وتبديل ، وأن الاهتمام قد ظل منصباً على الأركان الأربعة . وفي الفقرة الأخيرة من آية المائدة قرينة على هذا فيما يبدو لنا .

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ

وتطهير الثياب ركن من أركان الدخول في الصلاة كما هو معلوم ؛ ولم يرد فيه تشريع مدني ، ولقد ورد في مطلع سورة المدثر آية هي من أبكر ما نزل : وثيابك فطهر* « ٤ » مما يسوغ القول بأن هذا التطهير كان مثل التطهر من الحدثين منذ فجر البعثة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد علمه للمسلمين وجروا عليه ، أما كيفياته وحدوده

فقد تكفلت السنة ببيانها على اختلاف في الروايات . مما يسوِّغ القول إنه كان يتساهل في ذلك بعض التساهل أيضاً ؛ ويلفت النظر خاصة إلى ما قرّرتَه الفقرة الأخيرة من آية المائدة من حكمة تشريعية سامية ، وإن أسلوبها ومضمونها ليلهمان أن من هدفهما إثارة الحافز في نفوس المسلمين إلى التطهر والنظافة في الدرجة الأولى ؛ وإذا لوحظ أن المجتمع الإسلامي الناشئ قد كان فيه جماعات كبيرة من البدو قلما يعنون بنظافة وطهارة ، وأنه كان يسكن منطقة شحيحة الماء تضطر ساكنيها إلى الاقتصاد بالماء وعدم التطهر والنظافة كما يجب ، بدت لنا الحكمة السامية الخاصة مضافة إلى الحكمة السامية الخالدة .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

وآية النساء تحتوي فوق تشريع التطهر للصلاة كبداً ، تشريع عدم المرور من المسجد إلا على طهارة ما لم يكن هناك ضرورة ملزمة على ما أوله المفسرون لجملة « إلا عابري سبيل » وقد رجحنا في مناسبة سابقة أن هذا قد كان لأن حجرات النبي صلى الله عليه وسلم متصلة بمسجده الشريف . وفي هذا على كل حال صورة واقعية . أما النهي عن الصلاة في حالة السكر وما فيه من صورة واقعية فسيأتي الكلام عنه بعد .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

وقد جاء في صدد صلاة الخوف الآيات التالية :

« وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا . وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ

فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا . . . »

النساء ١٠١ - ١٠٣

وفي الكيفية المذكورة لا يذكر الركوع ولا قعود التشهد ولا ماهية القصر من الصلاة، مما تكفلت ببيانه السنة، وفي هذه الرخصة صورة واقعية، إذ تدل على أن المسلمين كانوا يرون حرجاً في اضطرارهم إلى الوقوف أمام العدو في ظروف الحرب أو الخوف، وعدم تمكنهم من أداء الصلاة، كما أن فيها تنبيهاً إلى خطر أداء الصلاة في أوقاتها مهما كان الأمر، فخلت المشكلة على الوجه المذكور.

ومن الجدير بالذكر أن هذا الحل إنما كان في حال الخوف، في حين أن هناك سنة بقصر الصلاة في حالة السفر مطلقاً، مما يسوغ القول أن هذه الرخصة تشريع نبوي، وواضح أنه لا يتعارض مع تلك الرخصة لأنه ليس في الآية حصر، وهذه واحدة من كثير من أمثالها جرت بتشريع نبوي، منها ما مر كالصلاة والتطهر لها وكيفياتهما، ومنها ما ستأتي الإشارة إليه؛ وفي هذا صورة من صور السيرة النبوية والتشريع في أثنائها.

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

وقد جاء في صدد صلاة الجمعة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَإِذَا رَأَوْا

تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ
التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ...»

١١ - ٩

وروح الآيات وأسلوبها يدلان على أن هذه الصلاة لم تشرع حين نزول الآيات ، وإنما كانت أقدم من ذلك ، وأن الآيات إنما نزلت للتنبيه على خطورتها وإيجاب الاهتمام لها ، بسبب ما كان يبدو من المسلمين أو بعضهم من تقصير في ذلك ناشي عن الانهماك في التجارة واللهو ، إذ احتوت أمراً تشريعياً بوجوب ترك البيع واللهو والمصارعة إلى صلاة الجمعة حينما يؤذن لها .

ولقد ذكرت الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أقام صلاة الجمعة في حي بني عوف حينما قدم مهاجراً من مكة ، وكان هذا طبعاً قبل نزول الآيات ، مما يستأنس به على صحة الاستفهام ، ويؤيد أن النبي والمسلمين كانوا يجتمعون لصلاة الجمعة في مكة منذ عهد قد يكون مبكراً ، ومما يسلك في سلك التشريع النبوي أيضاً ؛ كما ذكرت الروايات أن الأنصار كانوا « يجتمعون » أي يقيمون الجمعة بعد إسلامهم وقبل الهجرة ، مما يسوغ القول بأنهم قد تلقوا ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ويدعم ما قلناه آنفاً .

وعلى هذا فالآيات - وهي تنبه على خطورة صلاة الجمعة - تنطوي على صور متنوعة ، منها اشتغال بعض المسلمين بالبيع عن هذه الصلاة ، ومنها انفضاض بعضهم من المسجد والصلاة قائمة أو النبي قائم لها حينما تعرض لهم عارضة من تجارة أو لهو ، ومنها الاهتمام لتجميع المسلمين يوم الجمعة للصلاة ، وما في هذا من قصد اجتماعي جليل فيه تعليم وتأديب ومصلحة عامة ، سواء بالنسبة للمجتمع الإسلامي الناشئ الحاضر أو للمجتمع الإسلامي بصورة عامة ودائمة .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

وليس في القرآن تشريع للأذان أيضاً ، وكل ما فيه إشارة إلى أن المسلمين كانوا ينادون للصلاة ، كما جاء في آيات سورة الجمعة وكما جاء في إحدى آيات سورة المائدة هذه :

٥٨

« وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ... »

وقد ذكرت الروايات أن الأذان للصلاة بالكيفية الجارية قد ابتدأ في المدينة ؛ وهذا معقول ، لأنه متصل بطبيعة العهد المدني دون المكي ، حيث لم يكن المسلمون في هذا كثرة وأحراراً يمكنهم أن ينادوا للصلاة جهره وجماعة في حين كان هذا ممكناً وضرورياً في العهد المدني ؛ وعلى كل فإن حال تشريع الأذان هو تشريع نبوي كما هو واضح .

الصُّورَةُ الثَّامِنَةُ

والقبلة ركن من أركان الدخول في الصلاة كما لا يخفى ، وقد بسطنا الكلام عما تقلب عليه أمرها بما فيه الكفاية في فصل اليهود فنكتفي بهذه الإشارة ، مع التنبيه إلى أن استقبال المسجد الحرام (الكعبة) قبل المسجد الأقصى ثم التحول إلى هذا إنما كانا تشريعاً نبوياً ، وأن التحول عن هذا إلى الأول هو وحده التشريع القرآني ، مع ملاحظة ما قلناه في المناسبة السابقة من احتمال أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتحول بإلهام رباني قبل نزول آيات القبلة ونزول هذه الآيات بعد ذلك مثبتة مشرعة .

الصُّورَةُ التَّاسِعَةُ

الصَّوْمُ :

هناك روايات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صام عاشوراء وحض على صيامه قبل نزول آيات فرض صيام رمضان ، وأن صيام هذا اليوم متصل بتقليد جاهلي يوم تجديد ستار الكعبة على ما ذكرناه في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » وعلى كل حال فإن صيام شهر رمضان لم يفرض إلا في العهد المدني بالآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ ^(١) فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَتِهِ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ... »

البقرة ١٨٤ - ١٨٧

واستثناساً بأن سورة البقرة أولى سور العهد المدني يمكن أن يقال إن صيام رمضان قد فرض في السنين الأولى من هذا العهد ؛ والروايات تذكر أنه كان بعد تحويل القبلة إلى الكعبة بشهر ، أي في الثالث الثالث من السنة الهجرية الثانية .

ولقد قال بعض العلماء والمفسرين بوجود ناسخ ومنسوخ في آيات الصوم ، إذ استدلوا من الآية الثانية على أن الصيام فرض في أول الأمر بصورة عامة ، وبدون تحديد شهر كامل ، مع تخيير المسلمين القادرين عليه بين الصيام والفداء عنه بإطعام مسكين

(١) أي من كان مقيماً وحاضراً أيام الشهر .

عن كل يوم ، ثم أكدت الفريضة بالآية الثالثة إذ جعلت كامل شهر رمضان ، وحتم صيامه على غير المريض والمسافر ، ونسخ التخيير بين الصوم والفداء بالنسبة للقادرين ؛ فإذا صح هذا كان الفرض الأول هو الخطوة الأولى التي اقتضت الحكمة أن تكون لعدم الإحراج ، حتى إذا تعود المسلمون الصيام كانت الخطوة الثانية . وفي هذا مظهر من مظاهر التطور يمكن أن يكون قد سار مع قوة رسوخ الدين في عامة المسلمين ورغبتهم في التطوع لله بالصيام . على أن أمر النسخ ليس مسلماً به عند علماء آخرين قالوا إن جملة « شهر رمضان » هي بدل من الأيام المعدودات ، وإن الآيات الثلاث الأولى قد نزلت دفعة واحدة . والحق أن صيغة هذه الآيات ومضامينها تتحمل صحة القولين وإن كانت صحة القول الثاني أوجه وأقوى بقرينة جملة (فمن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر) حيث يفيد هذا أن الأيام كانت محددة بأعيانها . وهذا إنما ينطبق على شهر أو بعض شهر بعينه . وإذا أردنا أن نقيس فرض الصيام على تشريعات تعبدية أخرى كالصلاة وكتحريم الخمر ساغ ترجيح القول الأول ، لأننا نرى في هذا وتلك تدرجاً اقتضته الحكمة ، ويمكن أن يكون فرض صيام رمضان سار على مقتضى هذه الحكمة .

والآية الأخيرة تدل على أن المسلمين وقعوا في شيء من الحرج أو الإنم في صدد قرب نسائهم في ليالي الصوم ، وقد ذكرت الروايات أنهم كانوا يرون وجوب الامتناع عن الأكل والنسكاح إذا ناموا بعد العشاء ثم استيقظوا قبل الفجر ، وأن بعضهم قد فعل ذلك فأهمه الأمر فلجأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعتذر فنزل الوحي بالآية . وطبيعي أن تكون الآية قد نزلت متأخرة عن الآيات الثلاث الأولى . ومضمونها يؤيد ذلك . وقد وضعت في مكانها للتناسب الموضوعي وإتمام السياق . وفي هذا صورة من التأليف القرآني . وبعض العلماء يقولون إنها ناسخة لأمر كان يعتبره المسلمون واجباً . وأسلوب الآية ومضمونها يؤيدان ذلك حيث وصف فيها عمل المسلمين خيانة للنفس ثم قرر فيها

أن الله قد عفا وخفف عنهم . والمتبادر أن ذلك كان بأمر النبي ويألهام رباني . ثم اقتضت الحكمة التخفيف .

الصُّورَةُ الْعَاشِرَةُ

الحَجَّ :

إن سورة الحج احتوت فصلاً طويلاً في مناسك الحج . سوف نورد به بعد . وهذه السورة من المختلف في مكيتها ومدنيتها . وقد رجحنا مكية أغلبية آياتها لدلالات عديدة ظهرت لنا وتظهر عند التمعن في آيات السورة . غير أن الفصل المذكور يحتمل أن يكون مدنياً كما يحتمل أن يكون مكياً . غير أن احتمال مدنيته أقوى لأنه يبدأ بآية فيها تنديد بالكفار الذين يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام . فإذا صح هذا فيمكن أن يقال إن الآيات التي فرضت الحج وذكرت مناسكه مدنية وبالتالي إن تشريع الحج هو تشريع مدني ؛ أما القرآن المكي فلم يحتو إلا إشارات إلى الحرم وأمنه وبيت الله المحرم وبركاته وعلاقة إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما وسلم به ... الخ .

وإليك أولاً الآيات الواردة في الحج وتشريعه :

١ — إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ . . .

البقرة ١٥٨

٢ — يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَاتَّقَى الْبُيُوتَ مِنَ الْأُبُوبِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ...

البقرة ١٨٩

٣ — وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ آذَى مِّنْ

رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْأَمْنَةِ إِلَى الْحُجِّ (١)
فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحُجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ
تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . الْحُجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحُجَّ
فَلَا رَفْتَ وَلَا فَسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ
خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا
مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ
كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ . ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ
وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ
كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ
فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ . وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .
وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَجَلَّى فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ
فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . . .

البقرة ١٩٦ - ٢٠٣

٤ — إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ .

(١) اعتمر بمعنى زار . والاعتمر في الاصطلاح الفقهي هو الزيارة في غير موسم الحج أو بغير نية الحج .
فالحاج حينما يحرم لما أن ينوي العمرة فقط ، أو ينوي قرن العمرة والحج معا ، فإذا نوى العمرة فإنه حينما
يصل إلى مكة يطوف بالكعبة زائرا ثم يتحلل من إحرامه ، وحينما يأتي وقت الذهاب إلى عرفات يحرم
بنيّة الحج ؛ أما إذا نوى القران فإنه يظل محرما إلى أن ينزل من عرفات فيزور الكعبة حين دخوله مكة
ويظل محرما إلى أن يقف في عرفات وينزل منها فيذهب إلى مكة ويطوف بالكعبة ثم يتحلل من إحرامه ؛
وكذلك إذا دخل زائرا إلى منطقة الحرم في غير موسم الحج فعليه أن يحرم بنيّة العمرة ، وحينما يدخل إلى
مكة يزور الكعبة ويطوف بها ثم يتحلل من إحرامه .

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ
مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ . . .

آل عمران ٩٦ - ٩٧

٥ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا
مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ
الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِي مِّنْكُمْ
شَتَاتَانُ قَوْمٌ أَنْ صَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ
وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . . .

المائدة ١ - ٢

٦ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ
وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ
مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَذَا بِبَلِغِ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ
طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ
فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَمًا
لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُخْشَرُونَ . جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ
وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ...

المائدة ٩٤ - ٩٧

٧ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ

لِلنَّاسِ سَوَاءٌ الْعِكَفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نَذَقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ .
وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ
ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ
مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ .
ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ . ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ
حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَمُ إِلَّا مَا يُنْفَى عَلَيْكُمْ
فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ . حُفَعَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ
وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي
مَكَانٍ سَحِيقٍ . ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْنُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ . وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا
لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَمِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ
أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى
مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْنِ
اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا
مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَنْ
يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ
لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ...

الحج ٢٥ - ٣٧

الصُّورَةُ الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ

وجل المناسك والطقوس التي أشارت إليها الآيات وشرعتها - إن لم نقل كلها - قد
أقر على ما كان عليه قبل البعثة بعد تهذيبه من المناظر القبيحة وتجريده من شوائب الشرك

والوثنية ؛ مما يسوغ القول بأنها كانت من التقاليد المقدسة الراسخة في الناس ، كما أنها كانت تنطوي على فوائد متصلة بما توخته الدعوة فيما توخته من مثل جمع القاصين والدانين على اختلاف أجناسهم وأهوائهم في مظهر متحد في وقت ما وشكل ما ؛ وتبدو لنا حكمة أخرى في هذا الإقرار وهي تأنيس الناس الذين كانت تلك التقاليد راسخة فيهم رسوخاً شديداً للدعوة الإسلامية وقد أخذ ألقها يتسع بعد الهجرة وترشح ليشمل جميع العرب على اختلاف منازلهم فضلاً عن غيرهم .

وفي الآيات صور واقعية وخطوات تطورية متصلة بالسيرة النبوية ننبه عليها فيما يلي :

(١) يفهم من آية البقرة (١٥٨) أن المسلمين قد تخرجوا من الطواف بالصفاء والمروة جرياً على تقليد الجاهلية فأقر هذا الطواف وأعلن أنه من شعائر الله .

(٢) ويفهم من آية البقرة (١٨٩) أن العرب كانوا يتخرجون من التظلل بالسقوف وبالتبعية من دخول البيوت من أبوابها المظلة أثناء أشهر الحج فظلو أعلى هذا إلى أن أبطلته الآية .

(٣) ويفهم من آية البقرة (١٩٨) أن المسلمين تخرجوا من الاشتغال بالتجارة في أثناء أشهر الحج - وقد كان العرب يقيمون الأسواق التجارية في هذه الأثناء - وظنوا أن من الواجب أن يكرسوا جميع الوقت للعبادة وعدم مزج شيء من عمل الدنيا معها ، لاسيما أن الآية ١٩٧ قد نهت على وجوب اجتناب الجدال والفسوق والرفث في أشهر الحج ، فأباحت الآية لهم ذلك .

(٤) ويفهم من آية البقرة (١٩٩) أن بعض طبقات من العرب أو من الزعماء كانوا يأنفون من الوقوف في موقف عامة الناس أثناء بعض المناسك ، وأن هذه العادة ظلت جارية وقتاً ما بعد البعثة ، فأبطلت بها للتسوية بين الناس في هذا الموقف التعبدية الذي يتجه الناس جميعهم فيه إلى الله وحده دون تجبر أو استكبار .

(٥) ويفهم من آيات البقرة ١٩٦ - ٢٠٢ أنها توخت فيما توخته أن تستبدل

بما كان من عادة الحجاج في منى من عقد مجالس المفاخرة ، مجالس ذكر الله وعبادته وتكبيره .

(٦) ويفهم من آيات المائدة ١ - ٢ أن أحداً حاول أن يلحق الأذى بأهل مكة فيمنع عنها الحجاج ، فخطرت ذلك بشدة وأيدت بقوة وجوب احترام حرمة الحج والأشهر الحرم وتقاليدها ومناسكها .

(٧) ويفهم من آيات المائدة ٩٤ - ٩٧ أن العرب كانوا يحرمون صيد البر والبحر معا في أشهر الحج المحرمة ، فأباح صيد البحر للتخفيف عن الناس وخاصة عن القوافل وتيسير الطعام لهم ، كما أنها جعلت حالة التحريم مقصورة على وقت الإحرام الذي حددته السنة النبوية بلبس الثياب غير المخيطة حين دخول المسلم منطقة الحرم إلى أن يقضي عمرته أو حجه بعد أن كانت شاملة لأشهر الحج كلها .

٨ - ويفهم من آيات سورة الحج أن العرب كانوا يتخرجون من أكل لحوم قرايئهم ، ومنهم من كان يمنعها عن الناس ويعتبرها محرمة لله ، فأباح لأصحابها الأكل منها وإطعام غيرهم وخاصة الفقراء والمعوذين منها .

هذا ؛ ويلفت النظر خاصة إلى ما في إقرار جُلِّ تقاليد الحج بعد تهذيبها من شوائب الشرك والوثنية من معان متصلة بالمجتمع الإسلامي الذي كان إذ ذاك هو المجتمع العربي بوجه عام ، فالعرب على مختلف منازلهم ونحلهم وثقافتهم كانوا متحدين في هذه التقاليد تقديساً وممارسة ، وكان لهم في ظروفها منافع عظيمة متنوعة وكانت راسخة فيهم رسوخاً شديداً من المتعذر التغلب عليه ، وكان أهل مكة وهم أئمة العرب متخوفين من انتشار الدعوة الإسلامية ظناً منهم أنها ستلغي هذه التقاليد ويفقدون بذلك مركزهم الممتاز ومنافعهم الكبيرة ، وهذه التقاليد في أصلها مما هو متصل بملة إبراهيم التي دعا إليها القرآن ، وكان العرب يعرفون هذه الصلة ويبنون تقاليدهم عليها ؛ ولقد استهدف القرآن فيما استهدف توسيع أفق العرب وإخراجهم من نطاق القبليّة الضيقة إلى كيان الأمة الموحدة ؛ فكل هذا مما يفسر حكمة ذلك الإقرار ، وبوضوح المعاني التي أشرنا إليها كما هو المتبادر .

المبحث الثاني

التشريع السياسي

مدى التشريع السياسي ومتناوله - الآيات الواردة في توطيد مركز أولي الأمر وما يجب لهم وعليهم ومداهما ودلالاتها - الآيات الواردة في توطيد العدل وحياطته ومداهما ودلالاتها - الآيات الواردة في العقوبات والحدود ومداهما ودلالاتها - تعليق على تطور عقوبة الزنا وتشريع حد السكر والتطور التشريعي في حظر الخمر - توطيد بيت المال - الزكاة ومدى ودلالة التبكير في فرضها - تطور الأسلوب القرآني فيها - صلة الزكاة ببيت المال - غنائم الحرب - تشريع الخمس من غنائم الحرب الفعلية ومغزاه - تشريع النبي ومداه - تعليق على الفرق الملحوظ بين مستحقي غنائم الحرب والزكاة - بعض الصور في صدد التشريعات المالية .

الصورة الأولى

نقصد بهذا ما يتصل بتوطيد كيان الدولة في الإسلام وواجباتها وصلاحياتها . والتشريع في هذا مدني، وكل ما كان من أمر بالنسبة للقرآن المكي أن خطوطه مما تضمنته آيات مكية كآيات الشورى ٣٧ - ٤٣ التي تنوّه بالمسلمين الذين يحملون أمرهم شورى بينهم ، وينتصرون من ظالمهم ، وآيات الإسراء ٣١ - ٣٥ التي تنهى عن القتل وتجعل لولي الدم حقاً يؤخذ له ، وتأمّر برعاية مال اليتيم والوفاء بالعهد ؛ وكآيات النحل ٩٠ - ٩٢ التي تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن نقض العهود ، وكآية الأنعام ٥٢ التي تأمر بالعدل بالقول دون أي محاباة وبالوفاء بالعهد ، وكالمحاوراة المحكية في سورة النمل عن ملكة سبأ وما يحتمل أن يكون قد انطوى فيها من تلقين القدوة ، وكآيات ص غن داود عليه السلام وخطاب الله له في بيان ما يجب على الخليفة مراعاته وما يحتمل أن يكون انطوى فيها من تعليم وتلقين كذلك .

وننبه إلى نقطة مهمة، فمع قولنا إن التشريع السياسي مدني فإن القرآن المدني لم يحتو هو أيضاً إلا القليل من التفصيل والتحديد ، وأكثر ما جاء في صدد هذا الموضوع قد

جاء مطلقاً وعاماً كخطوط ومبادئ ؛ مما يمكن أن يكون قصد به ترك التفاصيل والجزئيات للنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه في المسلمين ، يسرون منه على حسب الظروف والإمكانات في نطاق تلك الخطوط والمبادئ ، وهذا من معجزات الشريعة الإسلامية التي رشحتها للخلود .

والتشريع القرآني السياسي يتناول عدا الأمور المتصلة بالجهاد ، وصلات المسلمين بغير المسلمين في مختلف حالاتهم - مما ألمنا به في فصوله الخاصة ولا نرى العودة إليه هنا - الأمور الآتية :

- ١ - ماله صلة بتوطيد مركز أولي الأمر وما يجب لهم وعليهم .
- ٢ - ماله صلة بتوطيد العدل .
- ٣ - ماله صلة بالمعقوبات والحدود .
- ٤ - ماله صلة بتأسيس بيت المال .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

ففي الأمر الأول نزلت آيات عدة نورد منها ما يلي :

١ - فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ...

آل عمران ١٥٩

٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ...

النساء ٥٩

٣ - وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ...

النساء ٨٣

٤ — يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ . وَأَنَّهُٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَاتَّقُوا فِتْنَةً
لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . . .
الأنفال ٢٤ - ٢٥

٥ — يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأنتُمْ
تَعْلَمُونَ ...
الأنفال ٢٧

٦ — وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ
اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ...
الأنفال ٤٦

٧ — لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ...
التوبة ١٢٨

٨ — يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ
شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْ لَدُهُنَّ وَلَا يُاتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ
أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ . . .
المتحنة ١٢

فهذه الآيات رمت كما هو المتبادر :

١ - إلى توطيد السلطان الإسلامي في شخص النبي صلى الله عليه وسلم أولاً وإلى
توطيد إطاعة أولى الأمر ثانياً .

٢ - إلى جعل القرآن والسنة النبوية هما الناموس العام الذي يجب أن
يهتدي ويستلهم منه في حل المشاكل وتصريف الأمور وخاصة عند
اختلاف الآراء .

٣ - إلى تلقين جعل المصلحة العامة وحياة المجتمع العامة ضابطاً عاماً في تأييد
المسلمين للسلطان والاستجابة إلى ما يدعو إليه وإطاعته فيه .

- ٤ - إلى إيجاب رد الأمور من قبل العامة إلى أولياء الأمور وأهل الحل والعقد القادرين على تمحيصها والأخذ بما هو الأصح منها .
- ٥ - إلى تقرير صفات ولي الأمر في الإسلام من لين الجانب وخفض الجناح ، والرافة بالمسلمين ، والاستغراق في مصلحتهم وخيرهم ، وعدم أمرهم بغير المعروف ، وعدم دعوتهم إلى ما فيه المعصية .
- ٦ - إلى إيجاب إشارة أهل الحل والعقد على ولي أمر المسلمين .
- ٧ - إلى إيجاب الإخلاص والأمانة والطاعة على المسلمين لأولياء أمورهم في حالة تحقق الصفات المذكورة فيهم .
- ٨ - إلى إيجاب التضامن والاتحاد فيما بينهم في ذلك أيضا .
- ويمكن أن يلخص هذا بأن التشريع السياسي قدرمى إلى جعل المجتمع الإسلامي من الوجهة السياسية كيانا محكما يجب فيه على أولياء الأمور والرعية أن يتضامنوا ويتبادلوا الحقوق والواجبات والتشاور ؛ ويهدفوا جميعا إلى خير هذا الكيان ، دون أن يكون لأولياء الأمر حق إلا مقابل واجب وصفات ، ودون أن يكون للرعية حق إلا مقابل واجب وصفات أيضا .
- ومن إنعام النظر في نصوص الآيات والاطلاع على تفسيرها ومناسبات نزولها - وهو مما ألمنا به بعض الإمام في الفصول السابقة التي استعرضنا فيها أكثر هذه الآيات - ^(١) يبدو أولا أنها قد نزلت في مختلف أدوار التنزيل ، وهذا يعني أن التشريع السياسي القرآني إنما جرى على مراحل على اختلاف ظروف العهد المدني الذي نزلت فيه آياته ؛ وثانيا أن هذه الآيات قد نزلت في مناسبات وظروف معينة ، وهذا يعني أنها انطوت على صور ومواقف ومشاهد من صور العهد المدني ؛ فرمت إلى معالجة الموقف على الوجه الذي اقتضته الحكمة ، ثم كانت إلى ذلك تشريعا مستمر التلقين والمدى .

الصورة الثالثة

وفي الأمر الثاني نزلت كذلك آيات عدة نورد منها ما يلي :

(١) جل هذه الآيات نقل وشرح في فصلي الجهاد والناقين .

١ — إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ
النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا .
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ
فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ
وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ
مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّحِذَ كُفْرًا إِلَى الْطُّغْيَانِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ
رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ...

النساء ٥٨ - ٦١

٢ — إِنَّا أُنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ
وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا . وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَلَا تُجَادِلْ
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا . يَسْتَخْفُونَ مِنَ
النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ
اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ...

النساء ١٠٥ - ١٠٨

٣ — وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا
مُبِينًا ...

النساء ١١٢

٤ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ
أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا
الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ...

النساء ١٣٥

٥ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

شَتَّانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ...

المائدة ٨

٦ — سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ...

المائدة ٤٢

٧ — وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ . وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ...

النور ٤٧ - ٥١

وفي سورتي البقرة والمائدة آيات في صدد الدين والعقود والشهادات والوصية، وقد استهدفت فيما استهدفته حيطة الحق والعدل والأمانة، مما يصح أن يسلك في سلك الآيات السابقة كما ترى فيها .

١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلََّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِّجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً تُدِيرُونَهَا

بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَغْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَمِنَ أَمْلَأْتَهُ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ... ٢٨٢ - ٢٨٣

٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْلَبَتْكُمْ ثُغْيَانُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ . فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْتُنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ... ١٠٦ - ١٠٨

وتوطيد فكرة العدل والحق بين الناس بصورة مطلقة وشاملة وعدم المحاباة والتساهل مع المبطلين ، وعدم الضعف في ذلك بسبب ظروف القربى أو البغضاء - بارزة المرمى في الآيات كما ترى مثل ذلك في فكرة إيجاب تضامن المسلمين في تحقيق هذه الغاية ، ومساعدة القضاء الإسلامي على القيام بها على الوجه الأوفى ، وبجملة واحدة : قد رمت إلى جعل العدل والحق والأمانة بين الحاكم والرعية ، ثم بين الرعية فيما بينهم ، مسألة تضامنية من جهة وفوق كل اعتبار من جهة أخرى .

والآيات كما هو واضح قد نزلت في مختلف أدوار التنزيل كما نزلت في مناسبات وظروف خاصة ، وانطوت على صور ومواقف ومشاهد من صور العهد المدني في مختلف

أدواره ، مما نبهنا على أكثره في فصول سابقة ؛ وقد رمت إلى معالجة الموقف الحاضر على الوجه الذي اقتضته الحكمة ، ثم كانت إلى ذلك تشريعا مستمرا للتلقين والملازمة .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

وفي الأمر الثالث نزلت آيات عدة أيضاً نوردها فيما يلي :

١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّى إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ...

البقرة ١٧٨ - ١٧٩

٢ — وَالَّذِي يَأْتِيَنَّكَ الْفُجْشَةُ مِنْ نِّسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا . وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَاهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ...

النساء ١٥ - ١٦

٣ — وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن فَتْيَا لِّتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَفْضِكُمْ مِّن بَعْضٍ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَإِذْ يَأْتِيَنَّ أَهْلَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّهُنَّ أَتَيْنَ بِفُجْشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

النساء ٢٥

٤ — وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ

رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ...

النساء ٩٢

٥ — إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْمُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

المائدة ٣٣ - ٣٤

٦ — وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . فَمَنْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

المائدة ٣٨ - ٣٩

٧ — الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ...

النور ٢

٨ — وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

النور ٤ - ٥

٩ — وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَتْ
أَحَدُهُمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . وَالْخَمِيسَةُ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ
مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ
لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ . . .

النور ٦ - ٩

١٠ — إِنْ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ...

النور ١٩

١١ — لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي
الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا
أُحِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ...

الأحزاب ٦٠ - ٦١

وقد حددت الآيات - كما هو واضح - عقوبات الجرائم الرئيسية كالقتل والزنا
والسرقة وقذف الأعراض ، والإفساد في الأرض ، وإخلال الأمن ، وإثارة الاضطراب
في المجتمع بإشاعات السوء والأذى والإرجاف مما له صلة بدماء الناس وأعراضهم وأموالهم
وأمنهم وحریاتهم ؛ وهي أهم ما يهتم المجتمع كما لا يخفى .

والآيات مما يمت إلى مختلف أدوار التنزيل ، وهذا يعني أن هذه التشريعات قد
تمت على مراحل ، حسبما اقتضته الظروف والأحوال ؛ ولذلك نزل جلها أو كلها في مناسبات
ووقائع معينة ، وهذا يعني أنها انطوت على صور متنوعة من العهد المدني وطبقات المجتمع
الإسلامي فيه أيضا ، مما هو متصل بالسيرة النبوية ومشاهدها .

وآية البقرة (١٧٨) نصت على القصاص في القتل ، وحددت قتل الحر بالحر والعبد
بالعبد والأنثى بالأنثى ، وقد يفهم منها أن الحر لا يقتل بالعبد ولا الذكر بالأنثى ؛ غير
أن هناك تعديلا ثابتا لذلك في السنة النبوية مستلها على ما يتبادر من المبدأ العام الذي
احتوته الآية (١٧٩) وهو القصاص مطلقا . ولقد ذكرت الروايات أن الآيات نزلت في

قبيلتين كان بينهما دماء قبل الإسلام ، وكانت إحداهما أقوى من الأخرى ، فاقسمت القوة على الاقتصاص من عدوتها قصاصا مضاعفا ومهيئاً ، فلما أسلمت جاءتنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم للاحتكام ، فنزلت الآيات في حل المشكل القائم على الوجه الحكيم الذي جاءت به . وفي هذا وذاك صور واقعية للتشريع وتطوره . وآيات قتل الخطأ انطوت على صورة لما كان الأمر عليه في العهد النبوي المدني ، إذ كان هناك مسلمون من فريق أو قبائل غير مسلمة ، منها من كان عدوا محاربا ومنها من كان معاهداً ؛ فاحتوت أحكاماً لكل من الحالتين بالإضافة إلى حالة قتل مسلم لمسلم آخر أهله مسلمون ، فكانت علاجاً للحالة القائمة وتشريعاً مستمر المدى في الوقت نفسه .

وآيات النساء ١٣ - ١٦ لا تنص على حد للزنا ، وكل ما أوجبه على المرأة الحبس في البيوت ، وعلى الرجل أذى ، أي ضرباً غير محدد ؛ ثم جاءت آيات النور ٢ - ١٠ فعينت حد الزنا ، وأضافت إلى جريمته جريمة القذف ، وعينت حداً للقاذف ، كما حلت مشكلة تهمة الزوج لزوجته إذا لم تكن مستندة إلى شهود ؛ وفي هذا من الصور التطورية ما هو ظاهر ، وقد اقتضته ظروف وتطور الحالة الاجتماعية في العهد المدني على ما هو المتبادر ؛ ومملاً يحتمل شكاً أن الآيات قد نزلت بمناسبة وقائع وحادثات ، إذ جاءت علاجاً للحالة التي نزلت بمناسبةها ووفق ظروفها ، ثم صارت تشريعاً مستمر المدى

وقد نصت آية النساء (٢٥) على أن عقوبة الزنا على الأمة المتزوجة هي نصف عقوبة الزنا على الحرة ، وهي خمسون جلدة . وهذا يمت فيما يتبادر لنا إلى ما كان في عصر النبي وبيئته من ارتكاس الإماء في البغاء وتعرضهن له أكثر من الحرائر ، مما تلهمه الآية نفسها على ما شرحناه في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته » .

وآيات الأحزاب ٦٠ - ٦١ والنور ١٩ تتضمن صوراً لما كان من المناققين ومرضى القلوب من مواقف مؤذية ومثيرة للقلق والاضطراب في المجتمع الإسلامي اقتضت الحكمة أن يشرع لها عقوبات زاجرة صارت في الوقت نفسه تشريعاً وتلقيناً مستمرى المدى . وآيات المائدة ٣٣ - ٣٤ أيضاً تتضمن صورة لما كان من عيث بعض الناس في أمن

الأرض ومحاربة دعوة الله ورسوله ، فاقتضت الحكمة أن يشرع لمثل هذا عقوبات زاجرة تطبق على الذين يقبض عليهم قبل التوبة والارعواء ، وصارت في الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى ؛ وقد طبقت في العهد النبوي على بدو أظهروا إسلامهم ثم ارتدوا ونهبوا مواشي بيت المال وقتلوا رعاتها .

وآية حد السرقة جاءت بعد هذه الآيات بقليل ، مما يلهم أنها نزلت بسبب تساؤل عن حد السرقة العادية ، أو بسبب حادث سرقة عادية اقتضت الحكمة تشريعا خاصا لها يعالج به الموقف ويكون تشريعا مستمر المدى أيضا .

ولقد اكتفت الآيات المسكية بتقبيح الزنا والنهي عنه ، وفعلت مثل ذلك بالنسبة للقتل والفساد في الأرض ، ولم تذكر السرقة ألبتة ، فجاءت الآيات المعينة لتشريع القصاص في القتل ، والحد في الزنا والسرقة والقدف ، ولتضع أحكاما في القتل الخطأ على حسب حالة القاتل والمقتول وصلاته بالسكان الإسلامي ، وعقوبات زاجرة للمفسدين والمرجفين ، والمثيرين لقلق المجتمع وأمنه ، والمتعرضين لأعراض الناس وأموالهم ، وفي هذا كله صورة تطورية للعهد مستمدة من طبيعتهما . وهناك سنن نبوية عديدة أتمت التشريعات القرآنية .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

ونريد أن نستطرد إلى الحد الإسلامي على شارب الخمر لنقول إن هذا الحد ليس قرآنيا وإنما هو سنة نبوية وراشدية على اختلاف في الروايات عن كيفية إقامة الحد ومداه ، إذ روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بجلد الشارب أربعين جلدة مرة وثمانين مرة ، وبضربه بالنعال والأبدى مرة ، ونهى عن لعنه مرة ؛ وكل ما في القرآن هو نهى حاسم عن الخمر في أواخر العهد المدني . وبعد تدرج فيه انطوى على صور من العهدين المكي والمدني من جهة ، وعلى ما كان للخمر والسكر من شيوع ورسوخ فيهما ومنذ قبل البعثة من جهة أخرى ، فالوعد بمتمعة خمر الجنة ومجالسها ورأثتها ولونها ومزاجها وطعمها ولذتها قد

تكرر ، وهذا يلهم ما قلناه من شيوعها ورسوخها في بيئة النبي التي خوطبت بالقرآن لأول مرة . ولقد احتوى وصف خمر الجنة نفيًا لوجود ما تستكرهه النفس في خمر الدنيا وما يسبب للشارب من الصداق^(١) ، وهذا يمكن أن يكون نواة أولى لتقرير كراهة الخمر وإعلان تحريمها ؛ وفي أوائل العهد المدني سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمر والميسر فأوحى إليه بالآية التالية :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ... »
البقرة ٢١٩

وليس في الجواب منع أو تحريم كما هو ظاهر ، ولكنه قوي في تقرير إثمه يصح أن يعد خطوة مهمة إلى النهاية المحتومة ، ثم كان أن صلى بعض المسلمين وهم سكارى فخلطوا في الركعات وفي قراءة القرآن ، وراجع عمر بن الخطاب رضي الله عنه - على ما روى - النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا إلى الله أن ينزل حكماً في الخمر ، فنزلت الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ... »
النساء ٤٣

ثم نزلت آيات المائدة التالية بعد مدة ما :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ... »
٩٠ - ٩٢

وقد احتوت نهياً حاسماً وقوياً عن الخمر ، ووصفتها بالرجس ، وسلكتها في سلك

الشرك ؛ والآية الثانية تلهم أن الآيات نزلت بمناسبة وقوع شقاق ونزاع بين بعض المسلمين بسبب الخمر والميسر ، مما هو مألوف الحدوث في حالة السكر وتعاطي الخمر والميسر ، وأن الحادث كان خطير الأثر والنتيجة استثار حنق الناس وأسفهم ، فكانت مناسبة ملائمة للخطوة النهائية إلى حظر الخمر لتعالج الحالة القائمة ولتكون تشريعا مستمر المدى أيضا . وذكر الأنصاب والأزلام في الآية الأولى قد يلهم أن هذه الآيات قد نزلت بعد الفتح المكي إذ كانت الأنصاب قائمة والعادات الجاهلية الوثنية في اللهو والاستخارة جارية . ولقد جاء بعد هذه الآيات آية تنطوي على ما هو المتبادر منها على صورة لأثر النهي الحاسم في بعض المسلمين وهي هذه :

« لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا
وَعَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَعَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ ... »

٩٣

فالظاهر أن الذين كانوا يتعاطون الخمر من المسلمين هلعوا من أسلوب الآيات وسلوكها الخمر في سلك عبادة الأنصاب ووصفها بالرجس ، فنزلت الآية لتسكن من هلعهم بالنسبة لما كان منهم قبل نزولها إذا اتقوا بعدها غضب الله وعذابه ، وصدقوا بما نزل ، وأحسنوا الأعمال .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

أما الأمر الرابع فن تناول الزكاة أولا ؛ ومعلوم أن هذا الركن الإسلامي ليس مدني التشريع في أصله إذ كان هو والصلاة من مواضع الدعوة الإسلامية منذ فجر العهد المدني ، صراحة حيناً وكناية حيناً كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ .
وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . . .

٢ — إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرِجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ...
فاطر ٢٩

٣ — هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ...
النمل ٢ - ٣

٤ — وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ...
الإسراء ٢٦

٥ — قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ
الْمُنْعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ...
المؤمنون ١ - ٤

٦ — وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ...
المعارج ٢٤ - ٢٥

٧ — وَمَاءِ اتَّيْتُمْ مِّن رَّبًّا لَّا يَرْبُوءُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوءُ عِنْدَ اللَّهِ
وَمَاءِ اتَّيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ...
الروم ٣٩

ومما يلفت النظر خاصة تعابير « حقه » و « حق للسائل والمحروم » و « حق معلوم » في الآيات ، إذ يمكن أن تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حدد مقادير معينة على أموال القادرين من المسلمين في العهد المكي زكاة عن أموالهم المتنوعة ؛ ومما يتبادر أنه بالإضافة إلى أن الزكاة ومقاصدها هدف أساسي من أهداف الدعوة الإسلامية ، فإن التبكير في الدعوة إليها ، والتنويه الذي احتواه القرآن بالمؤمنين الذين كانوا ينفقون أموالهم سرا وعلانية ، ويؤدون الزكاة ، ويعرفون أن في أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم - يدل على أن ظروف الدعوة كانت تدعو إلى فرض شيء من المال على الغني المسلم للفقير المسلم في ذلك الحين الذي كان الفقراء فيه أكثر عدداً من جهة ، ومعرضين للأذى والمطاردة أكثر من غيرهم من جهة أخرى ؛ ولعل مشروع الدعوة الإسلامية نفسه كان

في حاجة إلى نفقات لا بد منها كان النبي صلى الله عليه وسلم يتقاضاها من أغنياء المسلمين كزكاة واجبة الأداء عن أموالهم ؛ مما اقتضت الحكمة أن يبكر في فرض الزكاة والحث على أدائها والتنويه بمؤديها .

كذلك مما يلفت النظر ما في الآيات المكية من قوة التعبير التي تدل على أن إعطاء الغني زكاة ماله في الإسلام لم تكن الدعوة إليه حتى في أوائل العهد المكي على أنه صدقة تطوعية ، بل على أنه حق محتوم واجب الأداء للطبقات المحتاجة والمصلحة الإسلامية العامة ؛ هذا فضلا عما احتواه من حث على الإنفاق ومساعدة المحتاجين مما يمكن أن يكون قصد به التبرع التطوعي بالإضافة إلى الحق الواجب .

ومن السائغ أن يقال إن تشريع الزكاة في العهد المكي هو الوحيد بين التشريعات غير التعبدية إذ أن جل هذه التشريعات إنما كان في العهد المدني على ما أشرنا إلى ذلك قبل . والتعليل الذي يتبادر لهذا أن الزكاة إنما فرضت على المسلمين ليؤدوها بطيب أنفسهم وبدافع إيمانهم كالصلاة ؛ فلم تكن قلة المسلمين وضعفهم في العهد المكي مانعين لهذا التشريع منذ البدء ؛ فضلا عن مساس الحاجة إلى ذلك منذ ذلك الوقت .

ومع هذا كله فلعل من الحق أن يقال إن الأمر بالزكاة والإنفاق وإيتاء حق ذوي الحق في أموال الأغنياء ظل في العهد المكي دعوة وتشويقا وترغيبا وترهيبا كما يدل على ذلك أسلوب الآيات التي نقلنا أمثلة عنها ، في حين أن الآيات المدنية قد جاءت أو جاء كثير منها بأسلوب الأمر والإيجاب كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ

البقرة ١١٠

عِنْدَ اللَّهِ ...

٢ — وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . .

الأحزاب ٣٣

٣ — ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ...

المجادلة ١٣

٤ — وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ...

المزمل (١) ٢٠

٥ — وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ...

البينة ٥

وفي حين أنها دخلت في العهد المدني في طور رسمي ، وأصبحت في جملة ما يدخل جبايته في صلاحية السلطان الإسلامي الذي كان يتمثل في شخص النبي صلى الله عليه وسلم وجعلت من حق بيت المال الرسمي ، ومورداً من موارده ، وأوجب عليه صرفها في مصارف معينة ، وعبر عن الزكاة ومصارفها بتعبير « فريضة من الله » كما يستفاد من الآية التالية :

« إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... » (٢)

التوبة ٦٠

وتعبير « الصدقات » في الآية هو كفاية عن الزكاة كما هو المجمع عليه ؛ ويلفت النظر خاصة إلى جملة « والعاملين عليها » إذ تعني الموظفين الرسميين الذين كان يعينهم النبي صلى الله عليه وسلم لجباية الزكاة ، مما يدل دلالة حاسمة على رسمية هذا المورد المالي .

(١) هذه الآية مدنية وكانت موضعها في السور المسكية المناسبة .

(٢) الرقاب كناية عن تحرير الرقاب ، والغارمون هم الذين يحملون الغرامات ، أي الدية ولا يطبقون أداؤها وحدهم ، والدينون : المعسرون .

وأية التوبة هذه قد تكون متأخرة في النزول ، غير أن أسلوبها من جهة وسياق ورودها التنبه بالمتأخرين الذين كانوا يطمعون بحصة من الزكاة على غير استحقاق من جهة أخرى^(١) يدلان على أن الأمر كان جارياً قبل نزولها على ما ذكرته بتشريع نبوي جاءت مؤيدة له .

والصورة التطورية في أمر الزكاة ورسمية جبايتها وصرفها واضحة بالنسبة للعهدين ؛ ولا ريب في أنها مستمدة من طبيعة العهدين نفسيهما . وليس في القرآن تعيين لمقادير الزكاة ، وقد تكفلت بذلك السنة النبوية ، شأن كثير من الحدود والقواعد على ما نبهنا إليه في المناسبات السابقة .

وهناك نقطة جديرة بالبحث في صدد صلة الزكاة ببيت المال ؛ إذ جرى التعامل على أن تكون زكاة الزروع والأشجار والمواشي فقط هي التي يجبيها بيت المال الرسمي ، وإذا تواترت الروايات بأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان يرسل عمال الصدقة ليأخذوا حصة بيت المال من هذه الأعيان ويوزعوها على الفقراء بتفويض منه أو يرسلوها إلى خازن المال ؛ ونقول : إن الآية لا تحتوي تخصيصاً ، كما أن شمول الزكاة للأموال جميعها لا يحتمل شكاً ؛ ولقد ذكرت روايات معتبرة^(٢) أن النبي صلى الله عليه وسلم قبض أكثر من مرة زكاة مال عمه العباس الذي كان تاجراً ولم يكن ماله زرعاً وماشية ، كما أن الخليفين عمر وعثمان رضي الله عنهما كانا يحاسبان أصحاب المراتب من المسلمين على زكاة أموالهم حين تأدية هذه المراتب السنوية ، ويحجزان المستحق عليهم لبيت المال منها ؛ هذا إلى ما هناك من أقوال منسوبة إلى كبار الصحابة بوجوب تأدية زكاة جميع أنواع الأموال إلى بيت المال ، الأمر الذي نرجح أنه كان جارياً بصورة عامة ؛ ويستفاد من الروايات المعتبرة أنه كان لما قام من فتن سياسية أدت إلى نشوء الدولة

(١) أو آيات التوبة ٥٨ - ٥٩

(٢) في كتاب الأموال للإمام القاسم بن سلام وهو من أقدم الكتب وأهمها ، أقوال وأحاديث وروايات عدة في هذا الموضوع .

الأموية أثر في إهمال استيفاء بيت المال زكاة النقد والعروض الأخرى ، أوفي حمل بعض المسلمين على عدم تأديتها إليه ، ثم سرى هذا إلى الجمهور ، وتساهلت الدولة في الأمر ؛ لتفادي الفتنة من جهة ؛ ولأن النقد والعروض الأخرى ليس مما يمكن الاطلاع عليه وأمرهما موكول إلى أصحابهما من جهة أخرى .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

ومن متناول الأمر الرابع غنائم الحرب ثانيا . وهذه الغنائم نوعان : نوع يشترك في اغتنامه المسلمون في حرب فعلية ، وآخر لا تقع في سبيله حرب فعلية ؛ والنوع الثاني يسمى « فَيْثًا » إذ تتضمن الكلمة معنى الهبة . وقد عبر عنها بجملة (ما أفاء الله) . وقد قررت آية الأنفال (٤١) الخمس من النوع الأول كنصيب لبيت المال الرسمي كما ترى :

« وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ... »

ونصت الآية على مستحق هذا الخمس ، وتواترت الروايات حتى صار يقينا أن للنبي صلى الله عليه وسلم كان يقبض الخمس ، ويتولى إنفاقه في مصارفه ، ومن أجل هذا قلنا إنه نصيب بيت المال الرسمي .

وقررت آية الحشر (٧) جميع النوع الثاني كنصيب لبيت المال كما ترى :

« مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... »

ومستحقو النبي هم مستحقوا خمس الغنائم أنفسهم ؛ وقد تواترت الروايات كذلك

حتى صار يقينا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبض النبي ويتولى إنفاقه على مصارفه ؛ ومن أجل هذا قلنا إنه نصيب بيت المال أيضا .

وبين مستحقي الزكاة ومستحقي النبي والغنائم بعض الفرق ، إذ دخل في عداد الأولين المؤلفه قلوبهم ، والعاملون عليها وتحرير الرقاب ، والغارمون ؛ وفي هذا الفرق صور واقعية للعهد المدني على ما يتبادر لنا ، إذ يمكن أن يلهم أنه كان من المسلمين فئة تمس الحاجة إلى تأليف قلوبها بالمال ، وفئة أخرى تمس الحاجة إلى مساعدتها على حمل مغارمها الناشئة عن طبيعة المجتمع ؛ كما كان هناك أرقاء مسلمون يجب شراؤهم وتحريرهم ، فاقترضت الحكمة النص على مساعدتهم ؛ وبلغت النظر خاصة إلى النص على مساعدتهم من مال الزكاة الذي هو دائم المورد دون الغنائم الحربية ، وفي هذا ما يلهم خطورة مساعدة هذه الفئات في العهد النبوي ، وما علمه الله من خطورة مساعدتها دائما أيضا ، إذ أن في الآية معالجة للموقف الحاضر ، وتشريعا مستمر المدى بطبيعة الحال .

أما الفقراء والمحتاجون فقد نص على مساعدتهم من النوعين مما يبدو حكما وطبيعيا ، لأنهم جزء من كل مجتمع في كل وقت ، ولا بد من مساعدتهم ومن تولى السلطان الإسلامي أمر هذه المساعدة حتى لا يكونوا تحت رحمة الصدقات التطوعية والمتصدقين وأذاهم . ومما لا ريب فيه أن هذا كان هو الواقع ؛ وقد أشارت آيات البقرة (٢٦٢ - ٢٦٤) التي نقلناها في فصل الجهاد إلى ذلك .

أما (ذي القربى) الذي ذكر في آيات الغنائم والنبي فهناك أقوال وروايات متعددة ومختلفة فيه . حيث يذكر بعضها أنه يعني أقارب النبي صلى الله عليه وسلم وحيث يذكر بعضها أنه يعني صاحب الخدمة والنفع للإسلام وأهله^(١) . ولقد نزلت هذه الآيات وأكثر أقارب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في صف المشركين . وخرجوا معهم إلى حرب النبي والمسلمين في يوم بدر . ومن جملتهم العباس عم النبي وعقيل بن أبي طالب ونوفل

(١) انظر تفسير الطبري والبغوي للآيات ، والرأي الثاني مما اختاره وصوبه الطبري .

ابن الحارث بن عبد المطلب، وولدان لشقيق للعباس لم يذكر الرواة اسميهما . وكان العباس وعقيل ونوفل من جملة الأسرى . فطرف نزول الآيات يجعل المعنى الأول غير وارد ويجعل المعنى الثاني هو الوارد الأوجه . وفي آية في سورة التوبة قرينة على ذلك حيث جاء فيها :

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قُرْبَةٌ لَهُمْ ... »

وهناك روايات معتبرة تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يختص أقاربه بنصيب خاص من الغنائم والني وكان ينفق ما يدخل إلى بيت المال من ذلك على المحتاجين ومصالح المسلمين وسبيل الله . وأن هذا ما كان يفعله الخلفاء الراشدون بما فيهم على بن أبي طالب رضي الله عنهم . وكان أقارب رسول الله في زمنهم ينالون من بيت المال مخصصات أسوة بسائر المسلمين . والمعنى الأول وجه ونفذ في ظرف خاص في زمن الدولة العباسية فقط .

هذا ؛ ولقد نبهنا في فصل الجهاد على أن آيات الخمس والفي قد نزلت بالأمر الحاسم الذي تضمنته في صدد نصيب بيت المال بمناسبة ما بدا من بعض المسلمين من اعتراض على ذلك أو تذر منه ؛ وفي هذا صورة واقعية حدثت في سياق توطيد بيت المال الرسمي كما هو واضح تتمثل في عدم رضا بعض المسلمين عن احتجاز قسم من مال أو تخصيص مال ظنوه من حقهم ليقبضه النبي صلى الله عليه وسلم ويتولى إنفاقه ، ومما لا ريب فيه أن هذا الموقف إنما كان من طبقة المسلمين الثانية ، كما أنه مما يمت إلى طبيعة البشر بوجه عام .

وفي سورة المجادلة آيتان فيهما صورة مماثلة لذلك وهما هاتان :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . ءَأَشْفَقْتُمْ

أَنْ تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقْتِ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . . .»

١٢ - ١٣

حيث يستفاد من الآيتين أن حكمة الله اقتضت فرض رسم على اليسورين من المسلمين الذين يرغبون في الاجتماع بالنبي صلى الله عليه وسلم اجتماعاً شخصياً وخصوصاً لاستفتائه في بعض الشئون الخاصة فكبر ذلك على بعضهم واعترضوا عليه قائلين إنما يدفعونه من الزكاة كاف فاقترضت حكمة الله رفعه .

والمتبادر أن ذلك يمت إلى قصد تنمية موارد بيت المال حتى يمكن أن يسد الحاجة . وأن العدول عن الرسم متصل بطبيعة الحياة والمجتمع . وهو ظاهر الحكمة . والمتبادر كذلك أن الآية الأولى نزلت لحدثها ثم نزلت الثانية بعد مدة ما فوضعت بعدها للتناسب الموضوعي والتشريعي . وفي هذا صورة من التنزيل والتأليف القرآني ومن الناسخ والمنسوخ من الأحكام القرآنية وأسباب ذلك .

وواضح من الآيات الواردة في ما له صلة ببيت المال أن توطيد ذلك قد تم على مراحل واقتضى أن يكون الأسلوب القرآني في توطيده شديداً حازماً إلى حد ما لما في ذلك من أثر عظيم في تدعيم بنيان الدولة التي أخذت تنشأ في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكفالة مصالح المسلمين العامة التي أخذت تنسع وتزداد تشعباً .

المبحث الثالث

في التشريع الاجتماعي

متناول هذا التشريع - الفرق الأسلوبية بين الآيات المسكية والمدنية فيه -
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وملهمات الآيات فيه - توطيد الأخوة
الإسلامية والسيكيات الإسلامية بالنسبة للخارج وملهمات الآيات فيه - توطيد
الأمن والصلح في داخل السيكيات الإسلامية وملهمات الآيات فيه - وقاية
المجتمع الإسلامي من أسباب الفتنة والأحقاد وملهمات الآيات فيها - بحث
في الرق والتشريع فيه - الآيات القرآنية في صدد ذلك وملهماتهما .

الصورة الأولى

نقصد بهذا التشريع ماله علاقة بما يجب على المسلمين في كل ما يتصل بالمصالح
العامة المشتركة بين الجماعات الإسلامية من تضامن وتعاون على البر والخير ، ودفع
الشر والضرر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبناء مجتمع إسلامي يقوم
على تولى المسلمين بعضهم بعضا ، لا خصام بين أفرادهم وهيئاتهم مهما اختلفوا أجناسا
وأروما ، ولا نزاع ولا انتقاص ، ولا تمايز ولا تفايز ولا سخرية ، تربط بعضهم
ببعض رابطة الأخوة الإسلامية الشاملة التي تحل محل العصبة العائلية والقبلية
والعنصرية الضيقة .

ومن الحق أن نقول إنه يوجد في القرآن المسكي آيات كثيرة احتوت مبادئ
وسنن اجتماعية جليلة جاء أكثرها في مساق الأمثال والتذكير ، والحلمة على البغي والظلم
والفساد والزعماء الساكرين وتبعاتهم الاجتماعية وتقدير ما أحله الله وما حرمه من أعمال
الناس الاجتماعية ، والحض على التضامن في الدعوة إلى الرحمة والصبر والحق كما ترى في
الآيات التالية :

١ — ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ . . .

الأنعام ١٣١

٢ — وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا

الأنعام ١٢٣

وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ...

٣ — وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ

الأنعام ١٥٣

سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ...

٤ — قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ

الأعراف ٣٣

الْحَقِّ ...

٥ — فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

وَلَا تَرَوْا كُنُوزَ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ

هود ١١٢ - ١١٣

نُحْمٌ لَا تُنصِرُونَ ...

٦ — فَلَوْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ

فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَجْمِنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ

وَكَانُوا مُجْرِمِينَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ . . .

هود ١١٦ - ١١٧

٧ — إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ... الرعد ١١

٨ — أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ

الْحَقُّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

الرعد ١٧

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ...

٩ — إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

الْفَحْشَاءَ وَالْمُنْكَرَ وَالْبَغْيَ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَائِيَكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَاهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَلَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَيَكَيِّبُنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ...

النحل ٩٠ - ٩٢

١٠ — وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ..

النحل ١١٢

١١ — وَإِذَا آرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا

الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ...

الإسراء ١٦

١٢ — ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي

عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ...

الروم ٤١

١٣ — ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ...

البلد ١٧

١٤ — وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

العصر

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ...

غير أن الآيات المدنية قد اتجهت للقصد مباشرة في صدد الكيان الإسلامي

الاجتماعي ، وواجبات الجماعة الإسلامية ، وتوثيق الأخوة بين المسلمين ؛ وهي أكثر

وضوحاً وأشدّ لصوقاً بالموضوع ، وأحمل لطابع التشريع الاجتماعي من الآيات المكية .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

ونستعرض فيما يلي الآيات المدنية مصنفة على حسب مرماها الاجتماعي .
فأولا ما يتصل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتضامن في البر
والخير والتقوى :

١ — وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ...
آل عمران ١٠٤

٢ — كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...
آل عمران ١١٠

٣ — لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءً مَّرَاضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ...
النساء ١١٤

٤ — وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ...
المائدة ٢

٥ — وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ...

التوبة ٧١

٦ — الَّذِينَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْحَقْدُودَ وَالسَّاعُونَ لِلرَّحْمَةِ كَعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

التوبة ١١٢

٧ — الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمُ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا

الْحَجَّ ٤١

بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ...

٨ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ

الرَّسُولِ وَتَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ...

المحاذلة ٩

وأسلوب آية آل عمران ١٠٤ قوي حاسم في إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير على الجماعات الإسلامية ، وفي إيجاب أخذ طائفة منهم ذلك على عاتقها بصورة دائمة بحيث يصح أن يعتبر تشريعاً ؛ ويدعم هذا ما قاله بعض العلماء من أن هذه الآية قد فرضت على المسلمين واجبا إذا لم تقم به طائفة منهم أئتموا جميعهم ؛ ومثل هذا يصح أن يقال في آية المائدة (٢) في أمرها ونهيها . على أن الآيات الأخرى قوية التلقين أيضا في إيجاب هذا على المسلمين لما فيه من تمكين لهم في الأرض ، وفي تعليل اصطفاء الله لهم وجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

والآيات من سور نزلت في مختلف أدوار التنزيل المدني ؛ وهذا يعني أن هذا الواجب العظيم قد وطد بالتكرار لخطورة شأنه ؛ ولقد نزلت كل آية أو مجموعة منها في مناسبة كما يلهم سياقها ومضمونها وأسلوب الخطاب فيها ؛ ويدل هذا على أنها قد انطوت على صور واقعية كانت وسيلة لتوطيد هذا الواجب ، مما نبهنا إلى أكثره في الفصول السابقة التي أوردنا فيها كثيرا منها ؛ بحيث عولجت بها الحالات التي اقتضت الحكمة نزول الآيات بمناسبةاتها ، ثم كانت تشريعا وتلقينا وإيجابا مستمر المدى ؛ وصلة هذا بالسيرة النبوية وأحداثها واضحة ، ويمت إلى التشريع القرآني وتطوره وظروفه على ما نبهنا إليه في تمهيد الفصل .

الصورة الثالثة

وثانيا : — ما يتصل بالحث على الأخوة الإسلامية وتبادل الولاء بين المسلمين

دون غيرهم :

١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . . .

آل عمران ١١٨

٢ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا . . .

النساء ١٤٤

٣ — إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ . . .

المائدة ٥٥ - ٥٧

٤ — إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . . .

الأنفال ٧٢

٥ — وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ . . .

الأنفال ٧٣

٦ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . . .

التوبة ٢٣

٧ — وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . . .

التوبة ٧١

٨ — لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ...

المجادلة ٢٢

٩ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ أَلْحَقْ بِخِزْيُونِ الرَّسُولِ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ...

المتحنة ١

١٠ — لَا يَنْهَى كُفْرُ اللَّهِ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دَيْرِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَى كُفْرُ اللَّهِ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دَيْرِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ...

المتحنة ٨ - ٩

والآيات قوية حاسمة في الصدد الذي نزلت فيه ، وهو توثيق الأخوة والولاء بين المسلمين ، وبناء المجتمع الإسلامي على هذا الأساس بدلا من أساس العصبية الضيقة الذي كان يقوم عليه المجتمع العربي ، وعدم الإخلال بالتضامن الإسلامي بتولى أعداء الإسلام والمسلمين بأي شكل .

والآيات من سور عدة نزلت في مختلف أدوار التنزيل ، وبمناسبة أحداث واقعية ؛ وهذا يعني أن هذا الأمر الخطير قد توطد أو استهدف توطيده بالتكرار ، وفي كل

مناسبة سانحة ، كما يعني أن الآيات انطوت على صور ومشاهد من صور ومشاهد السيرة في العهد المدني مما نبهنا إليه وشرحناه في الفصول السابقة ، وخاصة فصول اليهود والمنافقين والجهاد التي أوردنا فيها جل الآيات إن لم يكن كلها . وقوة الآيات وحسمها وتكرارها مع وحدة الموضوع والهدف ، أدلة على ما كان من رسوخ للعصبية الضيقة في المجتمع العربي أولا ، وعلى ما كان من تغفل اليهود - لأن كثيراً من الآيات في شأنهم - في حياة هذا المجتمع ثانياً ، وعلى ما كان يعتلج في نفوس المسلمين من أزمات إزاء ذوي أرحامهم وبني قومهم من الكفار الذين انقلبت الصلات بينهم من عصبية الولاء القوية الراسخة إلى العداوة والقطيعة ثالثاً ؛ وفي هذا بوجه عام صورة للعهد النبوي كما هو واضح ؛ وقد جاءت الآيات لتعالج الموقف وتحسمه بهذا الأسلوب الشديد ، دفعا للخطر عن الكيان الإسلامي الناشئ ، وتوطيداً للأخوة الجديدة التي تقوم على أساس جديد ؛ ولتسكون في الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرين المدى أيضا .

الصورة الرابعة

وثالثا ما يتصل بالحث على الاتحاد والصلح بين المسلمين وعدم التنازع والتفرقة :

١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ .
وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ
أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا . . .

آل عمران ١٠٢ - ١٣٠

٢ — وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . . .

آل عمران ١٠٥

٣ — وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَفَرَّقُوا فْتَفَشِلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَضْبُرُوا إِنَّا
اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . . .

الأففال ٤٦

٤ — وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَقَتْ
إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ
فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . . .

الحجرات ٩ - ١٠

والآيات - وإن كانت مما يمت إلى هدف آيات الموضوع السابق شيئاً ما - بينها شيء
من الفرق من حيث استهدفت هذه توثيق الإخاء والتضامن والوحدة بين المسلمين من
الداخل ، في حين استهدفت تلك تكوين جبهة إسلامية تجاه الخارج .

وهذه الآيات كتلك نزلت في مختلف أدوار التنزيل ، وفي مناسبات معينة انطوت
فيها صور ومشاهد للعهد النبوي ، وقد ألمنا بها في الفصول السابقة التي أوردنا فيها هذه
الآيات ؛ وقد جاءت لتعالج الموقف بأسلوبها القوي الحكيم ، ولتوطد بنيان الكيان
الإسلامي الجديد وتوثق الإخاء والوحدة بين أفرادها ، ولتكون في الوقت نفسه تشريعاً
وتلقيناً مستمرى المدى أيضاً .

ورابعاً ما يتصل بتنقية المجتمع الإسلامي من عوامل الأحقاد والضغائن
وأسباب الفتنة .

١ — وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا
وإِثْمًا مُّبِينًا . . .

النساء ١١٢

٢ — وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ . . .

الأنفال ٢٥

٣ — إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . . .

النور ١٩

٤ — وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ...

الأحزاب ٥٨

٥ — لَنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُقِفُوا أَخَذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا ...

الأحزاب ٦٠ - ٦١

٦ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ . فَضَّلَا مِّنَ اللَّهِ وَرِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . . .

الحجرات ٦ - ٨

٧ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ...

الحجرات ١١ - ١٣

والآيات مما نزل في مختلف أدوار التنزيل ، ومضامينها وسياقها يلهمان أنها نزلت في مناسبات معينة ، لمعالجة مشاكل وأحداث متصلة بمشاهد السيرة وأحوال المجتمع الإسلامي فيها .

فآية النساء، نزلت في مناسبة حادث سرقة الدرع واتهام السارق غيره بالسرقة وتآمر أهل السارق لتبرئة قريبهم وتضليل النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وآية الأنفال نزلت في ظروف وقعة بدر وما كان فيها من نزاع كاد يؤدي إلى فتنة ، وآية النور نزلت في مناسبة حديث الإفك ، وآيات الأحزاب نزلت بسبب مواقف المنافقين الخبيثة على ما شرحناه في أمكنة سابقة ، وروح آيات الحجرات ٦ - ٨ تلهم أنها نزلت في مناسبة هياج أحدثته بعض الأنباء الكاذبة ، وأن من المسلمين من كان يهيج لأقل شيء ويطلب من النبي صلى الله عليه وسلم تصرفا غير حكيم ؛ وآيات الحجرات ١١ - ١٣ أيضا نزلت على ما شرحناه في مكان سابق بسبب تصرفات بعض المسلمين إزاء بعضهم بما فيه إثارة غيظهم وأذى نفوسهم . وهكذا تكون الآيات قد نزلت لمعالجة هذه المشاكل والأحداث بما فيه توطيد حسن الألفة والانسجام بين المسلمين ، والقضاء على عوامل الفتنة والحقد والضعيفة بينهم ولتكون تشريعا وتلقينا مستمرى المدى في الوقت ذاته .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

والرق من مظاهر المجتمع ، وهذا يجعل المناسبة تتحمل البحث في التشريع القرآني في صدره .

ونبادر إلى القول بأنه لم يرد في الآيات المسكية شيء يحتمل معنى التشريع في هذا الصدد ، وكل ما ورد فيها هو إشارات إلى الرق باعتباره نظاما قائما ومألوا أولا ، ودعوة إلى عتق الأرقاء واعتبار ذلك من أحسن القربات إلى الله ثانيا ؛ كما ترى في الآيات التالية :

١ — ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ...
النحل ٧٥

٢ — ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَتْتُمُ فِيهِ سَوَاءً تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ...

الروم ٢٨

٣ — وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْتَابِهِمْ حَفِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ...
المعارج ٢٩ - ٣٠

٤ — فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعِفَةٍ ...
البلد ١١ - ١٤

أما الآيات المدنية فقد ورد فيها تشريعات عديدة في صده من معاملة وعق وحرير. والقرآن لا يذكر بصراحة جواز استرقاق الأسرى ، والأسرى هم مادة الرقيق في الدرجة الأولى في العصور القديمة عند العرب وغيرهم . وكل ما جاء فيهم هذه الآيات في سورة الأنفال :

« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُبْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْ لَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... »

٦٧ - ٦٩

وقد نبهت على ما ينبغي على النبي أن يسير عليه من سياسة مع العدو فلا يحرص على أخذ أسرى منه بدلا من القتل حتى يقوى وتكون هيئته موطدة في الأرض . ثم هذه الآية في سورة محمد :

« فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْمَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ »

فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ...»

٤

وقد نبهت هي الأخرى على ما ينبغي على المسلمين أن يفعلوه مع العدو عند لقائه حيث يجب عليهم أن يوغلوا فيه قتلاً حتى يستنفدوا قوته ويخضدوا شوكته ثم يأسروا من بقي حياً منه . ويكون لهم الخيار بعد أن تنتهي أسباب الحرب في إطلاق سراح الأسرى بفداء أو بمن من دون فداء .

وسورة الأنفال نزلت قبل سورة محمد . وليس بين آيات السورتين مع ذلك تعارض بل بينها توافق حيث نبهت الأولى على عدم أخذ الأسرى ما دام المسلمون لم يشخنوا في الأرض أي لم يوطدوا هيبتهم وقوتهم . وأمرت الثانية بأخذ أسرى بعد الإنحان . على أن آية سورة محمد قررت كما يبدو القاعدة الدائمة وهي إباحة أخذ الأسرى بعد الإنحان . وفي هذا مغزى عظيم في صدد هدف الجهاد الإسلامي وهو عدم الإبادة وقصد إرهاب العدو وإرغامه وتوطيد هيبة الإسلام وكنهه وسلطانه وحسب بحيث إذا أمكن ذلك بدون إبادة العدو صار من الواجب وقف القتل وعدم الإبادة .

ويبدو من خلال ذلك صورة تطورية لحالة المسلمين وقوتهم حيث صاروا أقوى وأشد هيبة وسلطاناً في ظروف نزول سورة محمد الذي يخمن أنه في أواخر النصف الأول من العهد المدني استلهاماً من ترتيب نزولها فاقتضت الحكمة تقرير تلك القاعدة الدائمة . والقاعدة تذكر طريقة التصرف بالأسرى على وجهين :

وهما (١) إطلاق سراحهم بعد أن تنتهي الحرب وأسبابها بدون فداء وهو الذي عبر عنه بالمنّ و (٢) إطلاق سراحهم بالفداء . وقد تركت الخيار كما هو المتبادر للسلطان الإسلامي يستلهم فيه مصلحة الإسلام والمسلمين وظروفهم . وليس في القاعدة مبدأ استرقاق الأسرى على كل حال . وإن كان هذا ظل مسكوتاً

عنه . ولقد تواترت الروايات المعتبرة بأن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده كانوا يسترقون أسرى الكفار حيث يبدو أن ذلك تشريع نبوي لحالة ثالثة وهي حالة عدم رؤية السلطان الإسلامي مصلحة في إطلاق سراح الأسرى بدون من وعدم دفع الأسرى فدية عن أنفسهم .

ومع التسليم بوجوب الأخذ بالتشريع النبوي الثابت فيما سكت عنه القرآن أو لم يوضحه بصراحة وقطعية فإن آية سورة محمد تظل تحتوي مبدأ إطلاق الأسرى وتظل توجب إطلاقهم على كل حال إذا دفعوا فدية . وفي هذا نواة إلغاء استرقاق أسرى الحرب كما هو المتبادر .

ولقد قال المفسرون إن جملة (حتى تضع الحرب أوزارها) تعني حتى يعتنق العدو الإسلام وتزول أسباب قتاله وأسره . وهذا القول يتحمل التوقف استلزاماً من صيغة الآية من جهة ولأن الحرب من جهة أخرى بين المسلمين والكفار قد تنتهي بصلح وميثاق . والعدو إذا أسلم لم يعد محلاً للاسترقاق إلا في حالة واحدة وهي حالة أسره قبل إسلامه وعدم إطلاقه بدون فداء وعدم أدائه فدية . وتقرير السلطان استرقاقه قبل إسلامه والتصرف فيه بيعاً وهبة وتوزيعاً وإسلامه بعد ذلك . وعلى كل حال فليس هناك إلزام قرآني ولا نبوي باسترقاق الأسرى كما هو واضح .

وآية سورة محمد تلهم أن الأسر إنما يتبع ويوقع على العدو المحارب . هذا في حين أن الروايات المعتبرة تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده كانوا يأسرون نساء العدو وأطفاله ويسترقونهم وهو ما كان يسمى سبياً . وهذه الحالة مما سكت عنها القرآن فصارت تشريعاً نبوياً وسار عليها المسلمون بعد النبي .

وفي كل ما تقدم صور من صور الجهاد والسياسة الإسلامية فيه في العهد المدني من السيرة النبوية .

والمناسبة تتحمل توضيحاً هاماً . فغير المسلم الذي يصح قتاله وأسره وسبي نسائه وأولاده واسترقاقهم هو العدو المحارب للمسلمين . ولما كان ليس كل غير مسلم عدواً

محارباً . ولما كان القرآن أوجب على المسلمين مسالة المسالين الحيايين الموايين من غير المسلمين والبر بهم مما يتضمن إقراراً بوجود طوائف منهم بهذه الصفة على مامر شرحه في فصل الجهاد فإن ما جرى عليه في المصور التأخرة من جلب وخطف وشراء رجال ونساء وأطفال غير مسلمين من السود وغير السود وبيعهم واعتبارهم أرقاء واستغراش النساء منهم على هذا الاعتبار في حين يكون غير أعداء محاربين للإسلام والمسلمين ليس من النظام الإسلامي الشرعي ؛ لأن الرقيق في هذا النظام هو من كان رقيقاً قبل الإسلام ومن تولد منهم في حالة استمرار رقهم ومن استرق في الإسلام استرقاقاً شرعياً من أعداء المسلمين المحاربين على الوجه الذي مر شرحه ومن تولد منهم في حالة استمرار رقهم .

وإليك الآن الآيات المدنية التي احتوت تشريعات متنوعة في معاملة الرقيق وعتقه وتحريره :

٢ — وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ... البقرة ١٧٧

٢ — وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ
وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ...

النساء ٣٦

٣ — وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ
مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ... النساء ٩٢

٤ — لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ

الْأَيْمَنَ فَكَفَّرْتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ
كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ...
المائدة ٨٩

٥ — إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
وَفِي الرِّقَابِ ...
التوبة ٦٠

٦ — وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا
فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَلِيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا
حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا
فَتْيَتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحْصُنَا لَنَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهِنَّ
فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...
النور ٣٢ - ٣٣

٧ — وَالَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّنْ
قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ...
المجادلة ٣

والآيات استهدفت كما هو واضح منها تلقين إحسان معاملة الرقيق والارتفاع بالنظر
إليه والاهتمام بتحريره والتشجيع عليه بمختلف الوسائل . وفي مقدمة ذلك تخصيص جزء
من الزكاة لهذا الأمر مما هو ذو مغزى عظيم من حيث أن الدولة هي التي تتولى جباية
الزكاة وتشرف على إنفاقها . ولقد كان من العادة أن يتقدم بعض الأرقاء لمالكيهم
فيشتروا أنفسهم منهم بمال يدفعونه على أقساط مما كان يسمى (المكاتبه) فشجعت
آية النور هذه الطريقة وحضت المسلمين على مساعدة المكاتبين على دفع هذه
الأقساط وتحريرهم .

والتبادر أن الآيات نزلت في مناسبات . وإيها انطوت على صور مما كان جارياً في العهد النبوي ، من مثل كثرة الأرقاء المسلمين ، ومن عدم معاملتهم معاملة حسنة ، وحرمانهم حقوقهم ومتعهم الطبيعية ؛ فنزلت الآيات لمعالجة الموقف الذي اقتضاه نزولها ، ولتكون في الوقت نفسه تشريعاً وتلقيناً مستمرين المدى أيضاً .

المبحث الرابع في التشريع الاقتصادي

متناول هذا البحث - أسلوب ومدى الآيات المكية والمدنية في موضوعه - الوصية وملهمات الآيات الواردة فيها - الإرث وملهمات آياته - عناية القرآن باليتامى وأموالهم ومدى الآيات الواردة في ذلك - تشريع سن الرشد وما نلهمه الآية الواردة فيه - التشريع بشأن تصرف السفهاء - النهي عن الربا وما في الآيات الواردة في ذلك من ملهمات - تنظيم العقود والديون وصيانة الحقوق وما في الآيات الواردة في ذلك من ملهمات .

الصورة الأولى

يتناول الكلام في هذا المبحث مسائل الوصايا والإرث والبيع والشراء والربا والديون والعقود والرهن والشهادات والشهود ... أما ماله صلة بموارد الدولة والزكاة ومصارفها وتوطيد التعامل الاقتصادي الحقوقي بين الناس فقد تكلمنا عنه في التشريع السياسي فلا نعود إليه هنا بطبيعة الحال .

وننبه إلى أن القرآن المكي احتوى آيات عدة فيها مبادئ متصلة بهذه الأمور من قريب أو بعيد جاءت بأسلوبه الخاص من الوعظ والحض والتقويه والتنفيد كما تراه في الآيات التالية :

١ - وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ...

الإسراء ٢٦

٢ - وَلَا تَجْمَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا

الإسراء ٢٩

مَحْسُورًا ...

٣ - وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ

الإسراء ٣٥

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ...

٣ — وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُوا نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ
كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ...
الأنعام ١٥٢

هذا في حين أن القرآن المدني احتوى آيات أكثر عدداً وتنوعاً وسعة من
جهة ، وطابع التشريع عليها أشد بروزاً من جهة أخرى ، مما هو متصل كذلك
بطبيعة العهدين .

وسنستعرض الآيات ونشرح مداها على حسب المواضيع كما فعلنا في المباحث السابقة :

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

فأولاً : الوصية .

(١) جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ . فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى
الَّذِينَ يَبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوَسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ
فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... »

١٨٠ - ١٨٢

والآيات مما نزل مبكراً كما يستلهم من مضمونها ؛ إذ تأمر بالوصية للوالدين مع أن
آيات الموارث خصصت لهم أنصبة في ميراث أبنائهم . ويستلهم من الآيات أن الأنصبة
في الميراث للوالدين والأقربين لم تكن صريحة ومحددة ؛ ولما كانت آيات الموارث قد
احتوت كما قلنا تحديداً للأنصبة فقد ساغ أن يقال والحالة هذه إن هذه الآيات جاءت
كخطوة أولى في سبيل تقرير أمر التركات ؛ كذلك يمكن أن يستلهم من الآيات أن
الوصية كانت من الأمور المألوفة ، ولكنها كانت عرضة للتحريف والتبديل ، وكانت

تنطوي أحياناً على قصد الإضرار والحيف بأناس دون آخرين ، إذ أنذرت المحرفين ، وحضت على إصلاح البين حتى لا يكون العداء أو الجفاء سبباً من أسباب الحيف والإجحاف في الوصية .

(٢) وجاء في سورة المائدة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكُمُ شَهَدَةُ اللَّهِ إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الْأَمِينِ . فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . ذَلِكَ أَذْنَىٰ أُنْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُونَ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ... »

١٠٨ - ١٠٦

وقد روي أن الآيات نزلت بمناسبة تلاعب بعض الناس بتركة مسلم مات غريباً . على أنها احتوت كما هو واضح من نصها تؤكد بإيجاب الوصية والإشهاد عليها . وجاءت بأسلوب عام ليسكون فيها تلقين وتشريع وتنظيم مستمر المدى .

وقد روي في صدد بيان جملة (تحبسونهما من بعد الصلاة) أن النبي ﷺ كان يعقد مجالسه العامة بعد صلاة العصر لأنه الوقت الأنسب من حيث الفراغ وحالة الجو فأمرته الآية بحجز الشهود إلى ما بعد صلاة العصر لأداء شهادتهم أمام الناس . وفي هذا صورة من صور القضاء النبوي ومجالسه .

ولقد روي حديث نبوي صحيح جاء فيه (لا وصية لوارث) حيث يحتمل أن يكون بعض الناس أرادوا أن يختصوا بعض ورثتهم بأكثر مما خصصهم به القرآن عن طريق الوصية فوضع الحديث الشريف حداً للتلاعب بأنصبة الإرث التي خصصها القرآن لكل

مستحق . بوسيلة الوصية . وينطوى في هذا صورة من صور المجتمع وطبيعة الحياة .

(٣) وقد تكرر في آيات الموارث ذكر الوصية كما ترى فيها :

- ١ — ... مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... النساء ١١
- ٢ — ... » » » يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... » ١٢
- ٣ — ... » » » تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... » »
- ٤ — ... » » » يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... » »

وهذا يدل على أن الوصية مما كان مألوفاً ، وظل الأمر كذلك بعد تعيين أنصبة الوراثين في التركات أيضاً ، كما أن تكرار التأكيد بوجوب تنفيذ الوصية يلهم أن الوراثين كانوا يجنحون أحياناً إلى إهمال تنفيذ الوصية على وجهها ، فافتضت الحكمة هذا التكرار لمعالجة الموقف وإحقاق الحق لأهله ، وليكون الأمر تشريعاً مستمر المدى أيضاً . والآيات لا تحدّد الوصية بحد بحيث أنها توجب تنفيذ الوصية قبل توزيع الميراث مع سداد الدين ؛ ومما هو ثابت أن الشرع الإسلامي قد حدد الوصية بثلاث التركة التي تبقى بعد الدين على الأكثر ؛ وهو تشريع نبوي .

الصورة الثالثة

وثانيا : الإرث .

جاء في سورة النساء في صدد الإرث الآيات التالية :

- ١ — لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا قَلَ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ... ٨ - ٧

- ٢ — يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا

السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا نِصْفُكُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً^(١) أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ . تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ...

النساء ١١ - ١٤

٣ — وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا . وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَ الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أُيَمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ...

النساء ٣٢ - ٣٣

٤ — وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْثِقْنَ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ...

١٢٧

(١) المبت الذي ليس له أولاد ولا أبوان يرثونه يسمى مبت الكلالة .

هـ — يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أُمِرُوا أَهْلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً ^(١) فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ...

١٧٦

والآيات ١١ - ١٢ و ١٣٧ و ١٧٦ تشريع واف في الصدد الذي نزلت فيه يتم بعضه بعضا ، كما أن السنة النبوية قد أكملت ما يبدو من فراغ فيه كأنصبة الأجداد والعصبات الأخرى .

والآيات ٧ - ٨ و ١٣٧ تلهم مع الاستئناس بالروايات أن نصيب المرأة في الميراث لم يكن مسلما به ، سواء من حيث الأصل أو المقدار ؛ كما أن الآية ١٣٧ تلهم أن إرث اليتامى كان عرضة للأكل ؛ والآيات جميعها تلهم أن أنصبة الإرث كانت تنمو على حسب الوارثين قوة وضعفا وذكورة وأنوثة وكبراً وصغراً ودرجة قرابة ^(٢) ؛ فاقتضت الحكمة نزولها لمعالجة الموقف بتعيين حق كل مستحق وتأكيده إيجاب السير على ذلك ، وإنهاء عهد فوضى الإرث والتحكم فيه وفقاً لتقاليد العصبية الجاهلية الأولى ، ولتكون في الوقت نفسه أساساً قوياً تشريعياً مستمراً المدى ؛ وفقرة إرث الكلاله في الآية ١٢ وآية الكلاله الثانية (١٧٦) تلهمان أن هذا الإرث كان كذلك من المشاكل التي تحتاج إلى حل وتركيز ؛ وقد جاءت فقرة الآية (١٢) بسبيل حل مشكلة الإخوة لأمهات متعددة ، ثم جاءت الآية ١٧٦ بسبيل حل مشكلة الإخوة الأشقاء ؛ والظاهر أن المشكلة الأولى كانت هي الأكثر غموضاً وتعقيداً ، وهي التي عرضت مناسبتها أولاً ، ثم كان بعد ذلك بمدة ما سؤال واستفتاء بشأن المشكلة الثانية لمناسبة عرضت أيضاً . وفي هذا صورة من صور التشريع والعهد وظروفهما .

(١) المقصود هنا الإخوة الأشقاء .

(٢) مما روي أن امرأة شكت للنبي أن زوجها توفي عنها وعن ثلاثة أيتام ، وأن عمهم أبي عليهم لإرثهم قائلاً : إنه هو الذي يتحمل المغارم وحده ، وإن التركة من نصيبه وحده والحالة هذه .

ولقد اختلفت الأقوال في مدى فقره « والذين عقدت أيمانكم » في الآية (٣٣) فقيل : إنها عنت الزوجات ، وقيل إنها عنت الأبناء بالتبني الذين كان لهم حق الإرث ، لأن التبني كان بمثابة عقد ؛ وقيل إنها عنت الحلفاء أو العتقاء ، كما قيل إنها عنت المهاجرين والأنصار الذين آخى النبي بينهم ، وكان من مفهوم اللؤاخة أن يرث بعضهم بعضا ؛ وروح الآية مع الآية التي قبلها تلهم أنهما نزلتا أبكر من آيات المواريث ، واحتوتا تمهيدا لإيجاب احترام كل مستحق في الإرث لحق كل مستحق آخر ، وعدم بغي بعضهم على بعض ؛ ثم نزلت آيات المواريث محددة معينة وحاكمة . ولا يمنع هذا أن يكون قبل نزولها تعامل متعارف عليه أو أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباعه في شأن أو أكثر من تلك الشئون المذكورة في الآية (٣٣) ؛ وهكذا تكون آيات المواريث قد نسخت كل ما خالفها ، كما نسخت الوصية للوالدين ؛ وبعض ما قلناه يصح أن يقال بالنسبة للآيات ٧ - ٨ من حيث أنها تمهيد لتوطيد حقوق كل مستحق في الإرث .

وفي هذا وذاك صور تطورية للتشريع القرآني كما هو واضح .

ونلفت النظر إلى الآيتين ١٣ و ١٤ من سورة النساء اللتين تعد أولاهما الطائعين لله ورسوله والواقفين عند حدوده بالخلود في الجفات . وتنذر العاصين المعتدين على حدود الله بالخلود في النار . فالمتبادر أن ذلك بالإضافة إلى ما فيه من حكمة سامية وتلقين متسق مع أهداف القرآن بصورة عامة يمكن أن يكون بسبب ما كان من بعض الناس من هضم حقوق الضمفاء والنساء والأيتام في الإرث والتلاعب فيها مما يكون فيه صورة وتوكيد لحالات واقعة .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

وثالثا : أموال اليتامى .

وهذا الموضوع من المواضيع التي نالت عناية قرآنية كبيرة ؛ ففي القرآن المكي

آيات عدة فيه ، وقد نقلنا جملة منها سابقا ، وأسلوبها أسلوب وعظ وتحذير ؛ وقد احتوى القرآن المدني آيات عدة فيه كذلك ، غير أن طابع التشريع عليها أكثر بروزاً ؛ وهذه العناية تدل - فوق اعتبار حاية الضعيف أساساً من أسس الدعوة الإسلامية - على أن اليتامى كانوا عرضة للاضطهاد والبغي ، وأن أموالهم كانت عرضة للنهب والتلاعب ؛ ولعل من أول الآيات المدنية في هذا الأمر آية سورة البقرة هذه :

« ... وَیَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... »

٢٢٠

إذ تلهم أن بعض المسلمين في العهد المدني تخرجوا من خلط أموال اليتامى بأموالهم بسبب ما كان من تشديد في القرآن المكي ، فنزلت الآية تبيح هذا على أساس الإصلاح ونية الخير الذي هو مقصود الأوامر القرآنية ، ولتكون تلقينا مستمر المدى في الوقت نفسه .

ثم نزلت آيات عدة في سورة النساء في صدد توكيد حق اليتيم وصيانة ماله كما ترى فيها :

١ - وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا . وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثًىٰ وَتِلْكَ وَرُبَّ ...

٢ - ٣

٢ - وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ...

٣ — إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا
وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ...

١٠

٤ — الآية ١٢٧ التي نقلناها في الفقرة السابقة .

وتحريج الآيات وتحذيرها قويان استهدفا دون ريب حماية اليتامى وحقوقهم وأموالهم
بما كان تتعرض له من تلاعب وبغي على ما ذكرناه من قبل . ولقد روي أن أوصياء
اليتيمات الغنيات كانوا يمنعون تزويجهن بالغريب خشية مطالبته بما لهن ، وكانوا يتزوجونهن
ولو لم يكن جيلات للاستيلاء على ما لهن ، فيتعرضن بذلك للأذى في أنفسهن وفي
أموالهن ، وأن الأوصياء كانوا يسرعون في تبديد أموال اليتيم قبل أن يبلغ ، أو يبدلونها
بأموالهم الرديئة ؛ فنزلت الآيات ٢ و ٦ و ١٣٧ لتعالج الموقف . بما فيه الحق والصيانة ،
ولتكون تلقينا مستمر المدى ؛ وهكذا تكون الآيات قد انطوت على صور لما كان عليه
الأمر كما أنها نزلت لمناسبته أيضا .

ويلفت النظر خاصة إلى ما في الآية (٦) من أسلوب تشريعي في تعيين سن الرشد ،
إذ لم تكتف ببلوغ اليتيم سن النكاح بل شرطت التثبیت من رشده العقلي والتصرفي
أيضا ؛ ولعل الأمر كان جاريا على الاكتفاء بالبلوغ لسن النكاح والقدرة الجنسية ،
ولعل مشكلة ما قد قامت واستفتي النبي صلى الله عليه وسلم فيها فنزلت الآية تحتوي تعديلا
أو علاجا شافيا ، وتكون في الوقت نفسه تشريعا مستمرا المدى .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

ورابعا : وقاية المال من تبديد السفهاء :

جاء في سورة النساء الآية التالية :

« وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا
وَأَكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ... »

وكلمة « السفهاء » تعني ضعفاء العقل ، وهذا يحتمل أن يكون بالنسبة لسكبار السن وصغارهم . وقد جاءت آية تعيين سن الرشد للأيتام عقب هذه الآية ، مما قد يلهم أن يكون النهي فيها منصبا على تسليم الأموال للأولاد بعد بلوغهم سن الرشد ؛ ومهما يكن من أمر فالآية قد احتوت حكما مستقلا بالنسبة للسفهاء ، إذ تحظر تسليمهم أموالا أو أموالهم تقاديا من تبذيرها بسبب ضعف عقولهم أو عدم رشدهم ، وإذ توجب في الوقت نفسه الإنفاق عليهم وتطبيب نفوسهم . والمرجح أن الآية نزلت لمناسبة معينة فكانت معالجة حكيمة للموقف وتشريعا مستمر المدى أيضا .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

وخامسا : النهي عن الربا :

يصح أن يقال : إن إحدى الآيات الملكية قد احتوت ما يلهم أن يكون نواة لسكراهة الربا كما ترى فيها :

« وَمَا أَتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِّيَزْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا أَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ... »
الروم ٣٩

أما الآيات المدنية فقد احتوت نهيا صريحا عنه وحملة شديدة على المتعاملين به كما ترى فيما يلي :

١ — الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ...
البقرة ٢٧٥ - ٢٧٦

٢ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ . وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ...

البقرة ٢٧٨ - ٢٨٠

٣ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بِغَيْرِ حَقٍّ وَلَا تُزْهِقُوا أَمْوَالَكُم بِغَيْرِ حَقٍّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَأَقْرِضُوا أَوْلِيَاءَكُم مِّنْ بَيْنِ أَهْلِكُمْ أَقْرَبًا وَلَا تَكُونُوا بَيْنَهُمْ سَبْطًا . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ سَبْطًا مَّعْرُوفًا . وَأَقْرِضُوا أَوْلِيَاءَكُم مِّنْ بَيْنِ أَهْلِكُمْ أَقْرَبًا وَلَا تَكُونُوا بَيْنَهُمْ سَبْطًا . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ سَبْطًا مَّعْرُوفًا .

آل عمران ١٣٠ - ١٣٢

والآيات صريحة الدلالة على أن بعض المسلمين كانوا يتعاطون الربا ويأكلونه أضعافاً مضاعفة ، وأنه كان عند العرب عملاً تجارياً حلالاً كالبيع ، فظل هذا المفهوم مستقراً بعد الإسلام في أذهان المسلمين الذين تعودوه . وقد تلهم آية البقرة (٢٨٠) خاصة أن المراءين كانوا يستغلون إعسار المدينين فيضاعفون رباهم ، وأنه كان لذلك عواقب شديدة الضرر في هؤلاء ؛ ولا يبعد أن يكون بعضهم قد شكوا أمره للنبي صلى الله عليه وسلم فكان هذا سبباً لنزول الآيات لمعالجة المواقف بهذا الأسلوب القوي للتناسب مع شدة ضرره ، ولتكون في الوقت نفسه تشريعاً قوياً مستمراً المدى في المجتمع الإسلامي يحول دون هذا الضرر وتلك العواقب .

ولقد احتوت آية البقرة ٢٧٩ حلاً للمشكلة التي وقعت نتيجة للحملة على الربا وشدة الهيمنة ، إذ أمرت أصحاب الأموال المراءين بأسلوب قوي شديد بإسقاط الربا عن مدينهم ، واستيفاء رؤوس أموالهم فحسب ، وحثهم على إهمال المعسرين والتصدق عليهم بإسقاط ديونهم جملة . وفي هذا مشهد من مشاهد السيرة النبوية ، وتلقين جليل مستمر المدى .

ومما يروى أن آيات البقرة في الربا من أواخر ما نزل من القرآن ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن بعدها إسقاط ربا عمه العباس رضي الله عنه في حجة الوداع ، مما يستأنس به على صحة تأخر الآيات ؛ والذي نرجحه أن الربا كان جارياً في مكة وفي المدينة سواء

بسبب ما كان في مكة من حركة تجارية ، وبسبب وجود اليهود الذين كان الربا من أعمالهم الرئيسية في المدينة ، وأن الزراعة فيها هي العمل الرئيسى للأوس والخزرج ، والزراع يحتاجون دائماً إلى الاستسلاف . وقد كان اليهود يتعاطون الربا كما جاء ذلك في معرض التنديد بهم في آية النساء ١٦٠ على ما شرحناه في فصلهم الخاص .

وبناء على رواية كون آيات البقرة من أواخر ما نزل من القرآن وهي رواية وثيقة السند تكون آيات آل عمران ١٣٠ - ١٣٢ هي التي نزلت أولاً كخطوة تشريعية أولى لمنع الضرر الفادح الذي يحل بالمدين من تحميله الربا أضعافاً مضاعفة . ويظهر أن بعض المسلمين الذين كانوا يشتغلون بالربا لم يتعظوا بها أو ظلوا يتعاملون بالربا . وكان السلطان الإسلامي قد بلغ ذروته في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم فجاءت آيات البقرة لتكون حاسمة في هذا الموضوع الخطير بالنسبة للحالة القائمة ثم بالنسبة للمستقبل الدائم . وفي هذا صور من صور التطور التشريعي وحياة المجتمع .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

وسادساً تنظيم العقود والديون والحقوق المتصلة بها .

إن أهم ماورد في هذا الباب آيتان في سورة البقرة أوردناهما في مبحث التشريع السياسي ، وهما الآيتان ٢٨٢ - ٢٨٣ . ولقد احتوتا قواعد وأحكاماً وتلقينات قويمه ورائعة في صدد حياطة حقوق المسلمين بين بعضهم وبعض ، وتنظيم العقود والديون وتسجيلها وتسجيل أعمال التجارة عامة بقدر ما يتسع له الإمكان ، تفادياً من الخطأ والنزاع ، وكذلك في صدد إيجاب الشهادة على الشهود وعدم كتمانهم شهادتهم ، وإيجاب الأمانة على الكتاب ، وفي صدد حماية هؤلاء وأولئك من الأذى والضرر بسبب عملهم .

وقد يمكن أن تلهم الآيات أن هذه الأمور لم تكن تراعى رعاية وافية ، وأنه كان يحدث بسبب ذلك خلاف ونزاع ، وأن مناسبة شديدة الأثر كانت سبباً لنزول الآيات لمعالجة الموقف معالجة حكيمة قويمه ، ولتكون تلقينا مستمر المدى في الوقت نفسه .

ونذكر بهذه المناسبة ما احتوته آيات المواريث في سورة النساء من تأكيد متوال لضرورة تسديد ديون المورثين قبل توزيع التركات على الورثة ، مما يمكن أن يكون له صلة بالحالة التي كانت حين نزولها ؛ إذ أرادت تلقين المسلمين وجوب احترام بعضهم حقوق بعض ، ووفاء ديون الميت من ماله ، لأن هذا المال ، مما قد يكون تكون من هذه الديون أو بعضها ، وهي من حق صاحبها وليست حق الميت وورثته ، وفي هذا تلقين جليل الشأن مستمر المدى في هذا الصدد ، ومعالجة لما كان عليه الأمر من شذوذ لا يتفق مع الحق .

ونذكر كذلك ما احتوته آية البقرة ١٨٨ التي نقلناها في مبحث التشريع السياسي لأن لها صلة بهذا المبحث أيضا ، إذ تنهى المسلمين عن أكل أموال بعضهم بالباطل والتحايل لدى الحكام لتحقيق أطماعهم فيها . ومن هذا القبيل آية سورة النساء هذه :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ... »
٢٩

فالمرجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة وقائع بدا فيها من بعض المسلمين بعض تصرفات مغايرة للحق بالنسبة لأموال غيرهم وحقوقهم ، واستهدفت التنديد بذلك وحظره بهذا الأسلوب لمعالجة الموقف الحاضر ؛ وصارت في الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمر المدى .

المبحث الخامس

في التشريع العائلي

متناول هذا المبحث - مدى الآيات المسكية في موضوعه - الزواج وآيات النساء وملهماتهما - التشريع في صدد التزاوج بين المسلمين وغيرهم ومداه وما في آياته من ملهمات - زواج الزناة - الحث على التزاوج وما في آياته من ملهمات - تشريعات وتلقينات في الحياة الزوجية من سورة البقرة والنساء والمجادلة وما في الآيات من ملهمات - تشريعات وتلقينات في الطلاق من سور البقرة والأحزاب والطلاق وما في الآيات من ملهمات - التشريع في الترميل وما في آياته من ملهمات - تشريعات وتلقينات في الآداب البيتية وما في الآيات من ملهمات .

الصورة الأولى

يتناول هذا المبحث مسائل الزواج والطلاق ومركز المرأة من الرجل في العائلة والمجتمع والتصرف الشخصي، وواجباتهما وآدابهما المتقابلة، كما يتناول قواعد السلوك في دخول الناس بعضهم على بعض وزيارة بعضهم لبعض أيضاً .

وآيات هذا الموضوع مدنية في الأعم الأغلب ؛ وكل ما ورد في القرآن المكي مما يمت إليه ، وآيات وعد فيها الذكر والأنثى على السواء بالأجر وحسن الجزاء ، أو ذكر فيها ما كان من نعمة الله في جعله المودة والرحمة بين الزوجين ، أو ذكر فيها واجب الولد نحو والديه كما ترى فيما يلي :

١ - وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ...
النحل ٧٢

٢ - مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ...
النحل ٩٧

٣ — وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ
الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَمَهَّرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا
وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا . . .

الإسراء ٢٣ - ٢٤

٤ — وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . . .

الروم ٢١

في حين أن الآيات المدنية قد تناولت الشؤون التي تناولها هذا المبحث بعناية وسعة
وبأسلوب مطبوع بطابع التشريع ؛ والفرق في الأسلوبين متصل بطبيعة العهدين بالنسبة
للمسلمين وظروفهم على مانبها إليه في تمهيد هذا الفصل .

والكلام في تناول هذا المبحث سيكون مصنفًا على حسب المواضيع كما فعلنا في
المباحث السابقة :

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

فأولاً : الزواج

(١) جاء في سورة البقرة الآية التالية :

« وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةً مُّؤْمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ
وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ
وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ
وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . . . »

٢٢١

وقد حظرت على المسلمين التزوج بالمشركات وعلى المسلمات التزوج بالمشركين ؛ مما
يلهم أن هذا مما كان جارياً قبل نزولها فنزلت لتمنع استمرار الجاري ولتكون تشريعاً

مستمر المدى أيضا ؛ ويستلهم من فقرة في سورة المتحنة وهي « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » - إذ تنهى المسلمين عن الاحتفاظ بزواجاتهم الكافرات في عصمتهم - أن النهي في آية البقرة انصب على إنشاء المصاهرة بين المسلمين والمشركون ، وأنها نزلت مبكرة ، أو قبل نزول آية المتحنة على الأقل ، وهي التي نزلت بعد صلح الحديبية على ما شرحناه في مناسبة سابقة ، بدليل أن المسلمين المتزوجين بزواج كافات من قبل ظلوا محتفظين بعصمتهم إلى أن نهت آية المجادلة عن ذلك . وآية البقرة جاءت بعد قليل من آيات فرض القتال ٢١٦ - ٢١٨ التي نقلناها سابقا ؛ وإنه لمن السائع أن يقال إن العداء الذي تحول إلى حالة حرب بين المهاجرين ومشركي مكة حين وقع الاشتباك الحربي الأول ، قد اقتضى النهي عن صلات المصاهرة بين أولئك وهؤلاء ، وإن هذا النهي قد كان بمناسبة جنوح من بعض المسلمين المهاجرين إلى الاستمرار فيها ، إذ كانت وشائج القربى تربطهم بالمشركون في مكة ، وفي هذا ما هو واضح من صور مما كان جاريا ومن المناسبات التشريعية في هذا الصدد ؛ ولعل آية البقرة بناء على هذا أولى الآيات المدنية التي نزلت في صدد النكاح .

(٢) وجاء في سورة النساء الآيات التالية :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمْتَمَىٰ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ^(١) . وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَّحْمَلُهُ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيَّتًا . »

٣ - ٤

والفقرة الأولى من الآية الأولى بسبيل ما ذكرنا روايته من قبل ، مما كان الأوصياء يفعلونه من ممانعة تزويج اليتيمات الغنيات للغريب والتزوج بهن ، وما كن يتعرضن له بسبب ذلك من أذى ، إذ نهبت على وجوب العدول عن ذلك في حالة غلبة احتمال عدم

(١) ذلك ضمن لعدم الجور .

العدل ، ثم استطردت فأشارت إلى ما في النساء من بديلات يستطيع الرجل أن ينكح ما طاب له منهن واحدة واثنين وثلاثا وأربعا . وقد تلهم روح الآيتين أن ما احتوتاه من التنبيه إلى أن هذا العدد هو في حالة إمكان العدل بحيث يكتبى بواحدة أو بما يملك الرجل من إماء إذا غلب ظن الجور ، وإلى وجوب أداء المهر للزوجات كاملا وعدم التصرف بشيء منه إلا إذا طابت الزوجة به نفسها ، وقد جاء هذا التنبيه استطرادا .

ومع أن عبارة (مثنى وثلاث ورباع) قد هدفت إلى التنبيه على ما للرجال من مجال في النساء الأخرى يمتنعون به عن الزوج باليتيمات الذي قد يؤدي إلى ظلمهن ؛ فإنها اعتبرت تشريعا في صدد عدم جواز جمع الرجل في عصمته أكثر من أربع زوجات في وقت واحد .

ولقد روي أن الرجال كانوا يجمعون في عصمهم زوجات بدون تحديد ؛ ومن الثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جمع في عصمته في وقت واحد تسعا ؛ فلما نزلت الآيتان طلق الذين زاد عدد زوجاتهم على الأربع الزوائد ، ونزل في أمر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم تشريع خاص في آيات في سورة الأحزاب يتفق روحا مع التحديد على ما شرعناه في مبحث حياة النبي الزوجية ؛ وهكذا يكون هذا التشريع قد عدل حالة جارية من قبل البعثة إلى ما بعد الهجرة بمدة غير قصيرة - أي إلى السنة الهجرية السابعة أو بعدها ، إذ نزل تشريع زوجات النبي في ظرف نزول هذا التشريع - تعديلا حكما استهدف توطيد الحق والعدل والهناء العائلي بالنسبة للحاضر والمستقبل ، وفي هذا صورة من صور السير التشريعي كما هو واضح ؛ والذي نرجحه أن الآيتين قد نزلتا بمناسبة وقعة أو مشكلة ما رفع أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صدد اليتيمات أو في صدد تعدد الزوجات أو مهورهن أو في كل ذلك .

ولم تحدد الآية الإماء كما لم تشترط لهن مهرا ، لأنهن ملك يمين صاحبهن ؛ وهذا ما كان جاريا من قبل كما تلهمه آيات مكية ومدنية ، منها آيات سورة المؤمنين المكية هذه :

« وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ لَكُمُ الْعَادُونَ . . . »

٧ - ٥

وآيات سورة الأحزاب المدنية هذه :

« لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا . . . »

٥٢

وقد أقر الأمر على ما كان .

(٢) وفي سورة النساء أيضا الآيات التالية :

« وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا . حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعُمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِذَا لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَقْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَإِنْ كُنَّ حُورًا

يَاذَنِ أَهْلَهُنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَخَدَّاتٍ
أُخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَجْشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ
ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ...»

٢٢ - ٢٥

وقد احتوت الآيات تشريعاً وافياً في محرمات النكاح ، ومتما لما احتوته الآيات
من تشريعات في الزواج ؛ ومن أهم ما احتوته شرطها نية إنشاء كيان عائلي في الزواج
والإحصان فيه لا السفاح به .

وقد أباحت الزواج بالإمء لمن لا يقدر على الحرائر مالياً ولا يطيق الصبر ، على
شرط أن يكون ذلك بإذن مالكيهن وبمقابل مهر وبموجب عقد ، وأن يكون في الزواج
بهن قصد الإحصان العائلي لا السفاح ولا المخادنة وحسب ، وواضح أن هذا هو غير
ما أبيح للمالك الإمء من التسري بهن من دون مهر وعقد وتحديد عدد إقراراً لما كان
الأمر عليه من قبل على ما شرحناه سابقاً . وعلى ما أكدته جملة (والمحصنات من النساء
إلا ما ملكت أيمانكم) في الآية (٢٣) . ولعل هذا كان تشريعاً جديداً . إذ يستلهم من
الآية أن الزواج بالإمء لم يكن سائفاً لغلبة ارتكاسهن في البغاء والسفاح . ولعل حكمة
جعل حد الزنا عليهن نصف ما على الحرائر هي هذه . والآية (٢٥) صريحة الدلالة على
أن هذا التشريع بسبيل تيسير الزواج وتخفيف كلفته على الذين لا يطيقون الزواج بالحرائر
مالياً . والمتبادر من ذلك أن الزواج بالإمء كان خفيف الكلفة . وأن التشريع جاء
لمعالجة حالة قائمة ثم لمعالجة الحالات المماثلة دائماً . ويستلهم من محتويات الآيات أنه كان
هناك بعض الشذوذ في الأنكحة كنكاح الرجل زوجة أبيه المتوفي ، وجمعه في عصمته
أختين ، وتحريمه على نفسه أرملة أو مطلقة ابنة بالتبني ، ونية المساخة والمخادنة في الزواج
بالحرائر والإمء أكثر من نية الإحصان والكيان العائلي الخ... كما لا يستبعد أن يكون
هناك شذوذ آخر ، أو ألا يكون هناك تقييد وثيق في أمر الأنكحة المحرمة الأخرى ،

فنزلت الآيات لمعالجة الأمر وإقراره في النطاق الحكيم الذي يجب أن يكون فيه بالنسبة للحالة الحاضرة وللأجيال المقبلة معاً . ونرجح أن تكون الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلة من مثل هذه المشا كل نقلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستفتي في شأنها .

وليس من الممكن الجزم بالوقت الذي نزلت فيه الآيات ؛ ولكن النص على تحريم حلائل الأبناء من الأصلاب فقط ، قد يدل على أن ما كان جاريا من تحريم حلائل الأبناء بالتبني قد ألغي قبل نزولها ؛ ولما كان هذا الإلغاء قد تم بتزوج النبي صلى الله عليه وسلم بمطلقة متبناه في أواسط العهد المدني على ما شرحناء في مبحث حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية ، فمن السائع أن يقال إن ما أشرنا إليه من شذوذ في الأنكحة ومحرماتها قد ظل جاريا إلى أواسط هذا العهد ، إذ اقتضت حكمة التنزيل تنزيل الآيات في تنظيم وتحديد الأمر في هذا الظرف .

الصورة الثالثة

(٤) وجاء في سورة المائدة الآيات التالية :

« الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخٰسِرِينَ... »

وقد أباحت للمسلمين التزوج بالكتابيات . وقد فسر بعضهم « المحصنات » بالحرائر ، وبعضهم بالعفيفات ؛ ولعل الفقرة الثانية من الآية تدعم القول الثاني ، إذ شرط في التزوج بالكتابيات نية الإحصان لا السفاح والتخادن ؛ ولقد يدل هذا أيضا على ما كان من غلبة ارتكاس الكتابيات في هذا العهد في البقاء ، وقد كن من حيث الواقع يهوديات

كما لا يخفى ، فكأنما نهت الآية - وهي تبيح التزوج بهن - إلى وجوب حسن الاختيار ، وعدم التزوج بمن لا تكون مشهورة الصيانة والعفاف ؛ وهكذا تكون الآية قد عالجت حالة قائمة ، واحتوت تلقينا مستمر المدى في الوقت نفسه .

وقد أوضحت الآية أوقيدت آية البقرة (٢٢١) التي نقلناها قبل قليل ، إذ كان حكم آية البقرة مقصوراً على المشركين أو غير الكتابيين ، ومن المحتمل أن يكون المسلمون بعدها كفوا عن المصاهرة مع غير المسلمين عموماً إلى أن نزلت آية المائدة التي احتوت تعديلاً لهذا المفهوم ؛ والمرجح أن الآية نزلت في سلسلتها بعد صلح الحديبية ، لأن مطلع السورة قد احتوى إشارة ما إلى هذا الصلح على ما نبهنا إليه في مبحث الوقائع الجهادية ؛ ولعلها نزلت بعد خضد شوكة اليهود في خيبر والقرى الأخرى الذي وقع بعد قليل من هذا الصلح على ما ذكرناه سابقاً أيضاً ، وإذا صح هذا كانت الإباحة بعد خضد تلك الشوكة ، وعدم بقاء حظر التزوج بالكتابات ، ولتدعيم ما ظل القرآن يشير إليه من وحدة المصدر والأسس بين المسلمين والكتابين في المصاهرة والمؤاكلة ؛ وفي هذا صورة من صور السير التشريعي والحكمة السياسية التشريعية لمعالجة الموقف الحاضر ، ولتوطيد خطة مستمرة تقوم على المدى والأسس والظروف التي تلهم الآية وظرف نزولها .

وواضح أن الآية إنما أباح التزوج بالكتابات دون تزويج الكتابيين ، وهكذا تظل المسلمة محظورة على غير المسلم ؛ وحكمة ذلك غير خفية ، فالرجل قوام الأسرة وإليه ينسب النسل ، فليس في تزوجه بكتابية محذور من وجهة النظر الإسلامية ، بل إنه مفيد من وجهة نظر الدعوة الإسلامية ، وعكس هذا وذاك تزويج المسلمات بغير المسلمين .

ويمكن أن يضاف إلى هذا أن المسلمين يعترفون بكتب وأنبياء أهل الكتاب ويحترمونه . فوجود الكتابية عند المسلم لن يعرضها لسماع انتقاص وازدراء لما تقدسه

من كتب وأنبياء . وهذا غير متوافر للمسلمة عند الكتابي لأنه لا يعترف بالقرآن والنبي محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن الثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تزوج بصفية الخيرية عقب فتح خيبر ، ومع أن الروايات ذكرت أنها أسلمت فليس يستطاع الجزم بأن إسلامها كان قبل الزواج أو بعده ، وبالتالي لا يستطاع الجزم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تزوجها ممارسة للإباحة آية المائدة أولاً ، ومما يقف في سبيل الجزم أن الروايات ذكرت أن النبي دخل بها في طريق عودته من خيبر ، في حين يرجح أن تكون الآية مع سلسلتها السابقة قد نزلت بعد مدة ما من فتح خيبر .

ولم نطلع على خبر يذكر أن المسلمين قد مارسوا هذه الإباحة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أي أن يكونوا تزوجوا بكتابات بقين على دينهن . ومن المحتمل أن يكونوا فعلوا . لأن المعروف أنه كان بقي بعض اليهود . والنصارى في المدينة وبعض اليهود في خيبر والقرى اليهودية الأخرى دون ما حول ولا طول . والآية وإن كانت جاءت بأسلوب تشريعي عام فإن ضمير الجمع المخاطب فيها وسبقها بآية بدأت بجملة (يسألونك ماذا أحل لهم) قد يفيدان أن بعض المسلمين سألوا عن هذا الأمر أيضاً . ولا بد من أن يكون ذلك بسبب رغبة أو حاجة . وهذا قد يجعل ذلك الاحتمال قوياً .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

(٥) وجاء في سورة النور الآية التالية :

« الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ... »

وقد تعددت الأقوال في مدى الآية ، إذ قيل إنها للتنديد والتشنيع ، وإن التحريم منصب على الزنا نفسه ؛ كما قيل إنها بسبيل تحريم الزانية ؛ وقد روي أن بعض المسلمين استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في نكاح نبي يشتهيها أو يحبها فنزلت الآية جواباً .

ومهما يكن من أمر فالآية تنطوي على كل حال على كراهية التزوج بالزانية وتزويج الزاني ، وخاصة إذا ما ثبتت عليهما جريمة الزنا وأقيم عليهما الحد ؛ لأن الآية جاءت بعد تعيين الحد وإيجاب إقامته ، والاتصال في المفهوم بينها وبين ما سبقها واضح الوثاقة ؛ وسواء أصحت الرواية أو لم تصح - لأن هذا الاتصال يدعم كون الآية تنمة لما قبلها - فمن المحتمل أن يكون التزوج بالزانية أو تزويج الزاني مما لم يكن عليه غبار في نظر البعض في ذلك العهد ، وكان مما يمارس ، فنزلت الآية بالتحريم ، أو على الأقل بالتشنيع ليكون فيها زجر للزناة وتهديد لمقاطعتهم ؛ وهكذا تكون الآية قد تضمنت علاجاً حكماً للحالة الحاضرة متسماً بمداه الحكيم بعدها .

(٦) وجاء في السورة نفسها الآيات التالية :

« وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُفْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَلَيْسَتْغَفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُفْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِفَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَقُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... »

٣٢ — ٣٣

والآية الأولى تحت المسلمين على تزيج الذين لا أزواج ولا زوجات لهم ، وعلى تزويج رقيقهم رجالاً ونساء ، وهذا الحث يتسق مع قواعد العمران وطبيعة الإنسان ، وينطوي فيه مقصد جليل من هذه الوجهة ، كما فيه تدعيم لما استهدفه القرآن في آيات النساء من توطيد الحياة العائلية في الإسلام .. ويبدو أن الفقر كان كثيراً ما يمنع التزواج ، فنبهت الآية إلى وجوب التساهل في الأمر حتى لا يتعطل ذلك المقصد

الجليل ، وفي هذا معالجة لحالة قائمة ، وتلقين مستمر المدى لقاعدة اجتماعية جلية في الوقت نفسه .

أما الآية الثانية فإنها تحت من ناحية الذين لا يقدرّون مالاً على النكاح على العفة ، وهي من أسس المكارم الأخلاقية الإسلامية ؛ ومن ناحية على عدم إكراه الفتيات على البغاء في سبيل أعراض الدنيا ؛ ولقد روي في صدد النقطة الأخيرة أن زعيم المنافقين كان يجبر بعض إماءه على البغاء والتكسب به لحسابه ، وأن هذه العادة مما كانت جارياً قبل البعثة . ولسنا مطمئنين إلى هذا لما فيه من مسبة اجتماعية كبرى لا يعقل أن يقدم عليها زعيم ، ولأن في الآية وفيما قبلها ما يجعل هذا القول غير وارد ، فالآية الأولى تحت على تزويج غير المتزوجين أحراراً وأرقاء ، رجالاً ونساء ؛ فالمعقول أن تكون الفقرة الأخيرة من الآية الثانية بمعنى نهى المسلمين عن عدم تزويج فتياتهم إذا ما تيسر لهن الزواج تفادياً من الإنفاق أو تغالياً في المهور ؛ لأنه قد يكون في ذلك دفع لهن إلى البغاء .

ولقد روى أن عبداً طلب من مالكة المسلم أن يسمح له بشراء نفسه بثمن يدفعه مقسطاً - وهذا معنى الكتاب أو المكاتبه - فأبى ، فاشتكى للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأمرت الآية بذلك . وورود الأمر بالمكاتبه في آيتين تشريعتين في الزواج ، مما يلهم أن يكون العبد قد رغب في الزواج أيضاً فرغب في المكاتبه ليتحرر وليتزوج كما يشاء ، فلما أبى مالكة عليه ذلك رفع أمره لله والنبي .

وظاهر من هذا كله أن الآيتين قد احتوتا صوراً واقعية ، ونزلتا في مناسبات لتحل ما كان من مشاكل حلا قوياً متسقاً مع الحق والعدل وطبيعة الإنسان واجتماعه ، ولتكون في الوقت نفسه تشريعاً مستمراً الحكم والتلقين .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

وثانيا : في الحياة الزوجية :

(١) جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتِ شَتْمٌ وَقَدْ جُمِعُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَأَنْتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَائِقَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . لَا يُوَاحِدُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُوَاحِدُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . . . »

٢٢٢ — ٢٢٧

وهي توجب اعتزال النساء في الحيض ، وتأمُر بتقوى الله فيهن ، وتحل مشكلة الإيلاء بالمعاشرة أو الطلاق . وقد روى أن أهل المدينة كانوا ينحون نحو اليهود في عزل نساءهم وعدم الاكتفاء بعدم قربهن جنسيا حيث يعتبر اليهود نساءهم الحائضات نجسات فلا يخالطونهن ولا يمسونهن ولا يؤاكلونهن إلى أن يطهرن . فسأل بعض المسلمين عن ذلك فنزلت الآيتان الأوليان .

وكان من عادة الأزواج في الجاهلية إذا كرهوا زوجاتهم أو غضبوا مهن لأمر ما أن يحلفوا بعدم قربهن فتصبح الزوجة معلقة لا هي زوجة ولا مطلقة ، مما عرف بالإيلاء وهو الحلف ، فشكا بعض النساء أمرهن للنبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآيات الأربع الأخيرة ؛ وليس في الروايات ما لا يتسق مع الآيات ، وكل ما يمكن أن يكون

هو أن السلسلة قد نزلت وحدة بناء على شكاوي واستفتاءات سابقة . وعلى كل حال فالآيات قد انطوت على صور واقعية لما كان عليه الأمر في الجاهلية ثم استمر إلى ما بعد الهجرة النبوية بمدة ما ونزلت لمناسباتها جواباً على استفتاءات وشكاوي لحل المشاكل ومعالجة الحالة حلاً وعلاجاً قويمين - حكميين مستهدفين لتوطيد الحق والبر والإصلاح ومنع الأذى ، ولتكون تشريعاً وتلقيناً مستمرّ المدى أيضاً .

وقد اكملت السنة هذا التشريع فأوجبت اعتبار الزوجة التي لا يرجع زوجها عن يمينه قبل انتهاء المدة طالقة منه طلاقاً بائناً وبذلك تسترد حريتها ولا تظل مقيدة معلقة .

ويظهر من بعض الآيات أن بعض الأزواج قد احتجوا باليمين وتقيدهم بها ، فأجابت عن هذا الاحتجاج بما فيه الحكمة الجليلة ، وهو أن المهم هو المقصد المبيت في النفس وليس الكلام الذي يمكن أن يكون قد صدر بسائق الغضب والتسرع أو الهوى ؛ فإذا كان القصد الفراق وجب أن يكون الفراق ، وإلا فلا يجوز أن تكون اليمين وسيلة للأذى والضرر وممانعة عن البر والتقوى والإصلاح ، وفي هذا صورة من السير التشريعي والمساجلة فيه للإقناع وإقامة الحجة .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

(٢) وجاء في سورة النساء الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا . وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا . وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ... »

والآيات قوية التلقين في صدد حسن معاشرة الزوجات وعدم إزعاجهن لا بتزاور أموالهن بدون حق ، والتنويه برابطة الزوجية ووجوب رعايتها رعاية تامة من جانب الرجل . ومضمونها وأسلوبها يلهمان أن بعض الزوجات كن يلقين عنتا من أزواجهن في الحياة الزوجية ، لا بتزاور أموالهن . كما أن الآية الثانية تلهم أن بعض الأزواج بعد أن قيدتهم الآية بأربع نساء كانوا حينما يريدون أن يتزوجوا بزوجة جديدة يعمدون إلى تطليق إحدى القديمات ، وأنهم كانوا بسبيل ذلك يعمدون إلى مساومة زوجاتهم لاسترداد بعض ما دفعوه من المهور لهن ، وفي هذا وذاك صور لما كان عليه الحال إلى وقت متأخر من العهد المدني ، وقد استهدفت الآيات توطيد الحق والعدل والهناء العائلي ، وتلقين الصبر وسعة الصدر نحو الزوجات ، فكانت علاجا قويا وحكما للحالات والتصرفات الشاذة ، وتشريعا جليلا مستمر المدى والتلقين أيضا .

(٣) وقد جاء في السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

« الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِذَا صَلَّحْتَ قَنْتَتْ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا . وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ... »

٣٤ - ٣٥

وقد استهدفت الآيات توطيد الانسجام في الحياة العائلية ، وبيان مركز كل من الرجل والمرأة فيها ، وقررت قوامه الرجل معلة إياها بما وهبه الله للرجال من مزايا وبما أخذوه على عاتقهم من مسئولية النفقة ، كما قررت على المرأة وجوب الطاعة للرجل والأمانة والضيافة ، وحثت على توسط وسطاء الخير في الحالات التي يخشى فيها تفاقم الشقاق وتوطيدا للهناء والانسجام العائلي . والراجح أن التأديب

والتوسيط هما من أجل تلافي النشوز والشقاق والطلاق ، إبقاء على الرابطة الزوجية . ومن الراجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلة زوجية رفع أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكانت حلا حكما للمشكلة ، وتلقينا مسقمر المدى أيضا . كذلك من الراجح أن قوامة الرجل على المرأة وحق تأديبه لها مما كان جاريا ومعترفا به قبل نزولها ، كما يستلهم من أسلوب أول الآيات التقريرية ، فأقرت الآيات للرجل بعض ما كان جاريا وعلته وجعلت حق تأديبه لزوجته مقيدا بقيود وحدود ؛ وهكذا ينطوى في الآيات كما هو المتبادر صور مما كان عليه الحال ، ومشاهد من مشاهد الحياة الزوجية في العهد المدني .

ولقد ظلت الأحكام القرآنية التي تجعل المرأة متساوية مع الرجل في مختلف التكاليف الدنيوية والدينية ونتائجها الدنيوية والأخروية . والتي تجعلها كذلك صاحبة أهلية تامة في قبض مهرها واستيفاء إرثها والتصرف فيما يدخل في يدها من مال وحققها في الاحتفاظ به بدون رقابة الرجل ومراقبته وإذنه محكمة بحيث يتأيد بهذا كون القوامة الممنوحة للزوج هي في نطاق الحياة الزوجية وحسب فضلا عن أن الآية الثانية تحتوي قرينة حاسمة على ذلك .

(٤) وجاء في السورة نفسها كذلك الآيات التالية :

« وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا . . . »

١٢٨ - ١٣٠

وقد استهدفت الآيات أيضا توطيد الحياة الزوجية ووجوب رعايتها إلى أبعد حد ممكن ، بحيث لا يكون الفراق إلا في الحالة التي لا مندوحة عنها .

وقد يلهم مضمونها أنها في صدد مشكلة متصلة بالمعاشرة الزوجية وتعدد الزوجات ، ومن الراجح أنها نزلت بمناسبة معينة رفع أمرها إلى النبي ، وتكررت أمثالها مما هو طبيعي الوقوع في الحياة الزوجية ، وخاصة في حالات التعدد ، فكانت حلا حكما وقويما للمشاكل القائمة ، وتلقينا مستمر المدى في الوقت نفسه أيضا . وإذا لوحظ أن آية النساء (٣) قد نهت على وجوب الاقتصار على واحدة في حالة غلبة عدم العدل ، وأن هذه الآيات قررت تعذر هذا العدل ، وأن تعدد الزوجات مما كان مألوفاً في ذلك العهد والبيئة - أمكن أن يلح في هذه الآيات وفي الآية المشار إليها معا تلقين بالكف عن التعدد أو الاقتصاد فيه ، وبالتالي قصد لتعديل ما أبيض للرجال من عدد محدد كانت إباحته نفسها تعديلا لما كان مألوفاً من عدم التحديد . وفي خلال ذلك تنطوي صورة من صور السير التشريعي كما هو المتبادر .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

(٥) وجاء في سورة المجادلة الآيات التالية :

« قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كُفَّائِنِ اللَّهِ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... »

وقد احتوت الآيات كما هو واضح منها حكاية موقف جدال بين النبي صلى الله عليه

وسلم وإحدى زوجات المسلمين في صدد شكواها من زوج ظاهرها ، وفي هذا صورة لما كان الأمر جارياً عليه في ظروف الحياة الزوجية ومشاكلها ، وما كان يرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم منها فتنزل الآيات بمناسباته . والمظاهرة تعني قول الرجل لزوجته: أنت على كظهر أمي ! فيحرم عليه قربها ، وتصبح معلقة لا زوجة ولا مطلقة ، وقد كان الأزواج يعمدون إلى هذا إذا ما أرادوا أن يضاروا زوجاتهم أو يبتزوا أموالهن ، أو في حالة غضب وغيظ منهن لأمر ما . ومضمون الآيات يلهم أن المرأة لم تجد في النبي صلى الله عليه وسلم في بادئ الأمر أذنًا سامعة ومسارة إلى إقرار حقها في الشكوى ، ولعله اكتفى بالنصح والوعظ لها ولزوجها ، ولم يكن في ذلك تشريع واف وإلزامي ، فهتفت شاكية إلى الله ، فنزلت الآيات تقر حقها في الشكوى ، وتندد بالمظاهرة والمظاهرين وتسفهم ، وتحل المشكلة خلا لإلزاميا .

ولقد جاء في سورة الأحزاب فقرة فيها تسفيه للظهار والمظاهرة دون أن تحتوي حلا ، وهي هذه :

« وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ... »
٤

فلم تكن حاسمة ، فلما كانت مشكله الزوجة المجادلة المشتكية إلى الله جاءت آيات المجادلة حاسمة ؛ والكفارة تدل على أن الظهار كان أشد أثرا في التحريم من الإيلاء العادي في المجتمع ، فاقترضت الحكمة التشديد فيها لتسوين إبطاله على ما هو المتبادر . وفي كل ما تقدم صور لسير التشريع القرآني كما هو واضح :

هذا ؛ وموقف الزوجة المجادلة عن حقها المشتكية إلى الله موقف قوي رائع ؛ قد يدل على أن الإسلام والسيرة النبوية قد أوجدا في المرأة شيئا من الطمأنينة بالإنصاف ، وجراة على الدفاع عن حقها ، وحافزا إلى المطالبة بإبطال ما كن يتعرضن له من الأذى والحيف بسبب من عادات وتقاليد جاهلية . وفي هذا مافيه من مشهد تطوري في المجتمع الإسلامي الناشئ كما هو واضح .

الصُّورَةُ الثَّامِنَةُ

وثالثاً : في الطلاق وعواقبه .

(١) في سورة البقرة الآيات التالية :

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُوْتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَاءٍ اْتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ بِعِظْكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمُ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَسِّمَ الرِّضَاعَةَ وَهَلَى الْمَوْلُودُ لَهُ رِزْقُهُنَّ

وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً أَتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . . .» .

٢٢٦ - ٢٣٣

ويبرز في الآيات قصد حماية الزوجة وحققها في مختلف الحالات ، كما يبرز قصد حماية الكيان الزوجي أو العائلي من الهدم بسبب الخقد والتعنت ، أو الرعونة والطيش ، بروزاً قوياً جليلاً المدى .

ومن المرجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلات حدثت وتكررت وشكاوى رفعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم طلباً للحل والإنصاف ؛ وبلغهم مضمونها ومقاصدها البارزة أن المرأة كانت إلى حين نزولها عرضة للضرر والإزعاج والأذى والابتزاز في ظروف الطلاق والمعاشرة الزوجية ، من زوجها أحياناً ومن أهلها أحياناً وبسبب عادات جاهلية أحياناً ، وأن الشكاوى المرفوعة كانت من جانب الزوجات على الأغلب ، وإن كان هذا لا يمنع أنها كانت أحياناً من جانب الأزواج ، وهكذا تكون الآيات قد انطوت على تصور لما كان الأمر جارياً عليه من قبل البعثة إلى حين نزولها ومعالجة حكيمة للحالة الحاضرة استهدفت توطيد الحق وحماية الكيان العائلي ، وإنصاف المرأة ، وتشريعاً مستمراً في هذه الشؤون الخطيرة .

(٢) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

١ - لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ . وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ...

٢٣٦ - ٢٣٧

٢ - وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ . كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

٢٤١ - ٢٤٢

ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ...

وقد احتوت تشريعات أخرى في صدد الطلاق متممة لما سبقها ، ويبرز فيها كذلك قصد حماية الزوجة ورعاية حقها . والآيات متصلة السياق بالسلسلة السابقة ؛ وقد تخللتها آيات تتعلق بحالة الترميل سنورها بعد . وروح الآيات ومضمونها يلهمان أن ما احتوته من أحكام هو جديد لم يكن مألوفاً أو جارياً من قبل ، بحيث يسوغ أن يقال إن حق المرأة في الحالات المذكورة فيها لم يكن معترفاً به ، أو كان رهناً بالظروف ، مع أن هذه الحالات مما يتكرر وقوعه في الحياة الزوجية ؛ فاقترضت الحكمة إكمال التشريع بهذه الأحكام ؛ ولا يبعد إن لم نقل نرجح أن مشكلات حدثت وشكاوى رفعت إلى النبي حول هذه الشؤون ، فجاءت السلسلة محتوية لحل ما كان من مشكلات والإجابة على ما رفع من شكاوى فيها أيضاً ، عليها في الوقت نفسه طابع التشريع المستمر المدى .

الصُّورَةُ التَّاسِعَةُ

(٣) وجاء في سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسَّرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ... »

٤٩

وقد احتوت حكماً متمماً لما جاء في سلسلة آيات البقرة السابقة . ويبدو أن بعض المسلمين ظنوا أن العدة لا بد منها في كل حال ، أو أن بعضهم استفتى النبي صلى الله عليه وسلم في الحالة التي ذكرتها الآية ، أو حصلت مشكلة ما في صدها ، أو أن هذا هو

ما كان جارياً قبل نزولها ؛ فنزلت مشرعة للأمر بما هو متسق مع المنطق ، إذ أن العدة إنما شرعت لاستبراء الرحم ، ومتصل بقصد حماية المرأة ؛ إذ أن اعتدادها بسبب هذه الحالة مما يضر بمصلحتها . وفي الآية من بعد صورة لسير التشريع القرآني كما هو ظاهر .

(٤) وجاء في سورة الطلاق الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ بَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا . فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ لَكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . وَالنِّسَاءُ يَتَسَنَّ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالنِّسَاءُ لَمْ يَحِيضْنَ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا . ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا . أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتْرٌ لِلَّهِ آخَرَى . لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْنِقْ إِمَّا أَنْ يَتَزَوَّجَ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ... »

وقد احتوت الآيات تشريعات متممة للطلاق وظروفه ، يبرز فيها كذلك قصد حماية المرأة وصيانة حقوقها بروزاً قويا كذلك ، بل إن هذا القصد بارز هنا بروزاً أكثر ؛ بدليل ما تكرر خلال الآيات من الأمر بتقوى الله والإنذار به ، وما في الآيات من تكرار لبعض الأحكام السابقة ؛ وهذا يلهم أن بعض المسلمين اقترفوا بعض المخالفات لروح أو نصوص الآيات السابقة متأثرين بعوامل متنوعة ، فحدث بسبب ذلك مشكلات ، ورفعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم شكاوى ، فنزلت الآيات لإيضاح ما قد ظل غامضاً من أحكام بعض الحالات ؛ وللتنبيه إلى وجوب التزام أوامر الله وتقواه في هذه الشؤون الخطيرة ؛ وقد جاء الأمر مطبوعاً بطابع التشريع العام ليكون تشريعا حكيماً مستمر المدى . والآيات كما هو واضح تحتوي مشهداً من مشاهد المجتمع الإسلامي في العهد المدني ، وصورة من صور التشريع القرآني أيضاً .

الصُّورَةُ الْعَاشِرَةُ

ورابعا : في الترميل :

(١) جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

١ - وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَدْرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ...

٢٣٤ - ٢٣٥

١ - وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّمَا إِلَى الْخَوْلِ

غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ...

٢٤٠

والآيات كما قلنا جاءت في سلسلة آيات البقرة ، وقد قال المفسرون والرواة : إن عدة المترملة الحدادية كانت قبل نزولها حولا كاملا ، لا تخرج فيه من بيتها ولا تنزين ولا تنطيب ولا تتعرض لنكاح أو خطبة نكاح ، وإن الآية (٢٤٠) نزلت قبل الآيتين (٢٣٤ - ٢٣٥) تقرر هذه العادة مع إعطاء المرأة حرية الخروج قبل تمام الحول والتصرف بنفسها بما ليس فيه منكر ، وإلزام ورثة الزوج بنفقتها ، ثم نزلت الآيتان لتقرير القاعدة الدائمة ، وقالوا بناء على ذلك : إن الآيتين قد نسختا الآية (٢٤٠) وإن كان في ترتيبها تقديم للناسخ وتأخير للنسوخ .

والآية (٢٤٠) تلهم فعلا أن عدة حداد الأرملة كانت حولا كاملا ، وأنها قد أقرتها بشكل ما ، وأن الآية (٢٣٤) قد حددت هذه العدة بأربعة أشهر وعشر ليال ، وأن في هذا شيئا من النسخ التشريعي للعادة القديمة . غير أن في الآية (٢٤٠) شيئا من الموضوع المستقل أيضا بحيث لا يقال إنها نسخت جملة ؛ لأنها تقرر حق الأرملة في السكنى والنفقة طيلة السنة إذا رأت أن تبقى في بيت الزوجية هذه المدة وتمنحها حق الخروج من بيت الزوجية قبل انتهاء هذه المدة . وعلى كل حال ففي الآيات صور لما كان عليه الأمر في العهد النبوي إلى حين نزولها ، كما فيها صورة لسير التشريع القرآني أيضا . وقصد الرعاية لحق المرأة وحمايتها في الآيات الثلاث بارز شأن الآيات التي نقلناها جميعا ، مما يدعم ما استدللنا عليه من هذا الأسلوب من سوء حالة المرأة ومعاملتها . والمرجح أنه حدثت مشا كل في هذا الصدد ورفعت شكاوى للنبي ، وربما تضمنت هذه الشكاوى التماس التخفيف من وطأة العادات الجاهلية وقد كرم الله المسلمين بالإسلام ، فنزلت الآيات لتحل المشكلة وتعالج الموقف بما يقتضيه الحق والرحمة بالمرأة ، ولتكون تشريعا مستمر المدى في الوقت نفسه .

ولقد نصت آيات سورتي البقرة والطلاق التي نقلناها في موضوع الطلاق على

أن عدة براءة الرحم للحائضات ثلاث حيضات ، ولغير الحائضات ثلاثة أشهر ؛ فتكون عدة الأرملة المذكورة في الآية (٢٣٤) والحالة هذه ليست عدة براءة رحم ، وإنما هي عدة حداد تدخل فيها عدة براءة الرحم ، ويكون القرآن والحالة هذه قد أقر فكرة حداد المرأة على زوجها التي كانت قبل نزول التشريع ، بعد أن أدخل عليها التخفيف والتنظيم ، كما أقر أشياء كثيرة بعد تخفيفها أو تهذيبها أو تنظيمها مما مرت بنا صور عدة منه .

وآية سورة الطلاق (٤) قد جعلت عدة المطلقة الحامل وضع حملها دون نظر إلى عدد الحيضات وعدد الأشهر ؛ لأن الأصل في العدة كما قلنا براءة الرحم ؛ ولقد رويت سنة نبوية بأن هذا أيضاً هو عدة الأرملة ، بحيث لو وضعت الأرملة الحامل عقب وفاة زوجها وقبل مرور الأشهر الأربعة والليالي العشر اعتبرت عدتها منقضية ؛ فإذا صحت السنة المذكورة كان فيها تعديل استهدف التخفيف عن المرأة وصورة من صور التشريع النبوي في شكل تخفيف أو توضيح للتشريع القرآني .

الصُّورَةُ الْحَادِيَةِ عَشْرَ

وخامساً : في الآداب البيتية .

(١) جاء في سورة النور الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ . قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ
أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي
إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ
أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا
يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . . . »

٣١ - ٢٧

وقد احتوت تشريعات تأديبية للمسلمين في إيجاب الاستئذان والإذن قبل دخولهم
بيوت غيرهم ، وغض الرجال والنساء أبصارهم عن بعضهم بعضا تفاديا من الفتنة ،
واحترام المرأة في اللباس بحيث لا تظهر من زينتها على غير محارمها إلا ما لا إمكان
لإخفائه ، تفاديا من الفتنة أيضا . وروح الآيتين الأخيرتين ، هم وحدة الآيات والسياق ،
تلهم أن التأديب في الآيتين هو في صدد دخول غير المحارم إلى البيوت بمد الاستئذان
والإذن ، وإن كان محتمل الشمول لداخل البيوت وخارجها ، والأمر الوارد بالتوبة في
الفقرة الأخيرة من الآية الأخيرة قد يلهم أنه وقع شذوذ أو تصرف غير مستحب في
سياق دخول بعض الناس على بعض رفع أمره إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أن المقصد
التأديبي والتنظيمي في الآيات يلهم أن الأمر لم يكن جاريا على ما احتوته ، وأن حكمة
التنزيل اقتضت تحقيق هذا المقصد بعد ماتم نشوء المجتمع الإسلامي ، فنزلت الآيات تنظم
ذلك هذا التنظيم القويم الحكيم ، وتؤدب المسلمين بهذا الأدب الرفيع ؛ لمعالجة الحالة
الحاضرة ، وليكون تلقينا مستمر المدى أيضا ؛ والآيات ٣٢ - ٣٣ التي نقلناها قبل قليل
والتي تأمر بتزويج الأياى والصالحين من الأحرار والعبيد رجالا ونساء ، وتحث على العفة -
قد تكون قرينة قوية للمناسبة التي ذكرناها لنزول الآيات .

(٢) وجاء في السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ

يَنْلُغُوا الْحِلْمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُونَ عَلَيْكُمْ بِمَعْصُكُمُ عَلَىٰ بَعْضِ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحِلْمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ^(١) ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مِّفَاحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ...»

٥٨ - ٦١

والآيات كسابقاتها بسبيل التعليم والتأديب ، كما تناولت أمورا أخرى ؛ وقد تلهم أن النساء اللاتي لا يرجون نكاحا قد اشتكين من التشديد في التخمير الذي أوصت به الآيات السابقة ، وأن بعض المسلمين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم بمناسبتها عما هو جار من دخول الخدم المالك والأطفال على مخادع الزوج والزوجة في كل وقت دون استئذان وإذن ، أو تمنوا أن ينزل الله تعليما بذلك ، وأن بعضهم تخرج من الاجتماع على الطعام مع العبي والمرج والمرضى ، أو بصورة مختلطة ، أو تمنى كذلك أن ينزل الله تعليما بالأمر ،

(١) بمعنى يخلعن ثيابهن أي يتخففن ولا يتشددن بالتخمير .

كما أن المقصد التأديبي والتنظيمي في الآيات كما في تلك ، يلهم أن الأمر لم يكن جاريا على ما احتوته ، وأن حكمة التنزيل اقتضت تحقيق هذا المقصد ، فنزلت الآيات تنمة لما نزل سابقا وبعده بمدة ما .

وفي هذا تنطوي صورة لسير التشريع القرآني كما هو واضح .

(٣) وجاء في سورة الأحزاب الآية التالية ؛

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ... »

٥٩

وقد ذكر المفسرون والرواة أن النساء الحرائر والإماء كن يتزين بزى واحد ، فيتعرض الحرائر لأذى الفساق كالإماء ، فنزلت الآية بجمل زى خاص للمسلات الحرائر حتى يميز الناس بينهن وبين الإماء وينجون من الأذى . وعلى كل حال ففي الآية حل لتفادي تعرض نساء المسلمين للأذى ، مما فيه صورة لما كان يحدث في العهد المدني اتخذت وسيلة لمعالجة الحالة الحاضرة ، وليكون تشريعا وتلقينا مستمرى المدى في الوقت نفسه أيضا .

فهرس

الجزء الثاني

صفحة	
٣	عهد السيرة النبوية المدني
٤	١ — تمهيد
١٢	٢ — فصل في أدوار وسير انتشار الدعوة ، وفيه مباحث :
١٣	المبحث الأول : سير انتشار الدعوة في منطقة مكة وما وراءها
١٧	المبحث الثاني : انتشار الدعوة في منطقة المدينة
٢٥	المبحث الثالث : مدى انتشار الدعوة الإسلامية في المناطق الأخرى
٣٠	صور متنوعة للمسلمين في العهد المدني
٧٣	٣ — فصل في المنافقين في العهد المدني ، وفيه مباحث
٨٣	المبحث الأول : ما جاء في صفاتهم وأحوالهم
٩٥	المبحث الثاني : في مواقفهم السكيدية والساخرة والتآمرية
١٠٩	المبحث الثالث : مواقفهم من الجهاد ووقائعه
١٢١	٤ — فصل في اليهود في العهد المدني ، وفيه مباحث
١٣٠	المبحث الأول : مواقف اليهود لزاء الدعوة
١٣٨	المبحث الثاني : مواقف اليهود الحجاجية
١٦٦	المبحث الثالث : دسائسهم بين المسلمين وتآمرهم مع المنافقين والمشركين
١٨٧	المبحث الرابع : وقائع التنكيل بهم وبواعثها ونتائجها
٢٠٧	المبحث الخامس : الاستثناءات القرآنية بشأن المؤمنين المعتدلين منهم
٢١٢	٥ — فصل في النصارى في العهد المدني ، وفيه مباحث
٢١٥	المبحث الأول : مدى ماورد في القرآن عن حالتهم والتنديد بهم
٢٢٣	المبحث الثاني : مواقفهم من الدعوة النبوية
٢٣٦	المبحث الثالث : مواقفهم الحجاجية
٢٥٣	المبحث الرابع : الصدام بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين
٢٦٩	٦ — فصل في الجهاد ووقائعه ، وفيه مباحث
٢٨١	المبحث الأول : الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس ومواقف المسلمين منها
٣١٨	المبحث الثاني : في الوقائع الجهادية وسيرها ونتائجها
٣٧٣	٧ — فصل في التشريع القرآني وصلته بالسيرة النبوية ، وفيه مباحث
٣٧٧	المبحث الأول : التشريع التعدي
٣٩٣	المبحث الثاني : التشريع السياسي
٤١٥	المبحث الثالث : التشريع الاجتماعي
٤٣٢	المبحث الرابع : التشريع الاقتصادي
٤٤٥	المبحث الخامس : التشريع العائلي والآداب البيتية